علي يحيى معمر

الإباضية في موكب التاريخ

الحلقة الثالثة

الإباضية في تونس

دار الثقافة
بيروت - لبنان

الاباضية

في موكب التاريخ

الأباضية في موكب التاريخ

الأباضية في تونس

الطبعة الأولى

جمادى الاولى - ١٣٨٥ سبتمبر ١٩٦٦

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عندما وضعت تخطيطا لاصدار كتاب (الاباضية فى موكب التاريخ) لم اقدر لانجاز عملى زمنا محددا وانما كنت اجمع المادة التاريخية من مصادرها التى تتيسر لى سواء كانت فى الكتب او عند الرجال او على الاثار . وكنت وضعت فى تخطيطى الا اجهز اية حلقة من حلقاته للنشر الا بعد زيارة للموطن الذى اتحدث عنه . ولقد يسر الله لى العمل فاصدرت الحلقة الاولى على الصورة التى رآها القراء الكرام وهى اقل مما قدرته فى نفسى ودون ما يتطلبه الموضوع منى وخير مما زعمه ناس فى ليبيا حسبوا ان تأليف الكتب لا يقدم عليه شخص الابعد ان يأذنوا له ، لان الانتاج مقصور على اقلامهم السيالة . ثم اصدرت فى نفس الوقت قسمين من الحلقة الثانية وقد جرى الحديث فيهما عن الاباضية فى ليبيا التى اتيح لى الاطلاع على كثير من البلاد فيها والاتصال بكثير من الشخصيات ودراسة عدد غير قليل من الكتب لا سيما كتب النوازل كاللقط والمعلقات وغيرها ، وقد اضطر الى اعادة قراءة بعض هذه الكتب عدة مرات لاستخلاص حادث

تاريخى . وقد يسر الله لى العمل فاخرجته على ما رآه القارىء الكريم ، وانا اليوم اتمنى لو يتاح لى من الوقت ما استطيع فيه اعادة هذه الحلقات من جديد لان ملاحظات كثيرة بدت لى من بعد وأود لو تناولتها مرة اخرى على ان هذه الامنية هى امنيةكل مؤلف فيما احسب لطبيعة النقص البشرى ، وقد بقى القسم الثالث من هذه الحلقة وهو يتناول الحديث عن الاباضيـــة فى العهديـــن العثمانى والايطالى جمعت له ما تيسر لدى من مادة تاريخية ولا زلت اجمع وعندما تتم لى الصورة التى ارتضيها سوف يخرج هذا القسم ان شاء الله .

اما هذه الحلقة التى اقدمها اليك اليوم (الاباضية فى تونس) فقد جمعت ما تيسر لى من مادة تاريخية عنها ولكنى كنت عزمت ان لا اتقدم لطبعها الا بعد ان ازور الجمهورية التونسية واشاهد بصفةخاصة الوسط والجنوب وجربة بالذات لاتحقق من كثير من المشاهد والوقائع التى كنت اتصورها على صورة ما .

وقمت فعلا بهذه الزيارة مع بعض الاصدقاء فىالصيف الماضى ١٩٦٥ فسافرنا الى تونس العاصمة واقتضتنا ظروف خاصة ان نزور الجزائر فسافرنا اليها ورجعنا الى تونس عن طريق «تقرت» ومررنا بوادى سوف ثم ببلاد الجريد الى قابس ومنها الى جزيرة جربة ولكن هذه الرحلة قد استغرقت مدة الاجازة وكنت مضطرا الى العودة .

بقيت فى جربة يومين فقط فكانت زيارتى لها زيارة خاطفة لم اتمكن من تحقيق اهدافى من هذه الزيارة ولكننى فى نفس الوقت حاولتان استفيد منها اكثر ما يمكن ، فقمت بجولةسريعة خاطفة ، فى الجزيرة لاشاهد احياءها وحاراتها وبعض مساجدها

وبعض ما بها من الاثار وتمكنت من الاطلاع على فهرس المكتبة البارونية القيمة وزرت العلامة الشيخ سالم بن يعقوب وفتح لى مكتبته القيمة التى تحتوى على مجموعة ثمينة من المخطوطات نقل اكثرها بخطه حينما كان بمصر ، وقد نقلت منها على استعجال اشياء كثيرة واستفدت من الشيخ فوائد جمة ، كما اننى اجتمعت بعدد غير قليل من اهل الجزيرة الكرام وبالطبقة المثقفة منهم على الاخص علماء ومدرسين وطلابا وتحدثوا الى طويلا ، واستفدت منهم فى جميع ميادين المعرفة فوائد قيمة كان لها اثر كبير فى نفسى . وسافرت من الجزيرة وانا اشد رغبة وشوقا الى البقاء فيهـا ، وكنت امنى النفس بالرجوع اليهـا فى فرصة قريبة ، ولكن ذلك لم يتحقق لى .

ورأيت ان انجز عملى واخرج الكتاب على ما هو عليه ، وانا على يقين ان صورا قيمة كثيرة تنقصه ، ولكننى مضطر الى اصداره على هذا الوضع لان مسودات كتاب الاباضية فى الجزائر هـى الاخرى تتنزى فى الادراج تريد الخروج ، واذ يسر الله لى العمل ايها القارىء الكريم فاخرجت لك هذه الحلقة فانا اقول لـك بصراحة الاخ الى اخيه الذى لا يتكلف معه الحديث ولا يستر عنه مواطن الضعف فيه ، ان هذا الكتاب لا يعطيك الدراسة التاريخية الكاملة للمذهب الاباضى فى تونس ، ولا يضع بين يديك كـل المعلومات التى تحتاجها عن هذه الفرقة من فرق الامة الاسلامية الكبرى ولا يعرض عليك جميع الصور التى يحيط بها اطار واحد عن الاباضية فى الجمهورية التونسية ولكنه ولا شك يضع بـين يديك صورا من حياة مجتمع مسلم عاش على هذا الوطن الكريم ولا يزال ابناؤه يعيشون محافظين على كثير من اخلاقه ومثله .

وسوف تلحظ ايها القارىء الكريم وانت تتنقل بـين فصول

الكتاب بعض الاعادة والتكرار وقد يكون ذلك مما يثقل على القارىء المستعجل والباحث المتقصى الذى تهمه الاحداث المجردة وانا اعتذر الى هؤلاء القراء الكرام ولكننى مصمم على طريقتى فى العرض ، ذلك اننى حين فكرت فى اصدار هذا الكتاب وبدأت العمل فيه ، لم اتناوله بقلم المؤرخ الذى يهتم بالاحداث البارزة وتسجيلها على المنهاج العلمى لكتابة التاريخ ، ولكننى تناولته بقلم من يريد ان يعرض صورة من حياة مجتمع عاش طيلة قرون يرسمه من عدة زوايا لتكتمل الصورة العامة لذلك المجتمع بجميع مناظرها . وهى طريقة لا شك لها عيوبها ، ولكننى مع ذلك افضلها فى عملى هذا على السرد التاريخى الزمنى المجرد الذى يعنى بالاسماء والارقام ، اكثر مما يعنى بالمعانى الاجتماعية للتاريخ . فاذا سئمت ايها القارىء الكريم من ذلك فما عليك الا ان تضع الكتاب على الرف وامرك لله فيما ضاع لك من وقت ومال.

ان الكتاب لم يؤلف ليكون مرجعا يعتمد عليه الباحثون فى التاريخ ، ولكنه صورة لحياة جانب من الامة المسلمة بما فيها من الوان اضعها بين ايدى ابنائها البررة حتى يتعرفوا على الاسباب الحقيقية التى انحدرت بالامة الاسلامية الى ما تعانيه اليوم .

وأنا عندما اقدم هذه الصورة عن الاباضية فى تونس لا أشك انها صورة تنطبق على جميع طوائف الامة الاسلامية فى مختلف البلاد . ولذلك فمما يهمنى ان يعرف الاخوة اننى عندما اكتب عن طائفة معينة او بلد معين فليس الغرض من ذلك اننى اعتبر ان تلك الطائفة او ذلك البلد هو ارفع من غيره واكرم وانما الغرض ان يعرف ابناء الامة المسلمة بجميع طوائفها وفى جميع اماكنها انهم امة واحدة ، لم تنفك عن الكفاح فى سبيل الله منذ اشرقت قلوبها بنور الله وانها لم تتوقف يوما عن الجهاد رغم

ما بذرته السياسة الماكرة والشهوة الغالبة من عراقيل فى طريقها.

والكاتب المسلم حين يكتب عن طائفة او عن بلد يجب ان يحرص على الرباط المتين الذى يربط بين الامة الاسلامية بمختلف مذاهبها وديارها ، وأن يبعد عن قلبه وعن احساسه وعن شعوره معانى التفرقة والعنصرية والعصبية تلك المعانى المنتنة التى استغلتها المصلحة الخاصة غير المؤمنة ، وقامت بها فى احداث الزمن ، مطامع فردية ، وسجلتها فى التاريخ اقلام مأجورة او مغرورة او مخدوعة ، على حساب العناصر او الاجناس او المذاهب،

واننى وانا اقدم للقارىء الكريم هذاالكتاب عن فرقة من فرق الاسلام فى جزء من وطن الامة المسلمة الكبير يسرنى جدا ان اعلن هنا كما اعلنت من قبل اننى لا اعتزالا بالامة المسلمة امة واحدة، ولا اعتزالا بالوطن المسلم وطنا واحدا وان ما قدمته واقدمه من ابحاث عن طوائف صغيرة او بلدان ضيقة فانما اكشف عن صورة من حياة هذه الامة العظيمة فى جانب من جوانبها او قسم من اقسامها فاذا بدا للقارىء الكريم فى اثناء قراءته مايشعر بغير هذه الحقيقة الثابتة او احس أن عبارة من العبارات تشعر بغير هذا المعنى أو تدعو الى عنصرية او تفرقة فليضرب بذلك عرض الحائط فان كيان الامة المسلمة والوطن المسلم اكرم على الله وعلى الملائكة وعلى المؤمنين واعز من جميع الكتاب والدعاة واننى احسب ان ايمانى بهذه الحقيقة من وحدة الامة فى مذاهبها واجناسها واوطانها قربة اتوسل بها الى الله تعالى .

عصمنا الله من الزيغ والزلل ووفقنا الى خير العمل انه نعم المولى ونعم النصير .

تونس

كلمة تونس فعل مضارع مشتق من الايناس، وهو من الانسان، المؤالفة والملاطفة ، ومن الامكنة سكون القلب بها وارتياح النفس اليها. وقد اطلق المسلمون هذه الكلمة على المدينة الصغيرة الجميلة التى تقع جنوب قرطاجنة ، على ربوة يحيط بها خندق طبيعى هو كالحصن لها (١) أما قبل الفتح الاسلامى ، فقد كانت هذه المدينة تسمى (ترشيش) على ما يقوله المؤرخون .

وأنا فى هذا الفصل لا أريد ان اتحدث عن مدينة (ترشيش) الصغيرة التى سماها المسلمون الفاتحون (تونس) . ولا على هذه المدينة العظيمة التى اصبحت اليوم ، من اعظم المدن فى المغرب الاسلامى ، واصبحت عاصمة يطلق اسمها على جمهورية مزدهرة تكون جزءا هاما من المغرب الاسلامى ، وعضوا حيا من جسم الوطن الاسلامى الفسيح الارجاء. فان تونس هذه المدينة العظيمة الجميلة هى احدى العواصم الاسلامية التى حملت أمانة العلم وكانت مثابة لابناء المسلمين فى مختلف الاقطار والتى شادت معهد الزيتونه العامر وحافظت على الثقافة الاسلامية قرونا طويلة — هذه المدينة لا يفى بحقها فصل فى كتاب . ولا يكفى للحديث عنها

١ — راجع تاريخ المغرب الكبير — ص ١١٥ الجزء الثانى تاليف الاستاذ محمد على دبوز .

استطراد فى مقال . على ان الحديث عن هذه المدينة ليس من غرض هذا الكتاب ، وانما اريد ان يعرف القارىء الكريم اننى قد استعمل كلمة تونس وانا اقصد به هذا القطر المسلم الذى يقع بين ليبيا والجزائر والبحر ، ويكون حلقة من الحلقات المترابطة ، للوطن الاسلامى الشاسع، ويسكنه قسم من الامة المسلمة كافحت كثيرا لحفظ المجد الاسلامى ، منذ بدأ الانسان ينحرف عن دين الله الى اليوم . ولا تزال فيها بقية من عزيمة للكفاح عن دين الله وفى سبيل الله . وهذه الامة فى أدوار التاريخ الاسلامى وان تفرقت بها المنازع السياسية والمذاهب الدينية والزعامات الفردية والقبلية فى كثير من الاحيان الا انها حافظت فى مجموعها على الاصالة الاسلامية واستمسكت بعرى الدين الحنيف وسارت على هديه ولا تزال فيها بقية تسير على ذلك الهدى . الى ان يأذن الله بعودة الامة المسلمة الى ما كانت عليه فى الصدر الاول من قيادة البشرية الحائرة وتوجيهها الى سبيل الخلاص ، خلاص الانسانية من اسباب الضلال .

والحقيقة ان اطلاق كلمة تونس على هذا القطر ، أو هذه الجمهورية، بهذا الوضع الجغرافى هى تسمية متأخرة جدا. فعندما كانت الجيوش الاسلامية تجوب هذه البلاد فاتحة وكانت الدول الاسلامية تتركز هنا أو هناك من بلاد المغرب . وكانت المعارك الطاحنة تدور بين الجيوش المتقاتلة فى كثير من الانحاء ، لم يكن يرد اسم تونس الا كما يرد اسم اى مدينة يقع فيها حدث من الاحداث التاريخية ، التى يتناقل الناس اخبارها .

ولعل الاحداث التى وقعت فى تونس أو فى (ترشيش) نفسها ابان الفتح ، لم تكن أكثر من الاحداث التى وقعت فى غيرها من المدن والقرى فى هذا القطر الكريم ، فى ذلك الحين .

ومهما كان الامر ،فقد اصبحت كلمة تونس تدل ـ فوق دلالتها على هذه المدينة الكبيرة التى اصبحت اليوم احدى العواصم الكبرى ـ على حقيقة جغرافية تعنى هذه الجمهورية أو هذا القطر الاسلامى المجيد بحدوده التى ذكرناها سابقا .

ويعنينى فى هذا الفصل ان أبين للقارىء الكريم ، اننى اريد ان اكشف عن صور مجيدة . لحياة امة مسلمة ، عاشتها طائفة منها فى هذا القطر الكريم . ولا تزال تعيش .

اننى اريد ان أضع بين يدى القارىء الكريم ، صورا عن حياة الاباضية ، منذ الفتح الاسلامى الى الاحتلال الفرنسى للقطر التونسى العزيز. وانا عندما اتحدث عن هذه الطائفة من المسلمين فى هذا القطر من بلد الاسلام . لا أدعى أبدا ان هذه الطائفة قدمت فى خدمة دين الله ما لم تقدمه غيرها من الطوائف ، ولا ازعم أبدا ان هذا القطر قد اختص بامجاد اسلامية ليس لها مثيل أو شبيه فى غيره من البلاد .

ذلك اننى احسب ان الامة الاسلامية امة واحدة بجميع طوائفها وان الوطن الاسلامى وطن واحد بجميع أجزائه. وان ما يقوم به الفرد أو الفرقة من المسلمين فانما هو راجع الى مجد الامة الكبرى وان ما يحدث فى بلد من بلاد الاسلام ـ رغم انقساماته السياسية ـ فانما هو حدث فى الوطن الاسلامى الكبير . وان فى المسلمين بجميع فرقهم وطوائفهم وأوطانهم ـ من يجعل نصب عينه الدعوة الى سبيل الله والمحافظة على دين الله والكفاح لاقامة شريعة الله كما اراد الله .

القيروان (١)

القيروان مدينة اسلامية انشأها عقبة بن نافع وهو يفتتح المغرب الكبير ، وصاحب فكرة انشاء هذه المدينة، فىقلبالجمهورية التونسية ، لتكون مركزا للجيوش الاسلامية الفاتحة ، انما هو معاوية بن خديج . ولكنه اختطها فى موضع يسمى القرن فلما ولى بعده عقبهلم يعجبه الموضع، فنقلها الى موضعها الذى انشئت فيه .

وقواد الجيوش الاسلامية الفاتحة ، ارادوا ان يجعلوا من المملكة التونسية نقطة تجمع وانطلاق لها وهى تحمل الرسالة الكبرى رسالة الاسلام الى هذه البلاد الفسيحة الارجاء التى تتصل بتونس من الغرب والشرق والجنوب بل والشمال بعد اجتياز البحر. ومنذ انشأ عقبة بن نافع مدينة القيروان فى قلب المملكة التونسية اصبحت مطمع انظار المتحاربين ، ولقد استطاع الاسلام ان

---

١ ـ يعتقد الناس ان عقبة صحابى وليسكذلك ، قال ابن الاثير في كتابه القيم اسد الغابة : « ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا تصح له صحبة ، وكان ابن خاله عمرو بن العاص ولاه عمرو بن العاص افريقية لما كان على مصر . فانتهى الى لوائه ومزاته وبعد كلام قال: « وهو الذى بنى القيروان وذلك فى زمان معاوية وكانت هى اصل بلاد افريقية . ومسكن الامراء ، ثمانتقلوا عنها » . انتهى.

يطهر الاراضى التونسية من ادران الشرك والوثنية فى مدة قصيرة، غير ان سيطرة الاسلام على البلاد وتولى المسلمين لقضايا الحكم وتركز الدولـــة فى القـيروان . لـم ييسر نشر السلام والامن والطمأنينة بين الناس ، وذلك لعدم محافظة كثير من الحكام على تطبيق احكـام الاسلام فى الدماء والاموال ومرافق الحيـــاة ، وحرص بعضهم على الوصول الى الحكم والاستقرار فيه بمختلف الوسائل والسبل . وقد تعاقبت الاحداث على القيروان بسرعـة وبشدة وكانت لا تستقر تحت حكم معين . فما تتولى فيها اسرة الحكم حتى تقبل عليها حملة اخرى من اسرة ثانية فتخرجها من حكم السابقين . فكانت تتعاقب عليهم الجيوش والدول والامارات، جيش بعد جيش ، ودولة بعد دولة ، وامارة بعد امارة . وما يقع ذلك الا بعد نكبات ، وحتى عندما يطول عليهم حكم اسرة أو دولة، فان الامن لا يستقر، والسلام لا يطول ، لان الثورات لا تتوقف والحروب لا تنفك تتجدد اما من مناهضى الاسرة الحاكمة ، أو الدولة القائمة ، أو حتى من العناصر المتنازعة على الحكم من نفس الدولة ومـــن نفس الاسرة ، فيذهب نتيجة لذلك ، كثـير من الارواح ، وكثير من الخيرات التى تنتجها تلك الارض الطيبة . فكان سكان القيروان المدنيون يعانون من ذلك ، اشد الويلات والمصائب ، حتى اصبحوا تحت ازمة نفسية مؤلمـة . من ذلك الوضع المتقلب الذى لا يستقر ، واصبحوا لا يهتمون للداخلين أو الخارجين . ولا للمنهزمين أو المنتصرين ، وبسبب الآثار المختلفة، من نتائج الحروب المؤلمة ، والالوان المتعددة للحكومات المتعاقبة ، كان سكان القيروان ، يتوقون الى سنوات من الاستقرار والسلام، ولو فى ظل حكم ظالم، ولكنهم لم يظفروا بهذه الامنية ، لازمنـة طويلة .

والذى نريد ان نتحدث عنه فى هذا الكتاب من تاريخ القيروان الطويل الحافل المجيد ، انما هو فترة قصيرة بمقدار ما كان لها من دخل فى حياة المذهب الاباضى الذى نكتبعنه فى هذه المحاولة التاريخية القصيرة . فلقد كانت القيروان من المدن التى استقر فيها الحكم للاباضية فى فترتين تاريخيتين كما ان هذه المدينة العظيمة بضواحيها كانت مقرا لكثير من علماء الاباضية وانجبت كثيرا من الفحول وتولى فيها التدريسوالفتوى اعلام منهم، وسوف يرد ذكرها وذكر ضواحيها لا سيما الجبال المشرفة عليها فى كثير من فصول هذا الكتاب .

دخول المذهب الاباضى الى تونس

فى مطلع القرن الثانى الهجرى . بدأ المذهب الاباضى ينتشر بسرعة فى تونس ، كما انتشر فى مصر وليبيا وبقية المغرب ، واهم سبب لانتشاره بسرعة ، ان اتباعه والدعاة اليه ، حافظوا على صفاء الرسالة الاسلامية ، فلم ينحرف عن النهج القويم الذى عرفه الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولخلفائه الراشدين . لم تلتصق به البدع الدخيلة ، ولم يشنه ظلم الطغاة من الولاة ، فكانت المبادىء التى يدعو اليها هى المبادىء السمحة الكريمة الصافية التى يدعو اليها الاسلام منذ كان محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت السيرة التى يسير عليها ولاته هى السيرة التى حافظ عليها المهتدون من خلفائه عليه السلام .

ولقد كان للداعية المسلم الكبير ـ سلمة بن سعد ـ اثر كبير فى نشر هذه الدعوة . ويظهر ان الداعية العظيم اختار لمسيره ـ فى نشر الدعوة ـ طريقا وسطا فى بلدان المغرب الشاسعة ، فلم يكن طريقه فى الصحراء ، كما لم يكن فى الشريط الساحلى . واعتقد انه تجنب الطريق الساحلية ، فى رحلته الطويلة ، لنشر دعوته القويمة ، حتى لا يصطدم باعوان الدول الظالمة التى كانت تسيطر على تلك الجهات . فيتعرض لمصاعب قد تعوقه عن القيام بمهمته ،

كما انه تجنب الطريق الصحراوية ، لما يتعرض له من مشاق قطع الصحارى الواسعة واجتياز اخطارها، دون ان يكون له ما يساعده على ذلك من رفقة . ثم ان معظم السكان كانوا على المناطق الجبلية التى تخترق كلا من ليبيا وتونس والجزائر. ومروره بهذه المنطقة المتوسطة الآهلة بالسكان ، ييسر له الاتصال بالناس ــ ويساعده على ايضاح الرسالة الاسلامية لهم ، وتنظيمها لحياتهم ــ اكثر من اية جهة اخرى .

ولقد كانت المهمة الاولى التى يريد ان يعطيها للناس ، هى ان يقرر فى اذهانهم ، الصورة الصحيحة للاسلام ، الصورة الصحيحة فى الايمان والعبادة والمعاملة . ذلك ان الناس ، تلقوا الرسالة الاسلامية من كتاب الله وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى سيرة اصحابه رضوان الله عليهم فآمنوا بها واطمأنوا اليها ووثقوا بها ، فلما رأى الناس الصورة العملية، عند كثير ممن يحكم باسم الاسلام ، بعيدة عما عرفوا من الاسلام كون ذلك عند بعضهم رد فعل جعلهم ينحرفون او لا يبالون . وقد استطاع سعد بن سلمة ان يقنع الناس ان نظام الاسلام ، ليس هو هذا النظام الذى يقوم عليه الولاة الظالمون ومن يسير فى ركابهم من قادة وجنود وأتباع، وليس هو هذا التنطع الذى يدعو اليه المبتدعة ممن يفرق كلمة المسلمين ويبث الشقاق بينهم ويحكم على مخالفيهم باحكام المشركين ، فيستبيح منهم ما يستباح من اعداء الله . ولا هو فى التبجح والدعوى وكثرة الجدل ومحبة الظهور . وانما هو فى الايمان الذى يمتلىء به قلب المؤمن ، فتستجيب له جوارحه ، فيكون عبدا لله ، لا يغره مظهر ، ولا يخدعه منصب ، ولا تغلبه نفس امارة بالسوء ، ولا يخضع لشهوة غالبة ، مهما كان الدافع اليها .

واستجاب الناس لهذه الدعوة الصافية الخالصة ، وكان سلمة ينتقل بين المدن والقرى يوضح للناس تشريع الاسلام فى اعداد فرص الحياة ، ونظامه فى الحكم ، ومساواته بين الناس من جميع الاجناس .

ولعل السكان فى القطر التونسى كانوا اكثر فهما لهذه الدعوة، وتعلقا بها ، واستجابة لها فى ذلك الحين ، ولذلك فقد كونوا البعثة العلمية الى البصرة ، لتتم دراستها فى ذلك المركز من مراكز الاشعاع الاسلامى ، وسافر الطالبان النجيبان عبدالرحمن بن رستم من القيروان وابو داود من قبلى ، ليغترفا العلم من شيخ الاباضية فى العراق ابى عبيدة مسلم بن ابى كريمة. ولقد درس الطالبان على الامام الكبير خمس سنوات كاملة ثم رجعا مع زملاء لهم . فقام عبد الرحمن بكفاح سياسى بدأه فى ليبيا ثم انتقل به الى تونس ثم انتقل به الى الجزائر . حيث أسس الدولة الرستمية الشهيرة ، اما ابو داود فقد انقطع عن الكفاح السياسى والعسكرى الى الكفاح العلمى والاصلاح الدينى ، وكان لكفاحه هذا أكبر الاثر فى تكوين جيل مثقف ثقافة اسلامية صحيحة ، حريص على المحافظة على دين الله كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اسباب الثورات

حمل الفاتحون الاول رسالة الاسلام الى تونس ، كما حملوها الى بقية البلاد ، نقية صافية ، كما جاءت فى كتاب الله ،فاقبل الناس عليها ، يعتنقونها ، ويتمسكون بها فى حرص واعتزاز . ولكن لم يمض وقت طويل على انتشار الاسلام ، فى المملكة التونسية حتى تغيرت انظمة الحكم عن زمن الفتح ، وانحرف الولاة الظالمون ، فشوهوا الصورة الجميلة لعدالة الاسلام ونزاهته، ومساواته ـ بين الناس فى جميع وسائل الحياة ـ المساواة المطلقة ، التى تجمع بين الامير والفقير ، فىكل الحقوقوالواجبات، كما تجمع بينهما فى المسجد لاداءالصلاة . لا يطمع قوى فىشىء الا ان يكون حقا له ، ولا يخشى ضعيف ان يسلب شيئا الا ان يكون ليسمن حقه ، اما الكرامة والعزة والعظمة ، فتلك حقوق طبيعية يتساوى فيها جميع المؤمنين تحت العبودية لله ، فما يصح ان يقال فلان اعظم من فلان او اعز منه ، الاان يقال اخشى لله واتقى ، او اشد اتباعا لاحكام الله واستمساكا بدينه ، فيكون اكرم على الله واحق برضاه عنه .وكرامة المؤمن عند الله ورضاه عنه هى غاية العز والعظمة .

والافراد فى الامة الاسلامية ، كما يتساوون فى المسجد وفى الطواف ، وفى عرفة وفى المشعر الحرام وفى كثير من مظاهر

العبادات كذلك يتساوون فى المجتمع ، فهم كاسنان المشط ، تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم. اما المظاهر التى ينخدع بها الناس ، كالمال والقوة والسلطة ، فلا قيمة لها فى نظر المؤمن الا بمقدار ما يعود منها على الامة ـ مجتمعا وافرادا ـ من فوائد . ان الاموال ، لا قيمة لها الا بالمقدار الضرورى للحياة . او بما ينفق منها فى سبيل الله ، وان القوة لا قيمة لها الابمقدار ما يستطيع به الانسان الحياة ، او بمقدار ما يصرف منها فى الصالح العام . اما السلطة ، فلا تخلو اما ان تكون داخلة فى التشريع الالهى دون طغيان ، فهى صيانة لحقوق الامة ، وحفظ توازن بين القوى والضعيف ، وتوزيع عادل لفرض الحياة بين الناس ، واتاحة الحياة الكريمة لكل فرد ، وتنظيم للمحافظة على الامن والسلام ، ورعاية لحدوده ، وتطبيق لاحكامه ، واستمرار فى الدعوة اليه بالوسائل التى شرعها . وما الى ذلك ، فهذه هى السيرة التى وضعها الاسلام لسير الحكام . واما ان تكون تعديا لحدود الله ، وحكما بغير ما انزل الله ، فهى ظلم وجبروت ، يجب ان يوقفها المؤمنون ، وان يضربوا على يد صاحبها ، وان يطالبوه بالتزام حدود الله .

تلك هى الصور التى عرفها الناس ، لنظام الحياة تحت حكم الاسلام ، فلما انحرف الامراء والولاة ، بالحكم عن طريقه البين الواضح ، وانحرف المفكرون ، بالعلم عن مجرى السنة الى البدعة ، وعن نصاعة الحق الى ظلمة الشبهة ـ ثار الناس .

ثاروا على الانحراف بانظمة الحكم ، وثاروا على الانحراف بحقائق العلم ، فحاربوا الظلم بالسيف والقوة ، وحاربوا البدعة بالبرهان والحجة ، واثبتوا صلاحية الاسلام لتنظيم الحياة ، بصدق الدعوة ، وعدالة السيرة .

وليست هذه الحركة الثورية ضد الانحراف فى الحكم او فى العلم ، قاصرة على ليبيا او تونس او الجزائر ولا على الاباضية. ولكنها كانت قائمة فى جميع البلاد التى دخلها الاسلام ثم انحرف الناس عن هديه ، وحادوا عن سبيله ولقد تختلف بعض الثورات عن بعض فى القوة والاتجاه والغرض . ولكن الباعث على اهم الحركات الثورية فى الاسلام لا يبعد ان يكون سببه انحرافا فى تطبيق الحكم ، وانا حين اقول هذا لا أنفى انه قامت ثورات لم يدع اليها الاخلاص للدين والمحافظة عليه وانما كان سببها حب السيطرة والوصول الى الحكم. ولا سيما فى العصور المتأخرة عندما كان يتوق الى الحكم ناس لم يتثقفوا الثقافة الاسلامية ، بل لم يكن لهم فى المجال العلمى نصيب .

على ان هناك ظاهرة يجب ان نشير اليها ونحن نتكلم عن نظام الحكم فى الاسلام ، وعن اسباب الثورات الكثيرة التى قامت فى البلاد الاسلامية سيما بعد تمام دولة الخلفاء الراشدين .

ان نظام الحكم الاسلامى هو النظام الذى جاءت قواعده الاساسية فى كتاب الله ثم طبقه رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريقة عملية وسار به خلفاؤه الراشدون . ثم قامت بعد ذلك دول اسلامية كثيرة ، استطاع بعضها ان يسيطر على جميع الوطن الاسلامى ، وانقسم الوطن الاسلامى فى بعض الاحايين الى دول متعددة تحكم كل دولة منها قسما من هذا الوطن الكبير ، ومن تلك الدول من حاول ان يسير بالنظام الاسلامى فى الحكم حتى كاد ان يكون امتدادا للخلافة الرشيدة. ومنها من بعد عن انظمة الحكم الاسلامى حتى كاد يخرج بها عن دائرة الاسلام . وانما كان هم القائمين بالحكم ان يصلوا او يوصلوا الى غايات معينة دون مراعاة للقواعد التى جعلها الاسلام اسسا لبناء الحكم ، كما انهم

لم يراعوا احكام الله فى الدماء والاموال والاعراض . ولكن اولئك الحكام ، مع ذلك البعد عن دين الله ، استطاعوا بوسائل كثيرة، ان يضفوا على دولهم وحكوماتهم صيغة شرعية ، وان يجعلوها معتبرة من الدول التى تقوم بأمر الله ، وقد توصلوا الى اضفاء هذه الشرعية على دولهم بطرق مختلفة فمنهم من حصل عليها بالقوة والعنف ، ومنهم من حصل عليها بالدهاء والحيلة ،ومنهم من حصل عليها بالوعود والرشوة ، وأنا حين استعمل كلمة الرشوة فى هذا المقام ، فانما اقصد بها ما يغدقه الحكام على رؤساء الطوائف والقبائل لينضموا الى صفوفهم ، وما يجازون به الشعراء والكتاب لينشروا لهم الدعاية ، ويحملوا الناس على الالتفاف حولهم ، والسير في ركابهم . وما يمنحونه لضعاف العلماء ، ليعترفوا لهم بالامارة ، ويستخلصون منهم فتاوى توجب على المسلمين طاعتهم ، وتحرم عليهم نقدهم ومطالبتهم بالعدل ، وتجعل الخروج عليهم باطلا تحل به الدماء والاموال ، وما الى ذلك من الوان العقاب . ثم ما يقطعونه لاصحاب المطامع من القواد والاجناد ليكونوا آلة بايديهم يضربون بها من يطالبهم بالحق او يحاسبهم على العدل .

وقد نتج عن ذلك مباحث قيمة بين علماء الشريعة فى جواز الثورة على الدولة الظالمة وعدم جوازها . ومع ان الاسلام يحرم الظلم ويحاربه فى جميع اشكاله والوانه فان كثيرا من علماء الاسلام دعوا الى الرضا بالحكم القائم اتقاء للفتنة ، وخوفا من ان تؤدى الثورة على الظالمين الى اراقة دماء ، والحاق مضار بالامة، قد تكون اعظم مما يرتكبه الظالمون فى احكامهم . واذا كان هذا الفريق من علماء الشريعة يرى هذا الرأى ، ويذهب هذا المذهب، خوفا على الامة ، واشفاقا عليها ، فان غيرهم من العلماء يرى ان

ايقاف الظلم ، وتغيير الحكم الجائر ، من أول ما يجب على الامة مهما كانت النتائج ، لان الاستسلام للظلم لا يولد العدل ، ثم ان استمرار تحمل الضيم ، أو قبول الجور ، يورث الذلة ، ويربى النفوس على الخنوع ، ويجرىء الظالمين على الاسترسال فى طغيانهم ، ويجعل من البشر آلهة يحكمون كما يريدون ، فتطول عهود الحكم الظالم وتنشأ على ذلك اجيال فتتعوده وتعتقد ان ذلك هو الحق . لا سيما وان الحكام الظالمين اعرف الناس واقدرهم على تثبيت اقدامهم فى الحكم ، وتوجيهه لمن يريدون ، وذلك بما يصطنعونه من الحواشى والاتباع ، ويشترونه من الذمم والضمائر ، وينزلونه من الوان العقوبة على من يقاوم ظلمهم . ويطالبهم باتباع الحق والعدل . ولذلك فان هذا الفريق من العلماء يرى ان ثورة الامة على انحراف الدولة مهما كانت النتائج اهون من الرضا بالحكم الجائر المسترسل الطويل .

ولو اردنا ان نعتبر كل واحد من هذين الاتجاهين ، مبدألحزب، وبحثنا عن احد كبار التابعين لنجعله على رأس هذا الحزب لاستطعنا ان نجعل على رأس القائمة الاولى احد الامامين الحسن او الزهرى ولجعلنا على رأس القائمة الثانية احد السعيدين ابن المسبب او ابن جبير. وانا حين اشير الى هذين الاتجاهين، اتجاه مسالمة الدولة الظالمة الذى يمثله الحسن ، او اتجاه مقاومتها والثورة عليها الذى يمثله ابن جبير . لا ادخل فى حسابى اولئك المتزلفين من القدماء والمحدثين ، الذين بهرهم البريق ، فاندفعوا أو يندفعون فى ركاب السلطان ، وقد جعلوا علمهم ودينهم وخلقهم ثمنا لما يحصلون عليه من متعة المال او الشهرة او الجاه او المنصب، وسخروا ذكاءهم وكفاءتهم وبراعتهم ، لخدمة المنحرفين عن سبيل الله ، فان هؤلاء ، وان بلغوا فى العلم مبالغ سامقه الا

انهم لا حساب لهم فى التفكير الصحيح . ذلك انهم مالوا الى الدنيا من اول يوم واتخذوا مناصرة الظالمين مبدأ ثم اصبحوا يبحثون عن البراهين والحجج ليؤيدوا ما ذهبوا اليه .

ان هذا الاختلاف فى الرأى ، بين علماء الاسلام ، مراعاة لمصلحة الامة ، واشفاقا عليها ، لا يرتفع الى ان يكون خلافا مذهبيا بين الطوائف الاسلامية ، وان كان اصحاب كل مذهب قد يميلون الى احد الاتجاهين اكثرهما يميلون الى الاتجاه الاخر . واذا كان بعض ائمة الاباضية يميلون الى اتجاه المقاومة ،ويرون وجوب محاربة الظلم ، ومكافحة الباطل ، ما كان الى ذلك سبيل، فان عجزت الامة عن مقاومة الظالمين بالثورة الشاملة التى تقلب انظمة الحكم ، وتبعد غير اهل الكفاءة والاستقامة، عن التصرف فى مقدرات الامة ، فانه يجب ان تقوم فدائية تذكر الدول الظالمة، ان الامة غير راضية للحكم القائم ، وان استسلمت للقوة والقهر، وانها لا تزال تطالب بتنفيذ احكام الله ، وان الرجوع الى حكم الاسلام والتزامه والسير على منهجه ، اولى لها واحق بها وان المؤمن لا يهادن الظلم وان غلبه الظلم . اقول اذا كان بعض الائمة يرى هذا الرأى فان البعض الاخر يميل الى المسالمة ، كما فعل الامام الاكبر جابر بن زيد . ومنهم من يرى سلوك طريق وسط فى الموضوع وذلك بالنظر الى حالة الامة فاذا خشى ان تكون المقاومة سببا الى فتنة تكون المضرة فيها على الامة اكثر مما يلحقها من حكم الظالمين فان الاستسلام اولى واذا كان للمقاومة اسباب تؤيد نجاحها وترجح صلاح القائمين بعدها ففى هذه الحالة يرون ان الاطاحة بالحكم الظالم اولى .

ولقد عانى المسلمون من الظلم والجبروت شيئا كثيرا فى المملكة التونسية بسبب انحراف الولاة عن حكم الله ، وكان ذلك من

الاسباب التى دفعت الناس الى اشعال نار ثورات كثيرة قامت فى تلك الجهات ، وطال بها الامد ، وامتدت وتسلسلت مع التاريخ، حتى جعلت الناس مستعدين للانضمام الى كل ناعق رسمى للوصول الى الحكم .

وبما ان هذا الكتاب موضوع لاعطاء صور عن حياة الاباضية فى تونس ، فانه من حق القارىءالكريم علينا ان نحدثه عن الثورات التى اشترك فيها الاباضية طالبين او مطلوبين والدوافع اليها ونتائجها . وفى الفصل الآتى وما بعده من الفصول سوف يجد القارىء الكريم صور عن هذه الحياة التى تمتاز بكفاح طويل ..

ابو الخطاب فى القيروان

يقول ابو العباس الشماخى فى كتابه القيم (السير) : « فزحف عاصم واخوه مكرم الى القيروان فدخلوها بعد حرب ، وفر حبيب الى قابس ، ثم الى جبل اوراس ، فاستحكمت ورفجومية على القيروان ، وعتوا وطغوا وجاروا ، وساموا النـــاس بسوء العذاب ، وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع ، فخرج اليهم ابـــو الخطاب غضبا لله ولدينه » .

اما كيف وردت الاخبار الى ابى الخطاب فيظهر مما يأتى :

ارسلت اليه امرأة ان لها بنتا جعلتها فى مطمورة خوفا عليها من ورفجومية ، وحكى ابن الرقيق عن ابن حسان ان رجلا من الاباضية دخل القيروان، فرأى ناسا من الورفجوميين كابروا امرأة على نفسها ــ والناس ينظرون ــ ولم ينكروا ذلك عليهم خوفا منهم ــ فترك حاجته فاتى ابا الخطاب ــ

ونقل آخرون ان ورفجومية اخرجوا امرأة وهى تصيح !.. يا معاشر المسلمين اغيثونى !.. فلم يغثها احد ، وبلغ الخبر ابا الخطاب .

وذكر بعض المؤرخين ان اهل القيروان بعثوا يستغيثون بابـــى جعفر المنصور .. واهل القيروان وهم فى هذا الوضع الشاذ الذى

استبيحت فيه كل الحرمات ، يحق لهم ان يستنجدوا بابى الخطاب وبابى جعفر وبكل مؤمن يرجون منه النجدة ، ويأملون فيه الانقاذ . فانه لا شر اعظم من ان تعيش امة مسلمة صانت كلمة التوحيد ، دماءها واموالها واعراضها ، تحت حكم ناس ينتسبون الى الاسلام ثم هم يرتكبون من الفواحش والوان الظلم ، ما جاء الاسلام ليطهر البشرية منه . وقد اجتمع على اهل القيروان فى احداث ورفجومية ، استباحة المساجد حتى ربطت فيها الدواب، واستبيحت الاموال والدماء بدون حساب ، وانتهكت حرمات الاعراض حتى اصبحت الفاحشة تؤتى علنا ، وتقاد اليها الحرائر كرها بين الناس ، وهى حالة لا ترضاها حتى الضمائر الوثنية فكيف والناس يعيشون فى نور الاسلام .

وهذه الفظائع التى ارتكبها عبد الملك الورفجومى واتباعه ، جعلت اهالى القيروان ينظرون الى حكم الامراء السابقين على ما فيه من ظلم وعدوان ، كأنه العدل المطلق . كان ابو الخطاب المعافرى من اولئك العلماء الاعلام الذين يرون انه لا يحق لامرىء مسلم ، ان يسكت عما يرتكبه الظالمون ، باسم الامارة والحكم ، فلما بايعه المسلمون فى ليبيا اماما ، واسندوا اليه القيام بشئون الدولة فى هذا الجزء من الوطن الاسلامى الكبير، اعد نفسه لحمل الامانة ، وعزم ان ينتهج بالمسلمين ذلك النهج الذى سار عليه الخلفاء الراشدون ، وسار عليه امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فلما بلغه ما يقع فى القيروان من المناكر وتحقق ان الحالة بلغت من السوء الى الحد الذى تنتهك فيه حرمات الله، جهارا نهارا ، دون تستر او تأويل ، والناس خوفا على انفسهم وأعراضهم ينظرون ولا يستطيعون ان ينكروا لما تحقق من ذلك جمع الناس وخطب فيهم يقول : اننى اطمع الجنة لمن يستشهد

فى هذه الوقعة ما لم يكن مصرا على كبيرة (١) ولما خرج من الاجتماع سل سيفه ، وكسر غمده ، كناية عن العزم الاكيد على الكفاح فى سبيل الله ، ونصرة الاسلام ، والمحافظة على عدالته ونزاهته وصفائه . وقاد جيشه المتطوع فى سبيل الله وارتحل الى القيروان، فمر بقابس فجعل عليها واليا من قبله وسار حتى بلغ القيروان فحاصرها مدة اختلف المؤرخون فى تحديدها ثم لانت له ، وخرج اليه عبد الملك الورفجومى بمن معه من الاتباع ، وكانت معركة حاسمة انتصر فيها ابو الخطاب ودخل القيروان ، وكان اهالى القيروان ينتظرون نهاية الحرب فى ترقب وخوف ، فقد مر بهم عدد من الحروب والوقائع ، وهم يعرفون نتائجها ، وما تسفر عنه ، ويخشون ما يقاسونه بعد كل معركة من ويلات ومصائب، وعندما كانت المعارك تدور بين ابى الخطاب وعبد الملك الورفجومى كان اهل القيروان ينتظرون نهاية هذه الوقائع فى اشفاق وخوف ، وكانوا يحسبون ان اقل ما يلحقهم من ضرر ، ان تكون الجيوش المحاصرة ، قد أتت على مزارعهم وبساتينهم ، وما فيها من ثمار وغلال ، مدة حصارهم لهذه المدينة الحصينة، وعندما انجلت المعركة عن هزيمة عبدالملك ، بدت لاهل القيروان المفاجأة الاولى ، وقد كانوا ينتظرون ما تعودوه بعد الحروب السابقة من التتبع والقتل والانتقام والغنيمة ، ولكن يدا واحدة لم تمتد الى سوء بعد المعركة ، فكان هذا من اعجب العجب فى ذلك الحين ، وعندما خرجوا الى ساحة القتال ظهرت لهم المفاجأة الثانية، فقد كان القتلى هناك صرعى على اوضاع مختلفة . ولكن احدا لم يمس ما عليهم من أسلاب ، فكأنهم نائمون فى ليلة صائفة حتى وصفتهم واصفة بقولها كأنهم رقود ، اما المفاجأة الثالثة

---

(١) نقلت كلام الامام بتصرف فمن شاء النص فليراجع سير الشماخي ص ١٢٨

فقد وجدوها عندما خرجوا الى مزارعهم ، وهم يتوقعون لها كل شر ، فاذا بها لم تمس ،ولم يتحرك فيها شيء من موضعه،اللهم الا ما حركته عوامل الطبيعة من وحش او ريح .

وذاق اهل القيروان حكم الاسلام النظيف ، حين يطرد الباغين ويقيم حكم الله على المسالمين فقال قائلهم ، بعد ان ذهب ابو الخطاب ، وقام امراء اخرون يدعون الحكم بالاسلام « تشبهون دينكم بدين ابن الخطاب واين مثل ابى الخطاب فى فضله وعدله!»

ولعله من المناسب انانقل للقارىء الكريم فى ختام هذا الفصل كلمة للاستاذ محمد المرزوقى ، قال فى كتابه القيم (قابس جنة الدنيا) ما يلى : « والظاهر ان قابس نعمت فى ظل الاباضيين خلال ثلاث سنوات بشيء من الطمأنينة ، وكثير من العدل والمساواة ، فهؤلاء الناس كانوا على غاية فى التشدد فى الدين، والتمسك بالحق ، والقيام على نصرته والزهد فى الدنيا . »

عبد الرحمن بن رستم

حج عبد الرحمن بن رستم وهو صبى مع ابويه من فارس الى البلاد المقدسة ، فلماكان بمكة المكرمة توفى ابوه وتزوجت امه رجلا من القيروان .

كان صبيا يطل الذكاء من عينيه وتبدو النجابة على مخائله ، ويطالعك الظرف والادب وخفة الروح فى حركاته وسلوكه ، فاحبه زوج امه وسهر على تربيته . رجع ذلك القيروانى الكريم الى بلده يحمل معه اسرة متكونة من شخصين هما عبد الرحمان وامه ، واستقر بهم المقام فىالقيروان وطاب ، وكان الصبى من عشاق المعرفة ، فتدرج فى المدارس البسيطة الموجودة فى هـذه القرية الناشئة حتى لم يجد عند مدارسها مزيدا . ولم تكن تلك المدارس الصغيرة والدروس المتقطعة فى تلك القرية الناشئـة لتطفىء غلته ، وتروى ظمأه ، فان القيروان حينئذ كانت اشبه بقلعة حربية منها بعاصمة علمية ، وكانت امه وزوجها لايفتئان يحرضانه على المزيد من طلب العلم. واتصل به سعد بن سلمة وحدثه عن المعاهد العلمية فى الشرق الاسلامى . ولذلك فقدكان يشغله التفكير فى الطريق الذى يسلكه ليستكمل دراستـــه ، والمكان الذى يقصده ليحقق فيه غايته ، والعدة التى يجب ان

يستكملها ليصل الى امله الغالى فى دراسته العلمية الطويلة ، وترامى الى سمعه الشهرة الذائعة للمعاهد العلمية فى العراق ، وبلغه ما تتمتع به البصرة من شهرة تطغى على بقية العواصم الاسلامية لذلك الحين وحدثه متحدثون عن فطاحل العلماء من بقية التابعيين وتابعى التابعيين الذين تزدان بهم حلق الدراسة.

كان عبد الرحمن يؤمن أن الفتى الذى يريد طلب العلم لا تصده العقبات ، ولا ترده الصعاب ، فان الارادة القوية والعزيمة الصادقة ، والرغبة الملحة ، كفيلة ان تقرب المسافات البعيدة ، وتيسر الطرق الصعبة ، وتبعد التفكير فى النفقات للزمن الطويل وما يحتاج اليه الانسان فى كثرة الاستعداد واحضار الاموال ، وصمم الفتى الغض الاهاب ، الطرى العود على السفر بعد ان اذنت له امه .

اتخذ الاهبة ليلحق بالعراق ، ويستقر فى البصرة تلك العاصمة العلمية التى قيل فيها « باض العلم فى المدينة ، وفرخ فى البصرة ، وطار الى عمان » انه يريد ان يعيش فى ذلك العش الذى فرخ فيه العلم فان طارت منه طيور الى عمان فهو سوف يتخذ لنفسه مطارا ويختار لحياته مسبحا ، وسار الفتى وهو ما يزال فى غضارة الصبا حتى وصل البصرة ، واتصل بالزملاء وطلاب العلم من مختلف بلاد العالم الاسلامى ، اولئك الزملاء الذين يقصدون البصرة كما قصدها هو ، وحدثهم وحدثوه ، وناقشهم وناقشوه ، وفاضلوا بين مجالس العلم ، وبين المشائخ والعلماء ، حسب مداركهم وحسب منازعهم. واراد عبد الرحمن ان يتأكد من موقفه ، ومن سلامة اختياره ، فجال بين المساجد ودور العلم ، واستمع الى كبار تابعى التابعيين ، وهم يشرحون كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتقل من حلقة الى حلقة ، ومن عالم

الى عالم ، حتى حضر دروسا على اولئك الاعلام الذين يقومون بالدفاع عن دين الله فى حرص وامانة ، واختار من بينهم واحدا ليتلقى عنه العلم . ويقتبس منه نور الهداية .

اختار مجلس ابى عبيده مسلم من ابى كريمة مولى بنى تميم ذلك الامام العظيم الذى يطارده طغيان الحجاج واعوانه ، ويضيق عليه الخناق ، ويحاول ان يحول دونه ودون ابلاغ رسالة الاسلام الى المسلمين .

اختار عبد الرحمن هذا الامام استاذا له ليتلقى عنه رسالة الدين وفنون المعارف الاسلامية ، لانه يمتاز عن غيره من اعلام تابعى التابعين الذين كانوا يتولون التدريس فى تلك البقاع — بروحه الحية المتحررة التى لم يستطع الطغيان ان يطفىء فيها جذوة الكفاح ، ومناصرة الحق ، والدعوة الى تحطيم الانظمة الفاسدة التى اقامتها دول انحرفت عن الاسلام فى نظام الحكم.

واستقبله ابو عبيدة كما يستقبل الاب الحنون العطوف ولدا بارا عزيزا واحتفى به احتفاء كريما ، واضفى عليه من حبه ورعايته الشىء الكثير ، وذلك لاسباب كثيرة منها ما طالع منه من ادب جم ، وذكاء وقاد ، وفهم كثير ، واستعداد للتلقى ، ولطف فى السلوك ، ورغبة حقيقية فى العلم . ومنها انه كان اصغر طلابه المغاربة سنا ، ومنها ان هذا الفتى قد وجد من عنت الدهر ما احس معه الالم والمرارة وهو صغير ، فقد تكبد مشقة السفر من فارس الى مكة المكرمة مع ابويه ليؤديا فريضة الحج ، فتوفى ابوه فى هذا الموسم الذى يعج بالناس من كل جنس ، لا يهتم الشخص منهم الا بنفسه ، وعلاقته بربه ، وترك للقدر مصير أرملة وطفل صغير فى محنة الغربة البعيدة فى ذلك الحين الذى تعز فيه وسائل النقل واسبابه . وقد انحلت هذه المشكلة بطريقه

لم يفكر فيها لا هو ولا امه ، فقد انقضى موسم الحج وبدأ الناس يعودون الى بلادهم وكانت الارملة العاجز تفكر فى مصيرها ومصير ولدها وتدرس الطريقة التى تمكنها من الرجوع الى بلدها . ولكن تفكيرها الطويل ودراستها للموقف وانشغالها به لم يوصلها الى حل . وانما جاءها الحل لحكمة يعلمها الله بطريقة لم تفكر فيها وانما ساقها القدر اليها . فقد تقدم اليها رجل من المغرب يخطبها لنفسه ، ويعدها ان يربط مصيره بمصيرها ان شاءت ، ويعمل على اسعادها واسعاد ولدها الحبيب . وافقت على هذه الرغبة الكريمة ، وعقد عليها القيرواني ، وتم الزفاف ، وبدلا من أن تولى وجهها الى مطلع الشمس حيث تعود بطفلها الحبيب الى الارض الحبيبة ارض الوطن ، ارض فارس ! .. بدلا من ذلك اتجهت الى مغرب الشمس ، الى تلك البلاد التى كانت موضوعا لا ينتهى للحديث والخيال والقصص الصادق والكاذب . وسار الولد وراء امه الى حيث يقدر لهما الحياة ، وهو يبكى ابا عزيزا فقده بين يدى الله فى منازل الوحى ، ووطنا حبيبا ولد فيه ، واتخذ فيه ملاعب الصبا ومسارح الطفولة ، سار الفتى ، وطال به المسير ، يقطع ارضا بعد ارض ويجتاز فلاة بعد فلاة ، حتى بلغ بعد عناء ومشقة ، مقر الاسرة الجديدة فى القيروان . المقر الذى اراد الفاتحون ان يكون مركز الدولة فى افريقيا .

وشب الطفل فى البيت الجديد والوطن الجديد تحت رعاية الاب الجديد حتى اشتد ساعده ونضج تفكيره وفاق الاقران علما وعملا ، وضاقت دور التعليم عن مواهبه ، فبدأ يرنو الى بعيد حتى يسرت له اسباب الرحيل الى البصرة الى مطلع الشمس الى ذلك البلد القريب من وطنه الحبيب . ولقد كان وهو يفكر فى السفر الى البصرة ، يذكر المسافات الشاسعة التى قطعها حين

ورد الى القيروان ، ولكن كان يهون عليه سلوك ذلك الطريق ويخفف من متاعبه ،اولا الغاية الكبرى التى وضعها بين عينيه، من الورود الى منابع العلم الصافية اما ثانيا فقد كان يداعب خياله أمل فى انه حين يصل الى العراق سوف يكون قريبا من فارس فيتنطس اخبار الوطن ولعله يعرف مآل ثروة ابيه واملاكه ولعله يجد وسيلة للحياة الكريمة فى الوطن العزيز . فلما وصل البصرة ، واستقر به المقام ، وتلقى الدروس الاولى على ابى عبيده . تفتح عقله الكبير لحقائق اكبر مما كان يفكر فيه . وعلم ان المؤمن حيثما كان فى بلاد الاسلام فهو فى وطنه ، فهو ليس فارسيا ولا قيروانيا ولا بصريا ، ولكنه مسلم يمكنه ان يعيش فى اى جزء من العالم الاسلامى الفسيح ، اما المكان الذى يجب ان يستقر به فهو اى مكان يحتاج اليه للقيام برسالته ،والاستمرار فى دعوته ، والكفاح من اجل اقامة دين الله ، ومقاومة اولئك الذين يدعون زورا انهم يحكمون بالاسلام . انه يجب ان يعد نفسه للكفاح فى سبيل الله اما المكان الذى يعيش فيه فليس بذى اهمية ، لان الاقدار هى التى سوف تسوقه اليه . على ان المؤمن ليس له وطن ، فهو فى رحلة طويلة فى هذه الحياة من اجل مثل اعلى وغاية اسمى ، وليس له ان يقيم اقامة الخالدين . انه يجب عليه ان يكون مستعدا فى كل حين لتحمل اعباء الرسالة فى اى مكان . والا فان ايمانه بالله وطلبه للعلم ، وتحمله للمشاق لا يكون ذا جدوى .

اقتنع عبد الرحمن بهذه المبادىء ، ووعى حقائقها واستقرت فى ذهنه فمضى فى دراسته خمس سنوات كاملة فى ذلك المعهد العظيم الذى انتج عقولا وخرج فحولا وتكونت له اواصر صداقة ومحبة وتفاهم مع بعض الزملاء ، واشترك معهم فى الاتجاه

والتفكير والعمل ، وبحثوا منهاج حياتهم وكفاحهم للمستقبل ، ودرسوا الموطن الذى سوف يركزون فيه نضالهم ، ويبدأون منه انطلاقهم ،من اجل الحق واعلاء كلمة الله ، وتعاهدوا على ان يتآزروا ويتعاونوا ويعيشوا كتلة واحدة ما امكنهم ذلك . ولم يحاول واحد منهم ان يدعو بقية الزملاء الى موطنه ليتخذوا منه قاعدة انطلاق للكفاح فيكون قد استغل عواطفهم ولكنهم درسوا موضوعهم على ضوء الاحداث السياسية لذلك الحين ، واستقر رأيهم ان تكون طرابلس من بلاد المغرب هى منطلق الدعوة ومبدأ الكفاح .

ولما تأكد الامام العظيم من نضوج هؤلاء الفتية فى دينهم واخلاقهم وعقولهم اذن لهم فى السفر والبدء فى المعركة الطويلة، لتثبيت دعائم الحكم الاسلامى . فان سهاما كثيرة توجه اليه منها ما يصطبغ بلون السياسة ، ومنها ما يصطبغ بلون العقيدة ، ومنها ما يصطبغ بالوان اخرى على انه وهو يوصيهم وصاياه الاخيرة اخبرهم ان عبد الرحمن بن رستم الفارسى قد بلغ درجة الاجتهاد فى العلم فيحق له ان يفتى بما سمع منه وما لم يسمع ولم ير لغير عبد الرحمن من افراد البعثة العلمية هذه الدرجة العلمية فقد اوصى بعضهم ان يفتوا بما سمعوا منه فقط اما البعض الاخر فقد اوصاهم ان لا يتقدموا للفتوى لا بما سمعوا ولا بما لم يسمعوا ، وقد اوصى المجموعة اذا تمكنت من القيام بامر الامة ان تولى الامامة لابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى . فهذا اقوى المجموعة شخصية واصلبهم ارادة ،وامضاهم عزيمة واقدرهم على قيادة الجماهير

وتحقق رأى الامام فى المجموعة، فقد بدأوا حياتهم فى طرابلس وعرضوا الامامة على عبد الرحمن بن رستم فامتنع منها واحتج

بوصية الامام ابن عبيده فبايعوا ابا الخطاب اماما ، وعندما فتح ابو الخطاب مدينة القيروان ، وطرد منهاورفجومية ، ترك عليها عبد الرحمن بن رستم الفارسى واليا . ومن اولى من عبدالرحمن بولاية القيروان وهو الذى نشأ فيها ودرس فى معاهدها وشب فى مغانيها .

قال ابو العباس الشماخى : « ثم ارتحل من القيروان ـ اى ابو الخطاب ـ وولى عليها عبد الرحمن بن رستم احد حملة العلم من المشرق المتقدم ذكرهم ، ورتب عبد الرحمن العمال على مداين افريقيا ونواحيها .» وسار عبد الرحمن فى القيروان سيره مؤمن يوجهه الدين القويم والعلم الغزير والضمير الحى ، حتى تغلبت عليه قوات الدولة العباسية واخرجته من القيروان فارتحل الى الجزائر حيث كان له هنالك شأن سوف نتحدث عنه فى الحلقة الاتية من هذا الكتاب ان شاء الله .

ابو حاتم الملزوزى

ابو حاتم الملزوزى هو الامام الثالث الذى بايعه المسلمون فى طرابلس ، بيعة مستقلة عن غيرها من الدول الموجودة فى الشرق والغرب ، والاسباب التى دعت الناس الى بيعة ابى حاتم ، هى مارتكبه جنود عمال العباسيين من المناكر ، حتى ضج الناس بالشكوى ، واجتمعوا على ابى حاتم ، واجبروه ان يقوم بأمر الامامة ، ليرد عن الناس ، عدوان اولئك الذين لم يهذب الاسلام ايديهم والسنتهم ، فاستجاب لهم على شروط شرطها عليهم ، وقام بامرهم ، فطرد عمال الدولة العباسية من طرابلس ، واستقل بها واجرى فيها احكام الله ، وسار بسيرة المهتدين من امة محمد عليه السلام ، حتى بلغته المآسى التى كانت تقع فى القيروان ، واستنجدبه الناس لرفع الظلم عنهم فجهز جيشا كثيفا واتجه اليهم . فمر بقابس ، ثم سار الى القيروان فحاصرها مدة طويلة حتى لانت له وافتتحها . وعندما انفتحت له ابواب القيروان ، واستسلم الجند المحاربون ، عمل اعظم عمل قام به قائد حربى بعد الانتصار ، فقد عفا عن الجميع ، والعفو عن الجميع بعد الانتصار حادثة قد يجد لها الباحث فى التاريخ البشرى شبها . لكن ابا حاتم زاد عن العفو فاطلق سراح الجند الذين كانوا يقاتلونه بعد ان زودهم الزاد الضرورى وسلحهم

السلاح الذى يدفعون به عن انفسهم العدوان الفردى من الانسان او الحيوان . واقام الامام بالقيروان مدة ليست بالطويلة . بعدما رفع عن الناس الوان الظلم ، ورتب الامور ، واشـــاع الامن والسلام ، واقام قواعد العدل ، ثم انطلق راجعا الى طرابلس مركز الامامة ، ومقر الحكم .

قبل ان يصل الامام الى طرابلس ، بلغه ان ثورة اندلعت فـى القيروان وان حكما جديدا قد انبعث فيها . ذلك ان سكان القيروان انفسهم اصبحوا بمعزل عن هذه الحركـات ، فهـم عندما تبدأ الاحداث لا ينهضون لتأييد بعضها على بعض ، وكل ما يرجونه ان تنتهى بسرعة على اى شكل من الاشكال ، فان الظلم مـــع السلام ، افضل من الحرب وما يجر من النكبات . ولذلك فقد كانوا يقفون من تلك الحروب موقف المتفرج ، ينتظرون نهايتها، لا يعنيهم شيء . اما اولئك الذين نشأوا فى حواشى الامارات الظالمة ، فانه لا يروق لهم ، ان ينتشر العدل ، ويسود حكم الله، لان فى انتشار العدل ، وتطبيق احكام الله ، حرمانا لهم ممـــا تعودوا ان يكسبوه بالباطل . ولذلك فما اختفى ابو حاتم وجنده من القيروان حتى اجتمع اولئك الذين ذاقوا حـــلاوة الرغـد ، واستمرأوا طعم الظلم ، واعتادوا الحكم والسيطـرة والمتعـة ، فقاموا بثورة يقلبون فيها نظام الحكم ، ويردونه الى اسوأ ممـا كان عليه ، وسمع ابو حاتم بالحركة فاضطر ان يعود من طرابلس الى القيروان ليقضى على هذه الحركة الجديدة ، وليؤدب اولئك الذين يسعون فى الارض فسادا . وقد تم له ما اراد ، وارجع الامور الى نصابها وترك على القيروان جرير بن مسعود المديونى، ولكنه ما كاد يتم ذلك ، حتى بلغه ان جيوشا جرارة اقبلت من المشرق تحت قيادة يزيد بن حاتم بن قبيصه ، تريده فاسرع الى لقائهـــا .

فترة انتقالية

لقد كان اغلب سكان المملكة التونسية على المذهب الاباضى. يقول الاستاذ محمد المرزوقى نقلا عن الاستاذ لوفيسكى : « ان هذا المذهب قد جاء الى تونس من طرابلس وانتشر انتشارا واسعا فى الشعوب البربرية بجهات جربة وجرجيس وورغمة ومطماطة ونفزاوة والجريد . ويقول فى مكان اخر من الكتاب : « وكان سكان نفزاوه على المذهب الصفرى وتحولوا الى الاباضية فى عهد الامام عبدالوهاب وبقى هذا المذهب هناك الى القرن الحادى عشرم. حيث كان فى بلدة فطناسة من نفزاوة وحدها احد عشر مسجدا اباضيا . واما فى الجريد فقد انتشرت الاباضية فى زمن مبكر وكان لها قوة عتيدة خصوصا فى أيام ازدهار مدينة (درجين) قرب (نفطة) وكان سكان درجين يعدون وحدهم نحو ثمانية عشر الف فارس ، وانتشرت الوهبية بين توزر والحامة . » ويقول بعد كلام « فكان الاباضية يؤمون نفس المساجد التى يؤمها اهل السنة ، ويملون تعاليمهم، ويناقشون تلاميذهم ، ويحدثنا مؤرخ مغربى (١) ان مفتيين على رأى المذهب الاباضى كانا بالقيروان فى النصف الثانى من القرن التاسع م . ودامت

---

(١) هو ابن سلام من مؤرخى الاباضية وكان يعتمد فى نقله على ابن زرقون .

مدينة القيروان الى القرن الحادى عشر م. مثابة للاباضيين الواردين من مختلف بقاع المغرب لتعلم العربية وادابها . وكانت فروع من مزاته وهوارة تسكن حصن القيروان وهى على المذهب الاباضى من الوهبية فى ايام بنى زيرى الصنهاجيين . » ويقول بعد كلام . « ودخلت الاباضية الى جبل وسلات حيث كانت معروفة الى القرن الحادى عشر كما كان هذاالمذهب موجودا بين سكان زغوان من نفوسة اثناء هذه المدة .»

لقد كانت هذه البلاد وغيرها من البلاد التى يسكنها الاباضية فى تونس تابعة للاماماتفى طرابلس تبعية فعلية كما هو الشأن فى القيروان وقابس ،او تبعية محبة وعطف وتأييد ، فلما قتل ابو حاتم الملزوزى اخر الائمة فى طرابلس انتقلت الامامة الى الجزائر وبعد ان كانت طرابلس هى مركز الامامة اصبحت تاهرت هى المركز . وهكذا انتقلت تبعية اغلب سكان تونس لا سيما سكان الوسط والجنوب الى تبعية الامامة فى تاهرت .

حين كان عبد الرحمن بن رستم واليا على القيروان ، وكانت الجيوش العباسيةتوالى هجوماتها على امامات طرابلس . كان يفكر فى اصلح مكانلاقامة الامامة، وكانفيما يبدو قداستعرض الاماكن المناسبة لذلك مكانا مكانا ، فتحقق ان طرابلس لاتصلح لاقامة هذا البناء ، فانها ممر من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، والممر لا يمكن انيستقر على حال . اما القيروانالتى اخرج منها عندما قتل الامام ابو الخطاب فهى الاخرى لا تصلح ان تكون مركزا للامامة ، لانها هدف العباسيين من جهة ،ومطمح طلاب الحكم من جهة اخرى ، بقى عليه ان يختار مكانا آخر فى الجنوب التونسى او فى جبل نفوسة او فى الجزائر واستقرعزمه

ان يختار الجزائر فهى اصلح مكان ، لانها تتوسط المغرب الاسلامى ولانه يجد فيها انصارا واعوانا على مكافحة الظلم ، والدعوة الى القيام بامر الله .

وسار عبد الرحمن من القيروان الى الجزائر بين القرى والاحياء من الاباضية لا يتعرض له احد بسوء حتى وصل جبل سوفجج واجتمع عليه الناس يطالبونه باقامة الامامة فى الجزائر بعدما قتل آخر الائمة فى طرابلس . وهكذا اختيرت تاهرت لتكون مركز الامامة ومنذ قامت تاهرت كانت اغلبية المملكة التونسية فى الجنوب والوسط تابعة لهذه الامامة وكان عمال الدولة الرستمية يقيمون احكام الله فى تلك البلاد نيابة عن الدولة الرستمية ولعل مركز الولاة كان فى قابس ونفزاوه وقفصة وغيرها من البلاد التونسية . وقد استمر الجنوب والوسط التونسى تحت حكم الدولة الرستمية الى ان تغلبت عليها الدولة الشيعية فخربت تاهرت وانقرضت الامامة من هنالك فاصبحت هذه البلاد فى بادىء امرها شبه مستقلة يدير شؤونها مشائخ العلم من اهلها ثم خضعت للدول المتغلبة على افريقيا ، اعنى ان هذه البلاد التى يسكنها الاباضية فى ذلك الحين ، اصبحت بعد انقراض الدولة الرستمية غير تابعة لدولة ماولكنها فى نفس الوقت لم تؤسس دولة او دولا وانما كان امرها يرجع اول الامر الى كبار مشائخ العلم ثم فيما بعد الى مشائخ العزابة الى ان انقرض الاباضية فى بعض تلك البلاد او انحل مجلس العزابة من بعض الاجزاء والحقيقة ان الدول التى قامت فى القيروان او فى المهدية او فى غيرها سرعان ما وجهت حملاتها الشديدة على الاباضية ، وحاربتهم محاربة لاهوادة فيها وحاول بعض الملوك ان يحملوا الناس على اتباع مذهب الحاكم ، وقد ارتكبت من اجل ذلك فظائع ومآسى

كان لها اسوأ الاثر فى تلك الجهات وقد اتخذ بعض الملوك قضية المذهبية وسيلة لابتزاز الاموال ، والانتقام من الخصوم وعندما لا تتوفر لهم قضية المذهبية يتخذون وسيلة لذلك قضية عنصرية او اى سبب كما وقع فى درجين وقصطالية بمختلف مدنهـا وجربة وقابس وغيرها من البـلاد التى لا تنفك توجـه اليها الضربـات لسبب مختلق فى كثير من الاحيان . وسوف نستعرض صورا من ذلك اثناء الكتاب .

ابو القاسم يزيد بن مخلد

نشأ ابو القاسم يزيد بن مخلد اليهراسنى فى وسط القطر التونسى فقد ولد فى الحامة، تلك البلدة الجميلة الغنية بمناظرها الطبيعية الشهيرة بانواع من اجود الفاكهة والثمار ، وقد اصبحت اليوم منتزها يقصدها الناس للسياحة والاستشفاء بمياهها المعدنية المتدفقة باستمرار . ورغم ان الحامة لم تجد من الدول التونسية وسياحتها ما وجدته قربص ، الا انها لا تقل عنها وعن غيرها من الحمامات زوارا . تلك الحمامات التى يؤمها الناس للاستراحة والاستجمام والاستشفاء . فى هذه المدينة او القرية التى تقع قرب قابس من جهة الغرب ،والتى كانت فى يوم من الايام نقطة تجمع وارتكاز للاباضية . فى هذه المدينة او القرية تكون الرجل العظيم ابو القاسم يزيد بن مخلد ، وقد بدأ عهد طفولته فى الدراسة حتى ظهر على جميع الاقران وتفوق على كل الزملاء ، وتيسرت له سبل الحياة فاجتمع لديه من المال ما جعل مركزه فى المقدمة بين المؤمنين الاغنياء . واوتى من الذكاء والالمعية ، وطهارة السريرة ، وشجاعة القلب ، وقوة الارادة وصدق العزيمة ، ما لا يتحلى به الا القليل من الناس فى قليل من الازمنة . درس علم الكلام على علامة زمانه حسنون بن ايوب ، اما بقية العلوم فقد درسها على العلامة الكبير ابى الربيع سليمان

بن زرقون . وبلغ فى العلوم شاوا سبق به اساتذته فاعتبر من كبار الائمةالذين بلغوا درجة الاجتهاد وحسب من الائمةالعشرة المجتهدين الذين اتى كل واحد منهم باقوال . (١)

سافر من الحامة الى سجلماسة للدراسة . وامضى هنالكفترة صالحة من شبابه فى الكفاح من اجل المعرفة ، ولما رجع بعد ان بلغ ما بلغ ، اتجهت اليه الانظار ، ورافقه الامام أبو خزر يغلا بن ايوب فكانا يدرسان الكتب مجتمعين وفى اكثر الاحيان كان ابو القاسم يقرأ ، وابو خزر يستمع ، وقد يقوم ابو خزر لشأن من شؤونه فيمضى ابو القاسم فى القراءة ، فاذا رجع ابو خزر رجع ابو القاسم فاعاد قراءة ما قرأه بعد أبى خزر ويقول له لى مرتان ولك مرة واحدة . ثم يستمر فى القراءة.

كانابو القاسم من علماء الطبقة السابعة يعنى النصف الاول من القرن الرابع فى اواخر عهد الدولة العبيدية وفى عهد اعظم ملوكها المعز لدين الله الفاطمى وكان اعظم شخصية اباضية فى ذلك العصر ، تلتف حوله الجموع ، ويستجيب له الناس ،وينزلونه منزلة الامام ، وكان موطنه كما اسلفت نقطة ارتكاز يتوسط الاماكنالعامرة بالاباضية ، وكانكثير من الناس يعتقد انهيعمل للقضاء على الدولة الفاطمية وتكوين امامة عادلة ، او هذا ما كان يشيعه ويخشاه رجال الدولة الفاطمية ، ويحذر منه اتباعهم، ويرفعون فيه الوشايات الى المعز لدين الله . وعندما اكثر الناس الحديثعن ابى القاسم ومطامحه فى مجلس المعز اشتاق انيراه فبعث اليه وحادثهوناقشه فى كثير من الامور . وعقد له مجالس المناظرة ، فاعجب به كل الاعجاب ، حتى قال فيه كلمته المشهورة

---

(١) راجع الدليل والبرهان .

لما سئل عنه وعن زميله ابى خزر وابى نوح. «ابو القاسم لم تلد العرب مثله ، وابو خزر عالم ورع ، وابو نوح فتى مجادل . » وكان المعز يطلب من ابى القاسم ان يحضر مجالسه ويستشيره ، ويحترمه ويأخذ برأيه وبلغ عنده منزلة كبرى . لا يرد له طلبا حتى ان ابا تميم غضب مرة على اهل الحامة ، فبعث فرقة من الجيش لانزال العقاب بها وزود الفرقة برايته الحمراء التى يسميها راية السخط دلالة على الغضب وارادة الانتقام ، فسمع ابوالقاسم بذلك فجاء الى المعز وطلب منه ان يرجع عن عزمه ذلك ، فاستجاب الملك الكبير لطلب العالم الكبير وسلم اليه الراية البيضاء التى تدل على الرضا ، وقال له الحق بالجيش قبل ان يصل الى البلد فينفذ الامر ، واخذ ابو القاسم الراية ولحق بالجند قبل ان يصلوا الى الحامة بمسافة قريبة فسلم اليهم الراية البيضاء وبلغهم اوامر الملك بالعدول عماعزم عليه ، ورجع الجند بعد ان كادوا ينزلون بالناس الابرياء الوانا من العذاب . وكان ابو القاسم يظهر فى مجلس المعز بمظهر المؤمن المعتز بايمانه القوى فى شخصيته لا يتملقه ولا يتصاغر له و لا يخاطبه بغير مايخاطب به الفرد العادى من المسلمين ولذلك فقد كان المعز يحترمه وكان الحواشى والاتباع لا يستطيعون ان ينطقوا بحضوره فاذا غاب سلقوه بالسنة حداد

كان يوما فى مجلس المعز وطلب منه ان يريه سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا الفقار وكبر على المعز ان يرد طلب ابى القاسم فقام واحضر السيف الكريم وسلمه لابى القاسم فقلبه بين يديه ثم سله من غمده وهزه ثم اعاده فى غمده وارجعه الى صاحبه قال المعز : « لم آمنه على نفسى حين سل السيف حتى ارجعه الى . »

قال ابو اسحاق طفيش رحمه الله ورضى عنه . « ولكن وزراء

المعز كانوا يحفظونه على ابى القاسم حسدا من عقد انفسهم من بعد ما تبين لهم مكانته لدى ملكهم ، وتقديمه عليهم فاتهمـــوه بمحاولة الاستقلال عن المعز ، وما اشد هؤلاء الظلمة انصاتـا للحواشي فى هذا الباب ، وما اسرعهم شكا فى صدق المخلص البريء ، مع ما رأوا من جلال الرجل ومكانته ، فقد لفقوا عليه تهمة الاستقلال ودبروا له مكيدة الانفصال عن مملكة المعز بقومه، وله من القوة والنفوذ ما يبلغه ذلك لو شاء ، حتى تخوف المعـز من ابى القاسم ، وعمرت نفسه بذلك فكتب الى عامله بالحامة يامره بقتل ابى القاسم اغتيالا . »

وتقول كتب التاريخ ان عامل المعز على الحامة ، كانمن اصدقاء ابى القاسم ، والمعجبين به ، وكان يرى ان قتل مثل هذا الرجل العظيم خسارة ، ولذلك فقد حاول ان يجد له سبيلا الى النجاة فاقترح عليه ان يحج ، فلم يوافقابو القاسم وقالله لقد حججت، فقال العامل انكممعشر الاباضية تكثرون منالحج ، فقال ابـو القاسم « ليس لله على انَ احج مرتين » فاقترح عليه ان يقوم بجولة لزيارة الاخوان فى جبل نفوسة فلم يوافق ،فاقترح عليه انيزور الاخوان فى وارجلان فاصر ابو القاسم على البقاء ، وقال له ، لا اخرج وانا حى لقد بذل العاملما في وسعه ليجد سبيلا ينجو بهابو القاسم من القتل او ان يقتل على يد غير يده . ولكن ابا القاسم الذى فهمما يريده العامل الصديق ، لميرد انيفر ، فهو رجللم يرتكب اثما ، ولم يقم باى عمل يستحق عليه غضب السلطان ، فاذا شاء هذا السلطان ان يلطخ يديه بدم بريء،فما احوج ابا القاسم الى الشهادة، وحين تحقق العامل ان ابا القاسم مصر على البقاء ، مهما كانتالظروف ، وانه لايريد ان يخرج من بلده ، ليعيش عيشة اللاجئين . اراد ان يبدى له عذره فى موقفه

الذى سيقفه منه ، فاراه ثلاث رسائل من السلطان يامره فيها بقتله ، وفى الاخيرة منها يقول له :اما رأس ابى القاسم واما رأسك .

عرف ابو القاسم ان هذهالساعة هى اخر ما بقى له فىالحياة فطلب الى العامل ان يمهله مقدار ما يصلى ركعتين وبعد ان ختم اعماله المجيدة بافضل ما يتقرب به المؤمن الى ربه استعد للحصول على الشهادة ، وتوارى العامل حين دخل الجندلتنفيذ اوامرالسلطان فاستقبلهم ابو القاسم استقبال الاعزل للشجاع واستطاع ان يتغلبعلى الدفعة الاولى ويستخلص منهم سلاحا ووقعت بينه وبينهممعركة حامية سقط فيهاعدد من القتلى والجرحى ثم تغلبت الكثرة واستشهد ابو القاسم فى دار العامل رحمه الله ورضى عنه.

وكان السلطان يعرف ان هذه الحادثة لايمكن ان تذهب دون ان يكون لها اثار ، وكان يعتقد انالعلامة ابا محمد ويسلان تلميذ ابىالقاسم هو الشخصية التى سوف تتحرك وتقود الجماهير فالقى عليه القبض واودعه السجن .

وبلغ مقتل ابى القاسم مبلغا كبيرا فى نفوس جميع الذين يعرفونه من الاباضية وغيرهم ولذلك فما سمع الناس به حتى تحركوا للثورة .

وقامت ثورة واسعة النطاق وهددت دولة السلطان الظالم وكادت تقوض اركانها ، وخشى هو عاقبة عمله فكانيرسل الى القائمين بالثورة يتنازل لهم عن بعض الجهات من المملكة ليقيموا بها دولة . ولكن الثائرين الذين كان يقودهم ابو خزر لم يكونوا طلاب دولة ، او راغبين فى الوصول الى الحكم ، ولكنهم كانوا

يريدون ان يقف هذاالظلم عن الناس ، وان يتذكر السلطان انه حين منح الحكم انما اخذه بامانة الله وحقه على ان يرعى حقوق الناس وان يحفظ منهم ولهم ما حفظته الشريعة القويمة ، وكأنما كانت هـــذه الثورة التى قادهـــا ابو خزر بسبب مقتـــل ابى القاســـم واعتقـــال ابى محمد بداية تجرأ بها الناس على السلطان الواسع النفوذ فتبعتها ثورات متلاحقات بمختلف المقاصد والنوايا حتى قضت على الدولة التى لم يحترم سلاطينها حقوق الناس ، ولم يحافظوا على احكام الله .

كان ابوالقاسم غنيا ذا مال كثير ، وكان ينفق انفاق من يغرف من بحر ، حتى ذهب العذال الى ابيـــه يقولون له ان ابنك هـــذا لا شك مجنون ، فهو يعلم ويطعم ويعطى فوق ذلك من امواله الشىء الكثير . انه لم يكتف بان يعلم مجانا لا يتقاضى عن مجهوده العملى شيئا حتى كان ينفق على طلابه ما يحتاجون اليه من غذاء وكساء ، ثم هو لا يقتصر على هذا المجهود العظيم فى التعليـــم والاطعام ، حتى يبذل لهم ولغيرهم من المحتاجين ما يرومون من اموال . ولقد كان ابو القاسم بمنزلة الامام للاباضية وكانت مدارسه عامرة بمجموع من الطلبة من مختلف الجهات .

بعد ان اتم دراسته واستعد للحياة التى يحياها الناس ، واخذ من العلم مايفتح امامه افاق المعرفة فكر فى الزواج ، وبحث عن امرأة تجمع بين الخصال التى يطلبها امثاله من خلق ودين وعلم فوجدها فى فتاة من اسرة كريمة كانت تسمى الغاية لها مـــن الجمال والخلق والدين والعلم ما يرشحها لان تكون زوجة لـــه فخطبها من اهلها وزفت اليه فكانت فى بيته مرجعا للمؤمنات ومرشدة هادية للفتيات وقدوة صالحة للمقتديات الصالحـــات وعندما توفى ابو القاسم بقيت الغاية مقصـــدا لطلاب العلم

والدين والخلق القويم وكان العلماء والمشائخ يزورونها ويستشيرونها ويستفتونها ويرجعون فى كثير من الاحيان الى رأيها وكثيرا مايلجأ اليها عالم من كبارالعلماء فى معضلة من معضلات علم الفقه او علم الكلام فيقول لها ماذا كان رأى ابى القاسم او ماذا حفظت عن ابى‌القاسم فى كذا وكذا فتجيبه بما حفظت عن زوجها .

كانابو القاسم يحدث طلابه يوما ويحرضهم على الدراسة وينصحهم بالابتعاد عن كل ما يشغلهم عن التعليم فقال لهم لان يبلغنى موت الطالب‌خيرمن ان يبلغنى تزوجه، وكانت الغايةتستمع اليه من وراء ستار فقالت له : لماذا تزوجت اذن ؟ فقال لها لو علمت مسألة ليست عندى لشددت اليها الرحال . يعنى وتركتك ايتهاالزوجة المحبوبة .

يبدو انه‌تزوج من الغاية بعد سنة من‌بلوغها فكانت تحضر دروسه من وراء ستار وسمعته يقول لطلابه ان من يقرأ سرا فى‌صلاته ولا يحرك شفتيه فان صلاته باطلة ، فاعادت صلاة السنة كاملة لانها كانت تكيف ولا تحرك شفتيها فى قراءة السر.

هذه جوانب من حياة هذا الامام العظيم اضعها بين يدى القارىء الكريم دون تنسيق او ترتيب ليراها على وجهها الطبيعى الذى كانت عليه فان كل ما اريد ان اعرضه انما هو صور من حياة الامة المسلمة المتمثلة فى‌حياة الافراد او الجماعات .

ابو خزر يغلا بن ايوب

ابو خزر يغلا بن ايوب اشتهر بابن زلتاف وزلتاف اسم أمه ، موطنه العامة ، وعصره القرن الرابع ، وزميله واستاذه ابو القاسم يزيد بن مخلد ، وقد بلغ فى العلم درجة الاجتهاد ،وانفرد بأراء فى علم الكلام ، اعتبر من اجلها اماما .

عاش ابو خزر فى الفترة المضطربة الهائجة من القرن الرابع، فقد جمح السلطان بالمعز لدين الله الفاطمى فاستحل لتوطيد ملكه دماء الناس واموالهم ، واستغل الخلاف المذهبى لذلك ابشع استغلال ، واطلق ايدى الجند والعامة ترتكب ما تشاء من المناكر فى كل مخالف لمذهب السلطان . واصاب الاباضية من هذا البلاء والاذى كثير مثلما اصاب غيرهم من الفرق الاسلامية الاخرى . وكان العامة يهيجون ويتهيئون للثورة ولكن الامامين ابا القاسم وابا خزر يهدئانهم ويدعوانهم الى السكينة والاعتصام بالصبر فلماتجرأ المعز وقتل ابا القاسم يزيد بن مخلد نفذ صبر ابى خزر ودعا الى الثورة غير ان كثيرا من العلماء كانوا غير موافقين على اتخاذ هذه الخطوة، من هؤلاء أبو محمد ويسلان وابو صالح اليهراسنى وكان هذا الفريق من العلماء يرون ان الصبر على الظلم اهون من الحرب واقل شرا . لكن ابا خزر صمم ، وصمم معه المتحمسون

من الشباب . وقد درس الموضوع واتخذ الخطوات التى رآها لازمة لبدء الثورة فبعث ابا نوح سعيد بن زنغيل الى جبل نفوسة وجربة ، فاستشارهم وطلب منهم المساعدة فاجابه اهل الجبل بانهم مهددون كل يوم بالفتن والحروب ، ولكنهم مع ذلك سيقفون معهم اذا تم لهم القيام ووعده اهل جربة بانهم على استعداد. وبعث ابا محمد جمالا الى بلاد الزاب واريغ ووارجلان فتحمس القوم وجمعوا عدتهم وعددهم وبدأوا الثورة من فورهم .

كان العلماء والاعيان قد بايعوا ابا خزر امام دفاع فلما سمع المعز لدين الله بذلك وان ابا خزر بدأ يستعد للقيام بثورة شاملة فبعث الى الجيل وجربة ووادى اريغ والزاب ووارجلان وانه ارسل الى الدولة الاموية فى الاندرس يطلب منها النجدة والمساعدة. لما سمع المعز الفاطمى بهذه الحركة خشى ان تقضى عليه فبعث الى ابى خزر يعرض عليه صلحا وذلك بان يتخلى له عن مواطن الاباضية من بلاد الجريد وجبال دمر وجربة . وهم ابو خزر ان يقبل هذا الصلح ويوافق عليه ولكن المتحمسين ممن كان معه لم يرضهم ذلك انهم يريدون القضاء على الدولة العبيدية التى ارتكبت فيهم اقبح انواع الظلم ولكى لا يتركوا مجالا للصلح بدأوا المناوشات الحربية وهجم اهل وارجلان ومن معهم قبل ان تنتظم الصفوف وتتوحد القيادة ، ووجدها المعز فرصة ذهبية لاخماد هذه الثورة فقد استطاع ان يغرى بعض القادة بالرشاوى وان يوجه ضربة قاسية الى مبدأ الثورة فأثخن فى القتل وتفرقت الجموع التى كانت تتهيأ للثورة . وطارد المعز انصار الثورة فى كل مكان فتنكر ابو نوح فى ثياب راعى ابل حتى وقعت عليه اعين الجند فحملوه الى السلطان وهرب ابو خزر الى المعقل الحصين جبل نفوسة فبقى فيه الى ان ارسل اليه المعز بالامان فقدم عليه.

اخذ ابو خزر العلم عن العلامة الكبير ابى الربيع سليمان بن زرقون ، وكانت تربطه بالامام ابى القاسم امتن روابط الصداقة والمحبة والاعجاب ، وقد كان يقتدى به فى سلوكه واخلاقه ، ويساعده فى اعماله ، وينوب عنه فى اداء واجباته، ويرافقه فى دراسته الطويلة ، وبلغ فى العلم والزهد مرتبة شهد له بها جميع الناس حتى قال عنه المعز لدين الله الفاطمى « انه رجل علم وورع » كان ابو القاسم يقوم عند الاباضية مقام الامام يتولى فصل المشاكل . وفض المنازعات ، والارشاد الى اقوم الطرق ، والاشراف على مصالح الناس الاجتماعية ، والصلاة بهم ، فاذا غاب قام ابو خزر بتلك المهمات فهو له بمثابة الوزير . وقد ذكر المؤرخون ان ابا القاسم تأخر عن حضور الصلاة فى المسجد فى يوم من الايام فاقيمت الصلاة ، وتقدم ابو خزر ليؤم الناس فاحس بحضور ابى القاسم فتأخر وترك له المحراب والامامة .

قلت فى اول الفصل ان ابا خزر دعا الى الثورة حين قتل ابو القاسم واستجاب له الناس وبايعوه امام دفاع ولكن هذه الثورة فشلت بسبب التسرع فهرب ابو خزر الى جبل نفوسة واعتصم به وحاول المعز بن باديس ان يصل اليه فلم يستطع وكان الرجل يخشى ان يستعد ابو خزر من جديد وينظم صفوفه وان يجعل مركز انطلاقه ذلك الجبل الاشم الحصين وكان حريا ان ينجح فى ثورته لو فعل ذلك ولذلك فقد كان مشغولا بهذا الامر ولما لم يستطع ان يصل اليه بطريق القوة فكر فى طريقة اخرى اقرب الى تحقيق ما يريد من الحيلولة دون قيام ثورة اباضية اخرى تنبعث من مكان حصين برجاله وجباله . يقول ابو اسحاق طفيش رحمه الله ورضى عنه. « فالتجأ الى جبل نفوسة فظل فيه

معتصما من المعز حتى ارسل اليه والى كل القبائل التى كانت معه بعهد الامان ، فطلبه اليه ، فقدم عليه ، فاكرم وفادته . »

لقدعلم المعز بن باديس انه اخطأ فى قتله ابا القاسم وان هذه الثورة التى كان فى غنى عنها انما قامت بسبب ذلك الخطأ ولذلك فقد غير سياسةالعنف الىسياسة اللين فاطلق سراحابى محمد ويسلان وعفاعن ابى نوح واعلن الامانوالعفو عن ابى خزر وجميع اتباعه فى كل مواطنهم ، وهدأ الناس والقـــوا بالسلاح واطمأن ابو خزر فرجع الى موطنه الحامة ودعاه اليه المعز ابو تميم واكرم وفادته واظهر احترامه ورفعه فوق مرتبة من كان يحضره من العلماء . لقد كان المعز يخشى ابا خزر ان قتله او اطلقه ولذلك فقد اراد ان يقيده بالاحسان وكانيعلم ان فشل الثورة السابقة انما كان صدفة بسبب التسرع .وكان السلطان الكبير ينوى الانتقال الى القاهرة ويعد نفسه لذلك وكان يعلم انه اذا بقى امثال ابى خزر وارادوا قلب نظام الحكم منبعده فانذلك سوف يكون شيئا يسيرا عليهم، فى غيـــاب السلطان واكثر رجالالدولة . ولذلك فعندما عزم على الرحيل دعا اليه الامامين ابا خزر وابا نوح واخبرهما انه منتقل الى مصر ليتخذ القاهرة مقرا للحكم ، وانه فى مسيره هذا لاغنى له عن كبار العلماء ، ليجلبهم مجلسه ويرجع اليهم فى مشاكلـه وشوراه ، ويدفع بهم سورة الجدال والمناظرة . فوافق ابو خزر اما ابو نوح فتمارض عندما بدأ السلطان بالرحيل . واكتفـى المعز بابى خزر فانه الرجل التى تحتل شخصيته اكبر مقام فى البلاد ، وتسمع كلمته دون مراجعة ، وان الناس لا يقدمون باى خلاف على الحكومة فى غيابه لانهم يعرفون انه ما اخذ الا رهينة فلو قام اتباعه بشىء لوصل اليه الاذى حتى وهو فى ديار الغربة.

وأمن المعز جانب الاباضية بعد موافقة ابى خزر على الرحيل ودخل ابو خزر فعلا الى مصر وعاش هنالك عيشة رغد وهناء وكان يتمنى من حين الى حين لو اتيح له عدد من الطلبة الاذكياء ليعلمهم ويربيهم وينفق عليهم مما اتاه الله ولكنى احسب ان هذه الامنية لم تتحقق لـــه .

اما السلطان الذى كان يخشى على ملكه فى افريقية وكان يفكر للمحافظة عليه الليالى الطوال ، ويعمل لترسيخ دعائمـــه بكل الوسائل حتى كان يوصى خليفته على افريقية وهو يودعه اغرب وصية يوصى بها مسلم يتولى الحكم باسم الاسلام . فقد كان يقول لخليفته على افريقية بلكين بن زيرى الصنهاجى ، لا ترفع السيف عن البربر ، ولا ترفع الجباية عن اهل البادية ، ولا تول احدا من اهل بيتك والله وحده يعلم ماهو الجواب الذى اعده المعز ليوم الحساب حين يسأل : بماذا استحل دماء البربر ، واموال اهل البادية ، اما هذا السلطان فقد شاءت ارادة الله ان لا يبقى ملك دولتهم بعدهم الا قليلا ثم يقلبه عليهم من وثقوا به وسلموه اليه فنقض المعز بن باديس بيعتهم والحق دولته بالدولة العباسية بالعراق والملك لله وحده .

ابو الخطاب وسيل بن سنتين

قمة من قمم العلم الشامخة ، وطود من اطواد الايمان الراسخة، يسكن ريصوا ولكنه كان ينتقل فى الجنوب التونسى من بلد الى بلد ، يدعو الى المحافظة على دين الله دعوة المؤمنين المخلصين ، ينفى عنه عبث الجاهلين ، ويحارب بدع المبتدعين ، ويرد كيد الضالين ، ويحكم بما انزل الله عن المتخاصمين ، انه احد اولئك العمالقة العظام ، الذين يكافحون فى سبيل الله بكل الوسائل التى وضعتها ارادة الله فى يديه ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويبين سبل الهداية ، ويلقى الدروس ، ويجيب عن الفتوى ، ويدعو الى الاستمساك بحبل الله المتين ، ولكنه كان فى دعوته ، وفى امره ونهيه ، وفى دروسه وتوجيهاته ، وفى جميع مواقفه ـ لين الجانب ، سهل الخلق ، يتحمل ويتجمل ، ويرد بسهولة ويسر على من ينتقده بغير حق ، ويذعن ويستجيب لمن ينتقده بحق ، ويحاول ان يرد الى الصواب بحياء ورفق من يعترض احكام الله وينحرف عن سبيل المؤمنين . ويقصر نقده على مواضيع النقد، ولا يتجاوزها الى الجوانب الشخصية ، يتقبل العتاب ويفرح له . كان مستقرا فى ريصوا وفى هذا البلد الصغير كان عدد من الطوائف الاسلامية فاجتمعت تلك الطوائف على ان تتولى كل فرقة منها شأنا من الشئون الدينية او الاجتماعية فاسند الى

بعضها الفتوى واسند الى بعضها امامة الصلاة واسند الى البعض الاخر الاذان فى المساجد اما الاباضية فقد اسند اليهم القضاء والاحكام وكان ابو الخطاب هو الذى يتولى ذلك على جميع الفرق وكانت تلك الفرق تعيش فى انسجام ووئام .

وكانت ريصوا كبقية الجنوب التونسى تابعة للدولة الرستمية وحين انحرف اليقظان عن سبيل المؤمنين ، وخالف السيرة التى سار عليه اسلافه فى الدولة الرستمية فخولت له نفسه ان يتوصل الى مركز الحكم بالطرق التى يتبعها الظالمون فعمل على اغتيال الامام ليقوم هو مقامه سخط عليه الناس وحكم عليه المسلمون بالبراءة وانتقدوه فى كل مجمع ، وتجنبوه وتجنبوا مساعدته والعمل تحت حكمه ، ودعا كثير منهم الى الاقتصاص منه ، اما ابو الخطاب فرغم انه يوافق الامة على النقمة من اليقظان ، والحكم بالبراءة منه ، الا انه كان لا يريد الخروج عليه ولا يدعو الى الثورة ، بل كان يحاول ان يهدىء الناس ، وان يروضهم على الطاعة وان يجمع كلمتهم ، ويوحد صفهم . لانه كان يرى — كما يرى كثير من علماء الامة — ان الحكم القائم وان كان ظالما اهون من الفتنة والحرب ، ولذلك فقد كان يلتزم ببيعة اليقظان آملا ان يتصلح اليقظان او ان يتغير الحكم تغيرا طبيعيا فيؤول الى امام يقوم بامر الله . وتضافرت الاسباب الداخلية والخارجية على اليقظان ، فادت الى قتله ، والى انقراض الدولة الرستمية ووقع ماكان يخشاه ابو الخطاب ويحذر منه . استولت الدولة الفاطمية على اكثر الجهات التى كانت تابعة للدولة الرستمية كما انها استولت على مملكة الاغالبة وفرضت الضرائب غير العادلة على الناس فكان ابو الخطاب يجمع المقادير المقروضة من الناس ويسلمها لاعوان الحكومة الظالمة فبعث اليه علماء جبل نفوسة

ينتقدون عليه عدة امور ويطلبون منه ايضاح موقفه منها :

١ ــ التزامه الامر لليقظان

٢ ــ تغريمه للارامل واليتامى

ولما بلغ ما يطلب منه اخوانه من جبل نفوسة بكى وقال الحمد لله الذى جعل لى اخوانا يعاتبوننى على مابلغهم من التقصير قبل يو مالقيامة . ثم اوضح لهم موقفه ووجهة نظره فابان ان تغريمه للارامل واليتامى ، وجمعه الاموال من الضعفاء والفقراء وتقديمه لاعوان الدولة الظالمة انما هو مداراة عليهم ودفع للاذى عنهم ورد لما يرتكبه الظالمون مع من لا يبادر الى احضار ما يفرض عليه من الضرائب ، فهو بجمعه للاموال من الناس وتقديمها الى اعوان الدولة انما يوفر عليهم العنت والاهانة والتعذيب والمبالغة فى العقوبة ، وكأنه فى ذلك يستند الى القاعدة العامة التى وضعها بعض علماء الاسلام استنادا الى الشريعة السمحة « على العالم ان ينظر للجاهل ويتحرى له مصلحته فى الدنيا والاخرة » اما فى التزامه الامر لليقظان فقد قال لهم : « والتزامى الامر ليقظان انما التزمه احتسابا لله لا ليقظان . » فهولم يكن ينظر الى شخص اليقظان وانماكان ينظر الى الامة ويشفق عليها وهو فى ذلك يذهب مذهب كثير من علماء الاسلام الذين عاشوا فى ظلال الدول الظالمة واذعنوا للسلاطين الجورة خوفا من الفتنة وطلبا للسلام وحقنا للدماء .

ويبدو لى ان ابا الخطاب حسبمايفهم من سلوكه ومن لينه وحيائه وعشرته لمن ينقم عليه وتعامله مع من يحكم عليه بالبراءة انه كان يقدر وحدة الامة المسلمة اكثر من اى شىء فهو حريص ان تبقى الامة فى سلام لا ترتفع فيها دعوة الى ثورة ولا صيحة الى تفرقة ، لان الاختلاف والافتراق يؤدى بالامة الى حالة اشنع

من الحالة التى هم عليها ، فان الحاكم الظالم قد يمكن اصلاحه حين تستقر الامور وتهدأ اما انشقاق الامة واراقة الدماء بينها فانها تؤدى لا محالة الى القضاء عليها .

ولعل الحوادث التى وقعت بعد وصول اليقظان الى الحكم واختلاف الناس عليه ثم قتله اثبتت مقدار بعد نظر ابى الخطاب فى هذه القضية فقد جاء ابو عبدالله الحجانى الشيعى فوجد اليقظان مجفوا مبغوضا فقتله ووجد المملكة الرستمية لقمة سائغة فازدردها ، ثم ارتكب من الفواحش ما كان يشفق منه ابو الخطاب فقتل دون حساب ، وانتهك الحرمات دون حياء ،وكان من افظع الجرائم الانسانية التى ارتكبها احراقه للمكتبة الكبرى « المعصومة » التى كانت تحوى الافا من المجلدات ولا حول ولا قوة الا بالله .

كانابو الخطاب ذكيا وكان عالما بالشريعة الاسلامية وكانيفهم اسرارها فهم الفقيه المحقق الذى لا يقف عند اقوال الفقهاء ،وانما يتغلغل الى اسرار الشريعة فى مصادرها الثابتة من الكتابوالسنة والاجماع .

جاءه يوما غنى من بنى يهراسن يخبره ان له اخا فقيرا ممن لا يتصف بالورع ولا يتجمل بالتقوى وسأله هل يجوز له ان يعطيه زكاة ماله . ولو كان المفتى غير ابى الخطاب لاجاب دون ابطاء انه يشترط فيمن تعطى له الزكاة الوفاء بدين الله . ولكن ابا الخطاب لم يجب بهذا الجواب وانما طلب من الغنى ان يحضر اليه اخاه فلما حضر اتجه اليه ابو الخطاب وقال له فى لهجة قوية : تب الى الله ، واستجاب الفقير دون تردد فقال تبت الى الله فالتفت ابو الخطاب الى الغنى وقال له اعطه زكاتك ثم اتجه الى الفقير وقال له لقد البسناك ثوبا هو لباس التقوى فان تعريت منه فلا قتلك

الا الجوع . » والكلمات الاخيرة فى نظرى هى اهم ما فى الموضوع فلقد عمل ابو الخطاب على استثارة ضمير الرجل الفقير بالدعوة الى التوبة فلما استجاب له اكرمه على هذه التوبة باعطاء الزكاة فلما تم له ذلك اراد ان يشعره بانه اصبح يتحلى بجمال روحى هو جمال التقوى وان الانسان العاقل لا يتجرد مما يكسبه جمالا ومحبة وغنى .

ولعله من المناسب ان اختم هذا الفصل بكلمة لاحدى النساء من ذرية ابى الخطاب عبد الاعلى، حين توفى ابو الخطاب بن سنتين قالت ، تلك المرأة : « مات الحق وبقيتم يا زواغة ، بطون كالاخرجة ، وعمائم كالابرقه . ونعال سجلماسية ، واحكام متعوجة .»

حقا ان موت ابى الخطاب قد ترك فراغا ، فان قليلا من الرجال من يملأ ذلك المكان ..

ابو محمد جمال المزاتى

قمة شامخة من قمم العلم والكرم ، جمع الى غزارة العلم وفرة المال والجود بهما ، قال فيه ابو العباس الشماخى : « وهو من السباق فى العلم والعمل والندى . » وهو الى غزارة علمه ،وسعة كرمه ، مؤمن من اخلص المؤمنين عبادة لله ، واستمساكا بدينه، ودعوة اليه .

وكانعالم اجتماع من اكثر الناسدراسة للمجتمع ، ومعرفة بشئونه ، وعملا بما يصلح له ، ومراعاة لمصلحة الامة التى تعيش فى محنة بسبب ما تعانيه من الحكام الظالمين . والولاة الذين لا يهمهم الا ما يفرضون من ضرائب ويجمعون من اموال ليسترسلوا فى عبثهم ولهوهم .

وهو وان لم يسند اليه الحكم ولم يتول امارة ، الا انه كان يقوم مقام الحكام والامراء ، يفصل المنازعات ويحل المشاكل ، ويؤدب منيستحق التأديب ، ويدعو الى الاعتصام بدين الله على بصيرة.

هيأه مركزه الاجتماعى والعلمى الى ان يكون اعظم شخصية يجتمع على محبته واحترامه وامتثال اوامره والرضا باحكامه ـ الموافقون له فى المذهب والمخالفون ، وكان هو يعمل على ارضائهم، فى حدود الدين . كان يصلى بالجميع وفيمن يصلى بهم اتيـــاع

لبعض المذاهب التى ترى القنوت فى الصلاة فكان يقنت باى القرآن الكريم حتى يجمع بين من يرى القنوت ومن لا يراه .وكان مع هذه السهولة قويا فى دين الله لا ينفك عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى اى مكان واى صورة .

مر فى بعض اسفاره البعيدة على مدين ، ووقف على تاجر قد ازدحم الناس عليه . وهو يكيل لهم ، ويطفف الكيل ، فلطمه ابو محمد ، وقال له مذكرا بكتاب الله . « **اوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم** . « فرفع اليه الرجل رأسه وهو يبتسم ابتسامة صفراء باهتة وقال له : فينا والله نزلت يا مغربى . وكان ابو محمد يقيم احيانا بالبادية وكان الى جواره رجل غنى اليد فقير القلب تروح عليه الانعام وتغدو ، ولكن اسرته تعانى من شظف العيش وبؤس الحياة ما يعانيه الفقراء المعدمون . فرأى ابو محمد ان الزام هذا الرجل بالانفاق امر بالمعروف ولكن الرجل غلبه شحه المطاع فلم يقف ابو محمد عند الامر بالقول ولكنه انتقل الى الطريقة العملية التى هى اجدى فى كثير من الاحيان ، ولقد يحسن ان انقل لك هذه الحادثة كما صورها ابو العباس الدرجينى باسلوبه البليغ الرائع قال ابو العباس : « وذكر أن ابا محمد جمالا ، كان فى جواره رجل من اهل البادية ، فى سنة مجاعة ، وللرجل صرمة ، وقد اضربه الجوع ، وشحه المطاع مانعه ان ينحر منها ناقة فيطفىء شعث نفسه وعياله ، فبلغ ذلك ابا محمد فجاءه فوجده فى خيمة لا حراك له من ألم الجوع ، فقام ابو محمد احتسابا فى الرجل، وفى يديه حربة ، فدخل فى ابله فعمد الى ناقة كوماء ، لم ير

---

(١) الصرمة القطعة من الابل .

فى ابل الرجل احسن ولا اسمن منها ، يريد ان ينحرها ، فرآه صاحب الابل فقال لعل غيرها يا ابا محمد ، فأبى الا تلك التى قصد اليها ، فنحرها بحربته ، فلما نحرها ، قال لهم قوموا وكلوا. فلما اصبح أغارت عليهم غارة فاكتسحت ابل الرجل ، فلولا ان الله عز وجل لطف بهم ببركة الشيخ ، لماتوا جوعا ، فتبلغوا بشحم تلك الناقة ولحمها ، وسدوا فاقتهم : « وواضح ان البدوى لم يستفد الا من الناقة التى نحرها ابو محمد وهذه الظاهرة الاجتماعية التى تكشف عنها هذه القصة ، قدتكون من اخلاق الناس مدى الحياة . وليس غريبا ان تجد فى هذا العصر ناسا يملكون الابل بالعشرات والاغنام بالمئات ، ولكنهم مع ذلك لا يحسنون غير تزيين الارض بتلك القطعان ، فهم يعيشون عيشة فقر مؤلم ، تعيش أسرهم على شظف وشدة ، ولا تستفيد منهم الامة ، لا يؤدون حق الله ، ولا حق المجتمع . ونحن فى حاجة الى علماء فى فهم ابى محمد يتولون حمل الناس على اداء الحقوق لانفسهم ومجتمعاتهم حتى بالقوة . ولكنهم لا يتجاوزون فى ذلك الحدود التى شرعها الله لصيانة اموال الناس وممتلكاتهم .

كان ابو محمد ينتجع الكلأ بمواشيه مع بعض احياء مزاته . وجاءهم جباة الضرائب الذين يجمعون الاموال دون قانون او شريعة وطالبوا بالمقادير المفروضة ولكن اهل الحى تهاونوا ولم يهتموا بهم فقال الجباة ان بتنا ضاعفنا عليكم وكلما بتنا ضاعفنا الضريبة عليكم ، وبقى اهل الحى على عدم اهتمامهم وقلة اكتراثهم ، « حماقة وخرقا لا قدرة وعزا (١) » فجاء ابو محمد الى جباة الضرائب وقال لهم قفوا على ترع الاحياء ، ولاتتركوا

---

(١) تتعبير أبى العباس الدرجينى

الماشية تسرح . فانهم سوف يدفعون لكم ففعلوا فلما رأى القوم ما شيتهم محبوسة بادروا الى الدفع وانصرف عنهم الجباة فقال قائلون ان ابا محمد اعان الظلمة على المساكين والضعفاء فلما بلغه نقدهم لسلوكه قال : « ان لله على العالم ان ينظر للجاهل ويدله على ما فيه سلامة دينه ودنياه . » ليت ان علماء الامة جميعا يفهمون هذه القاعدة الهامة ويعملون بها فى مختلف العصور والازمان فينظرون للجهال ، ويدلونهم على مافيه سلامة دينهم ودنياهم . ولست اعنى بطيعة الحال حمل الناس على الرضا بالظلم ، فان هذا لا يدعو اليه مؤمن الا اذا كان مضطرا كما كان ابو محمد وقومه وانما اريد من العالم أن يدل الجاهل على ما يصلح له فى دينه ودنياه من جميع مشاكل الحياة .

كان ابو محمد فى دقة الفهم ومعرفة اسرار الشريعة والتمييز بين الحقوق فى المرتبة التى لا تدانى .

ويدل على ذلك وسائله فى الحكم واقناع الخصوم والى القارىء الكريم شاهدا على ذلك .

اعطى رجل من مزاته مبلغا من المال الى رجل اخر يتجر فيه وبينما كان التاجر يدور فى الاسواق عثر على كتاب قيم نادر هو تفسير القرآن الكريم للعلامة هود بن محكم الهوارى فاشتراه فسمع به صاحب المال فجاءه فقال للتاجر ان الكتاب لى ولك نصف الربح فقدر الربح بما تشاء وقال التاجر بل الكتاب لى ولك راس مالك ووقع بين الرجلين خلاف حاد وبلغت بهما اللجاجة حد العصبية فانتصر لكل واحد منهما قومه واصدقاؤه واقترح مقترح ان ترفع المشكلة الى ابى محمد جمال فطلب من التاجر ان يسلمه الكتاب فاخذه وقسمه نصفين اعطى لكل واحد منهما نصفا ثم قال لهما على كل واحد منكما ان يستعير النصف الثانى وينسخه .

وهكذا حلت المشكلة بارضاء الطرفين وظفرت المكتبة الاسلامية بنسختين .

ان الحديث عن ابى محمد ومواقفه يطول ولعل القصة الاتيـة كافية فى التدليل على غزارة علم الرجل واعتداده بنفسه وتمسكه بذاته عندما يعتمد هذا الرأى على سند صحيح ، قال ابـو العباس الدرجينى . « وذكر ان جماعة من المشائخ توجهوا نحو طرابلس فركبوا البحر ، ونزلوا بجزيرة جربة ، وحضروا مجلسا قد حضرته فقهاء اهل جربة ومشيختهم كابى مسور وامثاله ، فتذاكروا فى الطهارة ، حتى وردت بينهم مسألـة فوقـع فيها الاختلاف بينهم وهو ما كان من نبات الارض من الثياب ، هـل يطهره من النجس ما يطهر الارض والنبات لانها من جنسهـا ام لا ، فاجمعوا على ان الثياب كلها حكمها فى ذلك اذا نجست واحد، لا يطهرها الا الغسل بالماء ولايطهرها سواه ، بخلاف العناصر ، فخالفهم ابو محمد جمال وحده ، وقال لهم ، حكم الارض ونباتها وما يعمل منها من ثياب جميعا واحد ، يطهرها تداوم الشمس والرياح عليها اذا عرضت لها المدة الطويلة، ما لم تبق عين النجاسة قائمة . قيل فنبهه بعض اصحابه واعلمه بما كان من اتفـاق الجميع وان اتفاقهم هو الصواب . فاقام ابو محمد يحجج علـى صحة مذهبه وقوله ولم يرجع عنه ، فقال لهم ابو مسور كفوا عنه فان العالم كالاجدل اذا حلق ضرب . »

هذه صور من حياة عالم من علماء الامة كان قدوة للمسلمـين ينهج بهم نهج الحق والاستقامة ، ويخفف عنهم بكل الوسائـل اذى الظالمين ، ولا يبالى ما يصله بسبب ذلك من نقد قصر اصحابه عن فهم مراميه ومقاصده فرحمه الله ورضى عنه .

أبو مسور اليهراسنى

أبو مسور يسجا بن يوجين اليهراسنى ، علم من اعلام العلم والفضل والاستقامة ، وجد اسرة متسلسلة فى خدمة دين الله قرونا متتابعة ولا تزال بقاياها حتى الان قائمة بامر الله .

بلغ ابو مسور درجة فى العلم يقصر عنها الاقران ، وعمل فى حقل الاصلاح الاجتماعى ما يعجز عنه المصلحون .

كان رحمه الله غزير المادة ، لطيف المعشر ، سهل الخلق ، لين العريكة ، حييا متسامحا الى ابعد حدود الحياء والتسامح ، وكان ذكيا نافذ البصيرة ، وكان مع ذلك جم التواضع حليما ، يضاف الى ذلك سعة فى المال . وسخاء فى النفس ، وانطلاق فى اليد ، وكرم مطبوع ، وهذه الصفات جميعا كونت له شخصية عظيمة محبوبة ، وهيأت له عند الاباضية وغير الاباضية منزلة سامية لا يصلها الا النادر من الناس ، فكان ينظر اليه كما ينظر الى الزعيم او الحاكم المحبوب ، ينتظر الناس امره ليلبوه عن رضا ومحبة . ولكنه كان اشرف من ان يستغل محبة الناس ، وانزه من ان ينحرف عن الحق ، واعدل من ان يميل مع الرغبات واحكم من ان لا يقدر عواقب الامور ونتائجها .

كانت الدولة العبيدية فى عصره مستولية على اغلب المملكة التونسية ، ولكن نفوذها فى مواطن الاباضية كان ضئيلا لايتعدى

مبالغ من المال تؤخذ منهم . وقد كان ابو مسور هو الحاكم الفعلى كما كان الائمة من قبله . ولو شاء ان يستقل بالجنوب التونسى عن الدولة العبيدية لسهل عليه ذلك ولكنه فضل ان يبقى على الوضع الذى هو عليه والذى كان عليه الائمة من قبل مثل ابى القاسم وابى محمد وغيرهم .

كان فى سكان تونس عدد من مختلف الفرق الاسلامية ، وكان فى بعض تلك الفرق طلاب زعامة يستغلون الخلاف المذهبى او الجنسى فى الدعاية للوصول الى مراميهم الخفية ، واغراضهم البعيدة . وكان بعض اولئك الناس كثيرا ما يلقون بالكلمة النابزه فى حق ابى مسور فيتغافل ويتجاهل وينزه سمعه عن الاصغاء اليهم ، ولسانه عن مجاوبتهم . ونشط بعض الناس فى ذلك وهم يقولون عنه انه رجل غريب عن جربة ، وماذا يحق له من الشأن ، ولو طرد لما وجد من يدعوه الى الاقامة وكان يتولى كبر ذلك خاله خلف بن احمد النكارى ويتحدث به فى المجالس ويظهر الاستخفاف والاستهانة به ويحمل الناس على عصيان امره وتناثرت هذه الاخبار الى مختلف البلاد التى يسكنها الاباضية فسمع بذلك اهل جبل نفوسة كما سمع به سكان جبال دمر وبلاد الجريد ومدينة درجين وبلاد اريغ ووارجلان وما اليها

اجتمع اهل جربة ذات يوم بمختلف مذاهبهم واجناسهم لامر هام وكان ابو مسور يرأس المجلس وكان خلف النكارى من الحاضرين مع طائفة من اتباعه .

وبينما كان المجلس منعقدا اذ ورد رسول من زواغة البادية يحمل رسالة الى ابى مسور . وقرئت الرسالة فاذا فيها « وقد سمعنا ياشيخ ان النكار يقعون فيك ويهمزون ويلمزون، ويحاولون اذاك ، فان صح ذلك فاعلمنا ، نلق علينا ثيابنا ونصرخك وليس

علينا غير الازر والسلاح رغبة فى نصرتك . وقذعا لمن يرومك، ويحاول ضيمك . » فالتفت ابو مسور الى الرسول وقال له لم اسمع بهذا ولا لى به علم . وانصرف الزواغى الى قومه مطمئنا ولم يستمر المجلس طويلا حتى ورد رسول آخر من جبال دمر يحمل كتابا الى ابى مسور وقرىء الكتاب فاذا فيه .

« يا شيخ قد بلغنا ان النكار يتحركون ويسيئون اليك ، ويلكئون امرك فان صح ذلك فعرفنا، نصرخك بعسكر ويكون اوله عندك واخره هنا . » وفعل ابو مسور مع هذا الرسول الكريم ما فعله بسابقه فالتفت اليه وقال ما سمعت بهذا ولا لى به علم ولكنه ما فرغ من الكتاب الثانى حتى وافاه كتاب ثالث يحمله رسول من نفوسة كان مماجاء فيه « فان صح فاخبرنا نكسر غمد السيوف ونصلك والسيوف مصلته فى ايدينا » والتفت ابو مسور الى رسول نفوسة وطمأنه كما طمأن الرسولين السابقين واخبره ان مابلغهم ليس صحيحا وسافر الرسول واستمر المجلس فى بحث المشاكل التى انعقد من اجلها .

ذعر القوم الذين كانوا يحسبون ان ابا مسور رجل غريب فى جربة ليس له انصار وكانوا يعتقدون ان من اليسير طرده او ايذاؤه على ان موقفه الحكيم معهم وتغاضيه عن اساءتهم المتكررة ، وترفعه عن النزول الى المستوى الذى عاملوه به ، مع ما هو عليه من القوة جعلهم يفكرون فى عظمة الرجل ويؤمنون بها ويسلمون لها . واصبح خلف بن احمد النكارى يفكر بعد ذلك تفكيرا متزنا حتى انه صار يردالاذى حين يسمعه ويقول لمن يحاول ان يلمز ابا مسور ولو فى خفاء « ابو مسور امامنا اجمعين لحمى لحمه ودمى دمه »

لقد كان ابومسور عظيما حقا ، عظمة المؤمن القوى ، والعالم

المتمكن وكان واسع الاطلاع عالما باسرار الشريعة والى القارىء الكريم امثلة ممايجيب به السائلين . سأله يوما احد الناس عما يقرأ عند من حضره الموت ، فقال ما سألنى احد عن ذلك منذ فارقت ابا معروف . يقرأ عندوفاة المؤمن قوله تعالى :

« يا ايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية.»

ولعل فى الحديث الاتى ما يكشف عن عظمة نفس ابى مسور وسعة اطلاعه وعمقه فى الفهم والتحليل .

توفى له ولد عزيز عليه فاتاه المشائخ يعزونه فى الفقيد الراحل ، ويواسونه فى مصابه ، ويوصونه بالصبر الجميل فقال لهم ، ما الصبر الجميل ؟ تحير المشائخ فى الجواب ونظر بعضهم الى بعض ، ولكن احدا منهم لم يجد الجواب الذى تطمئن اليه النفس ، انهم كثيرا ما رددوا هذه الكلمة فى انفسهم ، واوصى بها بعضهم البعض ، وتمثلوا بقوله تعالى فى الكتاب الكريم على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام « فصبر جميل » وكان لها فى انفسهم صورة واضحة ، ولكنهم لم يجدوا العبارة التى تضع هذا المعنى فى اطار يوضح صورتها الجميلة فى انفسهم، فارجعوا الجواب الى الشيخ وقالوا له الجواب من عندك يا شيخ . قال ابو مسور : « أن لا تظهر المصيبة على وجه المصاب . » وفكر القوم فى معنى الجملة فوجدوا ان هذه الكلمة تعبير رائع صادق فصيح عن معنى الصبر الجميل واقتنعوا بذلك فلم يناقشوا الشيخ لانهم لم يجدوا ما ينتقدونه فى هذا التعريف او فى هذا الاطار الذى وضعه للصبر الجميل. فلما رأى ما هم فيه من الاقتناع قال لهم وهل ايسر من هذا ، وكأنه يقول لهم ان هذه المرتبة السامقة من الصبر الجميل لا يصل اليها الا قليل من عباد الله المخلصين فرد المشائخ اليه الجواب فقال لهم « مالم يتغير الوجه »

وتأمل القوم هذه الجملة فوجدوا انها غير بعيدة عن الاطار الاول انها مرتبة سامقة من الايمان والصبر والاحتساب ان تنزل المصيبة على المؤمن فلا يتغير به وجهه ولا تبدو عليه الكآبة .

واقتنع المشائخ بهذا التعريف ايضا . ولكن الشيخ زاد فقال لهم وهل اسهل من هذا ؟ ونظر القوم بعضهم الى بعض ثم رفعوا ابصارهم اليه وقالوا منك الجواب . « فقال ما لم يبك » ايكون عدم البكاء عند نزول المصيبة صبرا جميلا ، وفكر المشائخ طويلا فى هذا الجواب ولكنهم وافقوا عليه اخيرا فلو لم يكن الصبر الجميل هو الذى منع المؤمنين من البكاء لتعالى نحيبهم وطال بكاؤهم، ولكن الشيخ لم يكتف بهذا فقال لهم وهل اسهل من هذا ؟ فنظر اليه القوم مستغربين وبدأ الشك يساورهم فى ان تكون منزلة الصبر الجميل ادنى من المنزلة السابقة ولكنهم قالوا له فى شبه تحد ، الجواب من عندك .

فقال لهم ما لم يصح ، ويدع بالويل والثبور . » وكأنه احس بدبيب الشك فى نفوس القوم ، وانهم يترددون فى قبول هذا المعنى فان الشخص الذى تنزل به المصيبة فيضطرب لها وتنهمر عيناه بالدموع لا يعتبر صابرا صبرا جميلا ، فى نظرهم ولما احس بما يعتمل فى نفوسهم شرح لهم وجهة نظره فقال لهم . « لان البكاء يكون من الرحمة » . نعم ان البكاء لا يدل فى جميع الاحوال على الجزع وقلة الصبر فان العين وثيقة الصلة بالقلب الرقيق المفعم بالرحمة .

نشأ فى قبيلة بين يهراسن ثم ارتحل الى جبل نفوسة فالتحق بمدرسة ابى معروف الكبيرة فى شروس وبقى فيها ثمانى عشرة سنة يدرس حتى بلغ مرتبة اساتذته وتفوق على بعضهم وكان فى ذلك الحين فقيرا ضيق ذات اليد فكان كثيرا ما ينقع الشعير

فيشرب ماءه فى وجبة ويطبخه فى الوجبة الاخرى . لا يتأنق ولا يحتفل بالاكل ولا يشغل وقته بالتوافه من الامور ولما اتم دراسته وذهب الى جربة فتح الله عليه ابواب الرزق ، واغدق عليه النعمة واتاه من فضله فكان من اصبر الصابرين فى الاول ومن اصدق الشاكرين فى الاخر . وضع ثروته تحت تصرف الامة فكان ينفق منها فى كل اوجه الخير لا سيما وجه التربية والتعليم ترجم له المؤرخ الجربى حمد ابو راس فى كتابه مونس الاحبة فوهم فى اسمه فذكر انه ابو مسور يصليتن وانما هو ابـو مسور يسجا وقد جر هذا الوهم من ابى راس الاستاذ محمد المرزوقى الـى خلط بين شخصيتين متباعدتين فقد قال المرزوقى فى تعليقه : صفحة ٩٠ من كتاب مؤنس الاحبة ما يلى :

« يؤخذ مما ورد فى السير للشماخى صفحة ٢٣٠ انه عمر نحو مائة سنة او تزيد حيث يقول ـ عمر حتى بلغ الغاية فى السن والهرم وكان فى زمن الامام عبد الوهاب وعاش بعده ـ ومـن المعروف ان الامام عبد الوهاب ـ توفى سنة ٢٠٨ فاذا قدرنا ان ابا مسور حضر اواخر ايام الامام اى مفتتح القرن الثالث وتوفى اوائل القرن الرابع يكون قد عمر اكثر من مائة سنة وعاش طيلة مدة الائمة الرستمية وحضر على اضمحلال دولتهم سنة ٢٩٦. »
هذا تعليق الاستاذ المرزوقى والخطأ واضح فى هذا التعليق فان الشماخى ترجم لابى مسور يصليتـين النفوسى الادوناطى فى صفحة ٢٣٠ وترجم لابى مسور يسجا بن يوجين اليهراسن فى صفحة ٣٤٥ والكلمة التى نقلها المرزوقى قد وردت فى ابى مسور النفوسى الادوناطى من علماء الطبقة الخامسة اى النصف الاول من القرن الثالث اما ابو مسور يسجا بن يوجين جـد الاسرة المشهورة فى جربة فهو من علماء الطبقة السابعة اى

النصف الاول من القرن الرابع وقد اخذ العلم عن ابى معروف من علماء الطبقة السادسة اى النصف الثانى من القرن الثالث فاستاذ ابى مسورالبهراسنى اصغرمن ابىمسور النفوسىوبينهما نحو قرن من الزمان .

ويبدوان الذى جر المرزوقى الى هذا الخطأ التاريخى انما هو خطأ محمد ابى راس فى اسم ابى مسور .

هذه صور غير وافية عن شخصية علمية من رجال الاسلام ارجوان يجد فيها القارىء جوانب مشرقة تضاف الى ما للاسلام من جوانب مشرقات .

ابو نوح سعيد بن زنغيل

يكفيه شهرة وتعريفا انه تلميذ الامامين الكبيرين ابى القاسم وابى خزر وانه استلم منهما الرسالة وقام بامر الامة بعد سفر ابى خزر الى مصر . وعنهما اخذ العلم حتى بلغ مبلغ الفحول ومنهما اقتبس السيرة حتى صار قدوة . وقد أوتى فصاحة وبيانا وقوة حجة حتى شهد له بذلك ابو تميم المعز لدين الله فقال«اما ابو نوح ففتى مجادل » قال ابو تميم هذه الكلمة وابو نوح لا يزال فتى طرى العود ، يلتزم حلق الدرس ، ويتابع مجالس العلم ، ويترسم خطا الامامين العظيمين يتلقى منها المعرفة ،ويجد فيهما القدوة فى السيرة الحسنة ، فلما قتل ابو القاسم غيلة كما مر . ودعا ابو خزر الى الثورة ، كان ابو نوح انشط القائمين بالدعوة الى الثورة واشد المتحمسين للأخذ بثأر الشهيد ، وكان يتنقل بين البلدان بامر من الامام ابى خـــزر يحرض الناس ويدعوهم الى النضال وقدسافر الى الجهات البعيدة مثل جبـــل نفوسة وكاتب بنى أمية . انه كتلة من النشاط لا يقف ولا يستقر ولما اجتمعت بعض الجموع على أبى خزر وبدأوا فعـــلا ثورتهم فى بغاى كان ابو نوح فى مقدمة المقاتلين يركب فرسا ادهم يجول به فى الميدان .

ورغم ان ابا نوح انما نشأ بين حلق التعليم ولم يتدرب عـــلى

القتال الا ان كتب التاريخ اثبتت له من البطولة والشجاعة وقوة القلب والساعد ما يفتخر به ابطال الحروب وعندما دارت الدائرة على جند ابى خزر كان ابو نوح يطير بفرسه من مكان الى مكان يحمى الناس وينفس عليهم الكرب . وتشتت الجموع ، وقتل عدد غير قليل والتجأ أبو خزر الى جبل نفوسة ، أما ابو نوح فقد تنكر فى حالة راعى ابل . وجد المعز الفاطمى فى تتبع الاباضية فى البحث عن الشيخين ابى خزر وابى نوح حتى عثرت جنوده بابى نوح فى الحالة السابقة فالقوا عليه القبض واركبوه جملا وطافوا به فى البلدان . فلما نزلوا به عند الليل بادر الى التيمم للصلاة فقال له السجان ادخل الخباء واسترح وازل عنك وعثاء السفر فعلم ابو نوح انه لا يقتل حينئذ . وبقى فى الحبس اياما وكان يأتيه ناس فيقولون له لقد تركت القوم يقعون فيكم ويتحدثون عنكم فيجيبهم قائلا : مولانا خير منكم وبلغ ذلك ابا تميم فتخف حدته وغيظه وبعد ايام عفا عنه فكان يأتيه الرجل من حاشية الامير فيقول له يا حبيبى فيقول ابو نوح ارأيت حبيبا يأكل لحم حبيبه فيجيبه الاخر نحن رجال الملك من احبه احببناه ومن كرهه كرهناه .

كان ابو نوح قد كتب الى بنى امية يستنجدهم وقد اخذ كتابه الى ابى تميم . غير ان الكتاب لم يوقعه ابو نوح فعقد السلطان مجلسا للتشاور وكان فى الحاضرين يهودى كان هو الاخر يتولى بعض مناصب الدولة فقال لهم انا اتيكم بخطه واخذ ورقة وقلما ودخل على ابى نوح فى صفة الآسف على ما وقع وقال له يحسن بك ان تكتب الى الملك تعتذر اليه وتطلب منه العفو فانه لا عيب فى طلب العفو من الملوك وجلس ساعة يتحدث ثم خرج ، واقتنع ابو نوح بصواب رأى اليهودى فاخذ القلم والورقة وبدأ يكتب

غير انه لم يتم السطر الاول حتى خطرت له المكيدة فقطع ما كتب وغير خطه تغييرا كاملا وكتب رسالة العفو وطواها وبقى ينتظر. عرضت الرسالتان على المجلس الذى عقده ابو تميم فاتفقت الاغلبية على ان خطالاولىغير خط الثانية وعقد ابو تميم مجلسا قضائيا لمحاكمة ابى نوح ، ووجهت اليه فيها مختلف التهم .ولكنه استطاع ان يبرىء ساحته ببراعته وحذق مما نسب اليه .

جلس ابو تميم فى مجلس حربى يدل على السخط فقد لبس لباسه الاحمر وجلس تحت قبة حمراء على السرير الاحمر ووقف الحرس حوله بالحراب ثم امر باحضار ابى نوح يرسف فى الاغلال والقيود ، فلما رأى ابو نوح هذه الهيئة أيس من الحياة، واستعد للشهادة ، فسلم بلسان فصيح وجنان ثابت . فاطرق ابو تميم مليا ثم رفع رأسه وقال : يا سعيد ! احقا كاتبتم فينا بنى امية ؟

قال ابو نوح : ان تقبل حجتى ويرفع عذرى تكلمت ، والا فالامير يفعل ما يشاء .

قال ابو تميم بل يقبل عذرك .

وكانابو نوح كما سبق ان قلنا فصيح اللسان ، شيق البيان واسع الاطلاع فقال :

كيف نكاتب بنى امية ونأمنهم ، وقد علمت ما بيننا وبينهم ، وهم الشجرة الملعونة (١) التى ذكر الله فى القرآن .

فلما سمع ابو تميم ذلك سره وانطلق وتبسم فدفع الى ابى نوح بالكتابالذى وجهه الى بنى امية واخذفى الطريق وقال له : انت كتبت هذا الكتاب ؟ فقال ابونوح والله ما هذا كتاب كتبته

---

(١) قال ذلك بعض المفسرين القدماء .

بيدى ، فاختلف اهل المجلس فى يمينه. قال بعضهم جعل ما زائده، وقال اخرون انه لا يفطن لمثل هذا .

قال ابوتميم لو صادفتنى يوم باغاى اتتركنى لغيرك ؟ قال ابونوح لا ! .

فرجح عند ابى تميم صدق ابى نوح فى جميع ماقال او انه تظاهر بتصديقه . ثم قال له : ان القيود ادخلت الى رجلك بالعلم ولاتخرج الا بالعلم فقال ابو نوح : عسى الله ان يجعل ذلك كفارة لذنوبى .فغضب ابو تميم وقال : انحن مسيئون فيك .

قال ابو نوح ليس فى ذلك ما يدل على اساءتك . الا ترى ان الله عز وجل يبتلى عباده فيصبرون فيوجرون وليس فى ذلك ما يثبت الاساءة لله تبارك وتعالى فزال غضبه ثم ان ابا نوح طلب منه العفو فعفا عنه واعطاه مالاجزيلا وثيابا حسانا فرق الجميع على الناس بعد خروجه من القصر ورآه بعض الحاشية وهو يفرق الاموال فذهب الى ابى تميم واخبره ان الرجل مجنون فقد جعل يبعثر الاموال التى منحها له فقال ابو تميم ليس بالرجل جنة ، وانما هو منتحل زعامة ورئاسة .

حرص ابو تميم بعد ذلك ان يقرب اليه ابا نوح وان يحضره الى مجلسه من حين الى اخر ، وان يستشيره فى بعض الامور ، وقد سأله يوما عن مكان ابى خزر فاجابه ابو نوح بانه لا يعرفه فقال ابوتميم تأتى به دراهمنا اينما كان فسكت ابونوح لهذا التحدى ولم يجب فقال ابو تميم اترانا نخشى امره؟ قال ابو نوح ان امنته وامنت الناس فى جميع الجهات لا تخشى امره واذا لم تفعل فانك تخشاه وتخشى امره وعرف ابو تميم فى هذا الجواب صدق النصيحة وان لم يخف عليه ان ابا نوح انما قصد خير شيعته بذلك فبعث ابو خزر بالامان الى جميع مواطن الاباضية

وبلغ خبر ذلك الى ابى خزر فى جبل نفوسة فاستعد للرجوع . وعلم المعز برجوع ابى خزر الى موطنه فى الحامة فبعث الى ابى نوح يأمره بلقاء استاذه وصديقه وذهب ابو نوح فاستقبل صديقه فى قابس ثم دعاهما ابو تميم اليه واكرم وفادتهما واظهر من احترام ابى خزر واجلاله ما لم ينله غيره وقرب مجلسهما وصار لا يستغنى عن رأيهما وهو يعمل كل ذلك لينسيهما حركة الثورة وان لايدع فى نفسيهما سببا للانتقاض عليه ولما عزم على الانتقال الى القاهرة حرص اول ماحرص على اصطحابهما فاجاب ابو خزر اما ابو نوح فقد ادعى المرض يوم الرحيل ولما جاءه اعوان الملك يدعونه الى مرافقة الملك وجدوه مصفر اللون فى حالة تدعو الى الاشفاق فاخبروا الملك بذلك فتركه وسافر ويقول المؤرخون ان ابا نوح اغتسل بماء النخالة فاصفر لونه حتى حسبه الناس مريضا .

بعد سفر ابى خزر الى القاهرة لم يطل المقام لابى نوح فكان يتنقل من مكان الى مكان يلقى دروس الوعظ والارشاد ويحث الناس على الاعتصام بدين الله والاستمساك به ، على انه لم يأمن جانب الدولة العبيدية لا سيما بعد وصية المعز ابى تميم لخليفته بلكين ابن زيرى فانتقل الى وارجلان وكان بها فى ذلك الحين الامام العظيم ابو صالح جنون بن يمريان مرجع الاباضية وملاذهم واعلم علمائهم فى تلك الانحاء فاستقبله استقبال الاخ المحب لاخيه وآواه ايواء الاب لابنائه البررة الاعزاء عليه واجرى عليه من الاموال والارزاق ما يستطيع ان ينفق منه ابو نوح على سعه ورغد وعامله الاباضية هنالك بما يعامل به اعاظم الرجال وكانوا يجتمعون اليه فى مسجد جنون ويستمعون الى دروسه القيمة فى شغف ورغبة وتعطش وكان طلبة العلم لا يفارقونه ويسمرون معه

الى ساعات متأخرة من الليل . وارتفعت بينه وبين الطلبة الكلفة حتى قال له احدهم يوما حدثنا بكل ما حفظت فقال ابو نوح كيف احدثكم فى ليلةواحدة بما اكلت فى تعلمه اقفزة من ملح .

وبعد زمن اشتاق الى موطنه فاراد الرجوع وحاول ابو صالح انيثنيه عن عزمه وعرض عليه ان يقاسمه جميع امواله واملاكه وكان ذا ربع كثيرفاصر ابو نوح على السفر . ولما وصل الىالمملكة التونسية وجد الامور قد تغيرت عما كان تغيـــيرا كبيرا فقـد استبدت الدولة الصنهاجية بالناس وعاملتهم اقسى معاملـــة وحاربتمن يخالفها فى المذهب بكل الوسائل ، فأسف على ذلك قال له بعض الناس ما أخرجك عن وارجلان وقد احسنوا اليـك قال حب الاخوان والاصحاب .

وكانيتقلب بين بلاد الجريد وجبال دمر ومنطقة الحامه يدعو الناس الى المحافظة على دين الله وعدم الاغترار بالدنيا وذهب يوما الىدرجين فاستقبله مقدمها ورحب بهاجمل ترحيبواستقبله احسن استقبال ، فحدثه ابو نوح عن السيرة ونهاه عن البدعة ، واوضح له ان المؤمن لا تخدعهالدنيا لا بالمالولا بالسلطة ، فوجد عنده حسن استماع ، واستعدادا للقبولبينماكان ابو نوح فى درجين ، سمع به المنصور بن بلكين فبعث اليه يدعوه .وقدانبعثت الشكوكمن هذه الدعوة فى قلب ابى نوح ولذلك رأى انيستشير فذهب الى مقدم درجينواخبره بدعوة المنصور فقال له المقدم . ان اردت المسير اليه فلا خوف عليك وانلثتردكفيتكأمره فسار ابو نوح الى المنصورفقرب مجلسه واكرم وفادته وابقاه بجانبه وكان كثيرا ما يرد بعض العلماء للجدال والمناقشـــة فى بعض مسائل التوحيد وعلم الكلام فتتحطم الشبه التى يعرضونها على حجة ابى نوح وقد ذكرت كتب التاريخ امثلة من تلك المناقشات

فاذا شاء القارىء الكريم الاطلاع عليها فعليه انيرجع الىمظانها فى كتب التاريخ التى ترجمت للامام ابى نوح .

عاش ابونوح حياةحافلة بالعلم والعمل ولقد تقلبت بهاحداث التاريخ وانتقل من مكان الى مكان فعاش فى المملكة التونسية وزار بلاد الاباضية فى الجزائر واقام بها حينا من الدهر وذهب الى جبل نفوسة وتنقل بين مدنه وقراه وارتحل الى مناطق فزان حتى بلغ زويلة بنى خطاب . وكان فى جميعاحواله عندما كان تلميذا لاعظم امامين عالمين وعندما كان داعية من دعاة الثورة على الظلم وعندما كان متنكرا فى ثياب راعى ابل وعندما كان مقربا من السلاطين وعندما كان متنقلا من مكان الى مكـــان للوعظ والارشاد والتعليم . كان فى جميع هذه الاحوال مثال المسلـــم الحريص على دينه الوفى لعقيدته المخلص فى عمله الدءوب على عمل الخير وقولالخير والكفاح من اجل الخير فرحم الله ذلكالرجل العظيم ورضى عنه .

ابو صالح اليهراسنى

نشأ ابو صالح ابو بكر بن قاسم اليهراسنى فى (ازارن) وهى ناحية من البادية ، خصبة المراتع، سهلة المرابع، خضراء الوديان، مونقة الربا تعجب اصحاب الماشية . وقضى طفولته ، يتمتع بما يتمتع به اصحاب البادية من حرية وانطلاق ، مع جمال الطبيعة ، فاكتسب بذلك قوة فى البدن والارادة ، وانطلاقا ووضوحا فى الخلق والطبع ، ودربه على الحديث وفصاحة فيه .

اخذ العلم عن الاشياخ الذين كانت تمتلىء بهم تلك الاحياء الضاربة فى بطون الصحراء ثم التحق بمدرسة العلامة الكبير ابى الربيع سليمان بن ماطوس فاغترف منها حتى اصبح من الفحول، واخذ فيما احسب عن ابن زرقون فى اواخر ايامه واصبح علما من الاعلام . يرجع اليه فيما دق وجل من الامور . وكان مرجعا فى جميع مشاكل الحياة سواء كانت تلك المشاكل عملية او دينية او اجتماعية وحتى سياسية فى بعض الاحيان .

ولقد وثق فيه الناس ثقة كاملة ، فولوه من امورهم ما لا يسند الا الى المؤمنين الاكفاء . فكان اليه المرجع فى الفتوى واقامة الاحكام ، وتأديب الجناة، والفصل فى المشاكل والاستمرار فى القاء دروس العلم الى مختلف الطبقات. فكان يتولى ذلك جميعا بحزم

وقوة ودراية ،ومع حرصه على اقامة العدل والمساواة بين الناس فانه كان يرفض الفصل فى المشاكل التى يكون احد اطرافها من صهناجة ولايتولى تأديب الجناة منهم . ذلك ان هذه القبيلة العاتية كانت قد تولت الحكم فى المملكة التونسية فى ذلك الحين فترة من الزمن. فاستبدت بالحكم. وسارت به كما شاء لها الهـــوى لا تتقيد بقانون ولا شريعة .

واننى حين اقول هذا الكلام تبعا للمؤرخين استغفر الله تعالى فى هذا التعميم فانه لا شك ان افراد القبيلة لا يتساوون وان فيهم ولا ريب مؤمنون يحفظون عهد الله ويحرصون على اقامة دينه ، ويعصمهم الايمان عن المشاركة فى الاثم ، وانمـــا البغى الذى حال دون ايصال الحقوق الى اصحابها ، والعدوان الـــذى سلط على الناس دون مبرر والطغيان الذى تقوده شهوة السلطة حتى تبلغ به دعوى الربوبية انما كان بيد الفئة الحاكمة التـــى وصلت الى السيطرة على مقدرات الامة دون ان يؤهلها لذلـــك دينها ولا عملها ولا خلقها ، وانما اوصلتها السبل الملتوية التى تجرى عليها السياسة الباغية فى كل زمان وفى كل مكان ، ويبدو مما يقصه المؤرخون ان ابا صالح اليهراسنى الذى عاش فى فترة الدولة الصنهاجية وحينما تولى الحكم فيها سلاطين ظلمة يعمدون لتوطيد ملكهم بما ملكت ايديهم كان لا يستطيع ان يجرى الاحكام على المجرمين من هذه القبيلة . لان التعصب القبلـــى والمذهبى فى ذلك الحين قد بلغ اقصى ما يمكن ان يبلغه بسبب المسلك الذى سلكه المعز بن باديس الصنهاجى .

والحقيقة ان ابا صالح لم يتـــول هذه الاحكـــام للدولـــة وانما اسندها اليه العزابة. ورضى الناس به لثقتهم فيه ورضاهم

بحكمه فهو يتولاها منهم رغم انه لا يملك قوة السلطة ولا تأييد الحكام .

على ان الثورا تالتى كانت تندلع السنتها باستمرار ، وزحف العرب الهلاليين واخوانهم بنى سليم ، وغارات السلب والنهب التى قاموا بها . وما يصيب الاحياء الضاربة فى الصحراء من الغارات والروعات واغتصاب الاموال وما يتبع ذلك من ويلات ومصائب . اقلق ابا صالح فترك البادية وانتقل الى جربة وسكن بها واستوطنها .

كان ابو صالح عالما واسع المعرفة ومؤمنا خالص الايمان ، ومربيا خبيرا باساليب التربية السليمة ، وحاكما قوى الارادة لا تأخذه فى الله لومة لائم فهو اما ان يقيم الحق ويثبت العدل واما ان يتخلى عن الحكم واسبابه .

وكان حريصا على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والمحافظة على دين الله ، ومحاربة البدعة والمبتدعين، لا يحول بينه وبين ذلك تعب ولا مشقة ومع ذلك فهو متواضع كريم النفس ، يعترف بالحق ويقر بالتقصير .

سمع ان بعض المبتدعين قد استقروا فى جبل (دمر) وانهم ينشرون بدعهم هنالك حتى كادوا ان يؤثروا بها على الناس وان يجدوا لدعاويهم اذانا . فاستدعى اليه ولده ويسلان وامره ان يصحبه فى رحلته اليهم على كبر سنه وضعف بدنه وتغلب الشيخوخة والهرم عليه وكانت جبال (دمر) وعرة المسالك صعبة المراقى . قالى التيجانى (!) يصف قسما منها : « وهو جبل مرتفع فى السماء قدسهلت فيه طرق ضيقة لا يسلكها السالك الا على

---

(١) رحلة التيجانى صفحة ١٨٥ .

غرر وقد تدرب اهلها على سلوكها فهم يتنازون فيهـــا تنـــازى العصم، وكذلك غنمهم وابلهم ، يسلك البعير منها مسالك لا يستطيع الادمى سلوكها الا بالحيلة . » فلمابلغ القرية وهـــى فى قمة الجبل قصد رئيس الجبل زيرى بن كملين . فاستقبله الرجل بالترحاب ولكن الشيخ عجل عليه باللوم والتوبيخ وانبه على تسامحه مع هؤلاء المبتدعة الذين يزرعون البدعة ، فيقودون الناس الى الانحراف عندين الله . ولكن مقدم (دمر) كما يسمى حينئذ اعتذر بانه ليس لديه من العلم ما يقف به فى وجه اولئك الناس ، وانه ليس فى دمـــر من يستطيـــع الرد على اولئـــك الذين وجدوا الجو خاليا فباضواواصفروا بحجة العلم وبرهـــان الاقناع ، وانه كان من واجب العلماء فى جربة وغيرها من البلاد المجاورة انه يزوروهم وان يعلموهم، وان يردوا عنهم السنة السوء ، فاجاب الشيخ انما منع العلماء من تكرار الزيارة ماكان عليه اهل جبل دمر فى ذلك الحين منضعف اقتصادى بسبـــب الجفاف من جهة والضرائب المتتابعة من جهة اخرى فمجىءالعلماء اليهم يكبدهم نفقات قد لا تتيسر لهم فقال زيرى اذا اشفقتم علينا من الناحية الاقتصادية فهلا جئتم الينا وحملتم معكـــم ازوادكم فقمتم بواجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتعليم الجاهل ورد البدعة واحياء السنة ولم ترزأوا الناس شيئا فى اموالهم . فاعجب الشيخ بجواب زيرى بن كملين مقدم جبل دمر واعترف ان هذا القولحق وان العلماء مقصرون وان الحجـــة قامت عليهم وان من يتصدى لحمل رسالة الاسلام يجب ان لا يعوقه شىء عن اداء مهمته العظيمة . كانت تتعاقب عليه حلقات من الطلبة مختلفةالمستوياتوكانت اكبر الحلقات مستوى فيهـــا ابنه ابو محمد ويسلان وابو يخلف النفوس وكان ابو يخلف

فقيها حاذقا ذكيا كثير الحفظ متقنا لمسائل الطهارات ضابطا لاصولها وفروعها فكانابوصالح يحيل عليه الاسئلة التى ترد فى الحيض والطهارات ، فيجيب ابو يخلف فى حياء وادب بما عنده من علم ثم يعتذر فى تواضع . وهكذا لا يستنكف كل من العالمين عن الاعتراف بالقصور ولا يستبد به الغرور الذى يصيب بعض المتعلمين فى العصر الحاضر فيأنف ان يسترشد من هواعلم منه واهدى . ولقد كان الى هذا الخلق القويم شديدا فى امر الله ينكل بالعصاة والمجرمين ، ولا تأخذه بهم رأفة فى دين الله وحينماكان بالبادية قد اعد خشبة ثقيلة فيها سلاسل منالحديد، يربطهم فيها عندالليل لئلا يهربوا قبل ان يجرى عليهم الادب او تؤخذ منهم الحقوق وعندما انتقل الى جربة القى تلك الاخشاب بما فيها من حلق الحديد فى بئر خوفا أن تستغل فى غير حق أو تستعملفى غير ما وضعت له . وعاقب فتى ممن درس على ابى بمافيها من حلق الحديد فى بئر خوفا ان تستغل فى غير حق ، او مسور فشدد فى عقابه فذهب الفتى الى شيخه ابى مسور يشكو اليه قسوة ابى صالح فقال ابو مسور للفتى وطن نفسك على ما تلقى من ابى صالح ، فان المؤمن كالحديدة المحماة تحرق ما يقع عليها او تقع عليه .

ويبدوان الفتى لم يتعظ بعقاب ابى صالح ولا بدرس ابى مسور فعاد الى ما ارتكب فاعاد الشيخ تأديبه بما عرف عنه من الشدة فى دين الله فذهب هذه المرة الى ابى زكرياء . يشكو اليه ما يلقى من ابى صالح وكان ينتظر ان يقف ابو زكرياء الىجانبه. وانيطلب من ابى صالح ان لايلجأ الى العنف فى تأديب هذاالرجل ولكن ابا زكرياء حين سمع منه ذلك . تجهم وجهه وبدا الغضب عليه ، وقال له فى قوة ، ارجو ان لا يؤاخذ الله ابا صالح فيما ترك من تمام ادبك . فان اباك ذكر انك تنتف لحيته وهكذا

تعاون المشائخ على تأديب العصاة واتفقوا على اسلوب ابى صالح وطريقته .

وابو صالح مع هذه الشدة التى يستعملها مع العصاةالمتقدمين فى السن فقد كان رحيما رقيق القلب واسع الصدر لا يلجأ الى الشدة الا للضرورة ويستعمل وسائل التربية الاقناعية ما لم تدع الضرورة الى غيرها .

كان موضوع الدرس فى يوم من الايام « اللباس فى الصلاة» وبينما كان الشيخ منهمكا فى تقرير الدرس وايضاح جوانبه اراد احد الطلاب ان يداعب الشيخ فقال له : هل تجوز الصلاة بثوب واحد ؟ واجاب الشيخ على الفور . نعم تجوز اذا كان الثوب طاهرا ساترا للعورة ــ وابتسم الطالب فى خبث وقال ارأيت ان كانالثوب شاشية (١) فقال الشيخ فى بساطة نعم تجوز الصلاة بها اذا كانت طاهرة ساترة للعورة ، وضحك التلاميذ واستمر الشيخ فى الدرس دون ان يغضب كما قد يفعل اكثر المدرسين الذين يضيقون بشقاوة الطلاب وعبثهم .

ناول فى يوم من الايام كتابا لاحدالطلاب المجيدين وأمره ان يقرأ درسا معينا؟ وبدأ الطالب القراءة واستمر فيها وكان الى جانبه زميل له دونه فى العلم والفهم ولكنه كان يتظاهر بالمعرفة وكان لا يفتأ يصحح للاول قراءته فاراد الشيخان يلقنه درسا تأديبيا لينا فقال للتلميذ الذى بيده الكتاب اعط الكتابلمن هو احسن قراءة منك وأشار الى زميله فسلم له الكتاب واراد القراءة فلم يستطع وبان له ضعفه بالنسبة الى زميله واكتفى الشيخ بهذا الدرس العملى فى تربية التلميذ المنتفخ الذى غلبه حب الظهور على نفسه .

---

(١) الشاشية لباس الرأس من قماش او غيره .

هذه امثلة من اساليب التربية عند الشيخ بالنسبة لافـــراد الشعب ولطلبة العلم وبقى علينا ان نذكر امثلة من قصصـــه للمشاكل وحكمه بين الناس وايصاله للحقوق الى اصحابها .

عندما كان الشيخ بجربة باع رجل لرجل سلعة اتفقا على تحديد ثمنها بستين غير انهما لم يبينا العملة فلما اراد المشترى ان يدفع الثمن قال البائع العملة ذهب . وقال المشترى بل نحاس وتخاصما وارتفعا الى ابى صالح فقال ابو صالـــح ان العرف الجارى فى جربة التعامل بحناديس النحاس فعلى البائع ان يقبل هذه العملة او ان يأخذ سلعته .

ووردت عليه يوما قضية اخرى فقد كان لنكارى على اباضى دين مقداره دينار واحد فمات الاباضى ولم يخلف شيئا غير شاة واحدة فجاء صاحب الدين الى ولد المدين الميت وطلب اليه اداء دينه فقال الولد دونك الشاة فبعها وخذ مالك وقال صاحب الدين بل بع شاتك وأعطنى مالى فارتفعا الى ابى صالح فقال ابو صالح للاباضى بع شاتك واعط للرجل ماله. فقال بعض الحاضرين ممن تغلب عليه العصبية المذهبية ان ابا صالح اعـان النكارى على الاباضى فاجابهم رحمه الله بان الحكم لا يختلف باختلاف مذاهب المتخاصمين .

وقال ابو محمد ويسلان لو ان العواطف تؤثر على ابى لاثرت عليه فى هذه القضية لانه يستطيع ان يستند الى قول مشهور فى الفقه وهو ان الوارث لا يلزمه شىء من ديون الميت اذا تبرأ من التركة فلو شاء لاستند على هذا القول واعتمده وحكم للاباضى. قال أبو العباس الدرجينى . اذا لم يخلف المدين الا معينا فعـلى الحاكم ان يجتهد فى النداء حتى يبلـغ اقصى ثمنه فى الوقت ثم

يقضى الدين وهو الصواب انشاء الله لئلا يقوم غيره منأصحاب الديون على الوارث .

كان رجل فى جبال دمر يكنس مربدا له بجانب منزله فرمى حجرا وراء جدارفوقع على رجلفمات ، ونتجت عن ذلك مشكلة تعددت فيها الاراء والنظريات، واخيرارفعوها الى ابى صالح فحكم فيها بالدية على عشيرة الرامى وسمع بذلك مقدم جبال دمر زيرى بنكملين ففرح بهذا الحكم ايما فرح لانه كان يأخذ الثلث من الدية على عادتهم وزعم زيرى وقومه ان هذه السيرة اخذوها عن السلف من الائمة . فغضب عليهم أبو صالح وانكر عليهم انكارا شديدا وافهمهم ان هذه العادة تخالف احكام الاسلام ، واقنعهم ان هذه السيرة لا يمكن ان تكون من الائمة لانهامخالفة لشريعة الله وما كان الائمة ليعملوا عملا يخالف شريعة الله ولم يزل بهم حتى ابطلها فيهم .

وكان ابو صالح يجمع الى غزارة المادة فى العلم والقوة فى دين الله ، والشدة على العصاةواللين والمحبة فى معاملة التلاميذ ، عاطفة فياضة وقلبا رحيما بكل ما خلق الله . وهو فى هذا شبيه بالعلامة ابى مهاصر موسى بن جعفر . فقد غابعن اهله لشأن من الشؤون وترك فيهم ناقة مصراة (١) فلما رجع بعد ايام وجد ان اهله لم ينزعوا الصرار عنالناقة ، حتى اثر فيها الخيط وتقيح موضعه فغضب غضبا شديدا لهذا الاهمال وجعل ينزع الخيط عن الناقة والقيح يقطر عليه فجاء ولده ويسلان يبعد اكمام الشيخ حتى لا ينزل عليها الصديد ، فانتهره الاب وهو يفك الخيط ويجعل على موضع التقييح بعضالادوية التى تجففه .

---

(١) الناقة المصراة التي شد ضرعها بالصدار لئلا يرضعها ولدها .

وكان كثيرا ما يلجأ الى التربية العملية وهو يتولى ايضاح بعض الاحكام لولده ويسلان بدون ان يشعره بذلك .

طلب مرة من ويسلان ان يصحبه فى رحلة قصيرة فركب الاب اتانا فارهة وكان الولد المؤدب العالم يسير الى جانب ابيه فلما كان ببعض الطريق طلب من ويسلان ان يقتطع غصنا من شجرة برية يناوله اياه ليسوق الحمارة ففعل ويسلان فلما ناوله القضيب الجديد رمى بقضيب كان فى يده وقال لويسلان هذا هو المال الذى يسميه العلماء متروكا ويحل اخذه .

وفى سيرهما ذلك وجدا شاة على اخر رمق لا يعرفان لمن هى فقال لولده اذبحها يا ويسلان فتردد الولد وتحرج فنزل الشيخ عن الدابة وذبح الشاه وقال لولده انتم اهل هذا الزمان ، لا تصلحون لشىء، ولا تجزون عن احد فى كبيرة ولا صغيرة . وهو بذلك يريد ان يعرف ولده متى يجب عليه التحرج ومتى يجب عليه القيام بواجبه من المحافظة على اموال المسلمين ان تضيع . فقد كان رحمه الله شديد العناية باحوال الناس كثير الحرص على اموالهم شديد التفهم لمشاكلهم وكان يريد من العالم ان يفهم اسرار الدين الحنيف فيعرف متى يجب عليه العمل ومتى يجب عليه التوقف .

زاره فتيان وشكوا اليه اباهم وذكروا له ان اباهم يفرق الاموال ويبعثرها دون حساب فبعث اليه فحضر الرجل فاخبره بشكوى اولاده فقال الرجل اننى امرؤ قد ارتكبت بعض المعاصى اول عهدى وقد من الله على فتبت فانا ادفع كفارات عن آثامى السابقات ثم عقب على ذلك فقال ايريدون ان اكون من اولئك الذين هددهم القرآن الكريم لانهم يكنزون الذهب والفضة ، فاستحسن الشيخ جواب العامى ووجد ان الحق بجانبه فتركه .

وكان رحمه الله جم العبادة كثير الصلاة محافظا على الطهارة في جميع احواله زاره بعض المشائخ في مرضه الاخير ، وكان في عريش خارج البيت ، وكان بقربه محل للوضوء ، فجعل المشائخ يحذرون ان يمس الثرى ثيابهم ولاحظ الشيخ منهم ذلك فقال لهم لا تحذروا على ثيابكم فانني لم آت ذلك المحل بنجاسة قط .

وكان من عادته بعد ان يؤدي ما اعتاد من النوافل ان يدعو اليه احد طلبته فيأمره بقراءة آي السجدة كلها فيسجدها واحدة واحدة قبل ان ينام .

وكان رحمة الله عليه عفيف اللسان كثير الادب جم الحياء لم تسمع منه كلمة (شر) في حياته الطويلة الا مرتين . سئل في الاولى عن بئر في بستان لغير مالكه هل هي عيب فقال شر العيوب، وسئل مرة اخرى عن رجل وكل رجل ان يزوجه فزوجه اربع نسوة مرة واحدة فقال هو شر الوكلاء .

ولعله من المناسب ان اختم هذا الفصل بالكلمة الاتية التي رواها عنه طلابه كان رحمه الله ان يقول : «يأتي على الناس زمان يود الرجل من يأكل طعامه فلا يجده ويود من يستشيره فلا يجده ، ويود من يرجع اليه امر النازله تنزل عليه في امر دينه فلا يجده لا لقلة الناس بل لقلة الفضلاء منهم ، فمن ادرك ذلك الزمن منكم فليتمسك بما حفظ من دينه دين الله عز وجل . وليعض عليه بالنواجذ . » ويبدو لي اننا ادركنا هذا الزمان حقا فان المواكلة اصبحت لغير الله وان الاستشارة اصبحت في اكثر الاحيان التماسا للعصبية والفتنة اما النازلة فقد قل من يفهمها ويرشد الى الخلاص منها فلا حول ولا طول الا بالله انا لله وانا اليه راجعون .

ابو زكرياء فصيل ابى مسور

قال فيه ابو العباس الدرجينى « الطيب موردا ومرعى ، الكريم اصلا وفرعا،ورث المجد عن امجد الاباء ، واورثه نجباء الابناء.»

عاش ابو زكريا فى القرن الرابع ، ولد فى اوائله وتوفى فى اواخره ، وعده ابو عبدالله محمد بن زكرياء البارونى من علماء الطبقة الثامنة اى النصف الثانى من القرن الرابع .

كانت جربة فى هذاالعهد شبه مستقلة ،فلقد احتلها العبيديون سنة ٣١١ واخرجهم منها ابو يزيد بن كيداد سنة ٣٣١ ثم قتل ابو يزيد سنة ٣٣٥ فخرج منها انصاره ومنذ ذلك الحين بقيت جربة مستقلة يتولى شئونها شيوخ العزابة كابى زكرياء فصيل وابى عمرو النميلى وغيرهم الى سنة ٤٣١ حين احتلها من جديد المعز بن باديس .

ويبدو ان ابا زكرياء فصيل لم يهتم بالشؤن السياسية ، ولم يوجه عنايته الى انظمة الحكم ، ولم يدع الى محاسبة الدول الظالمة. وانما كان يهمه ان يعيش اهل الجزيرة فى امن وهدوء وسلام ، ولذلك فقد كان رفيقا فى معاملة الولاة ورجال الحكم على البلدان المجاورة ، يظهر لهم الاحترام . ولا يتدخل فى شؤونهم واذا ورد احدهم الى الجزيرة سعى فى اكرامه واحترامه ، وتلطف معه حتى

يأمن شرهم ولا يستفزهم الى العدوان ، وكان موقفه هذا عكس موقف العلامة ابى عمرو النميلى الذى كان من اشد الناس نقمة على الظلم والظالمين ينتقد انحراف الدول الحاكمة فى ذلك الحين ويوضح بعدها عن المنهج الاسلامى فى دروسه العامة والخاصة ويرى ان ذلك مخالفة لدين الله والمخالفة لدين الله منكر يجب على المؤمن ان ينهى عنه وان يبرأ من فاعله .

قال ابو العباس الدرجينى حين ترجم لابى زكرياء فصيل « وكان ابو زكرياء ربما عامل ابن ويمى وأشباهه بالاكرام ، وقابلهم باطعام الطعام ، فاذا فعل شيئا من ذلك تبرع باطعام مثله ، فالاول وقاية العرض ، وابقاء الحرمة ، والثانى تكفير عن الاول » ويدل على موقف ابى زكرياء من الحكام الظالمين ما ذكره اكثر المؤرخين الذين ترجموا له . فقد كان اهالى جربة كما اشرت آنفا مستقلين أو شبه مستقلين عن الدولة الحاكمة سواء فى ذلك الدولة العبيدية فى اخر ايامها والدولة الصنهاجية فى اول ايامها غير ان الدولة الصنهاجية وقد كثرت عليها الفتن من كل الجهات والجوانب كانت فى حاجة دائمة الى مزيد من المال ولذلك فما تتهيأ لهما فرصة للاستقرار حتى توجه ولاتها الى جباية الضرائب ممن يدين لها بالطاعة واخضاع من لا يدين لها بالطاعة واستباحة اموالهم وفرض الضرائب عليهم . وفى احدى هذه الفترات بعد الزحفة الهلالية امرت عاملها على القيروان ان يتوجه الى احتلال جربة واستباحتها وغنيمة اكثر ما يمكن من الاموال واستعد عامل القيروان الذى تسميه المصادر التاريخية التى بين يدى ابن ويمى المزاتى وكان فاسقا جائرا واتجه الى جربة فى جيش كثيف ولكن هذا العامل كان كثيرا ما يزور جربة زيارات عادية فيلقى من ابى زكرياء الاكرام والاحترام ولذلك

فعندما أمر باحتلال الجزيرة بعث الى ابن ابى مسور يخبره انه مكلف من طرف الدولة باحتلال الجزيرة ويطلب اليه ان ينحاز باهله واقاربه وبنى يهراسن الى المسجد حتى لا ينالهم اذى من الجيش الغازى . ودخل ابن ويمى الجزيرة وارتكب فيها من الافاعيل ماكان حريا ان يرتكبه امثاله من الفساق الذين يتعاونون مع الحكومات الظالمة فى قهر الشعوب والتسلط عليها . ولما اتم المجزرة التى استعد لها وجمع من الاموال ما امكن ان يجمعه ذهب الى ابن ابى مسور يطالبه بفرض الضريبة على بنى يهراسن وسأله فى وقاحة القائد المنتصر عن مقدار الضريبة التى يستطيع بنو يهراسن قوم ابى مسور ان يدفعوها اليه واخبره العالم الجليل انهم ضعفاء وانهم لا يستطيعون ان يدفعوا اكثر من دينارين فرضى بذلك ودفع ابن ابى مسور له دينارين من ماله الخاص فقبلهما ابن ويمى وهو يقول لقد افسد اهل جربة الرعية على السلطان .

ذكر هذه القصة اكثر المؤرخين الذين تحدثوا عن ابى زكرياء فصيل واعتبروها من كراماته فلولاه للقى بنو يهراسن ما لاقاه غيرهم من ابن ويمى وجنده ولقد قرأت القصة وتأملتها مرارا وراجعتها فى غير مصدر من مصادر التاريخ التى لدى وكانت اسئلة كثيرة حائرة تثور فى ذهنى كلما عدت الى التأمل فيها .

ان الموقف المسالم للحكام الظالمين عندما يتغلبون على الامة هو الموقف الذى وقفه كثير من علماء الامة ، بل لقد ذهب بعضهم الى ان الرضا بالحكم الظالم اولى من الثورة عليه لما تجره من النكبات. ومع اننى اعلم هذا ولست اجد شيئا انتقده على مسلك ابى زكرياء مع الحكام الظالمين، وملاطفته لهم واكرامه اياهم ، ومحاولة عدم الاصطدام معهم ، الا اننى غير مطمئن لهذا الموقف الاخير

منه رضى الله عنه . لقد عاشت جربة كما قلت انفا مستقلة او شبه مستقلة عن الدولة العبيدية ، والصنهاجية فى اكثر الاحيان وكانت غير خاضعة لها . اللهم الا فى مبالغ من المال تدفعها فى بعض الاحيان . فلماذا يهادن ابو زكرياء عوامل الظلم ، ويسالم ايدى العدوان ، وينفصل بمسلكه عن علما عصره ، امثال ابى عمرو النميلى وابن صالح اليهراسنى، وابى موسى الزواغى وابى محمد كموس ، وابى بكر ، وغيرهم ، ويرضى ان يرتكب الظالمون الفواحش فى جربة ، فى الحين الذى ينفصل هو بآله من بنى يهراسن مثلا فلا يمسهم سوء وهل لنجاة بنى يهراسن دون اخوانهم من اهل جربة قيمة ، وهل يمكن ان يصدق ابو زكرياء وعد ابن ويمى ، فلا يفعل شيئا الا ان يخرج باله الى المسجد ليقيهم سطوة المعتدين . الم يخامره شك فى ان طلب ابن ويمى له بانفصاله لايقصد به تكريم ابى مسور وانما يقصد به اضعاف صف المقاومة فى جربة وتفريق الكلمة .

انها خواطر كانت تتعاقب فى ذهنى وانا امر بأحداث هذه القصة فاردت اثباتها هنا وهى لا تعنى شيئا واحسب ان القراء الكرام سوف يمرون بها ساخرين . فان احداث التاريخ لم تتوقف فى يوم من الايام تنتظر ما تكتبه عنها اقلام الاجيال القادمة .

كان ابو زكرياء جبلا من جبال العلم ، ومؤمنا شديد الايمان، ومحبا للسلام مخلصا فى حبه وكان يتمسك بالواضح فى دين الله ويصر على العمل بالعزيمة ، ولا يميل الى الفتوى بالرخصة ويحشد جميع قواه للعلم والتعليم فكان يقول : « منزل التلاميذ كشجر الخروب لا ينبت بجانبه شىء وان نبت كان ضعيفا » ، ويقصد بذلك ان العناية الكاملة يجب ان تصرف الى التلاميذ والى تعليمهم وتربيتهم وان الاهتمام والاشتغال يجب ان يصرف اليهم.

كان يقول هذا لاهله واقاربه والقائمين على شؤن التعليم ، حتى تنصرف الى الطلاب جميع الجهود وتبذل فى سبيلهم كل المساعى .

لقد تأسست كثير من المدارس على نفقة العلماء ورعايتهم فى كثير من البلاد ولقد قصر بعضهم جهده على التعليم وبذل فيه كل قوة غير ان ابا زكرياء قد يكون فريدا فى مسلكه واهتمامه بقضية التعليم ورعايته لها وحدبه عليها ومع قيامه بالتدريس وبجلب المدرسين المساعدين الى مدرسته والانفاق عليهم ماديا حتى يتمكنوا من اداء واجبهم والانفاق على الاقسام الداخلية بتوفير المسكن والمأكل لجميع الطلاب الذين يأتون من البلاد البعيدة وكانت جربة تغص بهم . مع كل ذلك كان ابو زكرياء يبتكر الوسائل فى تحبيب العلم الى الطلاب لا سيما الصغار والجدد منهم . وكثيرا ما كان يعقب التلاميذ على الواحهم ودفاترهم وكتبهم بعد خروجهم فيضع فيها مبالغ من المال رغبة فى اخفاء الصدقة من جهة ، وتشجيعا ومساعدة للطلاب من جهة اخرى وكان الطلاب حين يجدون ذلك وهم لا يعرفون مصدرها ولا سببها يأتون بها الى الشيخ ابى زكرياء فيخبرونه بانهم وجدوا تلك الاموال فى ادواتهم الدراسية دون ان يعرفوا من فعل ذلك فيجيبهم ابو زكرياء بانها اموال ساقها الله اليهم ويحل لهم الانتفاع بها . فلما توفى ابو زكرياء رحمه الله انقطع ذلك المدد المادى عن الطلبة فعلموا انه من فعل ابى زكرياء .

كان ابو بكر الزواغى من اشد القائمين على الظلم المنتقدين على الوضع الفاسد الذى كانت الامة الاسلامية تعيشه فى ذلك الحين فكان يقول فى مجالسه « لسنا فى ظهور ولا دفاع ولا شراء ولا كتمان ولكن زماننا سائب . »

وبلغت الكلمة الى ابى زكرياء فخشى ان يفهم الناس ان

الزمان السائب مسلك خامس من مسالك الدين فقال للذين نقلوا اليه كلمة ابى بكر اخبرو ابا بكر ان مسالك الدين اربعة فقط الظهور والدفاع والشراء والكتمان .

وابوبكر الزواغى يعلم ان مسالك الدين اربعة ونحن ايضا نعلم ذلك ولكن كلمة الزمن السائب تجد مكانها فى بعض الاحوال واحسب ان هذا العصر الذى نعيش فيه هو الاخر داخل فى الزمن السائب على ان الوضع الذى كانت عليه جربة فى عصر ابى زكرياء وابى بكر يحتاج الى تفكير لادخاله فى مسلك من مسالك الدين فان جربة فى ذلك الحين لم تكن خاضعة لدولة عادلة ولا ظالمة وليس فى حال ثورة فعلية على عهد ظالم وليس فيها فدائيون يحاربون الوان الظلم والجبروت ، والناس مع هذه الحالة المائجة لا يحرصون على اداء شعائرهم والمحافظة على دينهم واجتناب ما نهى الله عنه . انها على كل حال صورة من صور الحياة فى عهود الكتمان ذلك لان جربة لو فكرت فى تكوين دولة عادلة وبايعت اماما فى ذلك العهد لاتجهت اليها الضربات من كل جانب وتخطفها الظالمون من كل سبيل ولذلك فقد كانت تلك الحياة التى عبر عنها العلامة ابو بكر بانها حالة سائبة هى صورة من الصور التى تعيشها الامة تحت الحكم الظالم لا تريد شيئا الا ان ينجو من العبث والعيث .

لقد عاش ابو زكرياء للعلم ولتصحيح عقائد الناس واعمالهم فى شئونهم الدينية وعاش على كرمه واحسانه ومؤاساته ونفقاته عدد غير قليل من الناس وحين توفى ترك للامة ولديه النجيين زكرياء ويونس قال عنهما ابو العباس الدرجينى . « لكل واحد منهما سجايا جود كالسحاب ، وذكاء كالشهاب ، وحسن سلوك الطريقة ، وحفظ العلول على الحقيقة ، والتمسك من عرى التقوى بالاسباب الوثيقة . » فرحم الله الجميع .

ابــو عمر النميلى

ولد ابو عمرو النميلى ٣١١ من الهجرة النبوية فى جزيرة جربة، فنشأ فى عصر متناقض كل التناقض . فبينما كانت الجزيرة تعج بالعلماء الاعلام وكانت البيئة التى يعيش فيها والاسرة التى يتربى بين يديها تسير على سمت الاسلام وهديه، مستقيمة كاملة الاستقامة ، محافظة على الدين شديدة المحافظة ، متمسكة بهدى الاسلام شديدة التمسك ، بينما كانت سيرة الناس فى جربة هذه السيرة التى جاء بها الاسلام . كانت البيئة الاخرى البيئة الحاكمة ظالمة شديدة الظلم ، متغطرسة شديدة التغطرس ، متجبرة شديدة التجبر ، لا تختار لمناصب الدولة الا اولئك الافراد الاقوياء فى غير دين ، القساة فى غير لطف ، الذين يفعلون ما يطلب اليهم دون رجوع الى دين او ضمير . وكان الناس ساخطين على هذا الوضع ، ناقمين على هذه السيرة ثائرين على هذه الاحكام .

نشأ ابو عمرو بين هذين التيارين المختلفين فتأثر فى دينه واخلاقه وسلوكه باسرته ومجتمعه ، فشب مؤمنا قوى الايمان حريصا على الاستقامة شديد الحرص ، داعيا الى الاهتداء بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ناقما على الظلم والظالمين ،

ثائرا على من يخالف الاسلام فى احكامه ومبادئه ، داعيا الى الضرب على ايدى الطغاة . وكان لا ينفك عن هذه الدعوة فى دروسه وفى احاديثه اينما سار واينما كان . وليس هذا شأن ابى عمر وحده ، ولكنه شأن جمع من العلماء فى جربة وفى غيرها وان كان الوضع فى جربة من الناحية السياسية خيرا منه فى بقية البلدان .

ولد ابو عمرو فى السنة التى احتل فيها الفاطميون جربة على يد على بن سليمان الداعى ولقد ارتكبوا فيها من المناكر ما اعتادوا ان يرتكبوه فى كل بلد احتلوه وبقيت الجزيرة خاضعة لحكمهم فى الظاهر الى سنة ٣٣١ حين احتلها ابو يزيد بن كيداد وطرد منها حكام الدولة الفاطمية وارتكب فيها من الافاعيل ما لا يرتكبه مؤمن «فان الايمان قيد الفتك» أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الا ان ابا يزيد شغل بمحاربة الدولة الفاطمية حتى قتل سنة ٣٣٥ وبذلك بقيت جربة مستقلة عن حكم ابى يزيد الذى قتل وعن الدولة الفاطمية الذين خرجوا بسبب انتصار ابى يزيد عليهم . وهكذا استقرت فيها الامور ورجع الحكم الى مشائخ العزابة الذين يتولون رعاية شؤنها بحكم الله

وذاق الناس حلاوة الايمان فى هذا العهد ، وتمتعوا بعدالة الاسلام التى يجريها علماء الاسلام وكان ابو عمرو النميلى ضمن مجموعة العلماء الذين يديرون امر الجزيرة ويتولون شؤونها ، وكافحوا حرصا على ان يحتفظ الناس بعزة الاسلام فلا تستعبدهم القوة ، ولا تغرهم الشهوة . ولا يجرفهم تيارات الانحراف ، وان يتخلقوا باخلاق الاسلام . فكانوا يتولون ذلك منهم ، بالموعظة الحسنة ، والقدوة الصالحة ، والبيان الفصيح الصريح ، وايضاح سيرة المسلمين المهتدين فى عهد النبوة وما تلاه من عهود الى

عصرهم وهم فى كل ذلك لا يتحرجون عن نقدهم لمسلك الحكومات الظالمة التى كانت تجاورهم وازدهر الجانب العلمى هنالك فتألفت الجمعية العلمية فى غار أمجماج وكان ابو عمرو احد اعضائها ، والفت الديوان المعروف الذى تحدثنا عنه فى بعض حلقات هذا الكتاب .

وهكذا بينما كانت بقية البلاد فى الجنوب التونسى تعانى من الفتن المتعاقبة والنزاع المستمر والظلم الذى ينزل عليهم متتابعا من الحكام اشد ما تعانيه امة فى عهد حكم فاسد كانت جربة آمنة مطمئنة مستترة تنشر العلم وتكون الجمعيات وتشتغل بتأليف اضخم الدواوين الى سنة ٤٣١ حين جهز المعز بن باديس الصنهاجى جيشا واحتل جربة وارتكب فيها افظع جريمة يرتكبها قائد حربى . فقد جمع اليه اكبر طبقة من العلماء الاعلام وامر بقتلهم معتقدا انه بقتل اولئك العلماء يستطيع ان يضمن طاعة جربة اولا وان يحول سكانها من المذهب الاباضى الى المذهب المالكى كماكان يحاول ان يفعل ذلك فى بقية المملكة فقد اجهد نفسه واجهد الناس معه على ان يجمعهم جميعا على المذهب المالكى واشتد فى التنكيل بكل من يخالفه .

وكان من العلماء الذين دعاهم اليه ابو عمر النميلى وقد بلغ مائة وعشرين سنة من عمره المبارك قضاها فى نشر العلم بين تدريس وتأليف وفى محاربة المنكر فى شتى صوره والوانه . وامر المعز بن باديس وهو منتش بالنصر الذى أحرزه على اخوته المسلمين بابى عمرو فذبح كماتذبح الاغنام ولم يشفع له عند الطاغية ابن باديس لا جلالة العلم ولا وقار السن . ولاحتى انتظار الاجل القريب للشيخ الفانى وهكذا كتب لابى عمرو ان

تختتم اعماله المجيدة فى سبيل الله بالشهادة بعد ان حمل رسالته قرنا كاملا من الزمان.روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « افضل الاعمال كلمة حق يقتل عليها صاحبها عند سلطان جائر . » صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ابو الخطاب عبد السلام بن منظور

اخذ المبادىء الاولى فى اللغة العربية وفى الشريعة الاسلامية عن علماء مزاته وحضر مجالس ابى عبدالله محمد بن بكر حين كان يرتب نظام الحلقة فكان عبد السلام ممن وضع لها الاساس واحكم لها الاحراس كما يقول ابو العباس الدرجينى اما دراسته فقد كانت على العلامة الكبير ابى نوح سعيد بن زنغيل . ومن ابى نوح اخذ مع العلم ما كان يتمتع به استاذه الكبير من حيوية ونشاط واستعداد للكفاح .

لقد درس على ابى نوح سعيد بن زنغيل وسبقه على هذا المجلس الامام الكبير ابو عبدالله محمد بن بكر وعندما كان ابو الخطاب طالبا فى حلقة الدرس كان ابو عبدالله قد بدأ يشتهر وتتجمع عليه حلق التلاميذ والعلماء ولما انفصل عبد السلام عن مدرسة ابى نوح ارتحل الى كنومه والتحق بحلقة ابى عبدالله فدرس ودرس ، وكان ضمن العلماء الذين يحضرون على ابى عبدالله العلامة ابو محمد يوجين اليفرنى كان عبد السلام بن منظور مجرا مشغوفا بالمذاكرة يطيل السهر فكان ابو محمد يوجين يقول له ارنى موضع نومك يا عبد السلام حتى اوقظك لصلاة الفجر . ويستمر عبد السلام فى المذاكرة الى هزيع من الليل وما يكاد يلمس جنبه

الفراش حتى يرن فى اذنه صوت ابى محمد يوجين فى حنان واعزاز يا عبدالسلام يابنى قم . فانما نال الصالحون ما نالوا بترك اللذات ، والنوم من اللذات . » فيتمطى الفتى فى مكانه ، وان اوصاله لا تزال عالقة بالفراش ولكنه سرعان ما يثب لئلا يغلبه سلطان النعاس ، فيأخذ الابريق ، وما أن يتوضأ ويستقبل القبلة ويصلى لله مايشاء حتى تكون بقايا النوم والكسل قد طارت من عينيه فيأخذ كتبه ويعتزل فى زاوية على نور مصباح هزيل من الزيت ثم يستمر فى الدراسة فى جو السحر الهادىء اللطيف .

مكث ابو عبدالله محمد بن بكر فى كنومه مدة رآها كافية لاصلاح الوضع فقد استقام الناس وحرصوا على التمسك بالدين وبدأ نظام العزابة يوجه الامة الى الخير وترتبت الحلقة واحس الناس كبارا وصغارا رغبة ملحة فى التعلم فاطمأن الامام عليها واراد الارتحال الى بلاد اخرى محتاجة الى جهوده المباركة . وكان عبد السلام قد اصبح ذا كفاءة للارشاد والتوجيه ، والدعوة الى سبيل الله والتدريس فى العلوم اللغوية والشرعية التى يحتاج اليها الناس وكان يفكر فى الرجوع الى موطنه ليقوم بالكفاح فى سبيل الله ، ولكن الامام الاكبر اباعبدالله صاحب نظام العزابة دعاه اليه ، لما رآه فيه من حيوية ونشاط ومحبة للعمل ،ومداومته عليه وقال له لقد رأيت انه انتقل الى وادى اريغ ومعى الدارسون والمدرسون لنجعل تلك البلاد مركزا للدعوة زمنا،وارى ان تنتقل معى لان من يقصده الناس بحاجاتهم كمن دخل الحرب لا غناء به عمن يعينه ويؤيده ،ويرعاه ويرفده . ويداوى جراحه ، والا كان هلاكه وشيكا . وامتثل عبد السلام لامر الامام ، وهل كان يسعه غير الامتثال وسافر معه الى أريغ واستقر بها معه واطمأن

به المقام وكان الساعد الايمن لابى عبدالله يتولى عنه كثيرا من شئون الطلبة والناس وقد رأى ابو عبد الله ان يقيده بالزواج فاستشاره فى ذلك وخطب له ابنة ابى القاسم فتزوجها واقام مع الامام يساعده ثم حن الى اهله وبلده فاستأذنه فى زيارتهم .

لما وصل وطنه اجتمع عليه قومه واهل عشيرته وقالوا له ان تركتنا فما نحن بتاركيك اقم بيننا وقم بما كان يقوم به ابوك من التعليم والتوجيه والاصلاح والاكنت مسئولا بين يدى الله عنا وخائنا لامانته فينا فاننا فى اشد الحاجة اليك وليس لناغنى عنك ، فاجاب رغبتهم وعزم على الاقامة بينهم ففرحوا بذلك ولكى يوثقوه بهم خطبوا له فتاة وافرة الجمال والادب والدين هى زينب بنت أبى الحسن فتزوجها وعزم ان يعود الى اريغ ليقطع شئونه بها فذهب الى ابى عبدالله واخبره بما جد من امره وبعزمه على طلاق ابنة ابى القاسم واضطراره الى فراقها وبانه جاء معه ببعض الصداق والباقى سوف يدفعه متى تيسرت له الاحوال فلما علم ابو القاسم والد الفتاة استحيا ان يأخذ عرضا من اعراض الدنيا من ابى الخطاب وقال لابى عبدالله بن بكر معاذ الله ان آخذ عرضا من اعراض الدنيا فقد جمعتنا من قبل المحبة فى الله وحين شاءت ارادة الله الفراق فاشهدوا انى تحملت عنه جميع ما لها بذمته ومع هذا الموقف النبيل من ابى القاسم اراد ابو الخطاب ان يطمئن فحضرت اليه الزوجة السابقة وتسامحا عما مضى من حياتهما وجعلته فى حل مما لها عليه . وقد حاول الامام ابو عبدالله هذه المرة أيضا ان يثنى عزم صديقه وتلميذه عن الذهاب ولكن الرجل صمم فان اثقالا وضعت فى عنقه .

وشاءت ظروف الحياة القاسية ان لا يطمئن المقام به فى موطنه فقد تعاونت عوامل الفتن والظلم والجفاف على الناس واضطرت

قبيلة مزاته ان ترتحل الى طرابلس طلبا لخصب الحياة فاقامت هنالك ما اقامت وحين همت بالرجوع الى موطنها عرج ابو الخطاب عبدالسلام باهله على جبل نفوسة وطاب له المقام هنالك فترة من الزمن انتهز فيها الفرصة لاداء فريضة الحج ولما رجع من بيت الله ارتحل من جبل نفوسة واختار لمقامه قلعة بنى درجين قرب نفطة وكانت حينئذ مدينة عامرة بالعلم رخية الحياة قوية مهيبة الجانب تعد نحوا من عشرين الف فارس وهى قوة لها حساب فى ذلك العصر .

اطمأنت الحياة بابى الخطاب فى درجين ولم يكن ينقصه شىء الا انه لم يرزق اولادا ذكورا وانما رزق عددا من البنات من زوجته الثانية زينب بنت ابى الحسن وعندما يجمعها السمر كان كثيرا ما يقول لها فى مداعبة ورجاء ان تفهم ما يرمى اليه «يوشك ان يغلب بنو العم على بناتك يا زينب » وهو يقصد ان اولئك البنات عندما يكبرن يخطبهن ابناء العم فيتزوجن ولا يبقى للبيت غيرهما . وما اشد وحشة بيت لا يسكنه غير شيخين هرمين وكانت الزوجة الوفية المحبة تفهم مايرمى اليه زوجها من وراء كلامه وتتمنى ان يكون لبناتها اخ ولكن ما حيلتها هى ، ان الله هو الذى يهب الذكور والاناث واشرق ذهنها بومضة وهى تفكر فى اسعاد زوجها .

وقع فى ليبيا قحط وجفاف استمر عدة سنوات مع فساد فى الحكم وظلم من الحكام فهاجر اكثر الناس سنة ٤٣٠ وارخو فيما بعد بهذا العام وسموه عام (فرورا) وقدمت اسرة من تلك الاسر التى هاجرت طلبا للمعيشة الى درجين وسكنت فى جوار ابى الخطاب وكانت للاسرة فتاة مشرقة الجمال صبية اديبة نشيطة وكانت زينب تنظر اليها وتعجب بها واحبتها فخطبتها

لبعلها الشيخ وهى تدعو الله تعالى ان يرحم زوجها فيهب له ولدا تقر به عينه ولبناتها أخا يلجأن اليه اذا ضاقت بهن سبل الحياة. وتزوج الشيخ هذه الفتاة ، ولكن اقامتهم بعد ذلك فى درجين لم تطل . فقد بدا للدولة الصهناجية ان تقضى على هذه القوة الموجودة فى درجين فجهزت جيشا كثيفا على حين غفلة ولم يسمع اهل درجين حتى وجدوا جيشا كثيفا يحيط بالقلعة من جميع الجهات وطال الحصار واضطر اهل القلعة الى فتح الابواب والحرب بما امكن ، يقول ابو العباس الشماخى « فنزل عسكر صنهاجة على قلعة درجين فحاصرها حصارا شديدا فلما اشتد عليهم الحصار خرجوا عليه خروج رجل واحد يقاتلون ، فقتلوا عن اخرهم، واستبيح ما فى القلعة . » كان ابو الخطاب غائبا عند وقوع هذه الاحداث فماكان يخطر له ان الدولة التى يطلب منها الحماية هى التى تتولى العدوان فلما عاد وجد ان القلعة قد استبيحت وان اهله حفظهم بعض اهل المروءة ممن كان فى الجيش وسمع اخوانه بنكبة درجين فاسفوا ان ينحدر الظلم باصحاب الحكم الى هذا القرار ، وبعثوا وفدا منهم يطلب الى ابى الخطاب الرحيل الى آجلو والاقامة فيه فارتحل باهله الى اجلو وهنالك ولدت زوجته الاخيرة مولودها البكر وكان ذكرا فلما بشروه بذلك قال لهم « ان ولد الشيخ يتيم » يعنى ان الشيخ الهرم على حافة القبر وان اولاده فى هذه السن هم كالايتام لانه مهما يطل عمر ابيهم فمدته قصيرة ولابد ان يتركهم ، وسمى الولد سعيدا ومن هذا الولد تناسلت ذرية ابى الخطاب عبد السلام ابن منظور .

يبدو انى أطلت الحديث عن حياة الشيخ الخاصة بما لم اتعود مثله فى احاديثى عن الاعلام الذين ذكرتهم فى هذا الكتاب . وقد ساقنى الى ذلك ترابط الاحداث وتناسقها .

كان عبد السلام عالما غزير المادة مستقلا برأيه لا يقلد غيره اذا بدت له الحجة واتضح له البرهان وكانت له اراء خاصة لم يقل بها غيره من الفقهاء فيما اعلم ، مر يوما على اهل أمسنان فأخبروه ان رجلا منهم اقر على نفسه بالزنا فامرهم ان يحضروه ولما اعترف الرجل على نفسه بارتكاب الفاحشة امرهم ان يأخذوه الى مزبلة وان يرجموه وحضر وقت صلاة الظهر وكان اليوم جمعة فخطب فيهم وصلى بهم صلاة الجمعة ثم قال لهم ان الكتمان يأخذ من الظهور وان الظهور لا يأخذ من الكتمان وهذا يعنى ان الامة المسلمة حين تكون ضعيفة مغلوبة على امرها تنفذ ما تستطيع من احكام الله اما اذا كانت الدولة مسلمة قادرة على تنفيذ الاحكام فانها لا يجوز لها ان تتخلى عن تنفيذ احكام الله . وهى نظرة اجتهادية لم اعلمها لغيره من الفقهاء .

وكان شديد الورع كثير الاحتياط اشترى يوما عددا من الخرفان من رجل فى السوق فلما اراد دفع الثمن مد البائع يده وقال له (أرا) يعنى هات وهى لهجة بربرية خاصة بصنهاجة . فخشى الشيخ ان يكون الرجل من صنهاجة وصنهاجة فى ذلك الحين لا تتورع عن اموال الناس ودمائهم فدفع الثمن لصاحب الخرفان وتصدق بها على الفقراء والمساكين تحرجا من رزق صنهاجة لتجبرهم وغصبهم للناس اموالهم . واننى استغفر الله من التعميم فى هذا الحكم فلست اعتقد ان صنهاجة كلها على خلق واحد .

حين ارتحل ابو الخطاب من درجين الى اجلو احب ان يزور اريغ وان يستمتع بصحبة ابى عبدالله اياما فلما وصله وجده مريضا على فراش الموت فجعل يتأسف ويظهر الجزع على فراقه فقال له الشيخ اقصر عن هذا يا عبد السلام وعليك بالدعاء وجعل يكررها

حتى فاضت روحه المطمئنة راجعة الى ربها راضية مرضية .

فكان ابو الخطاب يقول مثلى مثل من يسير فى شدة الحـــر قاصدا شجرة يتفيأ ظلالها فلما وصلها اقتلعت فاضحى ضاحيا..

هذه صور من حياة علم من اعلام الاسلام عاش فى كفاح مستمر وقد تنقلت به ظروف الحياة من مكان الى مكان فكان مثلا للمؤمن يلتزم السير على الجادة مهما تقلبت به الاحوال ، فرحم الله اولئك الاعلام الذين اصلحوا انفسهم عند فساد الناس .

ابو محمد عبدالله بن مانوج اللمائى

نشأ ابو محمد عبدالله بن مانوج كما نشأ فتيان قبيلته فى البادية صحيح البنية ، قوى الارادة ، قويم الخلق ، صريحا فصيحا صدوقا ، ولم يتح له فى صغره ان يدرس فشب أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وانما اخذ مبادىء دينه بطريقة التلقين ، فحفظ بعض السور القصار من كتاب الله وتعلم الاحكام العملية للاسلام دون تعمق او فلسفة ، انه صورة من اولئك المسلمين الاوائل الذين يفدون على رسول الله صلى الله عليه فسلم فيقرون بكلمة التوحيد فيبين لهم صلى الله عليه وسلم باوجز عبارة ما يطلب منهم أو يحرم عليهم فيستمسكون بذلك ويعضون عليه بالنواجذ .

كان ابو محمد محمد عبدالله بن مانوج يشتغل بتربية الماشية كما كان يشتغل اكثر سكان البادية. يتولى رعايتها بنفسه ، ويتبعها بشخصه ويهش عليها بعصاه ، وذات يوم ـ بينما كانت غنمة منتشرة فى سهل اخضر تنتقى العشب وتقطف منه الطرى الشهى ، وقد بدا عليها اثر حسن الرعاية ووضح السمن . وهو يسوقها تارة ويتقدمها اخرى مغتبطا مسرورا ـ مر به شيخ من شيوخ لماية فسلم عليه وحدثه مليا ثم اشار الى الغنم وقال لابى

محمد نعم الغنم التى ترعاها لحية وسر ابو محمد بهذا الاطراء ولكن الشيخ الوقور لم يقف عند هذا الحد فاردف يقول : وبئست اللحية التى ترعى الغنم . وذهب الشيخ لكن الكلمة الحكيمة التى القاها فى اذنه بقيت مجلجلة تدوى فى اعماقه ، وشغل ذهنه، وفكر فيها تفكير الرجل الحريص على سعادته فى مستقبله ، وتحقق ان اللحية التى تقضى عمرها ترعى الغنم لا تزيد ان تكون شاة من الغنم ، ولذلك فقد قرر ان يغير مجرى حياته حتى بعد ان اجتاز مرحلة الطفولة والشباب ودخل مرحلة الكهولة فان تقدمه فى العمر لم يقف حاجزا دون الامل الذى انبثق فى قلبه وعاد بالغنم الى الحى بعد هون من الليل وفى الصباح اخبر اهل الحى بما صمم عليه ،لقد ترك الغنم لمن يريد ان يرعى الغنم . كانت جربة اقرب مكان علمى اليه وكانت حينئذ تغص بالعلماء الاعلام مثل ما كان جبل نفوسة وكانت المدارس منتشرة فيها دائبة الحركة فى التربية والتعليم وكانت المساجد فى كل ناحية من نواحيها عامرة بالمصلين وبحلق الدروس المتعاقبة وبالوعظ والارشاد . فاختار ابو محمد عبدالله هذه الجزيرة لتكون محل دراسته وسافر اليها واستقر بها وكان يعمل عمل التلميذ الجاد الراغب القوى العزيمة فكان لا يقتصر على مدرسة ولا يختص بمدرس ولكنه كان يطلب العلم من معادنه جميعا فكان يحضر مجالس ابى صالح ، ومجالس ابى مسور ومجالس ابى موسى . فيلتقط ما ينثره أولئك الاعلام من علم وحكمة ومكث على هذه الحال زمنا حتى ظن انه ابعد الجهل عن نفسه وبلغ فى العلم مبلغا فرجع الى قبيلته الضاربة فى شعاب البادية واستقبله الناس بالترحاب ، وفرحوا بمقدمه ايى فرح ، فقد اصبح حيهم يأوى عالما وجاء الشيخ اللمائى الى الحى وسلم على ابى محمد

وناقشه فيمسائل من العلم وعرف ان ابا محمد لم يبلغ الدرجة التى يؤملها له ولذلك فقد قال له وهو يودعه : ان جميع الابل تبرك لحمل الاثقالولكن التفاضل بينها انما يكون بايصالالاحمال الى الغاية .. وذهب الشيخ وبقى أبو محمد يفكر فى الموضوع انه قضى وقتا صالحا فى الدراسة وتحصل على مبلغ من العلم ولكن هل يكفيه هذا المبلغ انه لا يزال فى حاجة الى المزيد وقرر ان يعود الى الجزيرة العامرة بالعلم والصلاح وعاد واستمر فى دراسته زمنا حسبه كافيا لادراكالغاية فرجع ايضا الى حيه ذلك الحىالذى يقتعد راس شعبة خصبة تسرح فيها الانعام . وفرح القوم به كما فرحوا اول مرة واجتمعوا لتحيته ولسماع الحكمة منه وحضر الشيخ فيمن حضر من الناس واستمع الى درس ابى محمد ثم ناقشه فى اصول وفروعمن العلم فلم يطمئن له ولذاكرته ولذلك قال له وهو يودعه ان جميع الغدران تمسك الماء ولكن التفاضل فى طول البقاء . واستجاب ابو محمد لنصيحة الرجل للمرة الثالثة وذهب الى جربة وبقى فيها حتى اعترف له العلماء وحتى بلغ درجة الاجتهاد وحتى اختير عضوا فى جمعية العلماء التى الفت الموسوعة العلمية المعروفة بالديوان فى خمسة وعشرين جزءا وتعتبر من اهم المصادر الفقهية والتشريعية الاسلامية ولو لم يؤلف علماء الاباضية غيرها لا غنت .

كان رحمه الله نير البصيرة ، قويا فى الحق ، مخلصا النصيحة لله وللمسلمين ، ذافهم صحيح لدين الله وللمقاصد التشريعية فى الاسلام ، مجتهدا فى العبادة يحمل نفسه على العزيمةوالعمل الشاق شديد الاحتياط فى الطهارة ، حتى انه لماكان بالباديةاتخذ خيمة خاصة بالاستحمام وكان له فى كل جهة من جهاتها مستحم حتى يتقى الريح . ولماكبر اصيب بمرض فى عينيه يضره

استعمال الماء فكان يغتسل ويتوضأ لجميع اعضائه ما عدا وجهه فانه يتيمم له فقيل له يكفيك التيمم فقال تلك مسألة العاجز وكأنه كان ينظر الى قوله صلى الله عليه وسلم (اذا امرتكم بامر فاتوا منه ما استطعتم) فقد استطاع الشيخ فى تلك الحالات ان يغسل جميع بدنه ما عدا الوجه وان يتوضأ لجميع اعضائه ما عدا الوجه فاستجاب لامر الشريعة اما العضو الذى لم يستطع ان يغسله فقد تيمم له حتى يخرج من الخلاف .

تذاكر ـ مع ابى عمران موسى بن زكرياء احد زملائه فى تأليف الديوان ـ ما ابتلى به الناس فى ذلك الحين من ضيق الامور وكثرة الريب وما يدخل على الناس من ذلك مما يعلمون ومما لا يعلمون من الشبه والريبة . قال ابو عمران انما نعيش اليوم ، بحمل الاشياء على أحسن وجوهها قال ابو محمد انما يصح ذلك فى احوال الطهارات ، اما فى الاموال فلا فاستحسن ابو عمران هذا الجواب من ابى محمد ووافقه عليه .

سئل يوما ما العبادة ؟ فقال : العبادة هى النية والاخلاص ، لا ما يتخيله الناس من كثرة العمل والاجتهاد ، الا اذا صحب ذلك النية والاخلاص فان الكثرة حينئذ تكون افضل . ثم ضرب للسائل مثلا فقال : الا ترى ان ولدى داود يقيم الفتنة وهو يحفظ مابين دفتى المصحف .

ويعلق ابو العباس (١) على هذا فيقول : « واكثر قصده فى ذلك ما يقذع به ابنه عما هو ليس بسببه ، وكان ينهى عن معاضدة داود ومساعدته خوفا ان يصيبهم ما اصابه ، فلم يزل متكدر النفس من اجله لسلوكه عن طريقة ابيه حتى عادت عليه بركة

---

(١) طبقات الدرجينى

الشيخ فالهمه الله الرشد ، وتاب عما كان عليه وحسنت توبته.»

كان ماكسن بن الخير شابا قوى الذاكرة حاد الذكاء راغبا فى العلم، فمر وهو فى طريقه الى جربة للدراسة بابى محمد فرأى ان يسأله النصيحة فى موضوع الدراسة فقال له : اننى مبتدىء فى الدراسة فبأى مادة ابتدىء ابعلم الكلام ام بعلم الفقه ؟ فقال ابو محمد وقد توسم فى الفتى الذكاء ، والرغبة ادرس الجميع فقال ماكسن : فان قصر فهمى فقال ابو محمد فدينك علم الفقه .

زاره عبود بن منار المزاتى فرحب به وقال له يا عبود! انك عظيم القدر عندى فما حالك وكان عبود متوسط الحال صاحب انعام وحبوب .

فاجاب عبود اننى بخير ولكن ركبتنى ديون .

فغضب ابو محمود وقال له : أعليك الدين وتزورنى ؟ ابعد عنى .. وهذا الغضب من ابى محمد فى محله فان الديون التى ركبت عبودا لم تدفع اليها ضرورة كما ان فى استطاعة عبود ان يتخلص منها . وخرج عبود محرجا الى اهله ودعا اليه صديقه الحميم على بن يخلف وقص عليه القصة ثم قال له بادرنى يا على بمن يخلصنى من هذا الدين . واهتم على بالموضوع فى الحال واحضر اليه من اشترى منه عبدا وقطيعا من الغنم وكمية من الحبوب ودفع الديون التى عليه ولم يلبث بعد ذلك الا قليلا حتى غارت على حيه غارة من اولئك الناس الذين لم يتخلصوا من عادات الجاهلية ودافع عبود عن نفسه وماله حتى قتل رحمه الله.

لقد طالت الحياة بابى محمد وامتد به العمر وفى اواخر عمره امسك عن الفتوى فلما قيل له فى ذلك اجاب : ان بعض العلماء يقول اذا علم العالم من نفسه ضعف العقل فلا يفتى وانا اخذ

بهذا . واترك الناس قبل انيتركونى ولعل خير ما نختم به هذا الفصل ما يلى :

زاره عمروس بن عبدالله الزواغى فسأله عن حاله فاعلمه انه صالح الحال فكان مما قال له : يا عمروس : اجعل تقوى الله جنة ، فانه خير جنة ، واحسن معاشرتك للناس . فقال عمروس واى الناس ! فتبسم ابو محمد ابتسامة اعجاب وفرح وقال احسنت وفهمت ! .. الناس هم الصالحون . »

فرحم الله اولئك الناس .

أسرة يخلف بن يخلف

يخلف بن يخلف النفوسى التميجارى جـــد اسرة كريمـــة متسلسلة فى العلم والعمل والصلاح ، وهو وان كان من تميجار، فى أواسط جبل نفوسة الا انه استقر فى الجنـــوب التونسى ، فكانت اقامته بنفطة ، وسكنى بنيه بدرجين ذلك الحصن الذى كان معقلامن معاقل العلم والصلاح والاستقامة حتى دهمتـــه الحوادث السود والفتن العمياء فلم تزل تتعاقب عليه بالنكبات حتى خربته وخربت ما جاوره .

كان العلامة يخلف فى مرتبة من العلم يقل فيها النظير وكان من الذكاء والالمعية والفطنة بحيث يكون ظنه كالرؤية والسماع، وكان من نفاذ البصيرة وصواب الرأى فى المنزلة التى رضى بها عنه المسلمون موافقين ومخالفين ، وكان من دقة الحكم وتحرير الفتوى وتحقيق الحجة فى الدرجة التى اجمع الناس على قبولها من جميع الفرق والمذاهب فى بلاد نفطة والجريد فكانت جميـــع المشاكل والمنازعات ترفع اليه فيقضى فيها بحكم الله ويفصل بين الناس فيتبعون حكمه برضاء وتسليم .

واشتهر الرجل بالعلم والصلاح بين الناس فاصبح ملجأ لهم فى جميع مشاكل الحياة .

حدث ابو عبدالله محمد بن بهلول النفطى قـــال : ورد على شيخنا ابى على محمد بن عمران النفطى بعض الزوار ، فاخـذ جلساؤه من اهل نفطة فى ذكر مناقب يخلف العزابى وبنيـــه وأهل بيته فاوسعوا فى القول ، والزائر الغريـب يستحســن ويستغرب حتى قال احد الجلساء للشيخ ـ يعنى ابا على النفطى ـ اترى يا سيدى انه يرجى لهم خير عند الله لهذه الاوصاف وهم على ذلك المذهب ؟ فلم يجبه بغير الصمت ، فقال الزائر للشيخ يا سيدى وما مذهبهم ؟

قال أبو على مذهبهم الصلاح . فانقطع بجوابه الكلام .

قال ابو العباس احمد بن سعيد الدرجينى المنحدر من هـذه السلالة الطيبة العريقة فى الاسلام حدثنى من لا اتهم انه كان جماعة من البربر وجماعة من العرب من قبائل مختلفة ومذاهب متفرقة ، يقصدون الشيخ يخلف فيجتمعون عنده افواجا يقضى بينهم فى الجراحات وغيرها ، لا يرغب عنه احد لمخالفة مذهبه ، ولا يرد عليه قوله، واما سكان الحاضرة ـ اى نفطة ـ فمفتقرون الى علمه .

لقدبارك الله فى يخلف ، وبارك فى بنيه ، فكان يخلف عـلما ومرجعا فى العلم والصلاح ، اما ولده ابو الحسن على بن يخلف فقد قدم للاسلام اجل خدمة يقدمها الدعاة الى دين الله وبلغ بمفرده ما عجزت عنه الجيوش الفاتحة .

كان ابو الحسن بن يخلف يشتغل بالتجارة واقتضته ظروف العمل ان يسافر الى وسط افريقيا فاختار عاصمة مالى مقرا لتجارته وكان سكان تلك الجهات اما وثنيين واما من اتباع المسيحية المحرفة . فاشتهر بين السكان بطيبة خلقه وحسن معاملتـــه وحرصه على الامانة واستمساكه الوثيق بدينه ذلك الدين الذى كان غريبا بين سكان تلك الجهات ، ووثق به الناس واحبوه

واشتهر اسمه وحسن معاملته حتى بلغ سمع الملك فاحضره اليه واختبره بطريقته الخاصةحتى صدق ما عرف عنهفاستخلصهلنفسه واصبح يستشيره فى اموره وبلغ عنده منزلة لم يبلغها احد من وزرائه .

ولقد استطاع المسلم العامل بالاسلام ان يؤثر على ذلك الملك فاسلم الملك واسلمت الحاشية وبدأ الاسلام ينتشر ويسرى فى عاصمة مالى ثم فيما جاورها من مدن وبلاد انه الداعية المؤمن الذى حمل بمفرده مشعل الاسلام الى بلاد تعشش فيهـا الوثنية فاستضاءت بذلك المشعل واقتبست من ذلك النور واليه والى امثاله من الرواد الاول يرجع الفضل فى انتشار الاسلام فـى ربوع افريقيا السوداء .

ولقد كان ابو الحسن يشبه اباه فى دينه وخلقه وعلمه ورحابة صدره وسعة احتماله، كان القاضى عمر بن زرعة النفطى يقول: ما رأيت مثل على بن يخلف احدا من الناسفمن عجيب ما رأيت منه ان ابا القاسم القمودى كان من مشائخ المتصوفين ، قدم من توزر ومعه طلبته ، فاكرمه طلبة نفطة وصوفيتهم ، فاحتفلت فى اكرامه ، وقلت لاينبغى ان يتغيب ابو الحسن عن مثل هـــذا الحضور ، فاحضرته وقد حضروا فلما حضر قال ابن القمودى من هذا الجالس معنا ، قلت انه الفقيه ابو الحسن على بن العذابى ! فقال اهو من بغضة على ، فلماقال ذلك رأيت ظلمة حالت بينى وبينه ، وندمت على الاشتغال باكرامه ، واذ فعلت ، فلم جنيت على نفسى وعلى صاحبى ؟ وما كان اغنانى انا وصاحبى عنهذا الحضور ، فلما سمع على منه هذا قال : من انبأك هذا ياشيخ ؟ قال : كذا يذكرون عنكم فقال هـل رأيت احدا يسمى ابنـه باسم عدوه ؟ قال لا ! قال كان ابى من فقهاء الاباضية ، وقـد

سمانى عليا ، قال ثم اخذ معه فى مذاكرة تشفى الصدر حتى استمال قلبه ، وملك لبه ، فجعلت تلك الظلمة تنجلى حتى صرت فى ابتهاج عظيم ، ولم يفترقا حتى قال له ياابا الحسن اريد ان لا تفارقنى مدة اقامتى بهذا البلد ، وانفصل ابن القمودى ، يحمده ويحمد مذهبه .

ان هذه القصة مع القصة التى ذكرها اكثر المؤرخين عن سبب دخول الاسلام الى افريقيا الوسطى تدلان دلالة واضحة ان الاسلام قد هذب من اخلاق هذا الرجل وجعل منه انسانا تتمثل فيه اسمى صفات الانسانية التى تدعو اليها الاديان السماوية حتى اصبح مثلا حيا للمؤمن الذى يهدى بخلقه وسلوكه قبل ان يهدى بمقاله وبيانه ، ولو لم يكن الرجل متصفا بما اوصى به الاسلام فتجلت فيه الثقة والامانة وحسن المعاملة والصدق فيها حينما كان فى مالى ، وتحلى بالصبر على الاذى وضبط النفس ، والتحمل حينما قابله ابن القمودى بتلك الفظاظة لانقلبت صفحات من التاريخ . لو غضب بمزة ابن القمودى وعامله بنفس الاسلوب من الخشونة والازدراء لانقطعت الصلة بين الرجلين وربما نشأت عن ذلك فتنة . ولعل اكثر الفتن التى وقعت وتقع بين طوائف المسلمين انما سببها طيش بعض المنتسبين الى العلم وعدم فهمهم لروح الاسلام ، وتغلب الغرور والطيش وضيق الصدر عليهم . وتحكم العصبية المذهبية فيهم .

وكما انجب يخلف ولده عليا فان عليا قد انجب علما من اعلام الاسلام هو ابو الربيع سليمان بن على بن يخلف . كان سليمان شاعرا مطبوعا يجيد الزجل أو الشعر باللغة الدارجة كما يجيد الشعر باللغة البربرية الا ان شعره باللغة الفصحى لا يتسامى الى درجة شعر ولده سعيد أو حفيده احمد ذلك ان

دراسته للغةالعربية لم تطل ، فقد انقطع للعلـــوم الشرعيـــة وتخصص فيها فكانت لا تشذ عليه مسألة من مسائل الفـــروع والاصولفى المذهبالاباضى وكان يتقن الفرائض ويجيـــد حسبتها هذه مرتبته العلمية اما مرتبته الدينية والخلقية فهـــى مرتبة المؤمنين الحريصين على ايمانهم واخلاقهم .

وكان الى علمه وخلقه ونزاهته ، كريما مطبوعا على الكـــرم فلم يبق من ماله الكثير غير شيء قليـــل وكانبعض الاصدقاء ينصحونه بان يبقى لاولاده فكان يقول لهم اما اولياء الله منهم فان الله لا يتخلى عنهم واما العصاة منهم فانا احق بمالى ولما كبر قل ماله وضاقتذات يده ، فجاءه صديقه الحميم بياضة بنعزون فقالله يا شيخ ان مالك قد قل ، ومؤنتك قد كثرت ، فهل لك فى خمسين ويبة تمرا او مائة من عندى فى كل عام تستعين بها على اضيافك واضياف المسجد وضعفاء اهل الدعوة ، فقال له لا والله ، انفيما بقىلكفاية اؤدى منها حقوق من ذكرت ولو عـــلى عسر ، ولكن ان كنت فاعلا فقم بحقوقهم كما قام بها غيرك ، تول ذلك بنفسك ومالك .

كان ابو الربيع سليمان يعيش فى زمن مضطرب بالفتنة ، مشحون بالعصبية قد انفلت زمام الناس ، وبعدوا عن جـــادة الايمان . وفى اواخر ايامه اوقد بعض دعاة العصبية نار الفتنة فى كنومة وتألب سكانها على الاباضية فاخرجوهم منهـــا ولحق الشيخ باخوانه فلما رآه بعض المتعصبين من النكار صاح اذا تركتم فقيه القوم يخرج سالما فما فعلتم شيئا وتواثب اليـــه الناس فطعنه احدهم طعنة ظنها قاتلة ولما ذهب المعتدون تولى أصهار الشيخ اسعافه وعلاجه فاطال الله عمره وابقاه لحمل رسالة الاسلام والاصلاح لقد كانت البلاد فى ذلك الحينتعانى

من الظلم وفسادالحكم وانتشار الفتنة واصطراع العصبيةوتغلب الفساد الشيء الكثير ، وكانت الدولة فى ذلك الحين تفرض على سكان منطقة الجريد وما يتبعها من الواحات. ان يزرعوا اراضيهم ويقوموا بخدمة مزارعهم وحقولهم مناصفة فتأخذ نصف الانتاج من جميع غلل الزراعة كالحبوب والتمر ثم تلزم الناس ان يدفعوا الضريبة من انصبتهم ومقدارها العشر ثم يخرج المتقون منهم من انصبتهم فريضة الزكاة فلا يبقى لهم الا مقدارالثلث من نتائج مجهوداتهم فكان ابو الربيع يجيز للناس ولنفسه ان يخفوا ما استطاعوا من اموالهم حتى لا تأخذ الدولة نصفه كأنها صاحبة الارض والعشر ضريبة على الفلاح ويقول ان الدولة ليس لها ان تأخذ الا ما قرره الشرع الكريم اما ان تسن من نفسها تشريعا تستبيح به اموال الناس ، وتغتصب حقوقهم فذلك ليس من حقها. فاذا تغلبت هى بالقوة فان للمزارع ان يسلك معها بالحيلة وان يحفظ امواله باى طريقة لا تعرضه للعقوبة والمهانة .

حدثتك ايها القارىء الكريم عن ثلاثة اعلام من هذه الاسرة الكريمة ولقد انجب ابو الربيع ولدا سار فى نفس النهج وسلك نفس الطريق سماه أبو سعيدا وكان سعيد هذا مع ايمانه وعلمه وعمله شاعرا مجيدا وانجب ابو عثمان سعيد بن سليمان بن على بن يخلف ولدا كان غرة فى جبين الدهر من اولئك الابطال الذين لا يجود بهم الزمان الا فى فترات طويلة من التاريخ ذلك هو ابو العباس احمد بن سعيد بن سليمان بن على بن يخلف الدرجينى صاحب الطبقات .

ويكفى دليلا وبرهانا على علم الرجل واخلاقه ودينه واحترامه لحملة مشعل الهداية ما ورد فى اول الكتاب عندما تحدث عن

الطبقة الاولى فاليك ما قال عندما ذكر محتويات الكتاب : «فالذين اشتملت عليهم الخمسون الاولى من المائة الاولى : هم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفضائلهم اشهر ، ومزاياهم اظهر ، فلا يحتاج الى تعدادهم ، اذ هم نجوم الهدى ، ومصابيح الدجى ، وعلى مكانتهم ومنزلتهم وفضلهم فلا بد من تقديم ذكرهم جملة اذ هم الائمة والقدوة والسلف ، والصدر الاول ، ولئلا يكون السكوت عن ذكرهم اعراضا ، والتجاوز عن شرفهم غمضا او اغماضا . » واعاد نفس المعنى عندما بدأ فى التفصيل فقال : « الطبقة الاولى هم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفضائلهم اشهر ، ومزاياهم اظهر ، فلا يحتاج الى تسميتهم ، لانهم رضوان الله عليهم ، تحصل من سيرهم واخبارهم فى الدواوين ومن آثارهم محفوظا فى صدور الراوين ما اغنى عن تكليف تصنيف ، وانتحال تأليف ، وحسبهم ما قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشقى من رآنى وقوله عليه السلام افضل أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم واحاديث كثيرة فى فضائلهم فاذا ثبت هذا فاعلم ان من الصحابة من لم يخالفنا فى تقدمهم مخالف ، فقد امتلأت بذكر فضائلهم الصحائف ، ومنهم من لم ينل حظا فى الانصاف عند اهل الخلاف ، وهم معدودون عندنا فى جملة الاكابر والاسلاف فلنذكر منهم من امكن ذكره ، ووجب علينا وان عاب الغير شكره . »

بعد هذه المقدمة القيمة ذكر ابو العباس بعض اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن تناولتهم السنة الاهواء وأقلام المغرضين من احلاس السياسة فاوضح رحمه الله ورضى عنه عدالتهم ونزاهتهم وثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار

اصحابه فيهم وحكم فيهم بالحكم العام الذى ينطبق على جميع اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . والدارس للتاريخ الاسلامى فى المغرب الاسلامى لا يمكن ان يستوفى معلوماته دون الاطلاع على هذا الكتاب القيم فرحم الله ابا العباس .

ابو الربيع سليمان بن يخلف المزاتى

قمة من قمم العلم الشامخة ، ومكتبة حافلة بانواع المعارف حية متنقلة ، على انه لم يكن من حملة العلم الجامدين الذين يحملون اراء غيرهم دون ان يكون لهم رأى بل لقد وهب مع الحافظة الواعية التى لاتكاد تنسى ، فكرا نفاذا الى حقائق الاشياء ، وبصيرة نيرة خبيرة بمواقع الاحكام ، كان عالما بالاصول والفقه، درس كل ما وصلت اليه يده حتى بز جميع الاقران وفاقهم ، فلما نضجت مواهبه، واستقرت معارفه ، تصدى للتدريس والفتوى فتخرج على يده كثير من اعلام الاسلام .

بدأ دراسته على مشائخ عصره ثم التحق بمدرسة الامام الاعظم ابى عبدالله محمد بن بكر الفرسطائى وعنه اخذ العلم والسيرة.

لقد قضى ابو الربيع ايام الصبا والشباب فى الدراسة . ثم عكف على التدريس والتأليف . انها الامانة العلمية التى تحملها اسلافه اعد نفسه لحملها ، فحملها بجدارة واستحقاق ولم يتخل عنها لحظة واحدة فى حياته . وكما كون جيلا من انجب الطلاب واوضح معالم الاسلام للضالين والجاهلين بالدعوة الى دين الله وبيان حدوده فى دروس الوعظ والارشاد ترك لنا مؤلفات قيمة منها المتحف فى الاصول والسيرة المنسوبة اليه ، وهى دستور

قيم للعالم المتعلم يجدر بالشباب المسلم المتعلم ان يحفظها وان يعمل بها .

كان مستقلا برأيه مجتهدا فى احكامه قد يفتى بالقول المرجوح ، ويعمل برأى الاقلية ، ويبدو انه فى فتاواه واحكامه لا يقتصر على بحث الاراء والادلة التى تستند عليها وانما يضيف الى ذلك ظروف البيئة ، ودراسته الشخصية للموضوع ، ومعرفته لما يحيط بالحادثة .

لما مرض استاذه الاكبر ابو عبدالله محمد بن بكـــر مرض الوفاة قال لجماعة ممن حضر : اشهدوا أن البستان الفلانى الذى على العيون هو لابى يوسف وهو اكبر ابناء ابى عبدالله فسمعت امرأته بذلك فظنت ان ذلك بسبب الوجع او السهو فقالت تنبهه ما هذا يا شيخ فكرر الشيخ الاشهاد على نفسه بما قال واكد للقوم قوله الاول ، ولم يرجع عنه واجاب امرأته قائلا : انى اعتقدت له اكثر من ذلك ، وعلمى ورأيى لا ارجع عنهما الى علمك ورأيك ، وكان ولده ابو العباس احمد حينئذ عند ابى الربيع سليمان بن يخلف فى نظام الدراسة فبلغه وفاة ابيه وقد بقيت بيده بقية من نفقه فامسك عنها لانه رأى ان ذلك قد اصبح مالا للورثة فقال له ابو الربيع امسك ما بيدك وانفق منه ولا حرج عليك ، فان اباك لا تلزمه العدالة بينكما ثم ذهب الى موطن الشيخ ابى عبدالله وانفذ وصيته كما اوصى بها مع ان اكثر الفقهاء يوجبون العدالة بين الاولاد ولايجيزون انفاذ العطية اذا وقعت فى مرض الموت . ولا شك ان فى المسألتين خلافا بين علماء الاسلام ولكـــن الراجح المعمول به عند الاباضية هو وجوب العدالة بين الاولاد وعدم انفاذ العطية الواقعة فى مرض الموت .

وفتوى ابى الربيع بغير المشهور من اقوال المذهب فى ذلك يدل دلالة واضحة على استقلال رأيه واجتهاده من جهة ثم على استناده على معرفة احوال الناس الذين تقع لهم المشاكل والاحداث ودراسته لظروف تلك الاحداث من جهة اخرى.

ويبدو لى ان الذى يسر لابى الربيع ان يفتى هذه الفتوى انما هو معرفته الكاملة لاسرة استاذه ابى عبدالله وللمجهود الجبار المتواصل الذى بذله ابو يوسف يعقوب فى تكوين هذه الاسرة وتهيئة ظروف الحياة الكريمة لها حتى كأنه شريك او اخ لابى عبدالله وهذا ما لاحظه ابو عبدالله فهو يعلم ان ما يعود عليه من املاك انما كان لكفاح ابى يوسف فرأى ان يعوضه عن ذلك المجهود بهذه العطية .

وعلى هذه المعرفة الشخصية والدراسة النفسية استند ابو الربيع فى اصدار هذه الفتوى . ولقد تحدث ابو العباس الدرجينى عن هذا الموضوع فقال : « قلت اما فعل ابى عبدالله محمد بن بكر رضى الله عنه فلا ينفذ لوجوه منها : اولا انه عطية فى المرض الذى توفى فيه فلا يجوز الا باجازة الورثة . ثانيا انه لم يذكر التسليم والحوز وذلك شرط عند جميع اهل العلم الا الشاذ ، ثالثا انه لم يعدل فيما دل عليه اللفظ والعدل بين البنين واجب على الاب فى قول جماعة من اهل العلم واليه مال اكثر اصحابنا فيما علمت لكن الشيخ ابا الربيع رجح قول من قال لا تجب العدالة على الاب. واقول والله اعلم ان ذلك انما جاز لاجازتهم اياه ابرارا بالشيخ رحمه الله » انتهى قول ابى العباس ويرد على تعليله الاخير بان الورثة ربما اجازوا ذلك ما ورد فى اول القصة بان امرأته نبهته حاسبة ان ما قاله انما كان من الوجع فاصر ابو

عبدالله على موقفه واعلن انه لن يرجع عن رأيه وعلمه الىرأيها وعلمها مع العلم انها وراثة .

ومهما يكن فان ترجيحه للقول المرجوح ، وفتواه بغير المعمول به دليلعلى ملكة الاجتهاد والاستقلال فى الرأى، وملاحظة جميع الظروف المحيطة بالقضية عند تطبيق الاحكام، وشبيه بهذه الحادثة ما جاء فى القصة الاتية :

كان بين مجموع الطلبة الذين يدرسون عند ابى الربيع تلميذان ذكيان تربط بينهما عرى الزمالة والصداقة والمحبة وكانا يقضيان وقتهما فى مذاكرة ودراسة ، حتى اذا احسا بالتعب والملل خففا عن نفسيهما بالنكتة الضاحكة والدعابة البريئة والهزل الخفيف . وضع الزميلان كتب الدراسة الى جانبهما وحلق بهما الخيال فى مسارح امال الشباب فتحدثا عن العزوبة والزواج والتفت احدهما الى الاخر متصنعا وقار الجد وقال له : انى ارغب اليك يا صديقى فى اختك فلانه بنت الحسب والنسب وجئتك راغبا فى زواجها فهل توافق على ذلك وتصنع الزميل الثانى وقار ولى الامر الذى يفكر فى مستقبل اختهوينظر الى مصلحتها ثم رفع رأسه وقال قد قبلت فبارك الله لكما . وضحكا الفتيان ورجعا الى كتبهما للمذاكرة ولكن شيئا بدأ يهجس فى نفس الفتى الخاطب . الا يكون قد ارتكب بدعابته هذه حماقة ، واصبح الزواج منعقدا ، واصبحت فلانه هذهامرأته ويكون مسئولا امام الله والناس عن زوجة لا تدرى عنه شيئا، وعندما افترقا بقى الشاب يردد الفكرة على ذهنه فلا تزداد الا رسوخا وثباتا ، وفزع بمشكلته الى زملائه الذين يكبرونه سنا وعلما يلتمس عندهم الحل ، فكان كلما عرضها على واحد منهم اجابه بان ثلاثة جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والعتاق

فالنكاح قد انعقد بينه وبين الفتاة ، واصبحت زوجة له بحكم الشرع ، ويضيفون الى ذلك ما يشاءون من نكت ودعابات، واهتم الفتى واحتار وفى درس من الدروس لاحظ الشيخ ابو الربيع سهوم تلميذه النجيب وشرود فكره فعلم ان شيئا اصابه فلم يخجله بالسؤال وانما سأل عنه بعض زملائه فاخبروه بالقصة فقال الشيخ قولوا له : فليقم وليشتغل بالقراءة فانه لم ينعقد نكاح ، ولا يلزمه شيء ولو اجازته .

هذه حادثة اخرى من الحوادث التى تدل على مبلغ علم الرجل واجتهاده فى ذلك العصر ، ولقد ناقش الشيخ ابو العباس الدرجينى هذه القصة ايضا فقال : « قلت وهذه المسألة لها وجوه تقيد بها وليست بمطلقة وذلك ان اخا المرأة لا يخلو ان يكون وكيلا مع كونه وليا او يكون لا وكيلا ، فان كان وكيلا فالنكاح قد انعقد بلا خلاف . وان كان انكح فضولا بغير توكيل ثم اجازته فالاولى جوازه وقيل يكون موقوفا على قبولها او امتناعها ، ولعل ابا الربيع رحمه الله عرف فى هذه القضية بعينها ما اوجب امتناعها، كتراكن وقع متقدما مع خاطب ، او عقد تقدم من ولى اخروالله اعلم » انتهى كلام ابى العباس .

هذه القصة تؤيد ما اشرت اليه سابقا من استقلال ابى الربيع فى الرأى واجتهاده فى استخراج الاحكام واعتماده فى اصدار الفتوى على قرائن الاحوال وعلى الدراسة الشخصية لظروف الحادثة .

كان ابو الربيع يتحلى باسمى اخلاق المؤمنين من اللين والحلم والتواضع والكرم والعفة ومحبة المسلمين والنصح لهم .

اراد جماعة من طلابه ان يعودوا الى بلدانهم فسار معهم مسافة

طويلة لوداعهم وكان يتحدث اليهم ويوصيهم فى اخرمرحلتهم الدراسية ومما قال لهم وهو يسير معهم : « امضوا بالسلام ، فاذا وصلتم منازلكم ان شاء الله ، فاياكم والدنيا ان تستقبلوها بوجوهكم ، فان من استقبلها اغرقته ، ومن استدبرها فلا بد ان تأخذ منه ، وعيلكم بالالفة والنصيحة والتزوار ، وحفظ مجالس الذكر ، واياكم وامور الناس ، واياكم التقصير فيمن يرد عليكم من اهل دعوتكم والسلام . » وحينما عزم جماعة من الطلاب على الرجوع الى اوطانهم معتقدين انهم اخذوا ما فيه الكفاية من مبادىء العلم وانهم يستطيعون ان يستمروا فى دراستهم معتمدين على الكتب لم يرض لهم. واوصى العلامة ابا يحى زكرياء ابن ابى بكر ان يقول لهم « اعلموا انكم ان رجعتهم على هذه الحال الى اهلكم فانتم كمن ترك الاسلام عمدا . » وليس اعنف من هذه العبارة توبيخا على من يرضى بالاقل ؟ او يتملكه الغرور فيحسب انه قد ملك من الوسائل ما يصل به الغاية ولا اشد تحريضا على طلب الكمال .

كان ذات يوم جالسا فى زاوية من زوايا المسجد الى جانب صديقه يزيد بن خلف الزواغى يستمعان من مكانهما الى درس يلقيه العلامة ابو يعقوب محمد بن يدر فسأله سائل هل يجب علينا العلم بالفرائض فأجاب ابو يعقوب خطأ اذ قال لمن سأله ، علينا العمل بالفرائض وليس علينا العلم بها فاتجه يزيد الى صديقه ابى الربيع وسأله بحيث يسمع من فى المسجد يا سليمان ما الذى اخذت عن ابى عبدالله بن ابى بكر فى هذه المسألة قال ابو الربيع اذا لزم العمل بشىء لزم العلم به وان فى فعله الثواب وانه فرض وعدل . دوى صوت ابى الربيع بهذا الجواب فى جوانب المسجد فلم يرد عليه احد . ومع ذلك فلم يعلن ابو

يعقوب عن رجوعه ولا طلب منه الشيخان ان يرجع عن قوله والقضية من مسائل علم الكلام المشهورة مبسوطة فى الكتب وهى من مسائل الخلاف بين الاباضية وبعض الفرق الاسلامية الاخرى لانه لا يعقل ان يقوم الانسان بعمل لا يعرف كيف يقوم به . ويعلق ابو العباس الدرجينى على هذه الحادثة فيقول : « وكان هذا حال الشيخ ابى الربيع لا يعجل بتخطئة احد ، ولا يسمعه جفاء » ولعل مما يكمل به اطار هذه الصورة التى اردت ان اضعها لهذا المؤمن العامل فى هذا الكتاب ان انقل للقارىء الكريم نماذج مما ورد فى كتابه القيم المشهور بسير ابى الربيع .

« ينبغى للعالم ان تكون له خزائن لا يدخلها الا هو . » من جهالة العالم ان يفتى لكل من يسأله » « العالم فى علمه كالطبيب فى ادويته لا يضع دواء الا حيث يصلح ، وكل علة مع دوائها » « صونوا علمكم بالسكينة والوقار وحسن الادب » « العلم يحتاج الى السياسة ما لا تحتاج السياسة الى العلم . » « على العالم ان يعبد الله بكتمان علمه ما لم يحتج اليه فاذا احتيج اليه لم يسعه كتمانه » « العلم اكثر من ان يحصى ولكن خذوا من كل شىء احسنه » « ظلم الناس الاسلام بثلاثة : تركوه من غير عيب ، وجعلوا له عيوبا لم تكن فيه ، وادعوه ولم يكن فيهم . » « سرعة اللسان بالاستغفار والتمادى على الذنوب توبة الكذابين » من يتوب ثم يرجع الى ما تاب عنه كالمستهزىء بربه » احذروا الناس فانهم ما ركبوا ظهر بعير الا ادبروه ، ولا متن جواد الا عقروه ، ولا قلب مسلم الا افسدوه » « يكون الرجل فى قعر بيته ، قد غلقت عليه الابواب ، واقفا فى صلاته فى جوف الليل ، ليس معه غيره وهو مراء بصلاته ، قيل له كيف ذلك قال اذا احب فى نفسه ان يظهر ذلك للناس ويطلعوا عليه » يكون الرجل فى مطلع الشمس وتكون

الفتنة فى مغربها ، وهو فى بيته على سريره راقد ، ولم يحضر بنفسه ولا بماله ، وسيفه يقطر دما من تلك الفتنة قيل له كيف ذلك ؟ قال : اذا مال بقلبه الى احدى الطائفتين . »

هذه ملامح عن شخصية ابى الربيع المزاتى ارجو ان يكون القارىء قد رسم منها صورة لذلك الرجل العظيم .

ميمون بن احمد المزاتى

قال فيه ابو العباس الدرجينى « كان ذا فطنة وذكاء ، وعقل ودهاء ، وكان مصدرا بدرجين من قبل مقدمها « مولاهم بن على » والجماعة ، فكان حكمه عدلا وقوله فصلا . » ويبدو من هـذا التعريف ان الشيخ ميمون يتولى الاحكام والفتاوى فى درجين لان مقدم درجين فى ذلك الحين وجماعة المسلمين يرجعون اليه فى هذه الامور لان ميمونا لم يتول العمل للحكومة فى اى فترة من حياته وانما وثق فيه وفى علمه ودينه الناس فالتجأوا اليه وكان فـى عامل درجين بقية من خير فلم يركب رأسه ويفعل ما يفعل غيره من اصحاب السلطة وانما كان يرجع فى احكامه الى ميمون بن احمد المزاتى الذى كان يحكم بعدل ويفصل المشاكل بعلم ويتصرف بدين ونزاهة . وقد ارضى بعمله هذا الحاكم الفعلى لدرجـين وارضى جماعة المسلمين .

امتدت الحياة بالشيخ وطالت حتى كف بصره ، وادبرت ايام درجين وتغلب فيها الجهل ، حتى كان الشيخ يتمنى ان يجـد من يسأله عن مسألة او يناقشه فى حديث او يتعلم منه او يعلمه ، وقد من الله عليه فاستجاب دعوته فى اخر ايامه فوهب له طالبا ذكيا ألمعيا شديد الرغبة فى العلم هو العلامة سعيد بن سليمان

بن علي بن يخلف . ففرح به الشيخ ، وامل ان يحى الله على يديه ما انطمس من معالم الحق ،وكان الطالب الذكى لا يفارق مجلس الشيخ فى المسجد او فى البيت فكان يحضر حلقة القرآن الكريم، وكان يرافق الشيخ ويخدمه ، وكان الشيخ يؤثره اكراما لجده يخلف بن يخلف فكان يمرنه على القراءة ، ويحمله على مراجعة اخطائه متى يهتدى الى تصحيحها بنفسه ويسرد له ما عسر عليه ، ويرافقه فى تلاوة القرآن الكريم، ويفسر له بايجاز معانى الايات ويشرح له معانى المفردات اللغوية الى اخر ما هنالك مما يفعله المدرس النصوح مع التلميذ النجيب الراغب فى الاستفادة .

قال ابو عثمان سعيد بن سليمان : « دخلت حلقة درجين وانا صبى قبل ان اكمل قراءة القرآن فكان الشيخ ميمون سبب تمرنى على قراءة الكتب ، لانه كان يكبرنى اجلالا لوالدى ، ويخصنى بالفوائد ، وذلك انه متى خرج الى المسجد اخرج معه كتابا . فاذا جاء المسجد دعانى وقال لى اقرأ ، فآخذ الكتاب واقرأ فمتى توقفت فى بعض ما يشكل على قال لى بين ولا ترهب فاذا قرأت حرفا ما اصبت أو صحفت استحسن ذلك، وكان يقول لى بعد ما كف بصره اقرأ على سورة كذا او كذا ، وكان لا يخلينى من فائدة .»

كان شديدا فى الامر والنهى حريصا على اقامة دين الله فلما كبر وكف بصره خفف من حدته ، ولان فى امره ونهيه . وكان العلامة يخلف بن يخلف يتوسم فيه الخير والصلاح فكان يخصه بالهدايا الطريفة وكان يحض الناس على اكرامه والبر به .

ويقول لهم : « اكرموا ميمون بن احمد فقد اجتمعت فيه الخصال الثلاثة : عزيز ذل ، وغنى افتقر ، وعالم بين جهال . »

لقد كان هذا العالم الذى حكمت عليه ظروف الحياة ان يعيش فى درجين حين ادبرت ايامها ، وذهبت نضارتها ، واتى الظلم

والجبروت على ما كان فيها من علم ودين وخلق مثلا يحتذى فى وسائل التربية والتعليم . فلقد جرى على طريقه تعتبر من الطرق الحديثة فى التربية والتعليم وذلك انه يعمل على ان يعتمد التلميذ على نفسه بعد ان يستثير المدرس ذهنه فيستنتج ويستخرج القواعد ويحاول ان يصل الى اخطائه بنفسه فيصححها دون ان يلقنه المدرس ، وهو فى طريقة تدريسه وتربيته يحترم شخصية الطالب ويبذر فيها بذور الشجاعة والثقة بالنفس . وقد كان حريصا على ان يكون المؤمن حسن السيرة لين الخلق عفيف اليد واللسان فكان يقول : « من قال لمسلم يا ثقيل يبرأ منه . »

انه لايريد ان ينسب الى المسلم اى وصف تكرهه النفس وتمله بسببه الاصحاب .

ابو حفص عمرو بن جميع

يشرفنى ان اضع القلم لارافق القارىء الكريم فى قراءة هذه الترجمة القيمة التى كتبها الامام القدوة ابو اسحاق طفيش رحمه الله ورضى عنه قال حين ترجم لابى حفص فى مقدمة التوحيد: « هو العلامة القدوة ابو حفص عمرو بن جميع ، لم نجد لـــه ترجمة غير ماكتبه عنه البدر الشماخى رحمه الله فى تراجمه وان كنا ندرك منزلته العلمية والعملية فى نفس المقدمة لـــو جزمنا بنسبتها اليه ، قال البدر : كان اماما مشهورا ، وكان من بين العلماء منظورا ، واليه تنسب العقيدة التى كانت بالبربرية، فأبدلها بلسان العربية ، وهى اعتماد اهل (جزيرة) جربة وغيرهم ـ من اصحابنا اهل المغرب ـ غير نفوسة فى ابتـــداء الطلبة ، واودعتها شرحا على قدرها، انتهى اما كونها ليست عماد اهل نفوسة فلاعتمادهم على العقيدة المعروفة عندهم بعقيدة نفوسه وهى متن من متون اصول الدين لاحد ائمة القدماء اشتهر عندهم واعتنوا به ، فاستغنوا عما سواه من المتون ، ويبدو على متـــن المقدمة المنسوبة الى العلامة ابى حفص امور : اشتمالها على ما لا يسع جهله من مسائل التوحيد من الجمل الثلاثة وتفسيرها على منهاج السلف رضوان الله عنهم دون ان تشاب باساليـــب الفلسفة الكلامية ، وتكليف المبتدئين معرفة الصفات والمسائل

الخلافية ، تضمنها فى مسائل الولاية والبراءة ، معرفة المعصومين، وهم الذين اثنى الله عليهم فى كتابه العزيز نصا او تلويحا ، وهم بذلك مقطوع بسعادتهم فى الاخرة ، وبموتهم على الوفاء بدين الله ، المعبر عنه عند اصحابنا بالعصمة ، احتواؤحها على مسائل هى من قبيل مسائل التاريخ كذكر الانبياء الذين ارسلوا الى الكافة واولى العزم ، والانبياء العرب الخ ، كى يكون المبتدىء على المامة بمهم مما يتصل بمسائل دينه . عنايتها بتفصيل الناس بالنسبة الى العمل بالدين وعدمه ، وبيان حال المسلم فى أطوار الحياة الدينية ، والاحوال التى تكون عليها الامة بالنسبة الى الاستقلال والغلبه المعبر عنه بالظهور ، والتغلب عليها المعبر عنه بالكتمان ، لعدم نفاذ احكام الاسلام العامة وحدوده ، وفرز الاسلام من غيره ، واصول التشريع من التنزيل والسنة والرأى: الذى هو الاجماع والقياس الخ ما هنالك من مهمات المسائل التى يلم بها المتعلم فى بداية التعليم حتى يكون اخذا بقسط من مسائل الدين والتهذيب واصول التشريع واسس الحياة الاستقلالية ومعرفة احكام الملل ، وطاعة اولى الامر من الائمة العدول ، والتضحية فى سبيل الحق لاجل الحق ، والتحلى بالكمالات الاسلامية ومعرفة الكبائر وفرز ما بينها ، فهذه العقيدة هى فى نفس الامر والواقع من اهم المقدمات لو اعتنى بها من جميع نواحيها لكانت المؤلفات التى تكتب عليها من اجل الكتب وابدعها اصولا وتاريخا ، وخلوا من هوس الفلسفة الكلامية .

وعندى ان نسبتها الى الامام ابى حفص فيها نظر ، لانه رحمه الله يقول :

وجدت هذه النكتة منسوخة بالبربرية الخ فهذه العبارة صريحة فى انها لغيره، لا له ثم ان التاريخ اعرب لنا عن حقيقة لا مراء فيها

وهى ان عهد التأليف بالبربرية اقصى ما يمكن ان يصل اليه لا يعدو القرن الرابع والمؤلف من الطبقة الخامسة عشر التى هى طبقة الخمسين الاولى من القرن الثامن على ما يوخذ من طبقات ابى عبدالله البارونى وسير البدر الشماخى ، رحمها الله .

ويمكن ان يقال ان هذه المقدمة اخر ما نقل عن البربرية الى العربية من المؤلفات وهذا الطور طور التأليف بالبربرية ـ من اهم اطوار التاريخ الاسلامى فى شمال افريقيا يدل على ما بذله اسلافنا من الجهود فى هداية البربر الى الاسلام ، وتمكينهم فيه ، بما لم يبلغ اليه سواهم ، فجزاهم الله عن الاسلام احسن جزاء ففى قول البدر الشماخى ان العلامة ابا حفص كان اماما شهادة عظيمة تعرفنا بمرتبة المترجم له ، وبنسبته بين اقرانه ، اذ ليس البدر الشماخى بمن يقول ويلقى دون وزن ، وهما رحمهما الله قريبان فى العصر حيث توفى البدر سنة ٩٢٨ هجرية والامام ابو حفص وان لم نقف على تاريخ وفاته عند كتابة هذه النبذة فانه معدود عند اصحاب الطبقات من ائمة الخمسين الاولى من القرن الثامن كما تقدم توفى رحمه الله بجزيرة جربة ودفن بمقبرة جامع تفروجين بفتح التاء والفاء وشد الراء المضمومة لفظ بربرى وذلك بجهة والغ القديمة من الجزيرة .

أسرة البرادى

عماد هذه الاسرة ابو الفضل ابو القاسم بن ابراهيم البرادى وقد نشأ فى جبل دمر من الجنوب التونسى ودرس على بقيـــة المشائخ هنالك فى اول امره حتى ثقف لسانه ، وصلب عوده ، وازداد عطشه الى العلم ، وظمأه الى المعرفة ، فانتقل من جبال دمر الى جزيرة جربة فالتحق بمدرسة علامة زمانه الشيـــخ يعيش الجربى فدرس عنده ما شاء الله ثم تاقت نفسه الى المزيد فارتحل الى جبل نفوسة والتحق بمدرسة الامام الكبير ابى ساكن عامر بن على الشماخى ، وواصل هنالك دراسته حتى اصبح علما من الاعلام واماما من الائمة . ورجع الى جبال دمر ، فبدأ كفاحه من اجل الرسالة المقدسة ولكنه لم يستقر فى دمر طويلا فقد انتقل الى جربة ليجعل من تلك الجزيرة مركزا لاقامته ومنطلقا لدعوته الاصلاحية وميدانا لكفاحه فى سبيل الله ، وكانت الجزيرة فى ذلك الحين تعج بالعلماء الاعلام ، وتنتشر فيها المدارس وان كانت من الناحية السياسية ، تعانى اشد المتاعب ، وتتعرض لصنوف من الاذى ، تحت نظام حكم فاسد ، وحكام منحرفين عن دين الله. واستقر بجربة ، وتصدى للتأليف والتدريس والفتوى والفصل فى مشاكل الناس ، والقيام بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر والتنديد بالظالمين والمنحرفين . ولقد آتت جهوده العلمية احسن

الثمرات فتخرج على يده عدد غير قليل من الاعلام .

ومع كفاحه للباطل الذى بدأ ينتشر فى التحلل الدينى، والباطل الذى بدأ ينتشرعلى السنة المبتدعين ، والباطل الوافد فى ظلال الحكم الفاسد وعدم الاستقرار ، والباطل المخيم مع الجهل بدين الله . مع كفاحه للباطل فى شتى هذه الصور وانشغاله بتوعية الرأى العام ، كان قدترك لنا ثروة قيمة من الاثار .

فقد الف فى الحدود الشرعية رسالة قيمة استجابة لطلب الشيخ ابى عبدالله محمد بن احمد الصدغيانى حدد فيها حقائق اكثر العلوم الشرعية ، وبدأ فى شرح الدعائم فاصدر منه الجزء الاول وصل فيه الى الطهارات ثم جمعت مسودة الباقى من بعده فبلغت الى الزكاة ولم يتم الكتاب . وشرح كتاب (العدل والانصاف) للامام ابى يعقوب يوسف بن ابراهيم ولم يتمه ، والف كتاب الجواهر المنتقاةفيما اخل به كتاب الطبقات وهو تصدير مطول او جزء اول لكتاب الطبقات لابى العباس الدرجينى اما الفتاوى والاجوبة فقد ترك منها الشيء الكثير ،وقد رأيت منها جملةتدل على ان الرجل بلغ من العلم درجة تجاوزت مرتبة التقليد الى الاجتهاد ، وخولت له الاستقلال بالرأى فى الفتوى وهو فى رسائله قوى صريح صراحة تبلغ الشدة والعنف فى بعض الاحيان لا يبالى فى الحق لومة لائم والذى يبدو من دراسة التاريخ انالفترة التي كان فيها ابو الفضل كانت من احرج الفترات التى مرت على جبل دمر والجنوب التونسى كله فقد كانت العصبية المذهبية بلغت حدا كبيرا ، وكانت الايدى الحاكمة الهزيلة المتغطرسة التى ضعفت عن حكم الناس بالشرع او بالقانون فاستندت فى حكمها على ايقاد نار الفتنة بين طوائف الامة وتوسيع شقة الخلاف بين الناس وتسليط الذين لا يخشون الله

ولايتقونه على غيرهم ومساعدتهم على العدوان ليتسنى لهم ان تجمع الاموال التى تطالب بها بكل الحاح وباستمرار . فاصبح الناس يعيشون فى تلك المناطق منعزلين متعادين كل قرية او قبيلة او مجموعة منها تعيش منفردة بنفسها . واصبح كل ما يمت الى الاتصال بالدولة دليلا على الظلم والفساد. ولعل مما يصور ذلك ما قاله البرادى وهو يتحدث عن الحلال والحرام والشبهة قال : « ومن القراين التى تدل على الشبهة والريبة ، ويجب التوقف والبحث عندها ، قرينة الاغارات والتلصص فى بلادنا ، هذه العمائم الزرق ، ومن قرائن الغشم والاغارات والانتهاب الرمح والقوس ، ومن قرائن التسلط والقهر والعلو والسلطان الترفه والتفنق والتباهى فى الملابس الفاخرة مثل الفراء المؤشاة والثياب المذيلة المطولة والاخراج ، والخيل المسومة ، والبرانيس الواسعة الاكتاف ، وكثرة الاعوان، والتعزز بكثرة الاتباع والتبختر فى المشى ، وقصر الخطا . »

ويقول بعد كلام « والاجتماع والوقوف على ابواب الظلمة ، والانتصاب بين ايديهم ولباس الثياب والاجباب مفرده من غير ما يلقى على العواتق فهذه قرائن كلها باكتساب الشبهة والحرام والريبة ، وتوجب التوقف والبحث والفحص عما فى ايديهم ، وان كان يحتمل ان يحصل لهم الحلال بميراث أو هدية او صدقة او شراء الى الذمة ، فهو احتمال ضعيف نادر والنادر لاحكم له » ويقول بعد كلام : « فالهدية اليهم فى اكثر الامور رشوة ، والميراث انما يقع اليهم فى غالب الامور من امثالهم ومن هو بمنزلتهم . فمهما ظهرت قرينة من هذه القراين فقد وجب التنزه والتوقف فهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم من تركها فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن رتع حول الحمى يوشك ان يقع فيه . »

تخرج على ابى الفضل وعدد جم من كبار العلماء ، وتسلسلت منه اسرة شهيرة فى العلم والعمل والكفاح فى سبيل الله ولعل اشهر افراد الاسرة هو ولده ابو محمد عبدالله بن ابى القاسم البرادى . كان كما يقول ابو العباس الشماخى « شيخا عالما متفننا » درس على مشائخ جبل دمر ثم ارتحل الى تونس فدرس فى المعهد الزيتونى العامر وبلغ فيها مرتبة شهد له فيها علماء الزيتونه العظام بالنبوغ والعلم قال بعض تلاميذه كنت بالزيتونه فى مجلس من مجالس العلم فاثيرت مشكلة من مشاكل اللغة العربية فاستشكلها الاستاذ المدرس وتردد فيها فتكلمت فيها بما حضرنى فاعجب الشيخ جوابى فقال لى عمن اخذتها ، قلت عن ابى محمد البرادى فالتفت الى القوم وقال لهم ، ما رأيت اعلم من البرادى ، فغضب بعض الحاضرين من هذا القول ، فالتفت الشيخ الى البجيرى وكان متخصصا فى العربية فقال له : انه يشاركك فى العربية ، ويزيد عليك فى علوم اخرى ، ثم التفت الى غيره ، ويقول لكل واحد منهم انه يشاركك فى مادة تخصصك ، ويزيد عليك فى علوم . هكذا يشهد الشيخ حسين المدرس الكبير فى المعهد العامر لابى محمد وهو غائب شهادة يغار منها جماعة من العلماء فيقرر لهم الشيخ فى صراحة ان البرادى يشارك كل واحد منهم فى مادة تخصصه ويزيد عليه فى علوم .

عندما أتم دراسته اختار جزيرة جربة مقرا لعمله وفيها بدأ كفاحه العلمى والدينى اما وطنه جبل دمر فقد تركه لاخيه ابى عبدالله محمد البرادى . قال ابو الربيع سليمان بن ابى زكرياء الفرسطائى ارتحلت الى جبل دمر للدراسة فالتحقت بمدرسة ابى عبدالله البرادى فكان هو المدرس والمفتى والحاكم فى جبل دمر فاذا جاء اخوه ابو محمد عبدالله ، رجع الدرس والفتوى والحكم

اليه ، وكنت اريد ان اسأله عن مسألة فى الايمان فيمنعنى الحياء منه ، وسألته يوما عن الايمان فقال لى : يقول بعض العلماء ان النظر فى الايمان الى ما يدل عليه اللفظ ويقتضيه ، وقال بعضهم النظر فيه الى النيات وهو اولى ، هذا ترجيح ابى محمد .

تولى ابو فارس عزوز الحكم فى تونس ما بين ٧٩٦ ـ ٨٣٧ وكان قويا فاضلا ذا سياسة وحكمة جاءه بعض الناس يشيرون عليه ان يلزم اهل جربة باتباع المذهب المالكى ويخبره انهم لا يزالون محافظين على المذهب الاباضى ويوهمونه ان فى المذهب الاباضى بدعا تخالف الاسلام وان اهله لايزالون يناوئون الحكام وان توحيد المملكة تحت مذهب واحد احسن فاستحسن الفكرة وكان فيما يبدو لا يعرف شيئا عن الاباضية غير مايقصه المتعصبون المغرضون فرأى انه يجب عليه كى يتخذ الخطوة ان يزور القوم وان يتصل بهم وان يعرف منهم اصول هذا المذهب وقواعده حتى يقيم عليهم الحجة ويلزمهم بالخروج منه والدخول فى مذهب آخر وارتحل الىجربة وفى ركابه عدد جم من علماء المالكية الفضلا وطاف فى البلد فوجد المساجد عامرة غاصة والمدارس مزدحمة وحلق الدروس متتابعة واداب الاسلام فى المعاملة ظاهرة متغلبة ولكى تتم له الصورة التى اراد ان يأخذها عن الاباضية فى جربة عقدمجلسا للمناظرة حضره جمع من علماء الجزيرة وطلاب العلم . واثيرت بعض المشاكل العلمية فامر ابو محمد احد تلاميذه بالجواب فاوضح التلميذ وابان واجاب بما اقنع ابا فارس والجمع الذين حضروا معه واتضح لابى فارس ان الكلمة التى القيت فى اذنه باسم النصيحة للدين والدولة انما هى وشاية متعصب حقود ولذلك فقد اقام اياما فى

جربة ثم عاد الى مركز الحكم وهو مقتنع ان هؤلاء القوم احرص على دينهم من الوشاة الذين يتزلفون اليه .

تخرج على ابى محمد عبدالله عدد من فحول العلماء منهم ابو النجاة يونس التعارينى وابو يحى بن افلح .

ابو سليمان التلاتى

يشرفنى هنا ان ارفع قلمى الضعيف ، وادع الحديث للامام القدوة العلامة ابى اسحاق طفيش رحمه الله ورضى عنه ، قال ابو اسحاق حين ترجم للعلامة ابى سليمان التلاتى :

هو العلامة النحرير ، والقدوة الشهير ، الولى الصالح ابو سليمان داود بن ابراهيم التلاتى الجربى ، احد الثقاة الصالحين، رحل فى طلب العلم ، واقتطاف ازهار فنونه من رياضها ، جاب الفدافد الى العلامة ابى مهدى عيسى بن اسماعيل الميزابى المليكى بوادى ميزاب عام احد وستين وتسعمائة ، وعن الشيخ سعيد بن على الخيرى الجربى الداوى ، وهو الشهير بغاردايه بعمى سعيد .

فهو الذى يحدثنا عن مراحله العلمية منذ البداية فقال : اول ما قرأت العقيدة عقيدة التوحيد وغيرها على عمنا ابى زكرياء ابن عيسى البارونى ـ والذى فى طبقات ابى عبدالله البارونى ابى بكر بن عيسى البارونى ـ وهو من نفوسة ثم قال : ثم قدمت من نفوسة الى جربة وقرأت بها عند الفقيه ابى القاسم بن يونس السدويكشى ومن شيوخه العلامة ابو يحى زكرياء بن ابراهيم الهوارى من مشاهير الطبقة التاسعة عشر كابى القاسم

السدويكشى ثم رحل ثانيا الى جبل نفوسة فاخذ على ابى يوسف يعقوب بن صالح علامة اجناون بفتح الهمزة والجيم وشدالنون وفتح الواو بعدها نون ، لفظ بربرى معناه الجنان جمع جنة ، وهى من اجمل قرى جبل نفوسة بها عين ثرارة تسقى القرية وحدائقها الغناء . ثم ارتحل شيخه الى جزيرة جربة فعكف على اخذ العلم عن الشيخ ابراهيم بن احمد من سلالة ابى منصور الياس التندميرتى النفوسى الامام المشهور ، عامل امير المؤمنين افلح بن عبد الوهاب ، وكلاهما من الطبقة السادسة . وقد اخذ عن شيخه ابراهيم بن احمد فنون المعقول كالمنطق والبيان حتى برع فيها ونبغ .

وكان مجاهدا مجتهدا فى العلم واصلاح شعبه والوقوف فى وجوه الظلمة والطغاة ، ولم يأل جهدا فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى كان فى مكانته بمنزلة الامام العادل فى تنفيذ الاحكام والسهر على امن الامة وراحتها . وقد ذر قرن الطغيان والعسف من عمال الاتراك يومئذ على تونس ، ويبدو ان الثورة على درغوث بن على التركى فى جزيرة جربة كانت باشارته حيث بلغ الشر من اولئك الولاة الطغاة اشده ، بما لا بد معه من الدفاع عن الكرامة والدين ، فكان ان اغار درغوث الطاغية على الجزيرة بجموع من العربان والنكار والجند ، فأخمد الثورة بضروب القسوة ، نهايتها قتل هذا العلامة الجليل ، فاستشهد رحمه الله بعد ان اخذ خديعة ، وسجن شهرا ، وقد واجه هذا الطاغية وهو فى اوج طغيانه ـ بما انطبق عليه قوله صلى الله عليه وسلم « افضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر فيقتل بها صاحبها » او كما قال فلم يلبث الطاغية واعوانه بعده الا نحو اسبوع حتى انتقم الله منهم باعدائه الاسبان ، فكان جزاؤهم وفاقا وكانت

وفاته رحمة الله سنة سبع وستين وتسعمائة اوائل شهر جمادى الاولى ، ودفن بجامع ابى داود بحومة بركوك بالجزيرة ـ جربة ـ

وابو داود هو ابو سليمان اشتهر عند العامة بابى داود حتى ان اكثر التلاميذ لا يعرفون مصنفاته الا بابى داود وهو خطأ ان يكنى باسمه كخطائهم فى كنية جدنا محمد بن عبد العزيز اذ لا يعرف الا بابى محمد والخطأ نشأ من ان البربر يكنون العظماء باسمائهم والاصل عندهم ان العظيم من رجال الدين يقال له بابا فلان أى سيدنا فلان ويختصرونه الى بافلان فيتوهم انهم يكنون وعلى هذا اشتهر كثير من عظماء العلماء بكنيتهم بعلمهم فى البلاد التى تغلب عليها اللهجات البربرية بالمغرب .

ولابى سليمان داود مصنفات نفع الله بها كثيرا من عباده المؤمنين : منها شرحه على متن ايساغوجى فى المنطق مقرر بالجامع الاعظم الزيتونة بتونس ، وشرحه على الآجرومية قل ان نجد ممن ادركناه لا يحفظه عن ظهر الغيب ، وهو مما من الله علينا به من المحفوظات، وشرح المقدمة هذه ، مقدمة العقيدة كذلك قل ان نجد ممن ادركناه من العلماء او التلاميذ لم يكن من محفوظاته وذلك فى بلادنا ـ وادى ميزاب ـ ولعل الحال فى الجزيرة ونفوسة كذلك وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه.
هذا ما كتبه الامام ابو اسحاق عن ابى سليمان الثلاثى وانا وان كنت لا اجد شيئا جديدا اضيفه الى كلام الامام غير اننى اريد ان اختتم هذا الفصل الرائع بكلمة جانبية صغيرة .

يبدو لى من مقارنات تاريخية كثيرة ان ابا سلمان التلاتى كان من اواخر من تولى رئاسة مجلس العزابة وكان لغزارة علمه وقوة شخصيته وصلابة ارادته يبدو كأنه يقف فى الميدان منفردا يتولى

جميع الشئون وهذا ما عبر عنه الامام ابو اسحاق بقوله « حتى كان فى مكانته بمنزله الامام العادل فى تنفيذ الاحكام ، والسهر على امن الامة وراحتها . »

والحقيقة ان مجلس العزابة يقوم فى اطوار الكتمان بعمل الحكومة الجمهورية وشيخ العزابة يكون فيه بمثابة رئيس الجمهورية او الامام العادل ينفذ الاحكام ويصدر الاوامر ويتولى جميع الشئون التى يقررها المجلس ، على ان ظروف الحياة فى جربة قد اضطرت مجلس العزابة ان يجرى بعض التعديل على نظامه فيخالف بذلك نظام العزابة المعروف فى جبل نفوسة ونظام العزابة المعروف عند الاباضية فى الجزائر وذلك ان المجلس يختار من غير اعضائه شيخا يسمى شيخ الحكم يسند اليه القيام بالشئون السياسية والمدنية تحت استشارة مجلس العزابة وهذا الشيخ اصبح لا تتوفر فيه شروط العزابة ولا يكون عضوا فى الحلقة وانما يكون غالبا كامام دفاع فى حالات الحرب وكواسطة بين الامة والدول الظالمة لجمع الضرائب بالطريقة التى يقررها مجلس العزابة ويسلمها لعمال الدول الحاكمة وذلك حتى لا يكون التعاون المباشر بين حلقة العزابة والحكام الظالمين . وهذا التعديل الذى ادت اليه ظروف خاصة فى جربة اجرى حسب تقديرى بعد القرن التاسع ويدل على اجراء هذا التعديل كلمة ابى سليمان داود التلاتى حين كان درغوث يستجوبه فقد قال له : « نحن جماعة العزابة ليس بايدينا ولا الينا توليه الامراء ولا عزلهم فى هذا الزمان » وهذا يدل ان العزابة هم الذين كانوا يتولون تولية الامراء وعزلهم وواضح ان ابا سليمان كان يقول هذا وهو شديد الاسف على هذا الاجراء الذى اتخذ والحقيقة

أن مجلس العزابة فى جربة بدأ يتخـــلى ويضعف عن مزاولة اختصاصاته فكانت تسلب منه شيئا فشيئا كما سلبت منـــه الرئاسة السياسية والمدنية ولقد يتولى فى بعض الاحيان بعض كبار العلماء رئاسة المجلس فينتعش كما انتعش فى عهد ابى سليمان وعهد شيخ مشائخ ابى النجاة وغيرهم ولكن الظروف التى جاءت من بعد والضربات الموجهة اليه بقصد من بعض الولاة وتمرد بعض مشائخ الحكم من أهل الجزيرة ومحاربتهم علنـا للعلماء العاملين ومساعيهم لدى الدولة للقضاء على أولئك العلماء هذه الاسباب كلها كانت عوامل لانحلال مجلس العزابة .

وعلى كل حال فان ابا سليمان داود بن ابراهيم التلاتى كان من اولئك العمالقة العظام الذين انتهت اليهم رئاسة المجلس وقيادة الامة ومحاربة الطغيان حتى ختم له بالشهادة فرحمه الله رحمة واسعة .

ابو النجاة يونس بن سعيد

ابو النجاة يونس بن سعيد بن يحى الخيرى الجربى اشتهر بابن تعاريت .

عاش فى القرنين التاسع والعاشر وكانحلقة اتصال متينة بين مواطن الاباضية فى ليبيا وتونس والجزائر ، اخذ العلم عن جماعة من الاعلام مثل ابى عفيف صالح ابن نوح التندميرتى وابى محمد عبدالله بن ابى القاسم البرادى وابى يحى زكرياء بن افلح الصدغيانى وغيرهم وتخرج عليه جمع منالاعلام مثل ابى يوسف يعقوب بن صالح التندميرتى وابراهيم بن احمدابى الاحباس وابى عثمان سعيد بن على الخثى الجربى وسلامة الجناونى وغيرهم من اقطاب الجزيرة والجبل وبنى مصعبويكفيه شرفا انه من العلماء الذين جازت عليهم نسبة الدين الىالمواطن الثلاثة .

اشتغل بالتعليم ، وقضية التعليم هى الواجب الاول على جميع علماء الامة ومع قيامه بهذه المهمة وتوافد طلبة العلم عليه من كل مكان فقد كان يكافح من اجل اقامة دين الله فى جميعالميادين فكان من احرص الناس على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واقامة حدود الله ، وكان داعيه من الدعاة المؤمنين المخلصين

الذين اوتوا مقدرةوكفاءة على قيادة الناس فى سبيل الخير ، وكـــان حريصا عـــلى حماية المجتمـــع المسلم من الامـــراض الاخلاقية التى تتسرب اليه من هنا وهناك ، وكان دائم التنقل بين انحاء الجزيرة يعلم الجاهل ، ويرشد الضال ، ويحل المشكلة، ويفصل المنازعة ، ويقضى بين المتخاصمين ويقيم حدود الله على المنحرفين . فلقد كان شيخا للعزابة اليه ترجع جميع الشئون وهو الذى يتولى تنفيذ احكامهم وان كان فى الجزيرة فى ذلك الحين شيخ للحكم هـــو ابو زكريـــاء السمومنى اختاره العزابة انفسهم ولكن ابا زكرياء كان يتولى امامة الدفاع عندما يغيرعلى الجزيرة مغير ويتولى فى بعض الاحيـــان تسليـــم الضرائب اذا اقتضت الظروف السياسية لجزيرة جربة ان تدفع الضرائـــب لبعض المتغلبين اما النواحى الاخرى من الشئون سواء كانـــت دينية او اجتماعية او اخلاقية فانما يتولاها الشيخ ابو النجاة تنفيذا لقرارات مجلس العزابة الذى كثيرا ما تقتضيه الظروف فينعقد فى بيت احد اعضاء العزابة بدلا من المسجد .

كان يلقى الدروس لحلقات متفاوتة من الطلاب منهم مبتدئون ومنهم من يسلك فى سلك العلماء ومن الكتب التى يدرسهـــا للطبقة العليا من الطلاب كتاب الجهالات وهو كتاب دسم غزير المادة متين الاسلوب لا يقوى على فهمه وتدريسه الا فطاحـــل العلماء فوضع عليه ابو النجاة تعاليق وهوامش تشرح الغامض منه وتسهل الصعب وعلى تلك الهوامش اعتمد ابو عبدالله بن ابى ستة فى حواشيه على الكتاب المذكور .

من التلاميذ النجباء الذين درسوا على ابى النجاة سلامة بن يوسف الجناوى ، وكان سلامه ذكيا لبقا خفيفا كثير الحركة جم النشاط ولذلك فقد كان ملازما للشيخ لا يفارقه ، يحضر اكثر

مجالسه ، ويسجل ما يقع فيها من مناقشات علمية او مداولات فى الشؤن السياسية والاجتماعية ويهتم بصفة خاصة بالنواحى التاريخية فيسجل الاحداث تارة بالسنوات وتارة بالشهور فيقول مثلا : « اجتمعت مع شيخى عمنا يونس بن تعاريت عام ٩٠٣ » أو يقول : وقع لعزابة جربة اجتماع عند شيخنا الفاضل الهمام أبى النجاة عمنا يونس بن سعيد بن يحيى بن تعاريت الخ » . وهكذا كان هذا الطالب النجيب لا يترك شيئا هاما يحدث فى مجالس ابى النجاة دون ان يسجله باختصار ويبدو ان سلامة هذا لم يعن فيما بعد بتنسيق تسجيلاته وملاحظاته وانما تركها هكذا لتكون مادة علمية مجردة عن رأى المؤلف ، وطريقته هذه شبيهة بالطريقة التى سلكها من قبله مؤلفوا اللقط ولو جمعت هذه التسجلات لكانت كتابا قيما يعطى صورة حقيقية للجزيرة فى عصر من العصور .

كان ابو النجاة فضلا عن رئاسته لمجلس العزابة اماما من الائمة الاعلام اليه المرجع فى العلم والرأى والسياسة وكانت جميع الاجتماعات فى جربة تعقد تحت رئاسته سواء كانت تلك المجالس من العزابة او من غيرهم فتناقش المشاكل الناجمة بين يديه والى ارائه ينتهى القوم فيما يفعلون وفيما يتركون ولعل من اهم الاحداث الواقعة فى زمنه احداث القرصنة ومهاجمة الاساطيل الافرنجية للشواطىء الاسلامية وعدوانها عى ثغور البحر الابيض المتوسط .

وقد تولى كثير من مؤرخى الجزيرة تفصيل تلك الاحداث وما يقوم به اهل الجزيرة الابطال من الدفاع . بتوجيه وقيادة العلماء ومشائخ العزابة .

ولعل في الحادثة الاتية الدليل الكافي عما يتمتع به العلامة ابو النجاة من ايمان راسخ وعقيدة لا تتزعزع وحب للاسلام واستماتة في الدفاع عنه وما يتمتع به من دراسة عميقة للنفس البشرية ومعرفتها معرفة صحيحة.

نشطت القرصنة الاسبانية في ذلك الحين ووالت هجومها على الشواطىء الاسلامية وبدأت تحتلها من ناحية الغرب فاحتلت بجاية ثم المرسى الكبير ثم وهران ثـــم طرابلس وكان المخطط الاسباني يضع جميع الثغور الاسلامية تحت سهام موجهة حسب الاهمية ، وبعد احتلاله لتلك المراسي كان يأمل ان يحتل غيرها. ومنذ احتل الاسبان بجاية علم اهل جربة انه سوف توجه اليهم ضربة من ضربات القراصنة وان عليهم ان يختاروا بين امرين لا ثالث لهما ، اما ان يسلموا من اول الامر ، فيسمحون لاولئـك الغزاة باحتلال بلادهم، واما ان يدافعوا دون ان ينتظروا مددا من احد .

عقد العزابة اجتماعا في دار رئيسهم ابي النجاة يونس وقد حضره شيخ الحكم ابو زكرياء السمومني وطرح ابو النجـاة موضوع احتمال غزو الاسبان لهم للمناقشة ودرسوا موقفهم من كل جوانبه واستعرضوا الحالة العامة للمسلمين في ذلك الحين فعرفوا انه لا امل لهم في نجدة تأتي من الخـــارج فان الدولـة الحفصية التي كانت تحكم تونس في ذلـك الحـين وكان يتولى امارتها ابو عبدالله احمد الحفصي كانت اضعف من ان تنجد جربة ، واضعف من ان تهتم بغير جمع المال اما البلدان المجاورة التي كان يحتمل ان تهب لنصرة الاخوة في الدين فقد اتى عليها الخلاف القبلي والتعصب المذهبي والفتن الداخلية حتـى بلغت حالة من الضعف والانهيار لا يمكن معها ان تنجد أحدا ولا ان تهتم

بقضية دين اما جبل نفوسة فقد كان حينئذ مضطرا للاحتفاظ بجميع قواه ليحافظ على نفسه من الغارات المتوالية التى يشنها على اطرافه فى كل يوم ناس كانوا يعيشون على النهب والسلب .

وهكذا درس القوم الموضوع ، وعلموا انه لن ينجدهم احد لو وقع عليهم عدوان من قراصنة الاسبان .

وهنا فى مثل هذا الموقف تبرز خصائص الايمان والزعامة ، ويمتاز الرجال بعضهم عن بعض . وظهر ابو النجاة بخصائص العالم المؤمن الشجاع ، فقد علم ان الجزيرة لا يمكن ان تعتمد على مدد من الخارج فلم يبق لديه الا القوة الموجودة فى الجزيرة ، وعليه ان يكون منها قوة يستطيع ان يدفع بها عدوان المعتدين ،

وقد فكر قبل كل شىء ان يستثير الناحية الروحية فى الناس وان يملأ قلوبهم بالايمان ونفوسهم بالثقة بالله ، وان لا يترك للخوف واليأس سبيلا اليهم ، فجعل يحبب اليهم الاستشهاد . ويثير فى نفوسهم الرغبة فى الدفاع عن الدين والوطن . ولكى يؤكد هذا المعنى فى اذهانهم ويجعل منهم قوة متماسكة مندفعة فى سبيل الله قال لهم ليس بيننا وبين النصارى الا امران نجعلهما حجابا وسترا .

الاول : العمل بقوله صلى الله عليه وسلم « اذا التبست عليكم الامور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع ، وشاهد مصدق » ورجع القوم الى القرآن الكريم فوجدوه يقول للمؤمنين :

« ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة »
« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة »
« يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم »

« انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا »
« ان ينصركم الله فلا غالب لكم »
« قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم »
« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز »
« وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون »
« الا ان نصر الله قريب »
« وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم »
« وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر »
« وكان حقا علينا نصر المؤمنين »
« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله »
« كتب الله لأغلبن انا ورسلى »
« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل اللهفيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما »
« ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا »
« ان ينصركم الله فلا غالب لكم »
« فان حزب الله هم الغالبون »

ذكرابو النجاة حديث رسول صلى الله عليه وسلم للناس ورجع القوم الى القرآن الكريم يستشهدون به فى تلك الامور الملتبسة المظلمة فوجدوا فيه النور الذى ينير لهم الطريق ، ويبين لهم السبيل الاهدى الذى يجب ان يتبعوه ، وقال لهم ابو النجاة :لقد وجب علينا الدفاع بامر كتاب الله اما النصر فقد ضمنه الله سبحانه وتعالى ، وكثرة العدد وقلته عند الله سواء ، على ان

واجب المؤمنين ان يقاتلوا فى سبيـــل الله حتـــى ينتصروا او يستشهدوا « **ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما** » ان واجب المؤمنين انيقاتلوا اعداء الله ، حتى يتحقق لديهم احد الامرين ، اما النصر ، واما الشهادة ، والاختيار فى ذلك ليس لهم ، وانما هو لله العزيز الحكيم ، ان شاء يسر لهم اسباب النصر ، وان شاء يسر لهم اسباب الشهادة، وفى كل ذلك خير .

وبعد ان شحن نفوس الناس بهذه القوى الروحية ، زاد فطلب اليهم انيتلوا القرآن الكريم تلاوة جماعية ، وان يجعلوا ختمة فى كل جمعة ، وحتى فى اقل من ذلك ، وان يتوبوا الى ربهـم ويستغفروه من آثامهـم وذنوبهم ، وان يتخالصوا فى الحقـوق التى بينهم ، فانهم قادمون على الله ، ورقـــت نفوس القوم ، واستعدوا للقاء الله وترك الدنيا وما فيها ، فكانوا يستغفرون الله ويلجأون اليه بالدعاء ، ويتخالصون ويتحاللون فيما بينهم من معاملات ، وزادهم ابو النجاة الشحنة الروحية الثالثة ، حين اقترح عليهم ان يكتبوا الى اخوانهم فى جبل نفوسة . وان يطلبوا اليهم ان يساعدوهم بالالتجاء الى الله ، والدعاء عـلى ظهر الغيب بنصرهم ، ونفذت الفكرة ، فكتبت الرسالة حالا وختمها بيده الكريمة ، وبعث بها الى اعلام الجبل ، مـن اساتذتـه وزملائه وتلاميذه فتقبلوها بقبول حسن ، واهتموا لها اى اهتمام، وقرروا ان يعقدوا اجتماعا فى مسجد (تاله) المتوسط فى الجبل ، وان يتجهوا الى الله تعالى بالتضرع والدعاء ان يحمى الجزيرة واهلها من ظلم اعداء الله .

دأب شيخا الجزيرة ــ شيخ العزابة وشيخ الحكم ــ على العمل فى بقية المدة ، فكان ابو النجاة يدعو الناس الى الاعتصام بالله،

وتهوين أمر المشركين ، والاستخفاف بقواتهم واستعداداتهم ، وكانابو زكرياء يعمل على تسليح الناس وتدريبهم على القتال واعدادهم من الناحية العسكرية ، وتحقق ما توقعوه فقد جاء الاسطول الاسبانى ، وهاجم الجزيرة ، باعظم اسطول عرفته البحار فى ذلك الحين فتلقاه اهل جربة الابطال ، ولم تطل المعركة فقد نصر الله المؤمنين وخذل المعتدين ورد كيدهم فى نحورهم.

لقد كتب كثير من المؤمنين عن هذه الموقعة ، وذهبوا فى تعليل انتصار جربة ، على الاسطول الاسبانى ، مذاهب شتى ، فكان المؤرخون الغربيون ومن اخذ منهم يعللونها بتعاليل مادية صرفة لا يقبلها العقل ، كالجهل بطبيعة الارض ، وشدة الحر ، وعطش الجند الاسبانى ، وما الى ذلك ، وكان بعض المؤرخين المسلمين يحسبونها فى كرامات الاولياء والصالحين ، فيجعلها بعضهم من كرامات ابى النجاة أو استجابة للدعوات الحارة من أهل الجبل .

اما القلة من المؤرخين الذين درسوها على ما عرفوه من تاريخ الاسلام فلم يجدوا فيها شيئا غريبا يستحق التفكير ، وليست هى اول حرب تقع بين الايمان والكفر فينتصر الايمان مع قلة عدده وعدته ، وينهزم الكفر مع كثرة ما اعد .

ان الاسباب التى انتصر بها المسلمون فى وقعة بدر ، والاسباب التى انتصروا فيها فى وقعة موتة ، وفى اليمامة والقادسية واليرموك . وغيرها من الوقائع هى نفس الاسباب التى انتصر بها المسلمون فى هذه الوقعة ، وفى اشباهها من الوقائع ، لقد تجرد المسلمون من المادية ، ولم يضعوا بين اعينهم غير حقيقتين اثنتين : النصر والشهادة ،وانطلقوا الى الجهاد فى سبيل الله بتلك الروح التى كان يحارب بها المسلمون فى الصدر الاول ويوالون الفتوح متجردين لنشر دين الله واعلاء كلمته .

حارب سكان جربة على قلة عددهم ، وضعف مادتهم ، فنصرهم الله واقام بهم حجته على المسلمين فى كل عصر وفى كل مصر . انها حادثة جديرة ان يدرسها المسلمون وان يستخرجوا منهـــا الموعظة والعبرة .

اسطول يتكون من عشرين الف جندى فى مائة وعشرين سفينة يغزو شواطىء المغرب الاسلامى، فينتصر فى مراكش ،والجزائر، وتونس ، وطرابلس ، ويحتل مراسيها مرسى بعد مرسى ،حتى يأتى الى جزيرة جربة ، فيهاجمها بكل ما لديه من قوة ،وكبرياء، ونشوة، بالانتصارات السابقة المتوالية ، فتقابله هذه الجزيرة الصغيرة بثلاثة الاف مقاتل على اكثر ما يمكن مما تدعيه المصادر الاجنبية ، فيهم عدد غير قليل من شيوخ عجزة ، دفعهم حـــب الشهادة ، واطفال مراهقون جاء بهـم الحماس . فتنتصر هذه الالاف الثلاثة الضعيفة ، التى ليس لها من قوة السلاح غير بنادق قليلة ، وبعض السيوف والخناجر والعصى ، وتنهزم العشرون الفا ، المسلحة تسليحا كاملا ، بالبنادق ، والمدافع وما الى ذلك من الات الحرب والدمار . انها ليست معركة عادية بين قراصنة اسبانيا وسكان جربة ، ولكنها معركة بين الايمان والكفـــر . الايمان الذى لا يعتمد على المادة ، ولكن يعتمد على الروح :

قوة الله ان تولت ضعيفا تعبت فى مراسها الاقوياء

ابو زكرياء السمومنى

بنو سمومن اسرة عريقة فى المجد والشرف ، والدفاع عن الدين والوطن ، وقد تولت حكم جربة باختيار العزابة ما يقرب من ثلاثة قرون . فلقد ذكر التيجانى فى رحلته مع اللحيانى، ان رئاسة الاباضية الوهبية فى ذلك الحين كانت فى بنى سمومن، واستمرت احداث التاريخ تذكر بنى سمومن فى مشيخة جربة باختيار العزابة ، الى سنة ٩٩٧ ، حين توفى آخر شيخ من هذه الاسرة ، هو الشيخ مسعود السمومنى ، الذى جمع فى حكمه للجزيرة بين اختيار العزابة واختيار الدولة التركية فى ذلك الحين، وبعد وفاته اسندت المشيخة الى اسرة اخرى ، هى اسرة بنى جلود .

ويبدو من احداث التاريخ ان مجلس العزابة فى هذا الحين بدأ ينحل ويتخلى عن اختصاصاته ولذلك فلم يعد يختار شيوخا للجزيرة ومنذ بدأت اسرة بن جلود الحكم كان توليهم عن طريق الحكومة ، لا عن طريق العزابة ، وكان اكثرهم مناهضين للعلماء معارضين لهم .

يعتبر ابو زكرياء يحى السمومنى ، واسطة العقد فى اسرة بنى سمومن ، كما أن اعماله المجيدة ، ترفعه الى مصاف الابطال ، فى

الامة الاسلامية ، وتضعه فى صف مع كثير من الابطال الذين عرفوا كيف يدافعون ، عن عقائدهم واوطانهم ، واراضيهم ، ويدفعون عدوان المعتدين ، وبغى المستعمرين ، وانه لموقف مشرف ذلك الموقف الذى سجله التاريخ لابى زكرياء حين اقامته الامة فى جزيرة جربة مقام امام الدفاع ، فوقف وقفة الاسد الهصور دون العرين ، ورد الاساطيل الاسبانية الضخمة التى احتلت جميع الشواطىء الاسلامية فى بلاد المغرب الكبير فلما بلغت الى جربة ، الجزيرة الصغيرة الضعيفة ، ردت تلك الاساطيل على اعقابها تجر اذيال الخيبة والخزى والفضيحة .

عقد العزابة اجتماعا فى بيت ابى النجاة يونس حين سمعوا بعزم الاسبان على غزو الجزيرة ودعوا الى الاجتماع شيخ الجزيرة الذى اختاروه من قبل ليتولى شئون الناس فكلفوه بمهمات الدفاع يعنى انهم خولوه سلطات امام الدفاع . فباشر تلك السلطات بهمة المؤمن القوى الحريص على القيام بواجبه فكان بالتشاور مع مجلس العزابة ، يعمل على الاستعداد للدفاع ، عن هذا الثغر الهام . ولما اتخذ جميع الاحتياطات المادية والمعنوية بقى على يقظة وانتباه ينتظر وصول العدو المغير .

وصل الاسبان باسطولهم الضخم ، وقواتهم الغازية ، وبعثوا رسولا الى الشيخ يطلبون اليه تسليم الجزيرة، فاغلظ الشيخ للوسول فى القول، ورده اقبح رد . ولما علم الاسبان موقف الجزيرة ، صمموا على الحرب ، وعلى احتلالها بالقوة ، وبدأوا الاستعداد للهجوم ، فرتبوا جيشهم القوى فى صفوف متراصة ، كلما انهزم منها صف تقدم الصف الذى يليه .

اما ابو زكرياء السمومنى فقد كان عدد جيشه القليل لا يمكن ان يرتب هذا الترتيب ، ولذلك فقد رتبه على صف واحد طويل

مقابل لصفوف العدو ، وكان ابو زكرياء على فرسه السابق يطوف على المدافعين الابطال يشد عزائمهم ويدعوهم الى الصبر والثبات، ويهون عليهم امر العدو ، حتى التحم الفريقان ، وبدأ القتال فكان المحاربون الاسبان ، يتساقطون فى الميدان ، وكلما انهزم صف تقدم الصف الذى يليه الى المجزرة ، ولما طال الموقف خشى ابو الربيع بن ابى زكرياء السمومنى ان يزيد ثبات العدو ، وان يفشل المسلمون ، فاختار معه ، عددا من الابطال الفرسان وانحرف عن موقفه فى مواجهة العدو ، الى موقف من وراء العدو ، ليقطع عنهم خط الرجعة ولما رأى العدو ، ان فرسان المسلمين قد طوقوهم من الخلف ، وانهم قطعوا عنهم خط الرجعة الى سفنهم خارت قواهم ، وضعفت عزائمهم ، والقوا بأيديهم ، واستسلموا لمصائرهم ، وحاول بعضهم الفرار فابتلعه البحر .

وهكذا انتصر ابو زكرياء انتصاره الرائع الحاسم القوى ، واستطاعت هذه الجزيرة الصغيرة حين اعتصمت بالايمان ودافعت بيقين ، ووجدت قيادة حكيمة ان تحطم اضخم اسطول فى ذلك الحين ، الاسطول الذى احتل المرسى الكبير ، واستولى على وهران، وبجاية وطرابلس. واقامت الحجة على المسلمين الذين يخشون القوى المادية. واعلمتهم ان الامة المسلمة مهما كانت قليلة وضعيفة، حقيقة بالنصر ما اخلصت العمل لله ، وتجردت عن الرغبات والشهوات والمطالب الدنيوية .

ابو يعقوب يوسف بن ابى مسور

قال فيه العلامة الشيخ سعيد التعاريتى « كان رحمه الله اماما مطاعا ، وقدوة مهابا » وتكفى هذه الشهادة للدلالة على مكانة الرجل ، فان الشيخ التعاريتى من اولئك المؤرخين الذين لاينطلق منهم الوصف الا بعد تحقيق وتحقق . على اننا لسنا فى حاجة الى ما يطلقه المؤرخون من اوصاف على هذا الرجل العظيم الذى كان يتمتع فى عصره بما يتمتع به الامام او الزعيم . فقد أهله لذلك عدة اسباب ، فهو حلقة فى سلسلة اسرة ابى مسور التى دامت زعامتها الروحية من القرن الرابع الى العصر الحاضر ، فلم يمض فى تاريخ جربة الطويل عصر دون ان يكون فيه فرد او افراد من اسرة ابى مسور يتولون قيادتها الروحية او السياسية منفردين او مشتركين مع غيرهم ، فلقد ورث ابناء ابى مسور على مختلف العصور ــ خلقه السمح ، وطبعه الكريم ، وكرمه المطبوع ،ودينه القويم ، وعلمه الواسع ، ولقد تتضاءل بعض هذه الصفات فى بعض الاحيان وتتجلى فى الاحيان الاخرى . وقد تجلت فى ابى يعقوب ، مع قوة فى الحق ،وشجاعة ليس لها بين معاصريه من اهل الجزيرة مثيل ، فكان لشجاعته وقوة شخصيته ، وسعة علمه، ومبلغ كرمه ، مسموع الكلمة واسع النفوذ ، قويا قوة المؤمن

المحق ، لا يخشى الجبابرة ، ولا يطاطىء رأسه لذوى الطغيان بل كان يجابههم ويجبههم .

لم يشتغل ابو يعقوب بالتدريس فيما اعلم ، رغم ان التدريس هو الواجب الاول الذى يراه علماء الاباضية اوكد الواجبات عليهم والسبب فى ذلك على ما يبدو ان الجزيرة كانت فى زمنه، قد غصت بالعلم والعلماء فمامن مدرسة او مسجد الا وهو يعج بالعلماء الاعلام والطلبة الاذكياء والتلاميذ النجباء . ولهذا السبب فقد اقتصر ابو يعقوب على التوجيه الدينى ، والاصلاح الاجتماعى العام ، اعنى انه ترك رعاية الاطفال والشباب لغيره من المعلمين ، والمربين ، واقتصر على رعاية الكهول والشيوخ ، يدعو الى سبيل الله على بصيرة من امرة ، وكان كثيرا ما يقف فى وجوه الولاة الظالمين الذين لا يهمهم الا ان يجمعوا أموالا من الناس كيفما كانت حالة الناس ، وكثيرا ما كان يدفع الضريبة المترتبة على احدهم ــ اذا كان فقيرا ــ من ماله الخاص ، لما عينت الدولة التركية درغوث بن على واليا على طرابلس اهتم بأمر جربة ، فذهب اليها واحتلها واقتطعها عن تونس والحقها بحكمه فى طرابلس ، وترك عليها واليا من قبله ، ولكن الوالى الذى تركه درغوث على جزيرة جربة ، كان ضعيفا فانتهز بعض العساكر والجنود الذين بقوا مع الوالى لحفظ الامن ضعفه ، فاصبحوا يرتكبون من الفظائع ما تأباه الضمائر الحرة ، يقول فيهم العلامة ابو الربيع الحيلاتى : « فاشتد الحال على اهل جربة لما اظهروا لهم من الشر وسفك الدماء واخذ الاموال » فثار اهل جربة على الوالى ، وطردوه من الجزيرة ، ولوا على انفسهم (عبدالله البرجى) وطلبوا من الدولة فى تونس حمايتهم من عمال طرابلس وجورهم، وارسال المدد اليهم ولكن الدولة التونسية حينئذ كانت تحتضر

وسمع درغوت بالحركة فغضب ، وجهز جيشا قويا وارتحل الى جربة واستعد اهالى الجزيرة لملاقاةالجيش الزاحف اليهم فعسكر درغوت بجيوشه الجرارة فى مرسى القنطرة خارجا ، وعسكر اهل جربة فى سدويكش وحولوا سوقهم الى بنى ديغت، وبقيت جربة تحت الحصار ثلاثة اشهر تضايق منه اهل الجزيرة المحصورة ، وفكر جماعة من اهل الجزيرة فى حل المشكلة ،وقرروا ان يطلبوا مقابلة درغوث للمفاوضة فى امر الصلح ، فاذا جاءهم قتلوه ، وبعثوا اليه من ابلغه رغبة القوم فى الصلح وطلبهم لحضوره اليهم فوافق ، وبلغ خبر المكيدة الى المشائخ والى ابى يعقوب يوسف فوزنوا الامر بميزان المصلحة العامة للامة المسلمة ، وذكروا ما لدرغوث من جهود فى رد عدوان الصليبيين، وتحطيم اساطيل القرصنة ، فلم يرضوا ولم يوافقوا على تنفيذ المؤامرة ، وانتدبوا ابا يعقوب ليقوم بالمفاوضة فى امر الصلح ورضى ابو يعقوب واستعد للقيام بالمهمة كما ان جميع الاهالى قد وافقوا على هذه الخطوةالعادلة .

ذهب ابو يعقوب الى درغوث واتفق معه على الصلح وذلك بان يسمح سكان الجزيرة لدرغوث وجيشه بالدخول ، وان تعود الجزيرة الى حكمهم ، على ان لا يؤذى احد ، ولا يؤخذ مال . ولا تقتل نفس ، وتخلى المدافعون الابطال لجنود درغوث ، فدخلوا البلد ، ولما وجدوا انفسهم داخل الجزيرة غرهم الشيطانفحسبوا انفسهم فاتحين ، فارتكبوا من القتل والغصب والسرقة مايرتكبه امثالهم ، ولم يف درغوث بالوعد ، ولم يتقيد بما اتفق عليه الطرفان ، فسمح لجنده ان يفعلوا ما يشاءون ، والقى القبض على شيخ الجزيرة ، الذى اختاره الناس عبدالله البرجى ، فقتله ثم سلخ جلده ، وملأه نخالة وبعث به الى طرابلس . واضطر

الشيخ ان يعود مرة اخرى الى درغوث ليذكره بانه خان عهده واخطأ فى تقديره ، وفى تصرفه وان مشائخ الجزيرة لو سمحوا بالغدر والغيلة ، وخيانة العهد ، لكان درغوث هو المقتول قبل ان يصل الى هذا المكان . فاستحيا درغوث، واستجاب لكلمة الحق، ولكن بعد ان ترك جيشه فى الجزيرة اسوأ الاثـــار ، وارتحل درغوث الى طرابلس ولكن البقايا الذين تركهم فى الجزيرة عادوا الى مسلكهم ، فى ظلم الناس ، وابتزاز الاموال، وهتك الاعراض، فتذمر الناس ، وسخطوا على حكم طرابلس ، وحاولوا ان يتصلوا مرة اخرى بحكومة تونس . وسمع درغوث بهذا الحادث الجديد فجهز جيشا آخر ودخل الجزيرة ، ولم يظهر اهل الجزيرة ايـة مقاومة فقد استنفذ العدوان السابق المتلاحق ما لديهم من وسائل المقاومة ، فقد قتل رجالهم واخذ سلاحهم ،واستنزف اموالهم ، ولذلك فما سمعوا برجوع الجيش التركى حتى تركوا منازلهـم ومزارعهم ، وارتحلوا الى جوار ابى يعقوب فسكنوا الى جانبه على شكل لاجئين . من كانت له خيمة نصب خيمته واوى اليها ، ومن لم تكن له خيمة نصب اردیته على اعمدة واضاف اليها جريد النخيل وبعض القش وسكن بها ، انها صورة من مساكن اللاجئين الذين يطاردهم الاقوياء من بنى الانسان فيحرمونهم من اموالهم واراضيهم ومساكنهم .

ودخل الجيش التركى فى دوى عظيم ، طلقـات متواصلة مـن المدافع والبنادق ودقات متتابعة للطبول ، وضـــاق الناس بهذا المظهر الصاخب ، فتجمعوا على ابى يعقوب يلتمسون منه ان يصنع شيئا لايقاف هذه الكارثة الجديدة . واستجاب الرجل العظيـم لطلب الناس واستعد لمجابهة العدوان الجديد ، فاتصل بالقائد الاعلى للقوات المسلحة درغوث بن على وطلب منه ان يأمر فى الحال

بايقاف هذا الدوى الصاخب حتى تهدأ اعصاب الناس .واستجاب القائد لكلمة الشيخ فأمر بايقاف جميع الحركات ، وحينئذ طلب الشيخ من القائد ان يسير معه الى منزله ليتفاوضا فى امر الصلح . واستجاب القائد ايضا فتبع الشيخ الى منزله مع بعض رجاله وتم عقد الصلح واتفق الرجلان على مصلحة الجميع ، وتغدى القائد ورفاقه حيث رجع الى جنده يحذره ان يرتكب اى خطأ فى حق جربة كما فعل فى الماضى ، اما الشيخ الذى كان يعرف ما قاساه اولئك اللاجئون ،الذى ملأ الرعب افئدتهم وما تعرضوا له من الحرمان والجوع . فقد امر اهله ان يجعلوا من الطعام ما يمكن ان يغاث به اولئك اللاجئون المساكين فتم ذلك فعلا وكانت تقدم الجفتة الكبيرة ملأى بالطعام يحملها رجلان أو اكثر فى شارية يطوفون بها على مساكن اللاجئين وكان الشيخ يطوف معهم وبيده مغرف يأخذ من الجفنة ويعطى لتلك الاسر المحرومة حسب افراد عائلتها ، حتى طاف على جميع تلك الخيام .

أثمر الصلح هذه المرة فلم يعد الجند الى الاعتداء وانما كانوا يأخذون ما فرضوه من الضرائب على الشعب المسكين فقط ،حتى تغير وجه التاريخ فى جربة . وانتهت تبعيتها لطرابلس والحقت بتونس .

كان ابو يعقوب احد العظماء من اسرة ابى مسور العريقة فى جربة هذه الاسرة التى لم تزل متميزة بالعلم والدين والجود والشجاعة منذ اسسها ابو مسور بسجا بن يصليتن اليهراسنى فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى والتى لم تبق فى يوم من الايام دون ان تكون بها شخصية عظيمة تجمع بين العلم والدين والشجاعة والكرم ما تكون به ملاذا للناس ، ومرجعا

لهم عند الشدائد عاش ابو يعقوب فى الفترة الحرجة من تاريخ جربة التى اجتمعت فيها البلايا من كل جانب على هذه الجزيرة الصغيرة فقد كان الاعراب يتكالبون عليها للسلب والنهب ، وكانت الدولة التونسية تلح فى جمع المال وفرض الضرائب وكانت القرصنة الاسبانية حريصة على احتلالها عاملة على غزوها ، من حين الى حين ، وكان درغوث والجند الذين معه لا ينفكون يعتدون عليها ويعاملونها معاملة الاعداء ، وكان بعض المتعصبين ممن ينتمى الى العلم يلهب العصبية المذهبية ويوغر الصدور على الاباضية ويدعو الى تكفيرهم وعدم قبول شهادتهم.

فى هذه الفترة الحرجة التى بلغت اسوأ ما يمكن من الحالة السياسية عاش ابو يعقوب فى جو مزدهر بالعلم فكان يخفف آلام الناس بما يملك من وسيلة فقد يمد يد الاحسان وقد يستعمل الكلمة اللطيفة وقد يقف للحكام او يرد على اولئك الذين يحسبون ان جربة مغنم لاينضب .

توفى ابو يعقوب يوسف بن ابى مسور سنة ١٠١٣ فترك فراغا هائلا فى جربة احس به الناس جميعا رغم انه خلف لهم فى منزله ولدا بلغ من العلم مثل ما بلغ ابو يعقوب او اكثر ، واشتهر بالصلاح والتقوى والبركة ، وكان مرجعا للناس بعد ابيه وان لم تطل به الحياة ايضا ، فلحق بربه بعد سنوات من وفاة ابيه فرحم الله ابا مسور وابناء ابى مسور وجعل فى بيته من يحمل رسالته ويقوم بدعوته ويناضل فى سبيل الحق والخير.

ابو محمد عبدالله السدويكشى

ابو محمد عبدالله بن سعيد السدويكشى ، قمة من قمم العلم الشامخة ، ودعامة من الدعائم التى قام عليها بناء الايمان والحق فى الجزيرة ، فتح الله عليه آفاق المعرفة ، ورزقه من قوةالجنان وفصاحة اللسان ، وبراعة البنان ، ما مكنه من خدمة دين الله، ويسر له ان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ويدعو الى سبيل الله على بصيرة من امره. كان لا يملمن التدريس ، وكان يسجل فى جميع دروسه ملاحظات وشروحا على الكتب التى يدرسهاحتى ترك لنا ثروة علمية قيمة ، لا تزال سندا لمن يريد ان يطلع على كتب الاباضية بل حتى على بعض كتب اللغة العربية التى درسها للطلبـــة .

كان يتولى دروس الوعظ والارشاد فى جميع مساجد الجزيرة، أما مقره فقد كان فى مسجد بنى لاكين ، وفى هذا المسجد العامر ، كان يحلق عليه الطلبة المستديمون ، ويتلقونعنه فنون المعرفة، حتى تخرج عليه فيه عدد من فحول العلم منهم العلامة ابو محمد عبدالله بن ابى حفص ، بن ابى سته الذى ورث عنه علمه ، وخلقه ، وكفاحه ، ومجلسه ، والى هذا المسجد كان يتوارد وفود الناس يحملون مشاكلهم وخصوماتهم فيفصل بينهم بكتاب الله،

فلقد كان يقوم فيهم مقام الامام واليه انتهت رئاسة العزابة والعلماء ، لا بتعيين من الولاة والامراء ولكن بالعلم الواسع الذى يعترف به الزملاء ويسلمون لصاحبه محبة وتقديرا ، وكان العلماء جميعا يحضرون مجلسه ، ويناقشون جميع شئون الجزيرة من كل نواحيها ، فيقرون مايوافق الاسلام ، ويعلنون الحرب عما انحرف اليه الناس من بدع او مناكر انجر اليها الناس بطبيعة الحياة والاختلاط .

كان شيخ الجزيرة فى ذلك الحين احد ابناء ابى الجلود الذين توصلوا الى الحكم عن طريق الرشوة، والكيد وتقديم الاموال ، واقامالرجل فى دار الحكم ينتظر ان يحتفل به الناس ، وان يلتفوا حوله ، وان يعمروا مجلسه ، وان يترددوا اليه ، وان ينقلوا اليه اخبار الناس ، وان يعرضوا عليه مشاكلهم ، فلم يكن يأتيه احد اللهم الا اشياخ الحارات فى مواعيد الضرائب يحملون اليه ما فرض على الناس كاملا مستوفى ، دون شكوى من احد ، وبقى الرجل فى فراغ ، فكان يتساءل عن السبب حتى اخبره احد الناس ، ان اهل الجزيرة تعودوا ان يرجعوا بمشاكلهم الى علمائهم الذين يتمتعون باحترامهم وتقديرهم ، وان اعلم علمائهم فى هذا الحين الذى يرجع الناس اليه هو ابو محمد عبدالله السدويكشى، وغضب شيخ الجزيرة فى نفسه وظن ان التفاف الناس بهذا الرجل استهانة بمنصبه ومقامه ، فدعاه اليه ولما اجتمع به وسمع منه ، أكبره وأكبر علمه واظهر له من الاحترام ما يليق بمثله ، وانصرف ابو محمد من مجلس شيخ الجزيرة ، ودخل الوشاة الذين لا يحلو لهم الا ان يحسدوا الناس على ما اتاهم الله من فضل ، فقالوا لابن ابى الجلود . ما زدت ان رفعته فوق مكانه، واصبح هو والى الجزيرة الحقيقى ، ولو شاء ان يدعوا الناس الى

قتلك او غير ذلك لاستجابوا له مختارين ، وعملت الوشاية في صدر الوالى عملها فدعا اليه الشيخ من جديد واراد ان يظهره بين الناس فى مظهر المستهان به المحتقر فأمره ان لايلبس على رأسه الا طاقية بيضاء من القماش مثل ما يلبس الاطفال تحتيرا له وتشهيرا به ، وامتثل الشيخ لامر الوالى ولبس الطاقية البيضاء حتى اشتهرت به ، واشتهر بها ، وشاءت ارادة المولى سبحانه وتعالى ، انتكون هذه العقوبة او هذا التشهير الذى اراد بهالوالى تحقير ابى محمد سبب تكريم لهذا النوع من اللباس ، اذا لم يمض غير زمن قصير حتى كانت الطاقية البيضاء من القماش ، هى الزى الرسمى ، او اللباس الخاص برجال العلم ورجالالدين، فاصبحت هى لباس العزابة والطلبة ، وقد انتقلت هذه الفكرة من الجزيرة الى الجبل ، والى الجزائر ، والى جميع مواطن الاباضية فى المغرب الاسلامى . ولو اتيح للقارىء الكريم ان يزور وادى ميزاب فى الجزائر فانه ، سوف يجد جميع العزابة والطلبة لا يلبسون على رؤوسهم الا طاقية بيضاء من القماش فهى زيهم الرسمى الموحد وقد احتفظ الطلبة الميزابيون بهذا الشعار فى جميع مظاهر النشاط حتى ان فرق الكشافة كانت تحتفظ به كلباس للراس فى جميع رحلاتهم ومخيماتهم حيثما اقيمت وكان لها من الجمال ما بعث الاعجاب فى نفس رئيس الجمهوريةالاول فاثنى عليها وابدى استحسانه لها .

اما فى ليبيا فقد اختلف امره . ففى زوارة اصبحت الطاقية البيضاء هى لباس اغلب اهالى زواره يفضلونها عن غيرها منالبسة الرأسفى الصيف وصارت غير خاصة بالعزابة ، اما فى جبل نفوسة فقد كانت خاصة بالعزابة الى عهد قريب ثم شاع استعمالها بين الناس عندما انحلت نظم العزابة فى الجبل واصبحت هى

لباس الرأس المفضل فى الصيف عند اغلب الناس .

كان ابو محمد عبدالله من اولئك العلماء الذين لا يعرفون الراحة ، ولا ينفكون عن العمل فهو دائم الكفاح فى سبيل الله يتنقل من ميدان الى ميدان قد يعقد المجلس لفصل المشاكل والمنازعات ، وقد يعقد المجلس للتشاور فى شئون الجزيرة العامة او الخاصة وما يجد فيها من الاحداث ، وقد يعقد المجلس العلمى لمناقشة بعض المشاكل العلمية الجديدة التى تتطلب احكاما شرعية جديدة ، وقد ينتقل بين مساجد الجزيرة ، يلقى دروس الوعظ والارشاد ، وقد ينتقل بين المتاجر والاسواق ومجامع الناس ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبين الحلال والحرام للناس ، وهو قبل كل ذلك وبعد كل ذلك يرى على نفسه واجبات ثلاث ، لا يمكن ان يخل بواحدة منها مهما كان الامر ، تلك الواجبات هى :

اولا : تخصيص اوقات من الليل والنهار يتفرغ فيها من شواغل الدنيا العامة والخاصة ويتجه الى ربه بعبادة خالصة يقضى فيها حق الروح والقلب .

ثانيا : تخصيص اوقات اخرى لالقاء الدروس الفنية على طلبة العلم وقد اثمر هذا العمل للبلاد ثمرا طيبا فتخرج على يد الشيخ عدد من فطاحل العلماء كانوا هدى ومنارا ، وتركوا لنا ثروة علمية لا زالت مرجع طلاب العلم والمعرفة ،

ثالثا : تخصيص اوقات لتأليف الكتب ودراسة المشاكل المستجدة ، واستنباط الاحكام لها بطريق الاجتهاد ، وقد اهتم كثيرا بالكتب المؤلفة فكان يكتب عليها التعاليق الكثيرة والشروح المسهبة تارة يحررها بنفسه ، وتارة يتركها لطلابه النجباء ، ولذلك فقد كان

العلامة ابو عبدالله بن ابى سته المشهور بالمحشى يعتمد عليه فى اكثر حواشيه ، ويقول مثلا : « قال شيخنا عبدالله » أو يقول : « بخط شيخنا عبدالله » والمقصود بذلك طبعا هو الشيخ ابو محمد عبدالله الشدويكشى فهو شيخه الذى اخذ عنه العلم .

قال العلامة الشيخ سعيد بن تعاريت فى العلامة الشدويكشى ما يأتى : « لا تمر به مسألة الا حل مشكلها ، كان اية من ايات الله تعالى فى صل كلام الفحول ، ومن اطلع على مصنفاته يشهد له بطول الباع ، وبدقة النظر ، وله من التآليف البالغة فى الحسن حاشية جزء الصلاة من كتاب الايضاح ، وحاشية كتاب الديانات، لابى ساكن فى نحو كراسة ، ورأيت له حاشية على شرح القطر فى النحو لابن هشام عظيمة القدر والشأن.» ويقول بعد كلام : « وله اجوبة واحكام ونوازل عديدة فى جميع الفنون خصوصا علم الكلام فان له فيه اليد العليا رحمه الله . »

ثم ذكر التعاريتى امثلة من الاحكام التى افتى بها اجتهادا .

كان ابو محمد من اولئك الاعلام الذين بعثوا الحياة فى الامة، وتركوا من بعدهم نورا وهدى ، وختم اعماله المجيدة بزيارة بيت الله الحرام وفى تلك الربوع المقدسة ختمت اعماله وانتقل الى ربه رحمه الله رحمة واسعة ،وافاض عليه من فضله العميم انه غنى كريم .

أبو عبدالله بن أبى ستة

هو الامام القدوة العلامة : ابو عبد الله محمد بن عمرو بن محمد بن احمد بن ابى سته ، اشتهر بين الدارسين بلقب المحشى. أخذ العلم عن كثير من اهل الجزيرة وغيرهم ، وكان اكثر ما اخذ عن الامام ابى محمد عبدالله بن سعيد الشدويكشى .

كان الامام ابو سته من اولئك المؤمنين الذين اخلصوا دينهم وعملهم ، واسلموا ارواحهم وانفسهم لله ، فهو لا يفتر عن الجهاد فى سبيل الله . عاش فى القرن الحادى عشر وكانت البلاد التونسية فى ذلك الحين ، تحت حكم شديد الاضطراب . وولاة لا يهمهم من امر الدولة . ومصلحة الامة الا مقدارما يأخذون من اموال ، وكانت الشعوب فى ذلك الحين بعيدة كل البعد عن الدولة وعن الالتفاف حولها او الاعتماد عليها فى اى شأن ولذلك فهى تدفع الضرائب لطلابها تحت ضغط الضرورة وتعود الى نفسها فى بقية الشئون فتسندها الى من تثق به من علمائها وصلحائها .

سافر ابو عبدالله الى مصر، برسم الدراسة فى الازهر ، فبقى هناك ٢٨ سنة دارسا فى الاول ومدرسا بعد ذلك ، وتخرج على يده عدد من فطاحل العلماء فى ارض الكنانة واشتهر بين علماء الازهر بلقب البدر ، فاذا اطلقت كلمة البدر بين علماء الازهر

فالمعنى بها ابو عبدالله بن ابى سته ، وكان الىدراسته وتدريسه بالازهر يقوم بنشاط اخركبير خارج ميدان الازهر . فقد كان الرجل من اشد الناس حبا للعمل ومواصلة للكفاح ، ولذلك فقد كان لا ينفك عن المحاضرات والندوات والدروس الخاصة ،وكان جل اهتمامه بالدار العلمية التى تأوى عددا غير قليل من طلاب العلم الذين يقبلون منمختلف بلاد الاباضية على القاهرةللدراسة وكانت تلك الدار تحتوىعلى مكتبة من انفس المكتبات ، فكان يتولى الاشراف عليها وارشاد الطلاب الى الاستفادة من كنوزها، وعندما رجع الى وطنه جربة كانبمثابة دائرة معارف حيةمتنقلة، فكان لا يستقر فى مكان ، وانما كان ينتقل من مدرسة الى مدرسة ومن مسجد الى مسجد ومن حى الى حى يلقى دروس العلم على طلاب العلم . ودروس الوعظ والارشاد فى المجامع العامة ويدعو الناس الى الاستمساك بدين الله والحرص على المحافظة عليه ، وكان لا ينفكعن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر .ولقد يخيل للقارىء الكريم ، وهو يقرأ هذه السطور ، ان القيام بكل هذا كثير على رجل واحد ، والواقع ان هؤلاء المكافحين الذين يبذلون كل ما عندهم ــ من علم وقوة ووقت لله والامة ــ قليلون، وهم افراد فى كل عصر وفى كل امة . على ان ابا عبدالله كان الى جانب ذلك يخصص وقتا للدراسة العليا فلقد ورث عن شيخه ابى محمد السدويكشى مجلس مسجد بن لاكين فكان يلقى فيه دروسا بين صلاتى الظهر والعصر لجميع الطبقات يحضره كبار العلماء فى الجزيرة فكان بعد صلاة الظهر يستفتح للتدريس فيجلس امامه كبار العلماء فيلقى عليهم درسا يستمر الى صلاة العصر ، ويناقشه اولئك العلماء ويناقشهم فى المشاكل التى تعرض لهم اثناء الدرس ، وبعد صلاة العصر يعقد مجلسا للحكم

فيقبل عليه الناس بمشاكلهم ومنازعاتهم وقضاياهم فيحكم بينهم بكتاب الله ، ويرضى الناس بحكمه وينصرفون مقتنعين بحكمه لا ينظرون الى حاكم او قاض او شيخ من موظفى الحكومة الذين يعتبرهم الناس آلات جعلتهم الدولة للتحكم فى الامة ، فاتاحت لهم ان يعيشوا اعالة على الامة . يقبضون المرتبات من الدولة ، ويبتزون الاموال من الناس بمختلف الطرق .

يقول العلامة الشيخ سعيد التعاريتى فى رسالتـه القيمة : « وبعد الصلاة ـ اى صلاة العصر ـ يجلس للحكم بين الناس وله مكان يحكم فيه ، معلوم الى اليوم ، به مقصورة ، يجلس الشيخ ببابها ويجلس الخصوم داخلها ولا يخرج منها المحكوم عليه حتى يذعن للحق ، ويستعد للاداء . ورأيت دفترا مقيدا به جميـع احكامه الصادرة منه هناك ، وهى كثيرة جدا وكلها فوائد علمية واحكام شرعية ، ونوازل فقهية ، رحمه الله ما اعلمه وادقه . »

ان شهادة الشيخ التعاريتى وحدها كافية فى الدلالة عـلى ما للرجل من منزلة فى العلم والعمل ولكننا لا بد ان نشير الى بعض الجوانب من هذه الشخصية ، الفذة الفريدة فى ذلك العصر .

مع اشتغال ابى عبدالله بالتدريس وقيامه بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واضطلاعه بامور الناس فى جميع انحـاء الجزيرة وتخصيصه وقتا لكل مسجد وكل حى يلقى فيه دروس العلم او دروس الوعظ ومع انشغاله بالحكم بين الناس فقد خصص وقتا للتأليف وقد انتج فى هذا الميدان مـا استنار بـه الدارسون والمدرسون واستعانوا به على فهم علوم الاولين ، ونقد اهتم اكثر ما اهتم بشرح وتوضيح وتحقيق ونقد ما كتبه الاولون ، فكان يضع الشروح والهوامش والتحقيقات والنقود على الكتب التى تمر على يده ومن هذه التآليف ما يأتى :

١ ـ حاشية ضافية على قواعد الاسلام لفيلسوف الاسلام الشيخ اسماعيل الجيطالى

٢ ـ اللمع على كتاب الوضع لابى زكرياء الجناونى

٣ ـ حواشى على بعض الاجزاء من كتاب الايضاح للامام ابى ساكن الشماخى

٤ ـ حاشية على شرح العقيدة لابى العباس الشماخى

٥ ـ حاشية الترتيب على مسند الربيع بن حبيب وتعتبر هذه الحاشية أجل كتبه واقيمها .

٦ ـ حاشية كتاب النكاح .

٧ ـ حاشية مختصر العدل لابى العباس الشماخى

٨ ـ حاشية على شرح الجهالات

٩ ـ حاشية على تبين افعال العباد لابى العباس بن ابى بكر

١٠ ـ حاشية على كتاب الفرائض لفيلسوف الاسلام اسماعيل الجيطالى .

١١ ـ حاشية على كتاب الشيخ تبغورين بن عيسى

١٢ ـ حاشية على كتاب السؤالات .

ولهذه الحواشى الكثيرة على كتب الفقه والتوحيد والفرائض لقبه الطلبة بالمحشى .

توفى سنة ١٠٨٧ وله من العمر خمس ستون سنة وقد ترك فراغا هائلا وحزن عليه اهل العلم والايمان ورثاه جماعة من الشعراء منهم تلميذه الاديب المؤرخ ابو الحسن على بن بيان بقصيدة طويلة مطلعها :

الى الله اشكو لوعتى وشجونى .

فرحم الله ذلك المؤمن الذى ادى للامة أجل خدمة فى عصر الاضطهاد والاضطراب والفوضى .

ابو الربيع بن احمد الحيلاتى

قال فيه ابو عبدالله محمد ابو راس « هو شيخ مشائخ عصره، ووحيد دهره » وقال فيه العلامة الشيخ سعيد بن تعاريت «الشيخ النحرير ، العالم الكامل ، محى ما انطمس من اثار هذه الدعوة . »

ولد ابو الربيع سليمان بن احمد الحيلاتى فى اوائل القرن الحادى عشر وتوفى فى آخره سنة ١٠٩٩ وعاش ابو الربيع الحيلاتى فى عصر بلغت فيه جربة من الناحية العلمية والدينية مرتبة يندر ان تصل اليها البلاد فلقد كان القرن الحادى عشر فى جربة من ازهى العصور بما فيه من العلماء الاعلام منهم من بلغ درجة الاجتهاد فى جميع العلوم، ومنهم من تخصص فى فرع من فروع المعرفة ، ومع هذه الكثرة من العلماء الاعلام والمؤلفين العظام ، كان مقام ابى الربيع الحيلاتى ظاهرا واضحا بين اقرانه . فلقد اوتـــى مع ما اوتى من سعة الاطلاع ، وغزارة المادة . نشاطا متزايدا ، وهمة دائبة ، وعزيمة قوية ، وحيوية متوثبة ، قل ان تتوافر فى شخص واحد ، ولعل اهتمامه بسيرة السلف ، وعنايته بناحيـة التاريخ هى الجوانب التى برز فيها ، وميزته عن غيره من علماء عصره حتى اصبح مصدرا من مصادر التاريخ لا يمكن لدارسى التاريخ ــ لا سيما تاريخ المذهب الاباضى ورجاله ــ ان يستغنى

عن أبحاثه ورسائله ورواياته الكثيرة، واذا عن لباحث ان يعد علماء التاريخ من الاباضية فذكر البغطوري وابا زكرياء وابا عمار وابا الربيع بن يخلف وابا الربيع الوسيانى وأبا العباس الدرجينى وابا القاسم البرادى وابا العباس الشماخى وابا عبدالله البارونى فانه ولا شك يجب ان يذكر معهم ابا الربيع الحيلاتى ولعل الحيلاتى هو اهم من أرخ فى القرن الحادى عشر .

وابو الربيع وان كانت آثاره لا تزال متفرقة ، وكثير منها غير منسق ويحتاج الى مجهود علمى الا انها تكون مادة تاريخية دسمة لتاريخ الجزيرة على الاخص ، ولقد سلك فى عنايته بتاريخ جربة اساليب لم يسبق اليها ومسالك تعد فى نظرى ابتكارا علميا فى كتابة التاريخ ، تساعد الباحث وتيسر له العمل فلقد وضع رسالة فى تاريخ جربة ارخ فيها للاحداث سواء كانت تلك الاحداث سياسية أو طبيعية او اجتماعية بحسب السنوات فيقول مثلا : « وفى هذه السنة ـ أى سنة ١٠٠٧ ووقع الغلاء الكبير المعروف بغلاء البرجى حتى انقطع السعر ، وتمادى القحط والجدب والغلاء سبع سنين من تمام الف الى السنة السابعة ، والظلم الكثير الى ان اغاث الله اهل جربة بتولية عبدالله البرجى فى السنة المذكورة فأزال عنهم الظلم والاذى ، وفى السنة الثامنة رجع الباشا درغوث حاكم طرابلس بعد ان وقع الخداع والنفاق بين اهلها وبعثوا اليه الكتب فاتاهم فى اوائل السنة واستولى عليها بعد ان قتل فى السوق خلق كثير واستأداهم مائة الف دينار لما فعلوا وامسك اهل اركوا عبدالله البرجى ، وسلموه لدرغوث فسلخ جلده ، وحشاه نخالة وصلبه ، على جذع نخله ، وجعل فى البلد ما لم يأذن به الله من السبى ، واخذ الاموال ، والغصب والفاحشة العظيمة . »

ووضع الحيلاتى رساله اخرى ترجم فيها للعلماء تراجم مختصرة ، ووضع رسالة ذكر فيها مساجد جربة ، ومؤسسيها ، وزمن كل واحد منهم ، ووضع رسالة ذكر فيها العلماء الذين جازت عليهم نسبة الدين من عصره الى عهد النبوءة ووضع رساله ذكر فيها الاجتماعات العلمية والعلماء الذين انتهت اليهم رئاسة تلك المجامع والمساجد والاماكن التى كانت تنعقد فيها تلك الاجتماعات ، كذلك اشار فى كثير من الاحيان الى حلق الدراسة ومواضعها ، هكذا سلط الاضواء على النواحى التاريخية بجربه من جميع الجوانب فيسر على الباحث العمل فى الميدان الذى يريده. انك اذا اردت ان تدرس شخصية من الشخصيات العلمية فعليك ان ترجع الى رسالة التراجم بدلا من ان تبحث على اخبارها المتفرقة فى كتب التاريخ واذا كنت تبحث عن المجامع العلمية فما عليك الا ان تعود الى الرسالة الموضوعة لذلك . وهكذا فى بقية الجوانب التاريخية لحياة الجزيرة ، لقد حاول ان يصور الجزيرة صورة كاملة فوجه اليها عدسته من عدة زوايا فصورها من زاوية الاحداث وصورها من زاوية العلم والعلماء ، وصورها من زاوية المساجد والنواحى الدينية ، وصورها من زاوية المجتمع الى اخره ، ولكى تتم الصورة التى ارادها لجربة وضع رسالة اخيرة صغيرة وذكر فيها الاسر العلمية وتحدث عن كل او بعض من نبغ فى تلك الاسر . وعلى كل حال فقد ترك لنا مادة خصبة للتاريخ . وانه لواجب اكيد على المثقفين من ابناء الجزيرة الكرام ان يدرسوا هذا التراث القيم دراسة علمية تستفيد منها الاجيال المقبلة . ولو ان عناية الشباب المتعلم من اخواننا فى جربة تناولت اثار ابى الربيع الحيلاتى من اثار ابى عبدالله ابى راس مع اثار سلامة بن يوسف مع اثار ابراهيم بن ثابت مع اثار ابى

الحسن على بن بيان مع اثار ابى عثمان سعيد بن تعاريت وغير ذلك من اثار العلماء التى لم اتصل بها ولم اعرفها وقد تكون بين ايدى بعضهم لخرجوا منها برصيد ضخم من العلم والثقافة ولألقوا ضوءا منير على عهود من التاريخ نحن فى حاجة الى معرفتها هـــذا من الناحية التاريخية اماالجوانب الاخرى وما اخصبها واكثرهافانها تدعو ابناء جربة الكرام ان يلتفتوا اليها ويهتموا بها ولقد بقيت جربة خلال القرون الثلاثة الماضية حاملة لواء العلم والمعرفةرغم فساد الحكم وتعدد ألوان الظلم عليها .

لم يكن ابو الربيع مؤرخا فحسب ولكنه كان من الطبقة العليا فى جميع انواع الثقافة الاسلامية وله كثير من الرسائل والفتاوى بالاضافة الى دروسه القيمة .

ولقد تخرج على يده عددكبير من العلماء وجازت عليه نسبة الدين قال ابو عثمان سعيد بن تعاريت : « ورأيت له اجوبة واسئلة فى الفقه والاحكام شافية كافية .» ولقد عاصره جمع كبير من العلماء منهم العلامة ابو الربيع سليمان بن قاسم بـــن سعيد اليونسى المتوفى سنة ستين والف .

ومنهم العلامة احمد بن محمد ابى سته المتوفى سنة احـــدى وستين والف .

ومنهم ابو الربيع سليمان بن عبدالله ابن زيـــد الصدغيانى المتوفى سنة سبع وتسعين والف .

ومنهم الامام ابو عبدالله بـــن ابى ستـــه المتوفى سنة سبع وثمانين والف وغيرهم كثير .

اخذ العلم عن جماعة من علماء عصره ولكن اكثر ما اخذ كان

على العلامة الكبير الشيخ ابى الفضل قاسم بن سعيد الصدغيانى.

لقد كانت حياة ابى الربيع الحيلاتى واعماله شديدة الشبه بحياة واعمال ابى النجاة يونس فعنه اخذ العلم عدد غير قليل من العلماء وكان مقصد الطلاب من الجبل والجزائر وجربة وعنه انتشرالعلم فرحمه الله رحمة واسعة .

ابو يعقوب يوسف المصعبى

يشرفنى هنا ان اضع قلمى الهزيل لاستمع مع القارىءالكريم الى ما كتبه الامام القدوة شيخ الصحافة الجزائرية الشيخ ابو اليقظان متعنا الله بحياته وأمده بروح منه قال حفظه الله فى كتابه القيم (ملحق السير) :

ومنهم العلامة الشيخ يوسف بن محمد المصعبى المليكى من آل يرو فى مليكة اخذ العلم عن الشيخ سعيد بن يحى الجادوى ، كما اخذ عن الشيخ سليمان بن محمد الباروني وعن الشيخ عمر الويرانى الشدويكشى . واليه اسند نسب الدين عند اهل وادى ميزاب المتأخرين .

وكفى به شرفا ان تخرج على يديه تلميذه الشيخ ابو زكرياء يحى بن صالح الذى احيا وادى ميزاب كما يأتى قريبا ان شاء الله .

وله تآليف كثيرة جزيلة النفع ، عظيمة الفائدة ، منها حاشية ضخمة فى جزئين على تفسير الجلالين ، ومنها حاشية على كتاب الفرائض للشيخ اسماعيل الجيطالى ، ومنها رسالة محكمة فى الرد على من حكم برد شهادة الاباضية من المتنطعين ، ابرز فيها تفوقه العلمى ، وغزارة مادته . ومنها رسالة فى تنجيس أبوال الحيوانات ، رد فيها على من زعم طهارتها ، ومنها مجموعةاجوبة

مفيدة عن اسئلة لو جمعت كلها لكانت كتابا ضخما . ومنها غير ذلك.

وكان يعظ الامراء والحكام ، لا تاخذه فى الله لومة لائم، وله فى نفوسهم مكانة رفيعة ، ومنزلة سامية ، يتحامون جانبه اجلالا لعلمه وقدره وفضله وكانوا يزورونه فى مواسم الاعياد .

وكان يتعلم عنده كثير من تلامذة اخواننا المالكية .

وتوفى رحمه الله فى صفر ضحوة الاحد عام ١١٨٧ هـ.

ولما توفى قال عنه احد علماء المالكية بجربة : لا يفرح لموت عالم

وكان بينه وبينى ابى سته المحشى قرن كامل اذ توفى ابو سته فى سنة ١٠٨٧ والشيخ يوسف فى سنة ١١٨٧ وهما مجددان لمعالم الاسلام رحمهما الله ولترجمته بسطه حافلة تركناها خوف التطويل .

وقد اضاف الشيخ ابو اليقظان حفظه الله ورعاه الى ترجمة العلامة ابى يعقوب ترجمة ولده العلامة ابى عبدالله محمد فقال:

ومنهم العلامة الكبير الشيخ محمد بن يوسف المصعبى المليكى ـ اخذ العلم عن ابيه يوسف بن محمد بجربة كما اخذ عن الشيخ ابى العباس احمد بن عمر بن رمضان التلاتى . وله تآليف كثيرة تدل على غزارة علمه وطول باعه منها شرحه لقصيدة ابى نصر فتح بن نوح الشهيرة بين الطلبة بتحريض الطلبة وقد طبع طبعا حجريا بمصر وله خط جميل وقد نسخ بيده كثيرا من الكتب ولم نعلم تاريخ وفاته بالضبط . ويقال انه لما وضع فى قبره شم الناس منه رائحة طيبة كالمسك ودفن هو واخوانه على ومهنى بمقبرة والدهم وهى قرب مقبرة الشيخ اسماعيل الجيطالى بجربة رحمهم الله .

وكان معاصرا للشيخ شعبان بن احمد الفنوشى الجربى وكانت بينه وبين الشيخ احمد مراسلات فى الفقه والتوحيد والاحكام وله غير ما ذكرنا من التآليف تركنا سردها خوف الاطالة .

هذا ما كتبه الشيخ ابو اليقظان عن هذين الامامين العظيمين وفيه كفاية لمن يبحث عن تاريخ العلم والعلماء .

ايضاح وبيان

حدثتك ايها القارىء الكريم عن عدد من الشخصيات الاباضية التى عاشت فى الجمهورية التونسية ، ولم اقصد بحديثى عن هذه الشخصيات ان اقص عليك تراجم حياتهم ، أو ان اعرفهم لك تعريف المؤرخ الذى يعنى بدقائق حياة الشخص العادية ، او ان اربط بين تسلسل الاحداث التاريخية ، او حتى ان اقدمهم اليك حسب وجودهم الزمنى ، لم اقصد شيئا من ذلك لان ذلك من عمل المؤرخ ، وهذا الكتاب لم يوضع للتاريخ ، وانما قصدت أن اضع بين يديك صورا من تاريخ الاسلام فى سير اعلامه ، تجد فيها الكفاح المتواصل لاعلاء كلمة الله انك ترى فيها صورة من حياة المسلمين كما كانوا فى الصدر الاول ، عمل لا يقصد منه غير وجه الله .

انها صور غير منسقة وقد تكون غير واضحة كل الوضوح فى الدلالة على الحياة العامة للاباضية فى كل القطر لان الاباضية كما قلت فى الفصول السابقة كانوا يمرون اغلب الجمهورية التونسية ، ولكى اعطى صورة كاملة للقارىء الكريم يقتضينى العمل ان آخذ صورا عن جميع الجمهورية وفى العصور المتتابعة وان اقدم نماذج من حياة الافراد ونماذج من حياة المجتمع او حياة

الامة لكى تكون الصور اقرب الى الحقيقة .

وبما ان عوامل مختلفة اثرت على الاباضية فى البلاد التونسية، فتقلصوا منها ولم يبق لهم وجود فى غير جزيرة جربة العامرة ، فقد رأيت ان اقتطف صورا مستعجلة ونماذج مختصرة عن الاماكن التى عاشوا فيها فى يوم من الايام مثل بلاد الجريد وقصطاليه وحصن درجين وجبال دمر وجبل وسلات وفحص القيروان وقابس والحامة وما اشبهها وعنيت اخيرا ان اقدم صورا اوضح لحياة الاباضية فى جزيرة جربة . ولقد تحدثت عن عدد من اعلامها فى الفصول السابقة ، اما الفصول الاتية فسوف تكون اغلبها عن الاباضية فى جربة ، وما لاقوه فيها من عنت الدهر ، وظلم الاخوة ، وعدوان الاستعمار ، وكيف صبروا لظلم ذوى القربى وجاهدوا فى الله حق جهاده ، عدوان اعداء الله انك ايها القارىء الكريم سوف تقرأذلك بشىء من التفصيل فى الفصول الآتية: وتاريخ جربة الاسلامية حافل بالعظمة والمجد والكفاح فى سبيل الله وعلى ابنائها البررة ان يتصدوا للكشف عن تلك الامجاد حتى يرى الشاب المسلم امثلة رائعة من عمل المؤمنين الصادقين الذين يعملون له فحسب ، لا يدفعهم الى البذل والفداء والتضحية، طمع فى منصب ولا رغبة فى مال ولا شهوة غالبية .

والمتتبع لتاريخ جربة فى العهد الاسلامى ، اذا اراد ان يدرس هذا التاريخ من الوجهة الواقعية الحقيقية لحياة الامة كما كانت تعيش لا غنى له من ان يقسم هذا التاريخ الى عدد من الفترات تمتاز كل منها بخصائص واتجاهات . ولتيسير هذا الاعتبار سوف اعمل على ايضاح مميزات كل فترة من تلك الفترات • واعتقد انه مما يساعد القارىء الكريم ان اعرض عليه فى هذا الفصل تلك الفترات ثم اتولاها بشىء من التفصيل .

١ ـ الفترة الاولى : من الفتح الاسلامى سنة ٤٧ هجرية الى سنة ٣٠٠

٢ ـ الفترة الثانية :من سنة ٣١١ الى سنة ٤٣١

٣ ـ الفترة الثالثة : من سنة ٤٣١ الى سنة ٥٢٩

٤ ـ الفترة الرابعة من سنة ٥٢٩ الى سنة ٩٦٠

٥ ـ الفترة الخامسة : من سنة ٩٦٠ الى سنة ١٢٩٨

٦ ـ الفترة السادسة : من سنة ١٢٩٨ الى استقلال تونس

٧ ـ الفترة السابعة : تبدأ من استقلال تونس وسيتولى مؤرخو الاجيال القادمة ايضاح خصائص هذه الفترة .

على اننى استطيع ان اجمل هذه الفترات فى عهود وفى امكان القارىء الكريم ان يعتبر الفترات الثلاثة الاولى داخلة فى عهد واحد هو عهد الاستقلال وان يعتبر الفترة الرابعة داخلة فى عهد الجهاد فى سبيل الله ، وان يعتبر الفترة الخامسة داخلة فى عهد الانضمام الى الجامعة الاسلامية اما الفترة السادسة فهى عهد الاستعمار البغيض اما الفترة السابعة فنرجو ان تكون داخلة فى عهد طويل مشرق سعيد .

ويتلخص من هذا ان تاريخ جربة ينقسم الى خمسة عهود :

العهد الاول من ٤٧ هـ ٥٢٩

العهد الثانى من ٥٢٩ ٩٦٠

العهد الثالث من ٩٦٠ ١٢٩٨

العهد الرابع من ١٢٩٨

العهد الخامس يبتدىء من استقلال تونس ويستمر الى ما شاء الله وهذا الكتاب يتحدث عن بعض الاحداث فى العهود الثلاثة الاولى اما العهد الرابع فله فصل فى غير هذه الحلقة .

جربة بعد الفتح الاسلامى

الفترة الاولى

جربة جزيرة صغيرة كانت لا تتصل بغيرها من البلاد الا عن طريق البحر ، ثم انشئت بها قنطرة تمتد فى البحر مسافة سبعة كيلومتر تربط بينها وبين جرجيس .

دخلها الاسلام فى النصف الاول من خير القرون مع الفاتحين من اصحاب (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستقبل سكانها الدين الجديد ، بقلوب متفتحة للايمان وارواح متشوقة الى نور الله ، ولقد دخل الاسلام تلك الجزيرة ولم يخرج منها .

عاشت جزيرة جربة بعدما دخلها الاسلام واستجاب اهلها لدين الله ، فى اغلب الاحيان اما مستقلة استقلالا كاملا ، واما مستقلة استقلالا داخليا ، ولم تكن تابعة للدول القائمة فى غيرها من البلدان تبعية كاملة الا فى فترات قصيرة من التاريخ . فمنذ دخلها الاسلام ، وتشرفت تربتها الزكية باقدام الفاتحين الاول ، وارتحلت عنها الوثنية والمسيحية المحرقة ، لم يعد فيها للكفر

---

(١) فتحها رويفع بن ثابت الانصارى من بنى مالك بن النجار ، حينما ولاه معاوية على طرابلس على أشهر الروايات . وقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عنه احاديث في غزوة خيبر .

مجال ، ولذلك فلم تشترك فى حروب الردة التى كانت تثور بين الحين والحين فى مختلف جهات البلاد التونسية ، ولم يرتفع فيها صوت يدعو الى الاشتراك فى الحروب الطاحنة، والمعارك الهائلة، التى كانت تشنها بقايا الوثنية الضالة ، والمسيحية المتعصبة ، لانه لم تبق للكفر فى الجزيرة بقية منذ اشرق فيها نور دين الله . ولقد بقيت طيلة حروب الردة فى افريقية وهى متربصة يقظة خشية ان يدهمها المرتدون او من يحركونهم ليتخذوا منها مركز هجوم او ملجأ للتحصن والدفاع . وكانت دائما مستعدة لرد من يحاول ذلكَ من اعداء الله.

ان الصحابى الجليل حينما اتمفتح جربة ، وعرف ان اهلها قد استجابوا لله ورسوله لم يعد ليهتم بناحية الحكم فيها وقد قاد جيوشه المظفرة لمواصلة الكفاح فى سبيل الله حيث يجب الكفاح واستودع اهل جربة دينهم وأمانتهم وخواتم عملهم ، ويبدو ان اهل جربة ذاقوا حلاوة الاستقلال فى ظل الاسلام ، واستمرأوه، فارادوا ان تبقى جزيرتهم على ذلك الوضع ، الذى تركهم عليه رويفع فساروا فى اتجاهه .

ولما تم فتح البلاد التونسية ، وقضى القضاء الكامل على الوثنية ، واصبحت كلمة الله هى العليا وخضع المغرب للدولة الاموية ، بقيت جربة منعزلة عن ولاة الحكم ، يقيم بعضمشائخها فيها حكم الله ، حسبما تلقوه فى ذلك الحين من حملة دين الله .

وتعاقب ولاة الدولة الاموية على المملكة التونسية وتنازعوا فيما بينهم على الحكم فى بعض الاحيان وثار عليهم الناس هنا أو هناك احيانا اخرى ، وكان النزاع هذه المرة داخل صفوف المسلمين يقوم به ثائرون على انحراف الولاة بالحكم عن منهاج الاسلام او حريصون على البقاء فى الحكم ، او طامعون فى

الوصول اليه ، وبقيت جربة على الوضع الذى اختارته لنفسها ، تطبق نظم الحكم الاسلامى فى شؤونها الداخلية ، ولا تخرج خارج الجزيرة ، ولا ترمى بثقلها الى اى جانب من الجوانب المتنازعة ، فلم تشترك فى الثورات الكثيرة التى كانت تقع عن يمينها وشمالها ، وانما حافظت على الحياد والسلام الى اواخر القرن الثانى حين التحقت راغبة طائعة بالدولة الرستمية ، والسبب فى بقائها الى هذا الحين دون ان تنضم الى حكم ولاة الدولة الاموية او ولاة الدولة العباسية او الثائرين عليهم ، هو ما كانت تلاحظه من البعد بين نظم الحكم التى جاء بها الاسلام ، وبين طرق الحكم التى يسير عليها اولئك الولاة فى كثير من الاحيان ، فقد كان واضحا ان اغلب الولاة لم يكونوا يتقيدون بالتشريع الاسلامى فى معاملة الناس ، والمساواة بينهم فى الحقوق والواجبات ، وانما كانوا يهتمون قبل كل شىء باقامة الدولة ، والمحافظة على السلطة ، ولو ادى ذلك الى انتهاك الحرم التى صانها الاسلام .

ولقد قامت فى ليبيا ثلاث امامات مستقلة عن الدولة الاموية والدولة العباسية ، وحاولت تلك الامامات ان تعود بالحكم المنحرف الى المنهج الذى جاء به دين الله ، وشمل حكم هذه الامامات ، بعضا من البلاد التونسية الا ان جربة بقيت مترددة لم تقدم على الانضمام الى تلك الامامات ، وحافظت على حيادها السياسى والعسكرى ، ولعل شيوخ الجزيرة كانوا يرون ان البقاء على وضعهم الخاص لا يعرضهم لسخط احد ، كما انهم كانوا يرون أن الامامة لا يمكن ان تستقر فى ليبيا ، لان ليبيا هى الطريق الطبيعى للجيوش الذاهبة من الشرق الى الغرب او من الغرب الى الشرق ، ومهما كان رأيهم فى الموضوع فقد واقفوا منها موقفا

سلبيا ، فلم يساعدوها فى حروبها سواء فى ذلك الحروب الواقعة فى ليبيا او الحروب الواقعة فى البلاد التونسية ، كما لم يساعدوا مناهضيها فى كلا البلدين . فلما تأسست الدولة الرستمية فى الجزائر وبايع الناس عبد الرحمن رستم بالامامة كانت جربة من البلدان الاولى التى استبشرت بميلاد هذه الامامة، وسارعت الى الانضمام اليها والدخول تحت جناحها ، كما فعل اغلب الجنوب والوسط من البلاد التونسية ، ولعل من الاسباب التى جعلت جربة تستبشر بميلاد هذه الامامة الجديدة ،والانضواء تحت لوائها ما يلى :

١ ـ كان عبد الرحمن بن رستم شخصية لامعة فهو من حملة العلم ، ومن اخلص الدعاة الى المحافظة على دين الله ، ولقداسند اليه حكم القيروان فى عهد الامام ابى الخطاب فكان مثالا للحاكم المسلم النزيه ، الذى يحرص أعلى اقامة دين الله ، فاذا بويع بالامامة فى الجزائر فهو خليق ان يسير بها فى طريق العدول من المؤمنين .

٢ ـ الموقع الذى اختاره عبد الرحمن ومستشاروه ليكون مركزا للامامة ، موقع ممتاز تتوافر فيه جميع وسائل الاستقرار لاقامة حكم عادل فى دولة قوية .

٣ ـ كان اهالى جربة يعرفون انهم لن يتركوا على هذا الانعزال والاستقلال دون ان يدخلوا تحت حكم دولة .

وهكذا اختارت جربة ان تكون تابعة للدولة الرستمية فى الجزائر شأنها فى ذلك شأن اغلب المملكة الليبية واغلب البلاد التونسية ، واصبحت منذ ذلك الحين اهم حلقة اتصال بين الاباضية الموجودين فى ليبيا من جهة والاباضية الموجودين فى تونس والجزائر من جهة اخرى ، وكانت علاقتها بالدولة

الرستمية علاقة استقرار وسلام واطمئنان .

ولما كانت سياسة الدولة الرستمية تتمشى حسب تعاليم الاسلام (١) لها الاشراف العام على الاقطار التابعة لها ، دون التحكم فيها ، وفى مقدراتها فقد كانت جربة كما كانت بلدان الوسط والجنوب التونسيين وكما كان جبل نفوسة وغيره من البلاد الليبية التابعة للدولة الرستمية ترتبط بمركز الدولة ارتباطا روحيا اكثر مما ترتبط بها ارتباطا ماديا ، فلقد كان اهالى الجزيرة ، كما كان غيرهم ـ يختارون من يتولى شؤونهم ، فيبعثون باسمه الى مركز الامامة فيأتى تعيينه عليهم فيتولى امرهم يحكم بينهم بحكم الله ، فيفصل المشاكل ، ويقيم الحدود ، ويرعى مصالح الامة ، باسم الدولة الرستمية، ولم تكن الدولة الرستمية تجمع الاموال او تفرض الضرائب على الناس ، وانما كانت تجمع الزكاة على النظام الاسلامى ، وتحرص على صرفها فى وجوهها التى عينها الكتاب الكريم ، وكانت زكاة جربة لا تخرج منها فقد

---

(١) يقول الاستاذ عثمان الكعاك في كتابه القيم موجز التاريخ العام للجزائر صفحة ١٨٠ : « يرأس الدولة الرستمية امام يلقب بامير المؤمنين، بيده مقاليدها ، وتصاريف امورها وله ترجع السلطتان الزمنية والروحية ، ينتخبه وجوه المدينة وزعماء المذهب ، وشيوخ الدين بجربة عن غير مبالاة ، ولا تقاليد ، ولا ولاء في قرابة او صداقة او سلطان . يراعون فيه المعرفة والدراية والتحنك والدهاء والعدل والانصاف . يجريهما على نفسه قبل ذوى قرابته ، وعلى ذوى قرابته قبل الحاشية او عموم السكان ، وان هم رأوا اعوجا قاوموه بالسيف لا بالرفق واللين ،وانزلوه من اريكته من غير وجل او أسف او اعتبار . »

ويقول فى الصفحة ١٨٢ « وكانوا على نزاهة تامة لا ينازعهم فيها منازع ، وذمة بريئة من كل شائبة من الشوائب وقد وردت نوادر فى شأنهم فى كتب تاريخية مالكية ، مما يدل على عدم التعصب فى ذكر الرواية وصحة النقل . »

كان عامل الدولة يجمعها من اصحابها ثم يصرفها بحرص شديد فى الوجوه التى تصرف فيها الزكاة .

اما الجند فرغم ان الدولة الرستمية هوجمت فى كثير من الاحيان ، وقامت بينها وبين الدول المجاورة لها عدة حروب ،وثار عليها ثائرون خطرون رغم كل ذلك فانها كانت تعتمد فى حروبها على المتطوعين للجهادفى سبيل الله ولم تتخذ جنودا مرتزقين كما كانت تفعل غيرها من الدول التى تقوم علىالاستبداد والظلم وقصارى ما اتخذته من جند مستديم انما هم شرطة البلدية وكانوا يقومون بهذه الواجبات احتسابا لما عند الله ولا يأخذون عن عملهم هذا مقابلا كذلك بعض الشرطة الذين يقومون مقام البوليس لحفظ الامن والقبض على الجناة ولذلك فقد كانت البلاد التابعة لها كجربة لا تتخذ جندا ولا ترسلهم الى الدولة المركزية ، التى لم تتخذ جيشا مقيما يتلقى رواتب من الدولة ، ومهمته الحرب ، وانما كانت الدولة الرستمية فى حروبها تعتمد على المتطوعين فعندما تثار حرب يدعى الناس الى الجهاد فىسبيل الله او حماية الوطن او ما الى ذلك فيندفع الناس الى القيام بذلك الواجب المقدس غير منتظرين اجرا من الدولة او كسبا منالحرب، فاذا رأى الامام ان العدو المتطوع فى مركز الدولة لا يكفيه للدفاع استعان بغيرهم فى بقية البلاد ، دون انيلزمهم العدد او يحمل الناس على الحرب مرغمين او طامعين فى مكسب دنيوى فاذا انتهت المعركة رجع اولئك المحاربون الى اعمالهم الحرة .

ويبدو ان الجزيرة حافظت على المبدأ الذى التزمته من قبل منذ الفتح الاسلامى فلم ترسل اى نجدة للدولة الرستمية فىحروبها الكثيرة ، وانما احتفظت بقوتها لنفسها ، كذلك لم تشترك فى الثورات التى قامت ضد الاغالبة فى القيروان ولم تحاول ان

تنصرهم وانما حافظت على حيادها الكامل بالنسبة لهذه الدولة .

ونستطيع فى اخر هذا الفصل ان نلخص الحديث عن جربة فى الفترة الاولى من تاريخها الاسلامى فيما يلى :

دخل الاسلام الى جربة سنة ٤٧ من الهجرة على يد رويفع بن ثابت الانصارى على اشهر الروايات ، ومنذ فتحها رويفع لم يرتفع فيها صوت للكفر او الردة ، فقد رضيت الاسلام دينا واطمأنت له وعملت به وحافظت عليه فى اطارها الداخلى،ولذلك لم تعد اليها الجيوش الاسلامية الفاتحة التى كانت تنتقل من مكان الى مكان ، لتأديب المرتدين والعصاة ، لانه لم يكن فى جربة مرتدون او عصاة . وكان قادة الفتح فى العهود الاولى لا يهتمون بمظاهر السلطة ، ولا يميلون الى التحكم او النفوذ ، وانما كل ما يعنيهم هو نشر الاسلام وأمن الدعوة اليه ، فحيثما تحقق ذلك ترك اهل البلد وشأنهم ، ولذلك فما افتتحوا الجزيرة ، وايقنوا ان اهلها قد نبذوا الوثنية ، واسلموا امرهم لله ، حتى تركوهم لشأنهم، ووجدت جربة نفسها وهى تعيش فى ظل الاسلام انها قد ارتاحت من عنت الكفر ، ومن طغيان الرومان الذين كانوا يتحكمون فيها تحكم المستعمر الباغى ، فحافظت على الاسلام والسلام ، واستمرت على هذه الحالة الهادئة الى اواخر القرن الثانى حين انضمت الى الدولة الرستمية ودخلت تحت رعايتها ، واحتمت بجناحها ، ومن اواخر القرن الثانى الى اواخر القرن الثالث لم تختلف الاحوال كثيرا على جربة ، فقد بقى فيها النظام الاسلامى، وكان علماؤها يحرصون على تطبيقه ، وكل ما حدث من فرق ان الاوامر فى العهد الرستمى كانت تنفذ باسم الامام ، وان الاعمال كانت تقام باسم الدولة ، ولقد نتج عن هذا الاستقلال والاستقرار فى هذه الجزيرة نتائج أتت بثمار طيبة ، فقد اهتم

الناس فيها بالدراسة ونشر العلم وبث المعرفة ، فنبغ علماء فحول فى هذا العصر كانت لهم اليد البيضاء على توجيه الناس من الناحية الدينية والاجتماعية والخلقية والسير بهم فى المنهاج الاسلامى للحياة البشرية ، وتكونت عدة مدارس حافظت على التراث الاسلامى المجيد طيلة قرون طويلة ، ونستطيع ان نعتبر الفترة الاولى من تاريخ جربة التى تمتد ما بين ٤٧ و٣٠٠ فترة استقلت فيها جربة استقلالا كاملا لمدة قرن ونصف وكانت تابعة للدولة الرستمية لمدة قرن ، وكان عهدها فى هذه التبعية شبيها بعهود الاستقلال لانها كانت تتمتع بجميع المزايا التى تكفلها نظم الحكم الاسلامى حين يقام لامة مسلمة ، صان الاسلام دماءها واموالها واعراضها ، واتاح لها من فرص الحياة الكريمة مايسر لها ان تعيش حرة سعيدة ، دون ان تكون خاضعة للاهواء البشرية ، التى تفرضها غطرسة الحكام الذين لا يتقيدون باحكام الله .

هذه خلاصة الفترة الاولى وتتضح فيها الخصائص الآتية :

١ ـ لم يقع فيها ارتداد عن الاسلام كما وقع فى اكثر الجهات المجاورة لها ،

٢ ـ لم تنضم الى فريق من الفرق المتحاربة .

٣ ـ حرصت ان تباشر شئونها بنفسها تحت رعاية شيوخ العلم ولم تحاول ان تنضم الى دولة قائمة او تعلن ميلاد دولة قبل انضمامها الى الامامة الرستمية ،

٤ ـ عكفت على نشر العلم

٥ ـ كانت هذه الفترة فى حياة جربة فترة أستقرار وهدوء وسلام .

جربة فى العهد الاسلامى

الفترة الثانية

فى اواخر القرن الثالث نشأت الدولة الفاطمية وتغلبت على الدولة الرستمية فى الجزائر ثم على الاغالبة فى تونس ، فازاحتهما عن الحكم، وقد نشأ عن ذلك عدد من الثوراتوالحروب الدامية التى امتدت زمنا طويلا فى جميع البلاد الجزائرية ، والبلاد التونسية والشق الغربى من ليبيا ، وأدى ذلك من الناحية السياسية الى انقطاع الاتصال بين جربة ومركز الدولةالرستمية التى انقرضت كما قلل من وسائل الاتصال بينها وبين جبل نفوسة لا سيما وان الجبل كان لا يزال يعانى من النكبات المتوالية التى سلطت عليه ومن اهمها اثار وقعة مانو التى ذهب فيها خيار ابطال الجبل وعلمائه .

ورأى علماء جربة على ضوء الاحداث الواقعة ، ان يعودوا الى نظام حياتهم فى العهود السابقة قبل ان يدخلوا تحت حكم الدولة الرستمية ، فعليهم ان يحافظوا على استقلالهم الداخلى من الناحية السياسية ، وعليهم ان لا يحتكوا بالدولة الفاطمية التى تحاول ان تستقر ، وعليهم ان لا يحتكوا بالثوار الذين يحاولون ان يقضوا على هذه الدولة الناشئة ، وعليهم ان يحافظوا على

جزيرتهم وان لا يتركوا احدا من المتنازعين ليجعلها مركزا للعدوان . وكانوا يهمهم انيعيشوا على حياد تام وفى سلام فى ظل الاسلام . وهم وانانقطع الاتصال السياسى بينهم وبين الجزائر وليبيا الا انهم كانوا على اتصال وثيق مستمر باخوانهم الاباضية فى كامل القطر التونسى وفى الجزائر وليبيا والفارق بين حالة الاباضية فى جزيرة جربة وبين غيرهم من الاباضية فى البلاد التونسية ، ان اباضية جربة قد عاشوا طول الفترة الماضية فى حياد وأمن وسلام ، لم تنلهم الحروب ، ولم تستفزهم الثورات ، ولم يقع عليهم اعتداء ، ولم يصابوا باضرار حرب ، اما اخوانهم من الاباضية فى بقية البلاد التونسية فقد كانت توجه اليهم الضربات اثر الضربات ، اما من الدول القائمة التى تريد ان تحكم ، واما من الثوار الذين يريدون ان يطيحوا بتلك الدول ليصلوا الى الحكم ، واما من فورات العصبية المذهبية التى تذكيها المصلحة الفردية احيانا ، والمصلحة السياسية احيانا اخرى .

ونظم اهالى جربة حياتهم على نظامهم الخاص ، لايعلنون اسم دولة جديدة ، ولا ينضمون الى دولة قائمة ، ولا يؤيدون الثوار الذين ينعقون فى كل جهة من البلاد . فاذا التجأ اليهم ملتجىء ، يلتمس الحياة الهادئة ، والاستقرار والسكينة فتحوا له المجال وأووه ، اما اذا اراد ان يتخذ الجزيرة مركزا للعنف والثورة ، فانهم لا يسمحون له بذلك ، ويردونه عنهم بلطف فاذا لم يستجب ردوه عنهم بعنف .

وعندما كانت الدولة الفاطمية تكافح من اجل البقاء فى المملكة التونسية ، وتعمل جاهدة على التمكن والاستقرار . كان اهل جربة لا يهتمون بها وانما كانوا يحلمون بانهم سوف يعيشون حياة هادئة آمنة سعيدة ، كتلك الحياة التى عاشوها فى الفترة

الاولى ، لا تحكم ولا ظلم ولا عدوان ، ولا وثنية ولا كفر ولا عصيان . ولكن هذا الحلم لم يطل ، فان الدولة الفاطمية كانت تعمل على الاستقرار لتباشر الحكم ، وتستغل مكاسبه ، ولذلك فما اطمأنت الى استقرارها ، وثبتت دعائم حكمها فى المهدية ، وكونت اساطيلها البحرية القوية حتى فكرت فى مباشرة الحكم على تلك البلاد التى بقيت منعزلة عنها وهكذا وجهت اسطولها الى جزيرة جربة على حين غفلة من اهلها ودخلتها سنة ٣١١ على يد على بن سليمان الداعى فاصبحت جربة بذلك خاضعة خضوعا فعليا حقيقيا للدولة الفاطمية ، وذاقت جربة مرارة الحكم الظالم كما كانت تذوقه بقية البلاد ، ولقد زاد فى شناعة الموقف ما كانت تبثه الدعاية المغرضة التى تباعد ما امكنها بين فرق المسلمين لا سيما بين الاباضية والشيعة ، وكان الولاة من الشيعة يرتكبون مايرتكبون من الفواحش فى جربة وفى غيرها من بلاد الاباضية وهم يعتقدون ان ما يفعلونه لا تحرمه الشريعة ، بل كثيرا ما يرغبهم بعض المتعصبين المنغلقى الذهن على الانتقام من الاباضية مستبيحا دماءهم واموالهم ، ولذلك فقد كان اولئك الولاة لا يتورعون عن شىء وبقيت الجزيرة تحت حكم الدولة الفاطمية عشرين سنة يتولى امرها ولاة تعينهم حكومة المهدية ، فلما ثار ابو يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار ، استبشر به الناس من جميع الطوائف الاسلامية التى كانت فى البلاد التونسية ما عدا الشيعة طبعا .

وظنوا ان الخلاص من ظلم الفاطميين انما يقع على يد هذا الثائر العنيد ، ووقع مجمع علمى من علماء المالكية فى القيروان افتوا فيه بوجوب مناصرة ابى يزيد ومحاربة الفاطميين بكل القوى . وبدا لاول وهلة ان ابا يزيد هذا سوف ينتصر ، وسوف يقوض اركان هذه الدولة ، واستمر ينتصر فى مواقع كثيرة وبلغ جربة

فاحتلها سنة ٣٣١ هـ

كان اهالى جربة كغيرها من سكان البلاد التونسية ، يتذمرون من ظلم الفاطميين ، ويتوقعون الخلاص على يد ابى يزيد ، فلما احتل ابو يزيد جربة وارتكب فيها ما لم يأذن به الله وما لم يبلغ اليه الفاطميون ، وجدوا ان الوان الظلم تتفاوت حتى يبدو بضعة بالنسبة الى بعض آخر كأنه العدل المطلق ، ومرت على جربة سنتان مظلمتان تحت حكم ابى يزيد الذى طرد منها عامل الدولة الفاطمية ، وحكمها كما شاء له ولاتباعه الهوى . وفى سنة ٣٣٥ قتل ابو يزيد الثائر العنيد ، وارجعت جربة الى حكم الدولة الفاطمية فى المهدية فوجدت نفسها تقيم على الوان مختلفة من الظلم والانحراف عن حكم الله ، ولذلك فقد بدأت تعمل على الثورة ، وتتهيأ لها واعدت من الوسائل مايكفل لها النجاح وفيما بين سنة ٣٤١ ـ و ـ ٣٥٠ ـ كانت قد اعدت وسائلها واطمأنت الى نجاحها فثارت وطردت عامل المهدية ، وعادت الى النظام الذى وضعته لنفسها من قبل ، بعد الفتح الاسلامى ، وعاشت عليه فى الفترة الاولى من تاريخها المجيد ، واستمرت على ذلك الوضع الى عهد المعز بن باديس الصنهاجى الذى احتل الجزيرة سنة ٤٣١ فاستباح منها جميع الحرم التى صانها الاسلام وارتكب جريمته النكراء فجمع خيار الامةفى الجزيرة من العلماء والزهاد وذوى الفضل والرأى فذبحهم . انها احدى الجرائم التى يقدم عليها الطغاة من الحكام دون وازع من دين او ضمير او خلق .

فى هذه الفترة التاريخية التى تمتد ما بين سنة ٣٠٠ الى سنة ٤٣١ عاشت جربة ثلاثين سنة تابعة تبعية كاملة لحكم خارج عن الجزيرة ذاقت فيه من الوان الظلم والقهر والجبروت ما كان يرتكبه الظالمون فى فى البلاد التى يتغلبون عليها دون ان يحاسبهم

احد . وقد قضت سنتين من هذه الفترة تحت حكم ابى يزيد بن كيداد اما الباقى من هذه الثلاثين سنة فقد قضته تحت الحكم المباشر للدولة الفاطمية ، وعاشت مائة سنة من تاريخها فى هذه الفترة مستقلة استقلالا كاملا عن التبعيات ، تعيش فيها على النظم التى اختارتها لنفسها فى الازمنة السابقة والتى تود ان تعيش عليها فى الازمنة اللاحقة ، ما لم تتكون دول تسير على النهج الاسلامى وتحكم بدين الله .

هذه خلاصة الفترة الثانية وفيها يتضح ما يأتى من الامور :

١ ــ تعرض اهل جربة لما كان يتعرض له غيرهم من ويلات الحروب

٢ ــ تكون فيهم بسبب العدوان عليهم استعداد للدفاع وحتى للقيام بالثورات على الحكم الظالم .

٣ ــ حرصوا اكثر من ذى قبل على نظامهم الداخلى وبعدهم عن الاتصال بطلاب الحكم وادركوا مناسبته لمصالحهم فاستمسكوا به فى حرص واعتزاز .

٤ ــ اصبحوا يعلنون سخطهم على الانحراف بالحكم عن منهاجه الاسلامى وينتقدون مسلك ولاة الامر والثوار عليهم جميعا وكان العلماء من اكثر الناس شدة فى نقد الاوضاع الفاسدة ، وبيان مخالفتها للشريعة السمحة الكريمة .

٥ ــ كان سكان جربة امة تحب السلام وتحرص عليه ولا يهمها ان تعيش فى أمن بعيدة عن مظاهر العنف فلما وقع عليها العدوان وارتكبت فيها الفواحش دون سبب يدعو الى ذلك من اولئك المعتدين بدأت تراجع مبادئها فى الحياة وموقفها من الناس .

٦ ــ كانت هذه الفترة فى حياة جربة فترة فيها قلق واضطراب وتخوف من المستقبل واعداد له .

جربة فى العهد الاسلامى

الفترة الثالثة

كان سكان جربة منذ الفتح الاسلامى الى سنة ٤٣١ يحاولون ان يحتفظوا بهدوء اعصابهم ، ويلتجئون الى السلم ، ولا يعمدون الى القوة والانتقام ، ولا يسعون الى محاربة غيرهم من الدول او الثوار ، وانما كانوا يحرصون على الانعزال داخل جزيرتهم ، وتطبيق احكام الاسلام فى شئونهم الخاصة دون الاحتكاك بالسياسة الخارجية . فلما احتل المعز بن باديس الجزيرة سنة ٤٣١ وارتكب فيها من الظلم والفواحش ما لا يغضى عنه الحليم، ولم يقتصر على الظلم فى الاموال والاعراض والارواح وانما تعدى ذلك الى الدين والتحكم فى اعمال الناس وعقائدهم فاراد ان يرغمهم على اتباع مذهب معين ولتنفيذ هذه الفكرة جمع العلماء الذين يرجع اليهم الناس فى امر دينهم وامر بقتلهم جميعا .

لقد كان الشيعة فى الدولة الفاطمية يحاولون من قبل ان يحملوا الناس على المذهب الشيعى ولكن لم يبلغ بهم العدوان الى الحد الذى بلغه المعز بن باديس فى حمل الناس على اتباع المذهب المالكى فلقد اسرف فى حمل الناس على ترك مذاهبهم وكان يلتمس اوهى الاسباب لقتلهم جماعات وفرادى ولا سيما ذوى

العلم والرأى. ولا شك ان الحامل له على هذا المسلك ليس هو الاخلاص للمذهب المالكى وانما هو الخوف على ما بيده من الملك او كان يخشى ان تثور بعض تلك المذاهب على ظلمه وعدوانه فاراد استئصالها قبل ان تعد العدة له . بل ان اتباعه للمذهب المالكى لم يكن مبنيا على دراسة اسلامية ومقارنة بين المذهبين الشيعى ،الذى نشأ عليه والمالكى الذى اعتنقه اخيرا وانما دعاه اليه ما كان يراه من كثرة اتباع المذهب المالكى حينئذ وكرههم للشيعة ولكى يتخذ اولئك الناس انصارا له ويعتمد عليهم فى نظامه السياسى اعتنق المذهب المالكى ، وترك الشيعة فى حوادث تاريخية تشبه ان تكون مسرحيات تمثيلية ذهب ضحيتها اعداد وافرة من المسلمين (١) وقد كانت فكرة قتل العلماء والصلحاء ومن يرجع اليه الناس فى امور دينهم ابشع ما ابتكرته السياسة الماكرة فى عقل المعز بن باديس ويبدو ان الرجل قد تجرد من الايمان كل التجرد حين كان يجمع امثال ابى عمرو النميلى وابى محمد كموس ليذبحوا امامه حتى لا يجد الناس مرجعا لهم فى امور دينهم .

لقد نتج عن تلك المذابح التى تولاها المعز فى جزيرة جربة واختار لتنفيذها خيار المسلمين نتائج خطيرة .

لوث المعز يديه بالدم البرىء ، ورجع الى عاصمة ملكه ليستقبل مزيدا من الثورات والمؤامرات والمكائد التى وجهت اليه من كل جانب ومكان ، والتى ما كان يدبرها او يعد لها اولئك الابرياء الذين قتلهم ولا من يعمل بارائهم .

---

(١) قال الزاوى فى تاريخ الفتح العربى فى ليبيا صفحة ١٩٥ : « وقضى على الشيعة ومذهبهم وكان هذا مشجعا للناس على اضطهادهم والفتك بهم ، كما قضى على مذاهب الصفرية والاباضية والنكارية والمعتزلة ، وحمل كل الناس على مذهب الامام مالك . »

اما اهل الجزيرة فقد اثارت فيهم هذه القضية رد فعل شديد وبعد ان كانوا امة مسالمة حريصة على ان تتبع دين الله وحكمه فى نفسها وفى غيرها وان تحافظ على الامن والسلام فى ربوعها، وانلا تشترك فى الدماء التى تراق ،والاموال التى تختلس ، والحرم التى تنتهك ، بعد انكانت حريصة على ان لا تلوث يديها بما حرم الله . راجعت نفسها على ضوء الاحداث التىوقعت لها وذكرت قول الشاعر الجاهلى :

ومن لا يذد عن حوضه سلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

فخيل اليها ان فى هذا المنطق الجاهلى بعض الحق ، وقرر المتحمسون من شبابها ان يثوروا ، وان يرتكبوا ما يرتكبه غيرهم، وان يعتدوا كما يعتدى الآخرون ، انه لا يكفى لعزتهم ان يردوا الظلم عنهم . وانما يجب ان يقوموا بالظلم فى بعض الاحيان (١)

لقد كان العلماء الاعلام يغلون ايدى العامة عن ارتكاب الجريمة واتيان المنكر فقتل المعز اولئك العلماء وصمتت تلك الالسنة الدائبة على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واصبحت الدعوة الى الانتقام والى الاخذ بالثأر والى الانطلاق من قيود الحرام والشبهة . دعوة يميل اليها الرأى العام فجد القوم فى اعداد عدة الحرب ، وبنوا اساطيل فى البحر ، وربوا شبابهم على فنون القتال ، وقبل ان تتم سبع سنوات من احتلال المعز للجزيرةكان

---

(١) قرأت هذا الفصل على العالم المؤرخ الشيخ سالم بن يعقوب الجزبى فلم يوافق على ما ورد فيه وقال ان ما ينسبه المؤرخون الى اهل جربة من قيامهم بالقرصنة فى هذه الفترة التاريخية لا صحة له فان اباضية جربة لم يستحلوا فى يوم من الايام اموال الناس ولادماءهم وقصارى ما كانوا يفعلونه انما هو الدفاع المشروع عن انفسهم واموالهم واعراضهم ولم يتجاوزوا هذا الموقف ابدا .

اهلها يثورون على عامل الدولة الصنهاجية . ويرمون به وراء البحر فى وجه المعز ويستقلون بحكم جزيرتهم فى مظهر قوى عنيف هذه المرةلا فى رفق وهدوء وسلام كما كانوا يفعلون من قبل ، ولم يكتفوا بهذا بل سرحوا اساطيلهم للقرصنة ، وسمحوا لشبابهم انيرتكب ما يرتكبه غيره من التسلط على الاساطيل الضعيفة وغنيمة ما بها من اموال ، فضيقوا الخناق على الدولة الصنهاجية ، وحبسواالتجارة عن المهدية وهى عاصمةالصنهاجيين. وضاقت المذاهب على أمراء الدولة وحاولوا ان يردوا هذا المارد الذى خرج من القمقم ، فلم يستطيعوا .

لقد كان علماء الدين هم السحرة الذين حبسوا المارد فى الجزيرة فلم يخرج منها ، اما وقد قتل اولئك العلماء ، وخفتت اصواتهم فلم يعد هنالك ما يحول دون المارد والانطلاق ، ومضى على هذه الحال قرابة سبعين سنة من سنة ٤٤١ الى سنة ٥١٠. وفى هذه المدة تكونت طبقة اخرى من العلماء الاعلام الحريصين على مبادىء الاسلام فكانت اصواتهم تنطلق آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر داعية الى التمسك بدين الله واكثروا التنديد على اصحاب السفن التى تشترك فى القرصنة وحرموا ما كانتتأتى به من اموال فاثرت مواقفهم هذه فى نفوس اصحاب الاساطيل ، وفى سنة ٥١٠ جهز ابو الحسن على بن يحى بن تميم اسطولا لغزو جربة واستعد اسطول الجزيرة للقائه ، كما استعد سكانها للدفاع مهما كانت الظروف ، وبقى ابو الحسن محاصرا للجزيرة اياما يهددهم بالحرب والاحتلال فيظهرون له القوة والاستعداد للدفاع واخيرا دعاهم الى صلح وكانت مواد الصلح ان يترك ابو الحسن الجزيرة دون ان يلحقها بحكمه وذلك مقابل ما يأتى :

اولا ــ ان يكفوا اساطيلهم عن التعرض الى السفن التجارية التى ترد الى الثغور الاسلامية فى البلاد التونسية .

ثانيا ـ ان يفتحوا مجال التجارة الى المهدية التى ركدت فيها الحالة الاقتصادية .

ووجد علماء الجزيرة ان هذه الشروط هى ما يجب ان تكون عليه الامة المسلمة ، فما يجوز العدوان على الاخوة ، فحملوا قادة الاساطيل على الموافقة ، وتم الصلح على ان تبقى الجزيرة مستقلة فى شئونها الداخلية لا تتعرض لها الدولة الصنهاجية فى شىء، وان تكف اساطيل الجزيرة عن القرصنة ، وان تفتح مجال التجارة مع المهدية ، ورجع الاسطول الصنهاجى يحمل شروط الصلح ، وفى كل من الطرفين بها وحافظا عليها ، وبقيت جربة على نظامها الخاص الذى عرفته من قبل والذى سارت عليه الى سنة ٥٢٩ .

لقد نتجت عن هذا الصلح نتائج هامة اثرت على تاريخ الجزيرة من بعد فمنذ وقع الصلح ، وحرم العلماء ما تأتى به اساطيل القرصنة ، اصبحت تلك الاساطيل غير ذات جدوى . واصبح اولئك الشباب الذين كانوا يعيشون على الكفاح فى البحر ، يتركون البحر والكفاح فيه ، ويعرضون عنه ، حتى صار غير ذى غناء لهم وبيعت تلك الاساطيل القوية المعدة للحرب ولم تبق الا سفن الصيد الصغيرة ، ونشأ الجيل الجديد لا يهتم بالسفن وقيادتها ، ولا يعد نفسه للحرب عليها ، ولا يشتاق الى معانقة الامواج ، ومصارعة الاثياج .

ورجع اهالى جربة الى حياتهم الوادعة التى كانوا يعيشونها منذ الفتح الاسلامى الى منتصف القرن الخامس : نظام هادىء عادل مستقر يتولى فيه امورهم شيخ من شيوخهم بناء على ما يقرره العلماء الاعلام فى مجالسهم بالمساجد ، واطمأنوا الى هذه الحياة

الهادئة، التى اعتادتها الجزيرة الصغيرة الرابضة فى البحر ، فقد كانت حياة هنيئة سعيدة فى ظل الاسلام . الا ان التاريخ كان يتمخض عن احداث هى اعنف مما سبق فى الجزيرة من احداث.

لقد امتدت هذه الفترة من تاريخ جربة قرابة قرن لم تكن فيها الجزيرة تابعة لدولة اخرى تبعية كاملة الا سبع سنوات او اقل اما بقية المدة فقد عاشتها الجزيرة مستقلة استقلالا كاملا عن نفوذ اية دولة ، على ان هذه السنوات السبع التى عاشتها الجزيرة تابعة للدولة الصنهاجية خاضعة للمعز بن باديس قد غيرت من اخلاق الجزيرة ومن دينها الشيء الكثير . وكان لموقف المعز منها ومحاولة حمله لها على اعتناق مذهب غير مذهبها ، وقتله لعلمائها وصلحائها ، اسوأ الاثر من الناحية الدينية . فلقد بقيت الجزيرة منذ الفتح الاسلامى الى احتلال المعز لها سنة ٤٣١ نظيفة ، لم يدخلها المال الحرام ، ولم تتلوث ايديها بالدم الحرام ، ولم ترتكب فيها الجرائم التى ترتكب فى غيرها من البلدان ، ولم يخرج اهلها عن حكم الاسلام فى معاملاتهم للناس خارج الجزيرة وداخلها ، فلما وقف المعز منها ذلك الموقف المؤلم ، واحضر خيار اهلها فذبحهم ذبح الاغنام بين سمع الناس وبصرهم ، اثر ذلك فى نفوسهم ، وكون فيهم رد فعل شديد ، انقلبوا معه من شعب يتقى الشبهات ويبتعد عن الحمى الى قوة مندفعة حاطمة تخوض معركة الحياة بنفس السلاح الذى يستعمله غيرها من الناس . ومما زاد فى شناعة الموقف ان المعز وهو يرتكب هذه الالوان من الظلم الفادح كان يزعم للناس انه يذود عن دين الله .

هذه خلاصة هذه الفترة من تاريخ جربة ويتضح فى هذه الفترة الظواهر الآتية :

١ ــ خفوت صوت العلماء الذين يأمرون بالمعروف وينهــون عن المنكر .

٢ ــ انطلاق العامةوالدهماء فى ميدان الحياة على نفس الاسلوب الذى تجرى به الحياة فى البلاد الاخرى .

٣ ــ تكون قوة بحرية ضاربة .

٤ ــ تكون استعداد حربى داخل الجزيرة .

٥ ــ استقلال جربة عن الدول القائمة وحرصها على ذلــك الاستقلال

٦ ــ كانت هذه الفترة من حياة جربة فترة فيها خروج عن المألوف من حياة الاباضية واستمساكهم بدين الله وحرصهم على ذلك وفيها اعتزاز واعتداد بالقوة، وفيها محاولة لاظهار التسلط، ولكن فى آخر الفترة تغلب دعاة الحق وملتزموا الاستقامة على العامة والدهماء ، واسطاعوا ان يرجعوا بهم الى المنهج الاسلامى ، ابتعاد عن الفتنة ودعاتها ، وهروب من الظلم يقع منهم او عليهم وحرص على احكام الاسلام فى الجزيرة .

خلاصة هذا العهد

هذا عهد تاريخى قرابة خمسة قرون ، اذ يبتدىء سنة ٤٧ هـ. عندما دخل الاسلام اول مرة الى جربة فاشرقت بنور الله ويمتد الى سنة ٥٢٩ حينما هجم عليها قراصنة الافرنـــج فاحتلوها . وكانت حياة جربة ، طيلة هذا العهد ، بمختلف اطواره ، تعيش فى اطار اسلامى نظيف ، قضت منه قرنا ونصفا تابعة للدولة الرستمية ، وحوالى ثلاثين سنة تحت حكم الدولة الفاطمية او العبيدية وسنتين تحت حكم ابى يزيد بن كيداد ، وسبع سنوات تحت حكم الدولة الصنهاجية ، اما بقية المدة من هذا العهد وهى تقارب ثلاثة قرون، فقد كانت فيها جربة مستقلة عن غيرها من الدول استقلالا كاملا ، تعيش على المنهج الاسلامى فى الحياة ، وبالطريقة التى اختارها علماؤها ، دون ان تعلن عن قيام دولة، ودون ان تتخلى عن تنفيذ اى حكم من احكام الاسلام .

ويحق للمؤرخ الذى ينظر الى جربة من الزاوية الاسلامية غير مهتم بمظاهر السلطة والنفوذ ان يقول : ان الفترة التى عاشتها جربة مستقلة عن تبعية غيرها من الدول كانت عهودا مشرقـة بالايمان والعمل الصالح والتمسك بهدى محمد عليه الصـلاة والسلام ، وذلك باستثناء السبعين سنة التى اشتركت فيهـا

اساطيل الجزيرة فى الاعمال البحرية . وانا حين اطلق هذا الحكم العام على سبعين سنة من تاريخ الجزيرة اجد نفسى ملزما بان اوضح للقارىء الكريم ان هذا الحكم غير دقيق فان السبعين سنة لم تمض كلها فى لاعمال البحرية كما ان الناس الذين يقومون بها ليسوا اهل الجزيرة كلها وانما هم افراد منها والا فان الغالب من السكان لا سيما المتدينين منهم كانوا غير راضين عن تلك الاعمال ويدل على ذلك انه ما تكونت طبقة من العلماء المنظور اليهم حتى استطاعوا ان يوقفوا تلك الاعمال وان يطهروا ارض الجزيرة وايدى ابنائها من اثار الظلم والعدوان ، وان يعودوا بالامة الى سلوك الطريق القويم. عمل خالص لله ومحاسبة للنفس والتزام للحق . مستجيبين لدعوة الله فى كتابه الكريم . « **يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون** » .

هذا العهد الاول من تاريخ جربة فى الاسلام اما العهد الثانى فيبتدىء من سنة ٥٢٩ حين هجم الافرنج على الجزيرة ويمتد الى سنة ٩٦٠ حين دخلت جربة تحت الخلافة العثمانية ، وسوف نعرض بالحديث فى الفصول الاتية عن العهد الثانى من تاريخ جربة لنجلو من ذلك صورا من كفاح الامة المسلمة نضعها بين يدى القارىء الكريم لعله يجد فى ذلك عبرة وموعظة .

عهد الجهاد فى سبيل الله

يسير تاريخ جربة فى هذا العهـد ، فى اتجاهـين مختلفين ، الاتجاه الاول هو مقاومة الاستعمار الصليبى ، ومحاربة القرصنة الافرنجية ، والوقوف فى وجه العدوان الذى تباركه الصليبيـة المتعصبة ، وسلطة الكنيسة الحاقدة ، على الشواطىء الاسلامية، ويبتدىء هذا الاتجاه من سنة ٥٢٩ ويمتد الى سنة ٩٦٠

اما الاتجاه الثانى فهو تبعية الجزيرة لحكم خارج عنها سواء كان تحت رعاية دولة . او تحت نفوذ ولاة يعملون على الاستقلال بالحكم ، ويبتدىء هذا العهد من سنة ٥٥٥ ويمتد الى سنة ٩٦٠

وبينما كان تاريخ جربة فى الاتجاه الاول مشحونا بالاحداث والجهاد المتواصل فى سبيل الله والوطن ، كان تاريخها فى الاتجاه الثانى عبارة عن تحمل وصبر واداء لما يطلب من اموال وضرائب. وسوف احاول فى الفصول الآتية ، ان اضع بين يدى القارىء الكريم صورا عن كل من الاتجاهين مبتدئا بالاتجاه الاول .

كفاح الاستعمار الصليبى

ان جزيرة جربة الصغيرة التى ليس لها مطامع ، والتى ترغب ان تعيش فى هدوء وسلام ، ارغمتها ظروف الحياة الى ان تخرج من عزلتها ، وانتكون اسطولا تهدد به بعض الموانىء ، وتحطم السفن ، وتصارع الاساطيل ، فجاءها امير المهدية على بن يحى وعرض عليها صلحا بحسن الجوار ووقف العدوان والتبـــادل التجارى فرضيت الجزيرة بالصلح فأمنت من العدوان ،واطمأنت الى السلام ، وفيما هى تنام فى احضان الطمأنينة ، فاجأهـــا اسطول بحرى قوى ، لدولة حاقدة على الاسلام والمسلمين • فقد جهز حاكم صقيلية روجار اسطولا ضخما واتجه به الى الجزيرة الوادعة الامنة ، فلم تستيقظ حتى كان الافرنج قد احتلوها ، واصبحوا يجوبون شوارعها ويعيثون فيها فسادا ، تنادى السكان الى الدفاع ، وقاتلوا قتالا عنيفا تكبدوا فيـــه خسائر لا تحصى الا انهم غلبوا على أمرهم واستكانوا على رغمهم ، وخضعوا لحكم النورماند .

جعل النورماند من جزيرة جربـــة مركزا لتموين اساطيلهم ، وامدادها بما تحتاج اليه فى عدوانها من عتاد وسلاح ، كمـــا اتخذوها ملجأ لهم من العواصف البحرية • وانتظر اهل جربة ان

يخف احد لنجدتهم ولكن لم يستبن لهم فى الافق شىء ، فقد كانت الاساطيل الافرنجية تسيطر على البحر الابيض المتوسط، وكانت تهاجم السواحل الاسلامية كل يوم ، وكان حسن الصنهاجى صاحب المهدية مشغولا بالدفاع عن نفسه وعن مركز دولته ، ولما طال بقاء النورماند فى الجزيرة وايقن اهلها انه لا مدد يأتيهم من الخارج ، وان بلادهم اصبحت مركزا للعدوان ، منها تنطلق اساطيل القرصنة ، فكر اهالى جربة فى الثورة ونظموا امرهم ثم تداعوا الى الثورة سنة ٥٤٨ فانتصروا على الحامية التى تركها الافرنج هناك وقتلوا منهم عددا عظيما واخرجوا باقيهم من الجزيرة

وعندما ترامت فلول المنهزمين الى صقلية ، وبلغت تفاصيل الاخبار الى ملكهم غضب غضبا شديدا ، وجهز اعظم اسطول عرفته القرصنة البحرية لذلك الحين ، ثم وجهه الى جربة ،وتلقى اهالى الجزيرة ذلك الاسطول الضخم بنية مستميتة فى الدفاع، وعزم مصمم على النضال، وقعت معركة من تلك المعارك الهائلة التى تتناثر فيها الاشلاء البشرية ، دون حساب او تقدير ، وتغلبت القوة والكثيرة ، وقتل اهل الجزيرة حتى لم يكد يبقى فيهم من يقوى على حمل السلاح ، واخذ كثير من اهلها اسرى فبيعوا فى اسواق ايطاليا وصقلية عبيدا. وخفتت فى الجزيرة تلك الاصوات التى كانت تطن فى اجواف الليل بالدعاء وتلاوة القرآن ، وتملأ المساجد فى النهار بدروس العلم ودروس الوعظ والارشاد وبدت الجزيرة كأنها فى غفوة طويلة لا تبدو عليها حركة او حياة .

بقى الافرنج فى الجزيرة الى سنة ٥٥٥ حين قدم عبد المؤمن بن على فساعد الجزيرة على طرد اولئك المستعمرين الدخلاء كما

طردهم من غيرها من الثغور الاسلامية ، وادخل الجزيرة تحت حكمه . وما خرج الافرنج من الجزيرة حتى بدأت تعاودها الحياة وتدب فى نواحيها الحركة واخذ الناس يباشرون اعمالهم العادية، وكان اولئك الذين فروا يعودون اليها ، وبدأت المنازل تعمر من جديد ، وانبعثت الحركة فى الاسواق .

بقيت جربة تابعة لدولة الموحدين الى سنة ٧٢٥ حين استقل ابو زكرياء الاول الحفصى بالحكم فى تونس فانتقلت جربة الى نظره ، وصارت تابعة للدولة الحفصية يحكمونها بواسطة الولاة.

والحقيقة ان تبعية الجزيرة للموحدين فى الاول او للحفصيين فى الاخر انما هى تبعية اسمية وكل ما يربط بين التابع والمتبوع انما هى مبالغ من المال يأخذها عامل الدولة فى جربة برسم الضرائب ويسلمها للدولة المركزية فى تونس ، ورغم ان اولئك الولاة او العمال يعينون من رئاسة الدولة فى تونس ورغم ان جربة رضيت بهذه التبعية للحكم فى تونس ولم تحاول ان تنفصل عنه رغم كل ذلك فان الحكام فى تونس كان لا يعنيهم من الجزيرة الا مبالغ المال تدفع لهم من حين الى حين ، وكثيرا ما كان الولاة يستضعفون الحكومة المركزية فيستبدون بالامر ، ويختصون بالحكم ويحتفظون بالاموال لانفسهم . اما الدفاع عن الجزيرة وحمايتها من عدوان القرصنة الافرنجية فذلك ما لم تهتم به تلك الدول المتعاقبة على حكم البلاد ، اللهم الا مرات قلائل سوف يجد القارىء الكريم احصاءها فى بعض الفصول الاتية .وبقيت جربة من سنة الاخماس ٥٥٥ التى خرج فيها النصارى من جربة على يد عبد المؤمن بن على ومساعدته للسكان الى سنة ٦٨٨ حيث احتلها الافرنج من جديد احتلالا كاملا واستقروا فيها لمدة طويلة امتدت الى نصف قرن .

عندما خرج الافرنج من السواحل التونسية سنة ٥٥٥ لم يقفوا عن العدوان وانما كانوا يصرون على احتلالها من جديد ولذلك فقد كانت اساطيلهم لا تنفك عن مهاجمة هذه السواحل كلما امكنتهم الفرصة . وبقيت جربة من سنة ٥٥٥ الى سنة ٦٨٨ اى مدة قرن وثلث وهى تصارع الاساطيل الافرنجية منفردة رغم انها كانت تدفع الضرائب الباهظة والمبالغ الجمة من المال الى اولئك الولاة الذين يتمرغون فى النعيم بما يبتزونه من اموال الناس ، ويخلعون على انفسهم اعظم القاب الحكم والنفوذ .وطال على الجزيرة الصغيرة امد الكفاح ، واكلت الحرب رجالها ، وكان ابطالها المغاوير يتناقصون فى كل موقعة ، وكان الجهاد المتواصل فى سبيل الله يستنفذ ما لديهم من قوة بشرية وقوة مادية .

واستمرت الجزيرة على طريقتها فى دفاع العدو يهاجمونها فتردهم على اعقابهم وقد يتغلبون عليها مؤقتا فيدخلون الجزيرة ولكنها سرعان ما تثور بهم . فتقذف بهم وراء البحر . وفى سنة ٦٨٨ جهز الافرنج اساطيل ضخمة وعملوا على احتلال الجزيرة احتلالا ثابتا يستقرون فيه وهجموا عليها بتلك القوى ، وكان ابطال الدفاع عن الجزيرة قد اكلتهم الحرب فتغلب الافرنج عليها وجعلوا برج القشتيل مركزا لهم ، وبقيت الجزيرة تحت حكمهم الى سنة ٧٣٨ اى انها بقيت تحت الاستعمار الصليبى نصف قرن كامل واولئك الذين يعتبرونها ضمن مملكتهم وكم اخذوا منها من اموال لم يحركوا ساكنا لنجدتها واخراجها من ايدى اعداء الله والوطن .

وفى هذه السنة استيقظت الدولة الحفصية من سباتها ،وذكرت ان عدوها يجثم على صدر قطعة كريمة عزيزة من ترابها ،ووجدت فى نفسها فرصة مؤاتية للعمل والتحرك فجهزت جيشا كبيرا فى

اسطول ضخم ، بامر الملك الحفصى ابى بكر الثانى واسند قيادة هذا الجيش الى مخلوف بن كماد فقصد الاسطول الجزيرة، وحاصر القشتيل مدة غير طويلة فلان له اذ كانت الحامية الافرنجية هناك تقع بين نارين نار الاسطول المهاجم ، ونار السكان الثائرين . وخرج الافرنج من الجزيرة ، وطهرت من الاستعمار ، ورجعت الى حكم الولاة الذين استقلوا بها عن مركز الدولة ، وكانوا يثقلون عليها بالضرائب ، ويكثرون من جمع الاموال، الا ان اهل الجزيرة كانوا راضين عن هذا الظلم ، صابرين له ، فان دفع الاموال لاخوة فى الدين اهون من البقاء تحت نير الاستعمار البغيض .

بقيت جربة من سنة ٧٣٨ الى سنة ٨٣٥ اى ما يقرب من قرن تحت حكم ولاة تابعين فى الاسم للدولة فى تونس وقد يستبدون بالحكم فيها او فى بعض البلاد المجاورة لها كما فعل ابن مكى وابن ابى العيون وغيرهم وفى كلتا الحالتين حالة التبعية او حالة الاستبداد كانت جربة تعيش فى قلق دائم بسبب ما تعانيه من ظلم وعدوان ، غير اننا لم نحاول فى هذه الفترة الطويلة ان ننفصل عن حكم الولاة واستمرت بها هذه الحالة الى سنة ٨٣٥ حيث بدأت تسطر صفحات من المجد قل ان تسطرها امة فى تاريخ الكفاح .

برج الجماجم

كان ابو فارس عبد العزيز بن احمد الحفصى الذى تولى الحكم سنة ٧٩٦ وتوفى سنة ٨٣٨ من احزم ملوك الدولة الحفصية ومن اكثرهم يقظة وعناية باطراف مملكته وفى سنة ٨٣٥وقعت احداث بالجريد استدعت الاهتمام بها ، فسار الى تلك البلادبجمع كبير من جنده .

وترامى الى سمع الافرنج انشغال الملك الحفصى ببلادالجريد، بعيدا عن السواحل التونسية ، وكانت فكـــرة الاستيلاء على السواحل ، واتخاذها مراكز للقرصنة ، ما تزال تشغل اذهان الافرنج ، من مدة طويلة ، وقد قاموا من اجل ذلك بعدةمحاولات كما اسلفنا فى هذا الكتاب ، وكان نصيبهم فى تلك المحاولات ، اما فشل ذريع ، وانما نجاح مؤقت لايلبث ان يؤل الى الاخفاق، وفى هذه الفترة ــ وقد تكونت لديهم اساطيل ضخمة ، وعدد هائل من المحاربين المدربين على القتال فى البر والبحر ، وكانت القوة الحربية للملكة التونسية مشغولة فى الدواخل ــ خطر لهم ان الاستيلاء على موقع استراتيجى فى السواحـــل الاسلامية ، يجعل البحر الابيض المتوسط تحت سيطرتهم ، وكان اصلح مكان لهذا التركز ، **وايسره فى نظرهم ، هو جزيرة جربة** ، هـــذه

الجزيرة الصغيرة المحصورة ، التى لا يمكن ان يأتيها المدد الا عن طريق البحر ، والبحر سوف يكون تحت سيطرتهم ورقابتهم ، ولا يوجد من يرسل اليهم نجدة سوى ملك الحضره ابى فارس، وابو فارس مشغول هو وجيشه فى بلاد الجريد ، وهكذا ضمنوا النجاح فيمـا بدا لهم ، فجهزوا اسطولهم القوى واندفعوا فـى البحر ينشدون اناشيد النصر المرتقب ، وهم يتجهون الى الجزيرة الصغيرة الرابضة فى البحر .

اجتمع المشائخ فى الجزيرة فى اسرع وقت ، وطرحوا الموضوع للنقاش ، ما هو الموقف الحكيم الذى يجب ان تقفه هذه الجزيرة الصغيرة الضعيفة المعزولة عن العالم ؟ أمام هذا الاسطول القوى ، المجهز باحدث انواع الاسلحة ، قال قائل ربما يكون الاستسلام اهون الشرين ، فارتفعت اصوات الانكار على صاحب هذا الرأى واجيب بان موتهم جميعا وخراب الجزيرة اهـون واكرم من الاستسلام لاولئك القراصنة ، وبعد استعراض اوجه الموقف الذى هم فيه ، وتبادل الاراء ، اتفقوا عـلى اتخاذ الخطوتـين الآتيتين .

الاولى : ان ينتظرو نزول الجيش المحارب الى الارض وعندئـذ يهبون بكل ما لديهم من وسائل الى الدفاع عن دينهم وشرفهـم ووطنهم ، وان لا يمكنوا العدو ـ مهما كانت الخسائر ومهمـا كان عدد القتلى ـ من التقدم ، فان الجيش المحارب اذا تمكن من التقدم والوصول الى الاحياء السكنية التى يعمرها الضعاف من النساء والاطفال والعجزة ، جرأهم ذلك على المزيد من التقدم ، وتمكنوا من الاثخان فى القتلى ، وسهل عليهم العدوان بمختلف اشكاله على اولئك الضعاف ، كما ان العملية الحربية اذا بلغت الى هذا الحد فانها تعنى انتصار الفريق المتقدم لا محالة ، وبعث

ذلك ، الفشل فى عزائم المناضلين ، فانهم اذا رأوا اسلحة العدو تقع على النساء والاطفال ، ورأوا العلوج يتوغلون فى المدينة فانهم يحاولون ان ينقذوا ما يمكن انقاذه اما بالفرار او بالتسليم، وهذا يعنى الهزيمة .

الثانية : ان يرسلوا باسرع ما يمكن ، رسولا يحمل الخبر الى ابى فارس فى بلاد الجريد ، ويطلب منه الاسراع بالنجدة ما امكن . ونفذت الفكرتان فى الحال . فانطلق رسولهم الى الجريد يستصرخ ابا فارس ، وانطلق المشائخ يجمعون الناس ، ويحثونهم على الجهاد فى سبيل الله ، ويتقدمونهم فى ذلك ، وما سمع الناس ، بخبر هجوم العدو ، ودعوة المشائخ الى لقائه ، حتى انطلقوا الى ميدان المعركة ، بكل ما لديهم من قوة ، قوة الايمان والثقة بنصر الله .

ووقع اللقاء ، وصبر الابطال للجلاد ، وبذل العدو ما يملك من جهد ليتقدم خطوة فلم يستطع ، ولكن أملا كان يداعب غروره، فهو يعتقد انه سوف يمتد به البقاء فى الجزيرة ، وانه سيطيل الحصار لها ، وانه سيحاربهم حرب مطاولة ، ما دام يسد عليهم ثغور الجزيرة ، وليس من نجدة تأتيهم من الخارج . واستمرت النيران مشتعلة بين الفريقين ، وكان القتلى يتساقطون من جيش العدو فى تتابع واستمرار فان الضربة حينما يوجهها المسلم الى جيش العدو المتكاثف المرصوص ، لا بد ان تهوى بقتيل ، اما الطلقات الافرنجية التى يطلقها العدو باسراف دون هدف ،فانها كانت لا تزيد عن احداث مزيد من الضجيج ، واثارة غبار يتصاعد الى عنان السماء .

وثبت المسلمون فى وجه العدو ، وكانت كفتهم هى الراجحة طول الوقت ، رغم ما يتمتع به العدو من القوة والكثرة . واحتفظ

المسلمون بمراكزهم ولم يحاولوا التقدم ، وبينما كان القتال على اشد ما يكون ، وكان القتلى من العدو يتهاوون ، وصلت النجدة الى اهالى الجزيرة ، فى وقت لم يكونوا يتوقعون وصولها ، ولم يكن العدو يتوقعها .

ان الملك الحازم ابا فارس ما سمع ان العدو هجم فعلا على الجزيرة ، وانه ينوى احتلالها ، حتى تخلى عن جميع الشئون التى ذهب من اجلها الى الجريد ، وطار بجيشه الى جربة ، ولما كان يعرف ان الدخول بالسفن والقوارب عن طريق البحر أمر مستحيل فى ذلك الحين ، فقد دخل هو وجيشه خوضا فى البحر عن طريق (تاربلة) . ولم يعلم المسلمون حتى وصلهم المدد ووجدوا سواعد اخوانهم تمتد لاعانتهم وتساعدهم، وما رأى العدو المدد يصل الى المسلمين ، وتتقوى صفوفهم به ، ويدخل الى الميدان محاربون جدد ، جد مشتاقين الى شرف الشهادة او شرف النصر ، حتى وقع فى قلوبهم الرعب ، وانكفأوا على اعقابهم منهزمين ، فركب المسلمون ظهورهم ، يقتلون فريقا ، ويأسرون فريقا ، ويغنمون ما يقع تحت ايديهم من سلاح ومال ، وقد رأى قادة الحرب فى تلك الموقعة ان يثخنوا فى القتل ، حتى يكون ذلك موعظة للمعتدين ، فلا تحدثهم انفسهم بالعودة . ثم اجتمع اهل الجزيرة وجند ابى فارس ، فجمعوا رؤس القتلى ، وبنوا بها برجا عظيما، سموه برج الجماجم حتى يبقى ذكرى لهذه الموقعة الرائعة، ولقد بقى هذا البرج من سنة ٨٣٥ الى سنة ١٢٦٤ حيث نقلت الجماجم ودفنت ، وبنى فى مكانها نصب تذكارى سمى برج الجماجم عليه رخامة نقش عليها تاريخ الموقعة وتاريخ دفن الجماجم .

كانت هذه الحادثة ، احدى الحوادث الخالدة لاهالى جزيرة جربة الابطال ، على اهداء الله والدين والوطن .

كان الجربيون اشد الناس محبة للسلام ، وحرصا عليه ، فلما اضطرتهم الظروف الى الوقوف فى ميادين القتال ، اثبتوا انهم اشد الناس صبرا على المكروه ، واقواهم احتمالا ، واعرفهم بالتفكير المقترن فى الحوادث السود ، واشجعهم فى اوقات المحنة. لقد عرفوا كيف يستلون النصر ، ويؤدبون المعتدين ، ويبرهنون للعالم اجمع ، شرقية وغربية ، انهم امة تحب السلام ما وجدت اليه سبيلا ، فاذا شمرت للحرب فانها امة لا تعرف التردد ، ولا ترهب النضال ، انه لا شىء يبعث الخوف الى نفسها . وفى هذه الحادثة برهان صادق على ما نقول ، وسوف تأتى شواهد كثيرة على ذلك .

لقد يخطر لبعض القراء الكرام ان اهالى جربة ما انتصروا فى هذه الموقعة الا بفضل نجدة ابى فارس ، فالفضل فى هذا الانتصار الرائع راجع اليه ، ونحن لا ننكر فضل هذا الملك الحازم لا فى هذه الموقعة ولا فى غيرها من المواقع التى كان له فيها يد فى اى مكان . ولا شك ان ابا فارس يعتبر من خيرة من ولى الحكم فى البلاد التونسية ، ومن اكثرهم حزما ونشاطا ، وغيرة وحفاظا . كما لا ننكر فضل أى ملك أو أمير قدم للامة او للوطن أية خدمة فى اى جانب من البلاد الاسلامية الشاسعة ، ولكننا فيما يرجع الى هذه الموقعة بالذات التى تم فيها النصر للجربيين على الافرنج بمساعدة ابى فارس ، نرى ان اكبر الفضل اولا واخيرا انما يرجع الى اهل الجزيرة ، الى اولئك الابطال ، الذين كان لهم من قوة الايمان والصبر ، ومضاء العزيمة وصدق الارادة ، ما جعلهم يصممون على الوقوف فى وجه عدو لا نسبة بين ما اعده لمحاربتهم من وعدة وعتاد وبين ما لديهم من عدة كليلة ، واعداد قليلة ، ثم يقفون فعلا فى وجهه كالسد المنيع رغم انه تمكن من

حصرهم فى الجزيرة ، وسد عليهم منافذ الرزق والحياة ، وحال دونهم ودون الاتصال بالعالم الخارجى فيما يحسب، ولولاايمانهم بالله ، وثقتهم فى نصره ، وما يتحلون به من شجاعة وثبات ورباطة جأش ، لما وقفوا هذا الموقف المشرف . فجابهوا العدو وردوه على اعقابه ، ولما سجلوا هذا اليوم الاسلامى العظيم على اعداء الله .

يوم من ايام الاسلام على الصليبية

مرت على الانسانية فى البحر الابيض المتوسط ، عهود نستطيع ان نسميها عهود القرصنة ، انها عهود مخجلة تحمل الخزى والعار فى احداثها ، ولكن المؤرخ وهو يستعرض الحياة البشرية ، لا بد ان يمر بها .

لقد تكونت اساطيل ضخمة ، تجهزها دول كبرى ، وتباركها كنائس تنتسب الى المسيحية السمحة ، وليس الغرض من تلك الاساطيل حماية الممالك ولا الدفاع عنها ، ولا حتى اثبات النفوذ واقرارالحكم ، وانما الغرض منها اولا ، السرقة والغصب واختطاف الناس ، وبيعهم فى الاسواق عبيدا . ثم بعد ذلك ، الانتقام او التشفى او تبريد حرارة الحقد الذى تشبعت به بعض النفوس فى جنوب اوربا لا سيما اسبانيا . فهى تحتل الثغور، وتمتلك الموانى ، لتجعل منها مراكز اعتداء ، تهاجم منها البلاد والسفن البحرية ، حتى السفن التجارية وقوارب الصيدالصغيرة، وكم ينتفخ قادة تلك الاساطيل كبرا واعجابا بالنفس عندما يتغلبون على ما يقع بين ايديهم من سفن تجارية او حربية فيأخذون ما فيها من اموال وبضائع ، ويسبون من بها من الناس فيتخذونهم عبيدا ، يجدفون لهم فى سفنهم تحت السياط

والعذاب، او يبيعونهم فى الاسواق ليقبضوا ثمنهم ذهبا وفضة، ونشطت القرصنة الصليبية فى القرون الوسطى ، تباركها بعض الكنائس المتعصبة ، وتساعدها الدول الصليبية الحاقدة حتى كادت تلك القرصنة ان تتحكم فى البحر الابيض المتوسط ، وحتى اصبحت التجارة البحرية تحت رحمة تلك الاساطيل التى لا تنفك تمخر عباب البحر باستمرار .

استطاعت القرصنة فى اوائل القرن العاشر ان تتحكم فى البحر الابيض المتوسط تحكما كاملا ، فقد كانت الاساطيل الاسبانية تنطلق من شواطىء اوربا مجهزة بكل وسائل القتال، لتقتنص ما تجده فى البحر من سفن اسلامية ، او لتهاجم ثغور المغرب الاسلامى ، لتختلس منها ما يسهل اختلاسه ، او تقيم فيها مراكز للعدوان ، وتأيدت هذه الحركة بفرسان القديس يوحنا، الذين تؤيدهم الكنيسة وتبارك اعمالهم ، والذين سمح لهم بان يتخذوا من (مالطة) الجزيرة البحرية القريبة من الشواطىء الاسلامية ، مركز انطلاق وعدوان .

هاجمت اساطيل القرصنة الافرنجية متعاونة موانىء المغرب الاسلامى ، فاحتلتها ميناء بعد ميناء . بدأوها من المغرب الاقصى، وساروا معها حتى احتلوا طرابلس سنة ٩١٦ ولم يبق من موانىء المغرب الاسلامى بعد احتلال طرابلس ، الا جزيرة جربة ، وقد تركوها من قبل ، واهتموا بغيرها لانهم كانوا يظنونها لقمة سائغة سهلة الازدراد ، فهى جزيرة صغيرة منكمشة فى البحر ، لا قوة لها ، ولا مدد يأتيها ، ان احتلالها لا يتجاوز بضع ساعات .

انفلت القرصان الكبير (بدرو نافارو) باسطول يتكون من اثنى عشرة سفينة الى جزيرة جربة . وفى اليوم التاسع والعشرين

من ربيع الاول سنة ٩١٦ من الهجرة النبوية وقف اسطول عتيد على مداخل جربة ، ونزل منه زورق صغير يحمل رسالة الى شيخ الجزيرة ابى زكرياء يحى السمومنى .

وقف الرسول امام الشيخ فى اعتداد السارق الوقح ، وطلب من الشيخ باسم قائد الاسطول أحد أمرين : اما تسليم الجزيرة، واما القتال ، فاجاب الشيخ بان الجزيرة لن تسلم نفسها ، وان عليه ان يخبر قائده بان الجزيرة مستعدة للدفاع عن دينها ، وكرامتها وارضها ، وانهم لن يسمحوا لقدم ان تطأ ترابهم الا اذا اصبحوا جثثا هامدة .

وعرف الرسول التصميم فى عزيمة الشيخ ورأى الاصرار والتحدى على الحاضرين فرجع الى « بدرو نافارو » ينقل اليه ما سمع وما رأى . وفكر القرصان الكبير طويلا فى الموضوع ، ايقدم على الحرب . أم يعود ادراجه ليزيد فى قوته ما يضمن له النصر ؟ وكان الغيظ والحنق يأكلان قلبه، ويحملانه على الاقدام، ولكن صوت العقل والحكمة قد تغلب عليه فيما زعم وعزم . فجر اسطوله دون ان يعرضه لهذه التجربة ، ورجع الى طرابلس يجر اذيال الخيبة وصمم ان يضم اليه من القوة ما يكفل له تحطيم هذه الجزيرة العتيدة تحطيما لا تقوم لها من بعده قائمة .

عد كثير من المؤرخين هذا الموقف نصرا للجزيرة وهزيمة للمعتدين ، فان الاسطول انما جاء للجزيرة لاحتلالها ، لا للاستطلاع ، ولكن الموقف الصامد الذى وقفه شيخ الجزيرة ، والتصميم الاكيد على الدفاع ، ووضوح الاصرار على المقاومة الذى كان يتجلى على اقوال وحركات الجربيين — هى الاسباب التى ملأت قلب القرصان الكبير خوفا ورعبا فاقلع راجعا ، انها

بالتأكيد هزيمة له فاذا لم تكن هزيمة مادية فهى هزيمة معنوية.

وصل اسطول « بدرو نافارو » الى طرابلس ، والتحقت به بقية القطع البحرية ، والاساطيل الافرنجية ، التى كانت تجوب البحر الابيض المتوسط فتكون منها اسطول ضخم قوامه مائة وعشرون سفينة تحمل عشرين الفا من المقاتلين المدربين على القتال . واقلع الاسطول متجها الى جربة ، فبلغها يوم الخميس ٢٣ جمادى الاولى وفى صبيحة الجمعة نزلت الجيوش الجرارة من سفنها ، وزحفت على ساحل الجزيرة كما تزحف ارجال الجراد .

عشرون الفا كما تذكر المصادر الاسلامية او خمسة عشر الفا كما يزعم مؤرخوا الافرنج من المقاتلين المدججين بانواع السلاح، المعدين للحرب ، المزودين بأحدث ما ابتكره الانسان من وسائل التدمير لذلك العصر ، يهجمون على جزيرة صغيرة محصورة ضيقة، ليس لها مدد الا من الله لا يبلغ عدد سكانها من الرجال والنساء والاطفال ثلاثين الفا .

ما هو عدد المحاربين الذين تستطيع هذه الجزيرة ان تعده للدفاع؟ لقد حاول مؤرخو الافرنج فى تلك الفترة ان يرتفعوا بعدد الجربيين المحاربين الى اقصى ما يمكن ان يقبله العقل فقالوا ان الجربيين قد اعدوا لهذه المعركة ثلاثة الاف مقاتل ، فما هى النتيجة التى يتوقعها القارىء الكريم لمعركة بين عشرين الفا من الجنود المدربين المسلحين وبين ثلاثة الاف محارب كثير منهم لم يحملوا السلام من قبل وفيهم نسبة كبرى من شيوخ عجزة وصبيان مراهقين ، حملهم الحماس والغيرة على الاقدام .

نظم المسلمون محاربيهم فى صف واحد مستقيم ، يمتد الى

اليمين والى اليسار وتقدموا لمقابلة العدو وهم عازمون على الصبر والثبات. الى النصر الكامل او الاستشهاد الكامل، وقال احد الذين يدعون الى الاستماتة فى الدفاع ، انه يجب ان لا تطيش ضرباتنا اذ يجب ان نقتل من العدو اكثر ما يمكن ، فلا اقل ان يقتل كل رجل من المسلمين رجلا من المشركين، اما الشيء الذى لا يحل لنا حتى مجرد تذكره او التفكير فيه ، انما هو التسليم او الفرار من الزحف . انه لو بقى منا فرد واحد ، لوجب عليه ان يثبت فى القتال وان يحارب حتى يقتل . انه لا يجوز لاحد من المسلمين ان يفر فى هذه المعركة . فاذا قدر لنا ان ننتصر فذلك ما نأمله ونرجوه ، واذا قدر لنا ان نخسر المعركة فلا اقل من ان نكبد العدو خسارة تزيد عن عددنا .

اعتمد الافرنج اول ما اعتمدوا على الجانب المادى من القوى ، وعلى اظهار العدة ، فاكثروا قبل بدء المعركة من الضوضاء والصخب ، واطلاق البنادق والمدافع ، وانشاد الاناشيدالحربية بالالات الموسيقية الصاخبة ، الى آخر ما لديهم من وسائل التهويش .

اما المسلمون فليس لديهم من القوة الا قوة الايمان ، والرغبة الملحة فى الحصول على شرف الاستشهاد فى سبيل الله ، ولذلك فقد اعتمدوا على القوة الروحية ، التى تدفع جوارحهم الى العمل، فكانت جوارحهم تنطلق بالتكبير ، وكانت ارجلهم تتسابق الى الميدان دون استعراض لحركات الرشاقة ، وموازنة الخطا التى تفصل بين الفريقين فى مراكز الاعجاب بالنفس ، وكانت المسافة التى تفصل بين الفريقين فى مراكز التجمع الاولى تقدر بستة أميال، وكان المسلمون لا ينفكون يرسلون من يستطلع لهم احوال العدو وتحركاته ، فلما ورد اليهم الخبر ان العدو يهم بالزحف اليهم

والهجوم عليهم ، اندفعوا الى لقائه ، والاصطدام به ، وكان الافرنج قد رتبوا جنودهم في صفوف متراصة ، صفا وراء صف ، حتى اذا هلك الاول او انهزم تقدم الذى يليه، وتراجع الصف الاول الذى كان في المقدمة الى المؤخرة ، حتى يكون على استعداد للنجدة والتقدم اذا لزم الامر ، وهى مبالغة فى الاحتياط حسب تقدير اولئك القواد .

واصطدم الفريقان الاصطدام الاول ، فوقعت رجة عند المسلمين صبروا لها وثبتوا واستماتوا فى النضال ، حتى لانت بين ايديهم الايدى المقاتلة من الصف الاول من عدوهم فانهزم وتقهقر ، وتقدم الصف الذى يليه لمعاضدته ، وسد الخلل الذى وقع فيه، ووقعت من تقدمه رجة اخرى عنيفة عند المسلمين ثبتوا لها وصبروا . وكان البطل ابو الربيع سليمان بن يحى السمومنى يقاتل بما اوتى من همة وشجاعة فى جناح الجيش ، وفي نفس الوقت كان يلاحظ بعيني المحارب اليقظ تحركات العدو وموقف المسلمين منها فلما رأى تلك الصفوف المتراصة التى يعضد بعضها بعضا ، فى الحين الذى لا يقابلها من جانب المسلمين الى صف واحد من الرجال، اذا قتل واحد منهم ترك فى مكانه ثغرة لاتسد، وخشي اذا بقيت جيوش العدو على هذا التنظيم ان تستطيع زحزحة الصف الاسلامى الوحيد ، او ان يحدث ثغرة فى بعض جهاته ، واذا وقع ذلك ، وليس له ما يعضده من خلفه فهنالك الكارثة ، ولذلك فقد عرف ان النصر لا يكون الا باحداث ارتباك فى صفوف العدو وخطرت له فكرة !.. فنفذها فى الحال ، لقد انسل من بين المقاتلين ، واختار معه عددا من الفرسان الشجعان ثم انعطف بهم الى جانب ، ودخل بهم وراء صفوف العدو بين الجيوش المقاتلة والاسطول الجاثم فى البحر، وكان جند الافرنج وقادتهم يعتقدون

انهم آمنون من الخلف فليس بينهم وبين سفنهم اى خطر .وتراجع المحاربون الذين كانوا فى الصف الاول على مهل ، ليكونوا وراء الجيوش المقاتلة حسب تنظيمهم ، ليكونوا الصف الاخير وليأخذوا قسطا من الراحة بعد العناء الذى لاقوه فى الاندفاعة الاولى ، ويستعدوا اذا ما وصلهم الدور الثانى لو تمكن المسلمون من دحر بقية الصفوف ، وهو ما لا يتوقعون حدوثه ابدا ، فيما كانوا يعتقدون ان المسلمين يصبرون لهم ساعة . وما وصلوا مؤخرة الجند ، ليريحوا سواعدهم المكدودة ـ فقد انهك الخوف قواهم ، وشل الرعب اعصابهم ـ حتى واجهتهم فرسان المسلمين التى يقودها ابو الربيع ، تدفع فى نحورهم بالموت الزؤام ، وذعروا فقد كانوا يعتقدون انهم فروا من الموت ، ونجوا من ايدى اولئك المسلمين الذين ينطلق الموت من ايديهم دون سلاح ، فاذا بهم يفاجأون من جديد ، وفركوا اعينهم من الدهشة ، يتأكدون من الحقيقة ، فلما ايقنوا بها ، ظنوا انهم أخذوا ، وان المسلمين قد احاطوا بهم احاطة السوار بالمعصم ، فها هم يلاقونهم اذا تقدموا ، وها هم يلاقونهم اذا تأخروا ، انهم اين اتجهوا لم يروا الا اشباح الموت تنطلق من صفوف المسلمين ، وحاصوا حيصة الحمر ، يفاجئها سبع صيود، وارتبكوا فيما بينهم ، بعضهم يريد ان يتقدم ، وبعضهم يريد ان يتأخر ، وبعضهم يجرى الى اليمين وبعضهم يجرى الى اليسار ، وسرى هذا الارتباك الى صفوف المقاتلين وعم جميع طوابير الجيش ، فوقعت هذه الحركة بين صفوف الجند الذين لم يروا وجه العدو بعد . فامتلأوا خوفا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، وحسبوا انهم وقعوا من المسلمين بين نارين ، نار تترصدهم من الامام ، ونار تسوقهم من الخلف ، فبلغ بهم الوهن اقصاه ، والقوا بالسلاح ، وجعلوا يلتمسون

السبل للفرار. انه ليس بين ايديهم الا الموت او الفرار ، ولم تعد تجدى فيهم ، اوامر القادة او انذاراتهم ، فولوا معرضين ،والواحد منهم يقتل رفيقه ان اعترض سبيله او عاقه عن المسير ، وركب المسلمون ظهورهم يقتلونهم وهم يسيرون على غير هدى ، حتى تراموا فى البحر ، وحال بينهم ظلام الليل . وعندما ارتفعت عنهم ايدى المؤمنين ، كان الخوف والتعب قد بلغا منهم اشد ما يبلغ الخوف بقلب الجبان ، والتعب بجسم العليل ، فتهاووا على الارض يريحون بقية الاجسام المكدورة ، والقلوب المخلوعة . ورقدوا على ساحل البحر لانهم لم يهتدوا الى مواقع السفن، فقد ربط الرعب أيديهم وأرجلهم ، وأعمى أبصارهم ، فلم يستطيعوا ان يتبينوا مواقعها ليلتجؤا اليها ، وبينما هم يغطون فى نوم عميق ، صورت الاحلام المزعجة ، لاحدهم، ان المسلمين يأخذون بخناقهم ويهجمون عليهم فى الظلام الدامس ، فى موقعهم ذلك ، فاستيقظ مرعوبا واخذ يصيح ويطلب النجدة . فاستيقظ القوم على صياحه وهم اشباه السكارى من ثقل النوم والتعب والخوف، فجعلوا يتجارون فى الظلام الحالك على غير هدى ، لا يعرفون اتجاههم ، ولا يرون مواقع اقدامهم ، وكانوا يتراموا فى البحر طمعا فى ان يصلوا الى سفنهم ، او ان يحميهم الماء من سيوف المسلمين فيما يحسبون ، وكان البحر يبتلع فى هدوء وسكينة حتى لم يبق منهم الا القليل ، وعند الصباح كانت الامواج تتلاعب بجثث منتفخة وانواع من الملابس المختلفة .

وتجمعت فلول الجيش الغازى فى بقايا السفن يلتمسون البعد عن هذه الجزيرة التى لقنتهم درسا لا يمكن ان ينسى ، والحقت بهم فضيحة وعارا فى العالمين الشرقى والغربى ، ولكن ارادة الله كانت لا تزال تخبىء لهم مفاجآت مما اعده الله للتنكيل بالمعتدين، فقد هبت عواصف شديدة منعت الاسطول من التحرك ، واغرقت

عددا منها ، وبعد اسبوع هدأت العاصفة فاقلع الاسطول يجر اذيال الخيبة ، تاركا من ورائه ثلاثة آلاف قتيل ، وثمانى عشرة سفينة ، وعددا كبيرا من الاسرى هو بطبيعة الحال اكثر من عدد القتلى ، وقد قدره بعض المؤرخين بما يتراوح بين ستة وسبعة الاف شخص ، فيهم عدد كبير من الاسرى الذين غنمتهم الاساطيل الافرنجية فى بعض المواقع السابقة فحملتهم معها ليجدفوا لها على السفن ، او ليباعوا فى الاسواق ، فوجد أولئك الاسرى فرصتهم المناسبة فكانوا يفرون من السفن الافرنجية فى الليل ويلتحقون بالمسلمين ناقلين اليهم أخبار عدوهم وما هو فيه من الحسرة والغيظ والالم .

هذه خلاصة الحادثة ، ولعله يكون من المناسب ان انقل فى آخر هذا الفصل شواهد مما كتبه المؤرخون المسلمون :

يقول ابو عبدالله محمد ابو راس الجربى :

« ورجع عليهم المسلمون ، وحملوا عليهم من كل جهة وجانب حملة رجل واحد ، واعلنوا كلمة التوحيد، ووضعوا فيهم السيف، فلم يبق منهم الا القليل ، فاسروهم ، ولم يرجع منهم احد الى سفنهم . وبتقدير الحكيم العزيز ارسل الله على سفنهم ريحا عقيما ، فتكسرت من سفنهم ثمانى عشرة سفينة على الساحل بما فيها من الاموال والكفار . فغنم المسلمون غنيمة لم يروا مثلها ، واستشهد من المسلمين مع هذا النصر الغريب ، والظفر العجيب نيف وعشرون رجلا وهلك من الكفار ما يقرب من عشرة الاف(١) ورجعت بقية مراكبهم خائبة الى طرابلس ليلة الخميس اخر ليلة من جمادى الاولى سنة ست عشرة وتسعمائه فكانت مدة اقامتهم على جربة سبعة ايام والحمد لله رب العالمين . »

وجاء فى الوثيقة التاريخية التى طبعها الاستاذ محمد المرزوقى

(١) بين القتلى والاسرى

فى ملاحق كتاب (مؤنس الاحبة) وصف مسهب لهذه الحادثة ، سوف انقل منه بعض الشواهد والوثيقة لم يتمكن الاستاذ المرزوقى من معرفة صاحبها ، وليس لدى الان ما يثبت نسبتها الى شخص معين ، وان كنت ارجح انها للشيخ سلامة بن يوسف الجناونى . فان اسلوب الرسالة قريب من اسلوبه ، فى بعض ما وجدت له من آثار ، بل ان بعض العبارات وجدتها بنصها فى بعض تعاليقه ، واذا اضيف الى ذلك ، انه تلميذ ابى النجاة يونس، وانه قد يكون شاهد عيان للمعركة، وانه كان لايفتأ ينتقل بين الجزيرة والجبل ، ويكاتب هؤلاء وهؤلاء ، وانه كان يعنى بالاحداث التاريخية خاصة ولا سيما ما يتعلق بشيخه ابى النجاة . اذا استعضرنا هذا كله فاننا نرجح ان يكون هو صاحب الرسالة كتبها من جربة بعد الحوادث السابقة وبعث بها الى مشائخ جبل نفوسة .

والى القارىء الكريم شواهد من هذه الوثيقة التى لا شك ان كاتبها كان معاصرا وربما مشاهدا للاحداث .

« ومن فضل الله ومنه ان سلط عليهم ريحا حبستهم فى الوادى ولم يجدوا الى الخروج منه سبيلا،حتى فقدوا من سفنهم نحوا من ثماني عشرة سفينة فيما قيل بين كبارها وصغارها وفى كل ذلك تهرب الاسرى من عندهم كل ليلة ويأتون باخبارهم الى المسلمين . » ويقول بعد كلام . « ومن بركة المذهب ، ودليل اجابة دعوة من تقدم ما سلط الله عليهم من الريح فى غير اوانها ، اذ كان ذلك فى اوائل « اشتنبر » من الشهور العجمية ، وايضا كان الوادى المذكور ملجأ للسفن اذا هاج البحر فمهما دخلته لم تبال بهيجانه ، وقد سمعتم ما فعل الله بسفن هؤلاء الكفرة وهى فيه . »

ويذيل هذا الوصف الرائع بالدعوة الحارة الى الاستمساك بدين الله فيقول: «وما ذلك والحمدلله الا بما ذكرت لكم،وعليكم ايها الاخوان بالتمسك بالمذهب جهدكم ، فانكم فى حفظ الله وامانه ما تمسكتم به، وعليكم بعمارة مساجدكم بالاذان والصلاة جماعة ، وتعليم الصبيان وقراءة القرآن وغير ذلك من وجوه عمارتها ، وعليكم بالدعاء فى مظان الاجابة ، والتضرع الى الله ، والاتجاه اليه فى كشف الضر عنكم وعن جميع المسلمين وعليكم بالتوبة والاستغفار . » ويختتم رسالته القيمة بآيات بينات من كتاب **الله عز وجل** .

أصداء هذه الحادثة

لا شك ان هذه الموقعة، كان لها صدى كبير، فى جميع الاوساط، سواء فى ذلك اوساط الامة الاسلامية ، او اوساط الدول الافرنجية ، التى كانت تفخر بأعمال هذه الاساطيل ، وتشجعها على السيطرة على البحر الابيض المتوسط، وتبارك جميع الخطوات التى يتخذها ، ولقد اهتم بها المؤرخون فى ذلك الحين وفيما بعد ايما اهتمام • ولقد قرأت ما وصلت اليه يدى مما كتب عن هذه الاحداث فوجدت انها متفقة على الاسباب والنتائج والتفاصيل وليس بينها الا اختلاف يسير من حيث الارقام والتصوير والتبرير . وهذا الاختلاف فى عدد القتلى مثلا أو فى تبرير الهزيمة او تصوير الوقائع امر طبيعى ، فان احصاء القتلى غالبا فى المعارك الكبرى يكون عن طريق التقدير اما تبرير الهزيمة أو تصوير الواقعة فهو يعود الى الناحية النفسية للمؤرخ وميوله . ومع ذلك فقد اتفقت المصادر الاسلامية التى اخذت عنها ان الاسطول الافرنجى يتكون من مائة وعشرين سفينة ، ويذكر ابو عبد الله محمد ابو رأس ، ان عدد المحاربين الذين ذهبوا الى جربة، عشرون الفا ، بينما يذكر سلامه الجناونى ، وابو الربيع الحيلاتى ، ان عدد جميع المحاربين الذين كانوا بالاسطول عشرون الفا . بقى منهم فى طرابلس ثلاثة الاف مقاتل ، وهجم منهم على جربة ،

سبعة عشر الفا . ويبدو لى ان ما ذكره المؤرخان الجناونى والحيلاتى ، اقرب الى الصحة لا سيما اذا ذكرنا ان الجناونى، كان معاصرا لهذه الاحداث ، بل لقد كان يحضر مجالس ابى النجاة يونس ، حين كان أهالى جربة يجهزون وسائل الاستعداد للدفاع، ولا يستبعد ان يكون حضر تلك المعركة ، وشارك فى احداثها ، فانه من المستبعد ان يحضر مجالس تدبير المقاومة ثم لا يشترك فيها ، اللهم الا اذا كلفه استاذه ابو النجاة ، بتبليغ الرسائل الى جبل نفوسة فغاب لهذا السبب ، واذا كان كذلك ، فيكون ناقلا عمن حضرها ، وشهد وقائعها ، وينقل اخبارها عمن اشتركوا فيها ، اذا لم يكن نفسه مشتركا، ويعضد كل ما جاء عن الجناونى ما وجد فى وثيقة قديمة نقل عنها الشيخ سعيد التعاريتى وطبعها الاستاذ محمد المرزوقى فى ملاحق « مونس الاحبة » وكتب عن هذه الموقعة من المؤرخين العرب المعاصرين الاستاذ عمر البارونى فى كتابه القيم « الاسبان وفرسان القديس يوحنا » ويبدو لى ان الاستاذ البارونى اعتمد على المصادر الافرنجية فقط ، ولذلك فقد جاء تصويره لبعض الوقائع ، وتبريره لبعض المواقف . كأنما يساير النفسية الافرنجية، فى ذلك الحين، وليفهم القارىء الكريم ما اعنى بهذه الملاحظة سوف اناقش الاستاذ الكبير فى بعض تلك التصويرات والتبريرات . يقول الاستاذ البارونى فى صفحة ٤٩ من كتابه « الاسبان وفرسان القديس يوحنا » : « ورسا الاسطول الاسبانى فى قناة القنطرة فى جربة وانزل القائد ثلاثة رجال يتكلمون اللغة العربية ، ويحملون اعلاما بيضاء ، اشعارا بمجيئهم للتفاوض ولعرض رسالة من القائد ، الا ان سكان جربة كانوا على استعداد للدفاع والمقاومة والقتال » وبعد كلام يقول : « ولم يتقدم حاملوا الاعلام البيضاء كثيرا فى ارض الجزيرة حتى

تقدم منهم الحراس المكلفون بخفر السواحل ، ولم يلتفتوا الى ما كانوا يقولون وما كانوا يعرضون ولم يمهلوهم ، بل عاجلوهم وقتلوهم ، اشعارا بعدم قبول اى تفاوض . » ويبدو ان الاستاذ البارونى قد اقتنع بصحة هذا الخبر الذى قص علينا مسلك اهل جربة تجاه رسل جاؤوهم يحملون علامة السلام ولذلك فقد عمد الى تبرير موقف اهل جربة فى قتل الرسل باسلوبه الشيق البليغ. وانا اشك فى صحة هذه الصورة واعتقد انها صورة وضعها كتاب الافرنج حتى يوهموا القراء الكرام حتى فى هذه الظروف العصيبة ان الافرنج يلتزمون الاساليب المتبعة بين المتحاربين وانهم قد سلكوا المسلك الانسانى حين انذروا اهل جربة وطلبوهم للمفاوضة ولكن اهل جربة قد ارتكبوا حماقة بقتلهم الرسل مما يدل على انهم امة لا تعرف اساليب التعامل مع الاصدقاء او الاعداء وانها تجهل اصول السلوك فهى لا تحترم حتى الرسول الذى لا ذنب له فى الموقف والذى تجمع اداب الحروب على احترامه وعدم التعرض له بالاذى وعلى كل حال فبينما ينساق الاستاذ البارونى مع هذه الرواية ويقتنع بها ويحاول ان يبرر منها بعض المواقف نجد غيره من المؤرخين المسلمين يقصون علينا هذه القصة كما يلى :

يقول ابو عبدالله محمد ابو راس الجربى فى كتابه « مونس الاحبة » صفحة ١٠٦ :

« فنزلت فلوكة وفيها رجل من طرف رئيس الافرنج ومعه كتا بللشيخ يخاطبه فيه على ان يسلم له الجزيرة أو القتال ، فأجابه بان له رغبة فى القتال ، واغلظ له فى الخطاب ، فلما بلغ الجواب استعد لنزول البحر فتحول المسلمون الى قربهم عند قصر مسعود ، فنظر اعداء الله الى كثرة المسلمين وعلموا ان لا طاقة لهم بقتالهم فانصرفوا راجعين الى طرابلس . »

وجاء فى الوثيقة التى نشرها المرزوقى فى ملاحق مؤنس الاحبة صفحة ١٣٧ : ما يلى : « فلما اتصل خبرها بالشيخ أبى زكرياء شيخ الجزيرة ، وعاملها حفظه الله وهو اذ ذاك بالقشتيل مشى اليها وكثير من الناس معه فلما قاربها وقع بينه وبين النصارى تراسل وكلام ، يئول معناه الى انهم طلبوا من الشيخ اعزه الله شروطا يأبى طبعه من اعطائها ان يفعلها والا فليتهيأ للحرب والقتال ، وانه حفظه الله أراهم من نفسه القوة وانه لا يكترث ولا يعبأ بهم ولو أتوا باضعاف ما وراءهم ، فغضبوا لذلك . »

وجاء فى رسالة عن سلامة الجناونى ما يلى : «ولما وصل الافرنج الى الجزيرة انزلوا قاربا يحمل رسولا الى شيخ الحكم فى الجزيرة الشيخ ابى زكرياء السمومنى وكان فى مجلسه حينئذ شيخ مشائخنا ابو النجاة التعاريتى فلما وصل رسول الافرنج قال للشيخ ابى زكرياء ان سيدى القبطان يطلب منك ان تسلم له الجزيرة او ان تستعد للحرب فالتفت ابو زكرياء الى شيخنا ابى النجاة يستشيره ثم الى غيره من الحاضرين ثم نظر الى رسول الافرنج وقال له ، قل لسيدك الذى ارسلك انه ليس لدينا الا السيف . » هؤلاء ثلاثة من المؤرخين المسلمين فيهم معاصر للاحداث يتفقون على ان المخاطبة وقعت بين رسول الافرنج والمسلمين وان شيخ الجزيرة بلغه رأى سكان الجزيرة ولم يشر اى واحد منهم الى قتل الرسول وان اشار بعضهم الى ان شيخ الجزيرة أغلظ له فى القول ولا شك ان هذا اصح مما يقوله مؤرخوا الافرنج. المتعصبون ٠

هذه نقطة من النقط التى اعتقد ان الاستاذ البارونى اعتمد فيها على المصادر الافرنجية وان اولئك المؤرخين الافرنج لم يتحروا الحقيقة وان المؤرخين الذين نقلت عنهم كانوا قريبى عهد

من زمن الحادثة فالجناونى اما ان يكون حضر الوقعة واما ان يكون نقل عمن حضرها والوثيقة المطبوعة يعتقد انها كتبت بعد الحادثة مباشرة وبعض التعابير الواردة فيها تدل على ذلك اما ابو راس (١) فهو بطبيعة الحال ناقل عن غيره ولكنه قريب عهد بالموضوع اما ابو الربيع الحيلاتى فاعتقد انه استند على الجناونى وكذلك التعاريتى اما انه نقل عن الجناونى او الحيلاتى ، وكثيرا ما يقول بهذه العبارة : « وجدت فى تقاييد لبعض اصحابنا » .

وبناء على ذلك فان القول بان سكان جربة قتلوا الرسل الذين جاءوهم للمفاوضة قول باطل اختلقه مؤرخون مغرضون محنقون من كتاب الافرنج .

---

(١) لم اتمكن من معرفة ميلاده او وفاته ولكنه على كل حال اخذ من القرنين الثاني والثالث عشر

حقيقة وخيال

فى مقدمة هذا الفصل انقل لك وصفا رائعا كتبه الاستاذ عمر البارونى فى حديثه عن مهاجمة « بدر ونافارو » لجزيرة جربة . قال البارونى فى كتابه « الاسبان وفرسان القديس يوحنا » صفحة ٥٣ ما يلى :

وفى الصباح الباكر من يوم الجمعة نزل الجنود من السفن وهاجموا السواحل سيرا على الاقدام ، وسط مياه البحر القليلة العمق .

وكان هذا اليوم حارا شديد الحرارة ، ولم يكن قرب السواحل آبار او صهاريج يستقى منها العسكر ، واضطر بعضهم ان يشترى كأس الماء بعشرة قروش طرابلسية ، وتحرك الجيش الاسبانى بعد ان انتظمت فرقة ، قاصدة مهاجمة البلدة ، وكان الجيش الاسبانى يتكون من احد عشر طابورا ، ونصب أمام الجنود فى الوسط مدفعان كبيران ، واثنان آخران من الحجم المتوسط ، وكلف رجال البحرية بسحب هذه المدافع الى الامام .

وبعد ان قطع الجيش الاسبانى شوطا من الطريق بدأ الاعياء يظهر جليا على الجند ، واشتد العطش بين الرجال ، وعلى الاخص الذين كلفوا بسحب البطاريات وبراميل البارود ، واختل النظام

ولم يعد فى مقدور الضباط ان يرجعوا النظام الى نصابه ، اشتد العطش ، وبدأ الجنود يلهثون لهث الكلاب الصادية ، ويتساقطون امواتا ، اما « دون قرشيا الطليطلى » الذى لبس درعه المذهب وتسلم قيادة الجيش ، فكان ، يشجع رجاله ويعدهم بان أمامهم الآبار الفياضة ، والمياه الفضية الباردة ، والظل الظليل ، تحت اشجار النخل والزيتون .

وتشجع الجيش قليلا طائعا او مكرها ، وتعثر الجند فى خطواتهم بين اليأس والرجاء ، وقطعوا ما امامهم من ارض رملية ، وهم ينتظرون ان يروا بعدها ما وعدوا به ، ليطفئوا غلتهم ويرووا ظمأهم من ماء الجزيرة البارد الفضى ، فلم يروا شيئا ولم يصادفوا فى طريقهم اى شخص صديقا كان او عدوا، وكان لهذا الاثر الكبير فى تثبيط هممهم ، والقضاء على معنوياتهم وكم كان سرور الاسبان كبيرا عندما بدت امامهم خضرة اشجار الزيتون ، وايقنوا انهم سالمون حقا من الموت عطشا ، وان كثيرا او قليلا مما وعدوا به قد تجلى وظهر ، كان الوقت ظهرا عندما وصل الجنود غابات الزيتون فى جزيرة جربة ، وكانت الشمس حارة تلفح الارض وتشوى الوجوه والاجسام ، انها شمس اغوستو فى الشمال الافريقى دون شذوذ عن المعتاد ، ووجد الجنود وسط هذه الغابات وعلى قارعة الطرق الابار فعلا غير مقفلة او مردومة ، ومياهها الصافية النقية الباردة ، تكاد تدعو الاسبانى ان يلقى بنفسه فيها حتى يرتوى ، ولكن عرب الجزيرة اشفقوا عليه من الارتماء فى احضان البئر ، فتركوا قرب هذه الآبار جرات وقللا فارغة ، وقدرا كافيا من الحبال لتساعد الجنود الاسبان المساكين ، ورد الماء ، واستخراجه من الابار دون مشقة وعناء .

يا لها من انسانية ثعلب .....!!!!

ولكن اين عرب الجزيرة يا ترى ؟ هل تركوا ارض اجدادهم عندما صبحهم الجيش المغير وغادروا ربوع جزيرتهم عندما صاح: صائحهم : الاسبان الاسبان الاسطول الاسطول ؟ ...

بدت جربة مقفرة من السكان ، جرداء من الحياة، وظن الاسبان انهم بمنجى من العدو وانهم قادمون على اكتساح ارض لا يسكنها انسان ، فاختلت صفوفهم ، وتركوا مراكزهم ، وفقدوا شعورهم امام منظر الآبار والقلل والجرار ، وتشتتوا فى جلبة وضوضاء، وتسابقوا الى احتضان لقلل ، وتقبيل شفاهها الجافة ، وبدأت معركة حامية بين الجند انفسهم لافتكاك الجرار والقائها فى الآبار للحصول على قطرة من الماء .

ولم يترك عرب جرب جزيرتهم غداة ظهور الاسبان امام سواحلهم بل وضعوا خطة حكيمة للقضاء على الجيش المغير على الرغم من قلة عددهم ، وقلة عُددهم ، ونقص اموالهم ، فلقد استعد سكان جربة قرب هذه الآبار للانقضاض على الاسبان عندما يتهافتون على الماء، وتختل صفوفهم ، وتبدو عليهم الفوضى. كانت فرصة مؤاتية لعرب الجزيرة فلقد انقضوا على الاسبان فى شدة وعنف ، وطوقوهم من كل مكان ، ونزلوا عليهم ضربا بالسيوف والرماح ، ولم تنزل جرعة الماء بعد الى اجوافهم ، ولم تهدأ المعركة التى اضرموها بينهم على الماء . » انتهى ما اردت نقله من وصف الاستاذ البارونى .

لا شك ان الاستاذ البارونى قد اعتمد كل الاعتماد فى هذا الوصف على المصادر الافرنجية ، وانا وان لم اقرأ هذا فى كتبهم أكاد المس اقلامهم بل بعض تعابيرهم رغم التعريب ويبدو ان الاستاذ البارونى اذا لم يكن قد ترجم هذا الوصف بالفعل عن

بعض كتبهم فانه قد وثق به وصدقه حتى صاغه فى هذا الاسلوب الرائع الجميل .

وانت ايها القارىء الكريم اذا قرأت ما نقلته لك من وصف الاستاذ البارونى على انه قطعة من الادب العربى فى الوصف فلا شك ان تجد فيها من المتعة والروعة وجمال الاسلوب ما يشوق ويروق ، واذا اردت ان تقرأها على انها قصة فانك ايضا واجد فيها من سعة الخيال وبراعة الوصف ، وجمال الاسلوب ، ما يدعوك الى قراءتها ، والاعجاب بها ، اما اذا اردت ان تخرج منها بحقائق تاريخية ، وتقرأها على انها وصف لواقعة من وقائع الحرب ، فان فى ذلك مجالا للبحث والمناقشة .

لقد كان لتغلب جربة على الاسطول الاسبانى ، فى ذلك الحين صدى بعيد ، وبقدر ما فرح به المسلمون ، وتألم له الصليبيون الحاقدون ، وخجل منه ملوك اوربا المتغطرسون ، وأسف له رجال الكنيسة المتعصبون ، بقدر ذلك كله حاول كتاب الافرنج ومؤرخوهم ان يخففوا من اثر الصدمة عليهم ، وان يجعلوا سبب هزيمتهم خارجا عن ارادة البشرية ، وكانوا يلتمسون اسبابا مهما كانت واهية ، يعللون بها اخفاق الاسطول ، حتى لا يكون مرد هزيمتهم انما هو بطولة ابناء جربة وموقفهم الصلب فى الدفاع . وقد لفقوا كثيرا من القصص ليخففوا بها آثار الفضيحة فى زعمهم فحاولوا ان يقللوا عدد الجند الاسبانى من عشرين الفا الى خمسة عشر الفا او اقل ، وحاولوا ان يضخموا من عدد المسلمين الى اقصى ما يصدقه العقل فزعموا انهم جهزوا ثلاثة الاف فارس . ثم جعلوا يصورون هذه الجزيرة الصغيرة كأنها صحراء وسط افريقيا ، او الربع الخالى من جزيرة العرب ، وجعلوا

الاعياء يستولى على الجند ويتمكن منهم العطش حتى يسقط بعضهم ميتا ويضطر اخرون الى ان يشتروا كأس الماء بعشرة قروش طرابلسية ولم يكفهم هذا الخيال حتى جعلوا اهل الجزيرة يعرفون مقدما ما سيصيب الاسبان من اعياء وعطش فيضعون بناء على ذلك خطة يستطيعون بها التغلب على عدوهم ، وذلك بان يتركوا الآبار مفتوحة، ويضعون عليها المقادير الكافية من الجرار والحبال ، ليتنازع عليها الجند الاسبانى حينما يشتد بهم العطش ، ويتقاتلوا فينقض عليهم الجربيون فى سهولة ويسر .

انه تخطيط لمعركة على الورق ، خططها خيال خصب ، حتى تكون اسباب هزيمة الجيش الاسبانى الكبير انما نتجت عن التعب والعطش وشدة الحر ، واختلاف الجند على الشراب ، ووقوعهم فى فخ منصوب بحكمة وخبرة ودراسة ، وهذه القصة يبدو سخفها واضحا اذا وضعت امام الحقائق .

ان المسافة التى كانت تفصل بين الجيشين قبل ان يتحركا للقتال كانت لا تتجاوز ستة اميال ، وهى مسافة لا يتعب من قطعها الرجل العادى فما بالك بالجندى المدرب على الصبر والاحتمال ثم ان هؤلاء الجنود قد دربوا على ان يسيروا اياما متوالية، فكيف يتعبون من سير نصف يوم او اقل ويقول بعض الكتاب ان الجند كانوا يتساقطون قتلى من العطش فهل من المعقول ان يبلغ الحال بالجيش الى هذا الحد ويستمر القادة دون ان يتخذوا اى شىء لاسعاف القوم او اراحتهم ، ويزعمون ان بعضهم يشترى كاس الماء بعشرة قروش ، فممن كانوا يشترونها يا ترى ؟

وقد صور الاستاذ البارونى دخول الاسبان الى الجزيرة كأنهم يتوغلون فى صحراء قاحلة ، ويسيرون حتى يملوا السير دون

ان تبدو لاعينهم خضرة ، او يجدوا ماء ، او يروا انسانا ، ولا يسعنى ازاء هذه الصورة التى وضعها الاستاذ البارونى الا ان اضع بجانبها صورة اخرى وضعها مؤلف تونسى يعرف جزيرة جربة حق المعرفة هو الاستاذ محمد المرزوقى قال فى كتاب : « مؤنس الاحبة » صفحة ١٤٥ :

« من اعجب الظواهر فى جزيرة جربة ان الزائر لها لاول مرة يؤخذ بجمال مناظرها الطبيعية الساحرة ، فمجرد اقترابه من شواطئها تظهر له غابات الزيتون الخضراء ، وجذوع النخل الباسقة تتراقص امام عينيه يحركها النسيم ، والبحر حواليها ترقص امواجه لرقصها ، وتهتز اواذيه لاهتزازها ، وينزل الزائر لارضها فلا يجد غالبا اثرا للسكان بل لا يكاد يرى احدا كأن الحياة معدومة فيها » ويقول بعد كلام ، ولكنه لا يكاد يخطو خطوات داخل هذه الاشجار الخضراء حتى تنبثق له من بينها بناية بيضاء لامعة لمعان شمس جربة الضاحية ، ذات قباب صغيرة ، وابراج قائمة على زواياها ، كأنها حصن من الحصون ، وبجانب هذا الحصن تجد البئر الروية تمتد منها الجداول الصغيرة الملتوية التى تعطى الماء لانواع الخضر والغلال .»

هذه هى الصورة الحقيقية لجربة ، وهى مناقضة تمام المناقضة للصورة التى وضعها لها الاستاذ البارونى التى احسب انه اقتبسها عن كاتب غربى كان يصف جربة وهو يسرح بخياله الخصب فى صحارى افريقيا .

اما خرافة اعداد الجرار والحبال على الآبار والاستعداد حولها الى اخر ما جادبه الخيال الخصب فهى عكس ماتقتضيه المكائد الحربية ، ويبدو ان سكان جربة الكرام لم يفكروا فى قضية الماء

والعطش ، ولم يخطر على بالهم ان هذا الجيش المجهز بكل شيء يغفل عن الماء فلا يأخذ معه المقدارالكافى ، ولذلك فلم يهتموا بالآبار وبقيت صهاريجهم ـ الموزعة فى الجزيرة على مسافات مختلفة حسب احتياجات السكان ـ على حالها ما كان منها مغلقا بقى مغلقا وما كان مفتوحا وعليه الجراروالحبال بقى كذلك ولو خطر لهم ان العدو قد يحتاج الى الماء ، وانه سيصاب بالعطش لاغلقوا تلك الصهاريج والآبار ،او غوروها حتى لا يتمكن العدو من الشراب ، وتغوير الآبار وتفويت الماء على العدو طريقة متبعة معروفة بين الجيوش المتقاتلة منذ اقدم العصور . واول من استعملها فى الاسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر باشارة من سيدنا الحباب بن المنذر رضى الله عنه.

جاء فى سيرة بن هشام صفحة ٦٢. ما يلى : فقال : ـ أى الحباب ـ يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى ادنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضا ، فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. لقد اشرت بالرأى . »

فكيف يخطر لقادة جربة ان يفتحوا آبارهم ويضعوا عليها الحبال والجرار ، ويمكنوا عدوهم من الشراب ،توقعا ان يقع بين جند العدو نزاع على الماء .

انها صورة شعرية زخرفها خيال كاتب لم يعرف جربة ولم يشترك فى حرب . وقد اعتمد عليها الاستاذ البارونى دون ان يتناولها بالنقد على ضوء الاحداث والمواقع والوقائع . وانا فى هذه المناقشة لا ازعم ان الاستاذ الكبير قد ارتكب فى حق جربة خطأ تاريخيا فان هذا لم يخطر لى على بال وانما كلما اردت ان

اشير اليه ان الاستاذ اعتمد المصادر الاجنبية وقد يكون له فى ذلك كل العذر اذ قد كان لاتتوافر له المصادر العربية لا سيما فى الفترة التى وضع فيها كتابه القيم ، عن تاريخ القرصنة الاسبانية .

ولكى اضع الصورة الحقيقية لتلك الحادثة بين يدى القارىء الكريم ، فاننى انقل له ما قالته المصادر العربية القريبة العهد من تلك الحادثة ، بل المعاصرة لها ، والتى تتمشى مع طبيعة الاشياء ، ويتقبلها العقل دون تشكك أو ارتياب يقول ابو عبدالله محمد ابو راس فى كتابه (مؤنس الاحبة) تحقيق المرزوقى : « وفى يوم الجمعة استعد الكفار للنزول ، فصلى المسلمون صلاة الجمعة ، وخطب خطيبهم بما اعد الله من النعيم المقيم للمجاهدين فى سبيل الله ، ونزل عدو الله بعساكر . رجالا وركبانا ، بطبولهم وآلة حربهم من مدافع ومحرقات وغيرها ، فرتب المسلمون صفوفهم ميمنة وميسرة وقلبا . عند نزولهم للبر هجموا على المسلمين فولى المسلمون امامهم ، فاتبعتهم الكفرة ، وقد أكمن لهم المسلمون جماعة من المجاهدين ، وعليهم الشيخ سليمان بن يحى السمومنى ، فقطعوا بينهم وبين البحر ، ورجع عليهم المسلمون ، وحملوا عليهم من كل جهة وجانب ، حملة رجل واحد ، واعلنوا كلمة التوحيد ، ووضعوا فيهم السيف فلم يبق منهم الا القليل فاسروهم ، ولم يرجع منهم احد الى سفنهم . »

وجاء فى الوثيقة التى اقتبسنا منها غير مرة ما يلى :

« ثم كان آخر الليل سمع المسلمون اصواتا من الات الحرب عند النصارى فايقنوا بنزولهم غدا ، وزادوا شدة وندامة على ما

سلف من ذنوبهم ثم هم كذلك ، والطبول تضرب ، والناس على ما تقدم من التحريض وطلب المحالله ، والتوبة ، وخيل الشيخ تصل الى قرب النصارى وتأتى باخبارهم الى ان حان وقت الظهر من الغد ، فصح الخبر ان النصارى اخـذوا فى السير والوصول الى المسلمين ، وكانت مسافة ما بين الفريقين ستة اميـال ، فقام المسلمون حينئذ وصفوا صفا ، والشيخ حفظه اللـه واولاده والعزابة واصحاب الخيل وزعماء الناس يمشون عـلى الصف ، ويسوونه ويرتبون الناس ، ويأمرونهم بالثبات ، وان لا يخافوا لان الله عز وجل يقول : « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين** .» فلما استقام المسلمون فى صفهم وكان من فى قلبه لا يرى من فى ميمنته ولا من فى ميسرته لعدم استواء الارض وكثرة الاشجار وطول الصف ، وكـان ذلك اول وقت الاولى والناس بين مصل وغير مصل ، لان الوقت متسع وما هم فيه اضيق فاذا باعداء الله قادمون على الصف من الجهة الشرقية فلما تقارب الصفان اذا بخيل النصارى تدفع ، وحديدهم الذى لبسوه يلمع ، ودخان البارود يسطع ، وانفارهم (١) ومكاحلهم تسمع ، فما زاد ذلك كله بمن كان فى مقابلتهم من المسلمين الا جراءة عليهم وجسارة . فتنادوا بالصلاة على النبى، عليه السلام، وتداعوا بالدين والاسلام ، وتوسلوا الى الله بأوليائه وبقرآنـه وببركة مذهب الاباضية الذى ظهرت بركته فى غير موطن، فحملوا عليهم حملة واحدة فلما التقوا ، وكان اعداء الله رتبوا انفسهم صوابى (٢) كل صابية فى ظهرها اخرون . من الله على المسلمين بادبار الصابية ، الاولى ، وقتلوا منهم كثيرا فعضدتهم الصابيـة

---

(١) اى ابو اقهم (٢) أى طوابير

التى تليهم فهنالك وقع تزحزح قليل من الذين قابلوهم من المسلمين ثم كروا بعدها كرة واحدة .» وبعد كلام تقول الوثيقة: « فبينما هم كذلك من كان فى القتال، فى القتال ومن كان فى الفرار، فى الفرار فاذا بطائفة من المسلمين يقدمها الشيخ ابو الربيع سليمان بن الشيخ ابى زكرياء ، فقطعوا ما بين النصارى والبحر. فلما رأى الفريقان ذلك جرؤ المسلمون وزاد من فى القتال شدة ، وذل النصارى واعطو بالادبار مرة واحدة فصارت خيل المسلمين توهن والرجال تقتل حتى وصلوا البحر . »

اعتقد ان هذا الوصف من رجل قد يكون حضر المعركة كاف فى ابطال القصص الخيالية التى يؤلفها كتاب الافرنج ، ليهونوا من بطولة المسلمين وليخففوا من اثر الفضيحة التى وقع فيها اسطول القرصنة الافرنجية ، الاسطول الذى تؤيده الدول الصليبية ، وتباركه الكنيسة ، ويدعو له البابا بالنصر والتأييد انها معركة حقيقة فيها ما فى المعارك الحربية من عنف الصدام وقساوة القتل وحرارة الموت ، وقد كتب فيها النصر لاشد الفريقين ثباتا ، وامضاهما عزيمة ، وأصبرهما على حر النضال ، واشدهما رغبة فى النصر او الشهادة . ولم تكن اسباب الهزيمة فيها عائدة الى طول مسافة ، او شدة حرا وقلة ماء ، او جهل بموقع البلاد . وانما اراد الله سبحانه وتعالى ان يقيم الحجة على المسلمين فى كافة اقطار الارض بهذه الواقعة . فمنح نصره للقلة الضعيفة ، المحصورة ، كما منحه من قبل للمؤمنين الصادقين . وما صدق المؤمنون فى جهادهم لله الا نصرهم الله فيما مضى وفيما يأتى مهما كانت القوة المادية للعدو .

« **وان جند نالهم الغالبون** » ولن يبطل وعد الله المؤكد ثلاث تأكيدات شيء فى الكون لو صدق المسلمون .

أثر معركة جربة

كان لهذه المعركة التى انتصرت فيها جربة على الاسطول الاسبانى الضخم ذلك الانتصار الرائع ، اثر بالغ فى نفوس المسلمين ، وفى نفوس الاوروبيين على السواء . فقد تضاءل فيه الصليبيون ، واعتبر فضيحة فى تاريخ القرصنة الاسبانية ، اما المسلمون فقد اثر فى نفوسهم هذا الانتصار ، ورفع من معنوياتهم، وارجع اليهم الثقة التى فقدها بعضهم او كاد ، وجعلتهم يستخفون باولئك الغزاة الذين كانوا يتحكمون فى جميع السواحل الشمالية لافريقيا . ونتج عن كل ذلك فكرتان متعارضتان احداهما عند الافرنج والثانية عند المسلمين .

اما الافرنج ، وقد صدموا هذه الصدمة العنيفة ، فقد قرروا ليحافظوا على هيبتهم ان يقوموا بمناورات على سواحل البحر الابيض المتوسط ، يقصدون بها ارهاب المسلمين ، وبعث الخوف فى نفوسهم ، واشعارهم بان القرصنة الافرنجية لا تزال على قوتها ، لم تنل منها احداث الموقعة المؤلمة فى جربة .

اما المسلمون وقد رأوا نتيجة الثقة بالله ، والصبر عند اللقاء ، والرغبة فى الاستشهاد ، فقد استخفوا بالافرنج وما لديهم من قوة، وزال من قلوبهم ذلك الخوف الذى بعثته فيها الدعاية الواسعة

عن قوة الافرنج وضخامة اساطيلهم ، وامتلأت قلوبهم شجاعة وجرأة واقداما .

وقد انبنى على الفكرتين معا تجربة اخرى ، فقد فكر القائد الاسبانى ان يلم فلول جيشه ، وان يجمع اساطيله المعطوبة ، فى الجزيرة الصغيرة (لمبدوشا) وحاول ان ينفخ روح الحياة فى تلك الهياكل المتحركة ، وان يرد لتلك الاخشاب العائمة فوق الماء قوة السفن الحربية ، واراد ان يجهز من مجموع ذلك اسطولا يمخر عباب البحر ، وكان فى الحقيقة يعلم ان المقاتلين الذين لم يكتب لهم ان يقتلوا فى جربة ، وخرجوا منها اشباحا متحركة ، قد اصيبوا فى قلوبهم ، فما عادت لهم قلوب تقوى على مجابهة الاحداث، ومقابلة الاعداء ، ومقارعة الابطال، ولكنه كان يعتقد ان الدعاية قد تأتى بنتيجة ، فهو لا يزال ينفخ فيها الروح ، ويعمل على ان يعيد الحياة الى تلك الاشباح ، ليكون منها بشرا يتحركون . وهو من جهة اخرى ، كان يرسل على مختلف الالسنة والوسائل دعاية هائلة . واشاعات طويلة عريضة ، عن قوة الاسطول الجديد ، وعن الضربة الهائلة التى سوف يوجهها الى بعض الثغور الاسلامية، وهو فى ذلك لا يعين الثغر الذى سوف يقصده ، او الميناء الذى سوف يصدمه ، وانما يرسل هكذا دعاية طويلة عريضة ، يرمى من ورائها طمأنة الدول التى تساعده ، وبعث الشجاعة فى نفوس جنده ، وبعث الخوف والرعب فى قلوب المسلمين ، وشعر اصحاب الثغور الاسلامية فعلا بالقلق. ولم يستطع اى ثغر منها ان يسمح لقواه بالابتعاد عن الثغر خوفا من مباغتة هذا الاسطول القابع فى (لمبدوشا) المتحفز للهجوم وبقيت الثغور تنتظر تنفيذ الانذار الجديد .

تحرك الاسطول الملفق قاصدا ثغرا من الثغور الاسلامية هو

صفاقس ، ورجعت قوارب الصيد الصفاقسى ذات يوم مذعورة تعلن قرب وصول الاسطول الافرنجى الى ميناء صفاقس ، دون سابق انذار ، وتسامع الناس فاندفعوا الى ساحل البحر بما لديهم من اسلحة بسيطة أكثرها خناجر وعصى ، وتجمعوا ينتظرون وصول العدو الى الشاطىء ، ونزوله الى البر ، ليحتفلوا بمقامه العظيم ، وليقوموا بتكريمه بما يستحق من التكريم ، على طريقة المتحاربين ، ولما وصل الاسبان، وكان اسطولهم هذه المرة هزيلا ، ضعيفا ، ذليلا ، اذ لا يبلغ عشرين سفينة ، بينما كان فى الحملة الماضية ، يتجاوز المائة . وقف مترددا يراجع حساباته ، ويصحح تقديراته . ولما رآه المسلمون فرحوا به واستبشروا ، وعزموا ان يحيوه بصفعة على خده الايسر ، بعد ان كادت اثار اصابعهم تزول عن خده الايمن ، ولكن عزمهم هذا لم يتحقق فان الاسطول ما كاد يقترب من الساحل الصفاقسى ، ويرى تلك الاعداد الهائلة من البشر تتحرك فى خفة ورشاقة ، وتنتظر وصوله فى لهفة وشوق ، حتى امتلأ ذعرا ، وملك الرعب عليه زمام امره ، فاطلقوا اشرعتهم للريح ، وانطلقوا فى عرض البحر يعرضون على الاسماك رشاقتهم فى السباحة ،وسرعتهم عند الهروب ، وفوتوا على المسلمين فرحة بالنصر ، وثروة بالغنيمة ، وسعادة بالشهادة ، واوحى لهم الجبن ان يظهروا بمظهر الشجاعةويتخذوا سمت القوى وهم يسبحون فى عرض البحر .

واذا ما خلا الجبان بارض طلب الطعن وحده والنزالا

فقصدوا جزيرة قرقنة ، وكانت حينئذ خالية لا سكان بها ، فانزلوا بها الف جندى ليختبروا حالها ، وليبنوا بها برجا كبرج القشتيل فى جربة ، حتى يكون مركزا لهم ينطلقون منه، وحصنا يأون اليه ، ويحتمون به ، وكان المسلمون يتنسمون اخبارهم

ويتتبعون حركاتهم فلما نزل القوم فى جزيرة قرقنة تسلل اليها نحو ستمائة مقاتل من المسلمين وعندما جثم الليل على صدر الجزيرة ، وخيم الظلام على الارض ، بعث اولئك المقاتلون الشجعان نفرا منهم يستطلعون اخبار هذا الجيش الصغير، فوصل اولئك النفر الى محل الجند ، وداخلوهم ، ومروا من بينهم ، فوجدوهم قد أمنوا على انفسهم ، واسلموا اجسامهم للمضاجع ، واعينهم للنوم ، فما كانوا يتوقعون مباغتة من عدو فى هذه الجزيرة الخالية .

رجع اولئك النفر الى اخوانهم واخبروهم بما رأوا ووجدوا ، فاسرع المسلمون حتى دخلوا معرس الافرنج دون ان يشعر بهم احد ، ولم يستيقظ اولئك القوم الا بعد ان كان المسلمون واقفين على رؤوسهم بالسلاح ، يداعبون رقابهم باسنة الرماح . وانتبه القوم مذعورين .

اعتقد ان القارىء الكريم ، ليس فى حاجة الى ان اقول له ان تلك الكتيبة التى تتألف من ألف جندى، والتى ذهبت لترتادمركزا للقرصنة فى جزيرة قرقنة لم يعد منها احد حتى الآن وقد خسرها الاسطول الاسبانى الى الابد ، وان الصفعة التى هم المسلمون بالقائها على خد القرصنة فى صفاقس ، فتفاداها الاسطول بالفرار قد تلقاها الاسطول نفسه فى جزيرة قرقنة ساخنة مؤلمة ، وجرب الاسطول ان يوهم الناس بان به بقية من حياة ، وذماء من قوة ، وقصد سواحل جزيرة جربة .وجعل يحوم حولها ، ولكن احدا من الناس لم يرفع اليه نظره ، ولم يلتفت اليه ، ولم يحسب له حسابا ، او يعبأ به ، فقد بلغ من الهوان الى ان تغاضت عنه العيون . فلما علم ان دعايته انفضحت ، وان

خدعه انكشفت وان مناوراته فشلت ، وان هيبته ضاعت الى الابد ، ضعيتها عليه تلك الجزيرة الصغيرة التى كان يعتقد ان الاستيلاء عليها لا يزيد عن نزهة بحرية ، وانه لن يستطيع لتلك الهيبة ردا ، مهما بذل ، ومهما عمل ، لما انكشفت له هذه الحقائق ، واستبانت له النتائج ، ووصل فى تفكيره الذكى الى معرفة واقعه المؤلم رفع الاشرعة واطلقها للريح ..

تجربة اخرى

ان الصفعتين المؤلمتين اللتين تلقاهما الاسطول الاسبانى فى جزيرة جربة ، ثم فى جزيرة قرقنة ، تركتا اثرا مؤلما . بدا واضحا على جميع العالم الغربى المتعصب ، وكان اشد ما يكون ايلاما على سيدة القرصنة فى ذلك الحين (اسبانيا) . ولذلك فقد كانت تعمل جاهدة على ان ترد تلك الصفعات ، تؤيدها الدعوات من الكنيسة ورجالها ، والمساعدات من العالم المسيحى الغربى وتأخذ بثأر قتلاها وسبایاها من الجزيرة الصغيرة ، جزيرة جربة ، واستمرت تعد العدد والعدة ، وتتحين الفرصة .

وبعد عشر سنوات ، اى فى سنة ٩٢٦ استكملت استعدادها ، وظنت انها بالغة ما تريد ، فاذنت لنائب ملك اسبانيا على صيقلية « الدوق هو جو دى منكادا » ان يقوم بالمهمة وبدأ نائب الملك الاسبانى على صيقلية يعد عدة الهجوم ، ويتخذ التدابير ، ويزن الامور ، وقاد اسطوله المكون من مائة سفينة ، تحمل خمسة عشر الفا ، من المقاتلين المدربين المسلحين المجهزين باحدث ماعرف الانسان من آلات الحرب فى ذلك الحين . وكان (الدوق منكادا) يعصر ذهنه ، ويكد فكره ، ليرسم خطة سليمة للهجوم ، يتلافى فيها الاخطار التى وقع فيها اسلافه ، فيخسروا سمعتهم الحربية.

وانطلق الاسطول حتى بلغ الجزيرة الصغيرة جزيرة جربة ، التى صارت صخرة صماء تتحطم عليها قوى البغى والعدوان ، وانزل القائد كامل قواته المقاتلة حتى يضرب الضربة العنيفة القوية ، وكان الهجوم مفاجئا فلم يسمع اهل الجزيرة بالخبر الا من قريب ، وبدأ الرجل زحفه ، فاسرع اليه من بلغه الخبر من سكان الجزيرة .

ان السواعد التى صفعت (دون بدرو نافارو) و(دون قراشيا الطليطلى) و(دياجو دى فيرا) لا تزال موجودة وقوية ، وان اشراقة الايمان التى بعث ابو النجاة اشعاعها لا تزال تومض فى قلوب المؤمنين ، وان العيون التى كانت تنظر الى عدد قليل من الناس العزل يطاردون بايمانهم وصبرهم وثباتهم عشرين الفا مزودين باحدث الاسلحة . ان هذه العيون لا تزال تلمح اشباح الاسبان بين فار وقتيل ومن ورائهم المسلمون يسوقونهم سوق الرعاة للاغنام . ان تلك الصور الرائعة التى مضى عليها عشر سنوات فقط لم تمح بعد من اذهان الناس .

ولذلك فما سمع الناس بهجوم الافرنج على الجزيرة ، حتى تسارعوا الى لقاء العدو فى ميدان القتال ، واشتبك الفريقان فى معركة حامية .... غزاة يحملهم الجشع والطمع على القتال ، يهاجمون حماة ، يذودون عن الدين والوطن والعرض ، مؤمنين بحقهم ، وعدالة موقفهم ، فى هذا الدفاع المجيد ، واثقين فى نصر الله . ولم يطل الصراع . فلقد كان القائد الاسبانى يدير المعركة وهو ينظر الى صفوف جنوده ، تتهاوى صرعى ، صفا بعد صف . ان اسلحته النارية ، كانت قليلة الجدوى ، وكان ينظر الى اولئك المسلمين الذين يتسابقون الى الموت ، وليس لديهم من الاسلحة الفتاكة شىء ، وانما يعتمدون على سيوف

كليلة ، وخناجر قصيرة ، وعصى وما اشبه ذلك من السلاح البسيط ، ولكنهم يملكون معها سواعد قوية لا تطيش ضرباتها، وقلوبا ربط عليها الايمان ، واجساما خفيفة نشيطة متحركة تعرف متى وكيف تزوغ من وسائل التدمير ، التى اعدها العدو، ولكنها حين تضرب تصيب الهدف ، وتقع على المقتل ، لانها تقبل على الموت برغبة فى الشهادة ، وتضرب العدو بشجاعة ، وتدافع عن الوطن بحمية . ورأى « دون منكادا » ما يحل بجيشه، وايقن انه سائر فى الطريق الذى سار فيه اسلافه ، عندما تعرضوا لغزو جربة ، فاستعصت عليهم ، وليس هذا فحسب ولكنها برهنت لهم ان قواها المعنوية اقوى كثيرا مما حشدوا من قوى مادية . وواتاه الذكاء ! الذكاء الذى لم يوات اسلافه فى محنتهم ، فرأى ان يقلل من الخسارة ما امكن ما دام لا يستطيع ان يتفادى الفضيحة ، وصاح فى الجيش يامر بالانسحاب ، وكانت هذه الصيحة هى احب ما ينتظره اولئك الجنود المساكين . وسرعان ما اطاع افراد الجيش هذا الامر الذى يعتبرونه السبيل الوحيد للبقاء على الحياة ، وجر القائد بقايا جيشه المفلول ، تاركا من ورائه ستمائة قتيل ، واضعاف ذلك من الاسرى ، ولو استمر فى القتال الى الليل لوقع له ما وقع للجيوش السابقة ، ولكنه تفادى الخسارة ورجع ببقية جنده الى اسطوله ، فامتطى السفن واطلق الاشرعة للريح...

انه يوم من ايام الله ، خلدته جزيرة جربة لتقيم به الحجة على الامة الاسلامية ، وتعرفها ان قوة الحق والايمان لا تنهزم امام الحديد والنار . وان الله الذى مكن للطائفة القليلة من المسلمين على الفرس والروم والاسبان بالامس ، سوف يمكن للامة المسلمة اليوم ، او غدا على الانجليز والاميركان والروس اذا ما

وفت بما عاهدت عليه الله ، وسارت فى المنهاج الذى دعاها الى السير فيه « **ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ، اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين ، بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم** »

التبعية الاسمية

ان المتتبع لاحـداث التاريخ فى جربة حسبما تحدثنـا عنه فى الفصول السابقة ، يستطيع ان يسمى العهد الاول من تاريخها وهو العهد الذى يمتد من سنة ٤٧ الى سنة ٥٢٩ بعهد الاستقلال اما العهد الثانى من تاريخها وهو العهد الذى يمتد من سنة ٥٢٩ الى سنة ٩٦٠ والذى اطلقنا عليه فى بعض الفصول السابقة عهد الجهاد فى سبيل الله يمكن ان يطلق عليه عهد التبعية الاسمية اذا نظرنا اليه من جهة السياسة والحكم ، وذلك ان جربة بعد ان استولى عليها الافرنج سنة ٥٢٩ ثم خرجوا منها سنة ٥٥٥ بقيت تحت حكم خارج عنها . فقد بقيت تحكم حكم الموحدين الى سنة ٧٢٥ ثم انتقلت الى حكم الحفصيين ، وكثيرا ما يستبد بحكمهـا بعض الولاة لمدة ثم تعود الى الدولة المركزية .

وفى هذه المدة الطويلة من تاريخها التى تمتد ما بين سنة ٥٥٥ الى سنة ٩٦٠ لم تكن جربة تهتم باى دولة مسلمة تحكمها ، او اى وال يأتيها ، فقد رضيت بجميع الالوان التى تتناوبها، وكانت تظهر الطاعة وتدفع الضرائب فى هدوء ، ولا تشترك فى النزاعات التى تقوم بين الدول والولاة الذين يتنازعون حكمها وانما كانت تنظر اليهم نظر الفريسة، الى السباع لا تبالى من سبق منها الى الولوغ

فى دمها ، فهى تقف من الجميع موقفا سلبيا كاملا . وانما كل ما يهمها ان يكون الحاكم مسلما سواء كان تابعا لاحدى الدول القائمة حينئذ ، او كان مستبدا لحسابه ، كما فعل ابن مكى وابن ابى العيون . وكانت طيلة هذه المدة مشغولة بكفاح متواصل للافرنج، تدخر لملاقاتهم ما تعدمن قوة، ذلك ان الافرنج طيلة هذه المدة لم ينفكوا عن مهاجمتها ومحاولة الاستيلاء عليها فكانت تحصر همها فى موضوع الجهاد ، معرضة عن قضية الحكم وما فيه من فساد .

ومن المؤسف ان اولئك الحكام الذين رضيت جربة بحكمهم على اختلاف اشكالهم ، واستسلمت لهم ، وكانت تدفع لهم الضرائب، كان لا يهمهم منها غير ذلك ، وعندما يهجم عليها الغزاة الصليبيون، يقف اولئك الحكام ، موقف المتفرج من بعيد ، فاذا ردت العدو او اتخذت معه موقفا من المواقف رجع اليها اولئك الحكام وهى تنزف دما ليلعقوا من تلك الدماء . يقول الاستاذ المرزوقى فى (مونس الاحبه) صفحة ١٠٣ « حيث وقع المساكين بين نارين ، سيطرة النصارى المحتلين لارضهم من جهة ، ومطالبتهم من طرف هذه الحملات الحفصية بدفع الخراج للدولة . » بل لقد بلغ اولئك الحكام الى اكثر من ذلك فقد يهجم العدو على الجزيرة المسكينة ، فتشتغل بالدفاع وتستهلك جميع قواها فى ذلك الدفاع ، وتغلب على امرها ، فيحتلها العدو ، وتنتهى العمليات الحربية ، وحينئذ فقط تذكر الدولة ان جربة من ممتلكاتها ، وانها تأخرت فى دفع الضرائب وانه يجب تأديبها على ذلك ، يقول ابو محمد التيجانى فى رحلته ص ١٢٦ « وكان تغلبهم عليها فى هذه المدة الاخيرة سنة ثمان وثمانين وستمائة بسبب اشتغال ملك الحضرة ، اذ ذاك رحمة الله ببعض الثائرين عليه .» وبعد ان يصف كيف دخل جيش اللحيانى الى الجزيرة ، ويصف بعض معالمها يقول فى صفحة

١٢٨ « ووصل الينا اذ ذاك شيخ النكارة ، وقد كان هو ونظيره من الوهبية فرا عن الجزيرة اول اقبالنا عليها خوفا على انفسهما فلما حللنا بها كتبا الينا كتابا يطلبان الامان ، فاسعفا به ، فوصل النكارى وتأخر وصول الوهبى ، فوصل بعده بأيام ، ولما اجتمعا تكفلا باستخلاص ما وضع من الاداء على قومهما ، وانفصلا ليشتغلا بقبض ذلك من يومهما . » هكذا يتحدث التيجانى دون ان يخجل من تسجيل هذه الصفحة التاريخية المؤلمة . التى كان هو احد ابطالها ، وهذا مخدومه ابو زكرياء اللحيانى يقود جيشه الجرار ليطالب بالضرائب قوما قد استنفد العدو ما لديهم ، واحتل ارضهم، وكان المنطق يقتضى ان يوجه هذا الجيش الجرار الى مقاتلة ذلك العدو الرابض فى القشتيل اما هذه الامة التى وضعتها طبيعة الوطن فى ثغر من ثغور الجهاد فيجب ان تقدم اليها كل المساعدات من رجال وسلاح حتى تقف فى وجه العدو باستمرار .

هذه الصورة التى نقلناها عن التيجانى تمثل الحياة الكاملة لجربة فى هذا العهد الذى اطلقنا عليه اسم عهد التبعية فهى تستقبل العدو بالجهاد وتقف فى وجهه بما تملك من قوة فتدفعه عنها ، أو يتغلب عليها، وهى فى كل ذلك تعتبر نفسها تابعة فى الحكم لاحدى الدول القائمة ، او الولاة المستبدين بها ، وتبعث اليها بضرائبها فاذا تأخرت عن تسديد الضرائب اما لاشتغالها بجهاد العدو ، واما لسوء الحالة الاقتصادية ، تقدم اليها اولئك الحكام فى وقاحة يطلبون منها دفع الضرائب ، ويضعون عليها انواعا من الغرامات، وقد ينزلون بها الوانا من العقاب . وكانت الجزيرة المبتلاة بكل هذه المصائب ، تدفع اليهم ذلك وهى صابرة على الاذى ، صامدة فى وجه العدو ، تعتذر اليهم عن تأخرها فى بعض الاحيان ، لا تعكر عليهم صفو الامن ، ولا تدعو الى ثورة . وذلك حرصا على سمعة

الاسلام ورغبة منها ان تكون تابعة لدولة مسلمة ولو كانت هذه التبعية اسمية . وحفظا لقوتها التى تدخرها لمجابهة العدو المتربص بها على الدوام ينتظر الفرصة المناسبة لينقض عليها . على انه يجب ان نذكر فى هذا الصدد ثلاثة من ملوك هذه الدول دفعتهم غيرتهم على الاسلام ومحافظتهم على الوطن الاسلامى الى ان ينجدوا هذه الجزيرة ويساعدوها على تطهير ارضها من الغزاة المحتلين هؤلاء الملوك هم :

عبد المومن بن على سنة ٥٥٥ وابو بكر الثانى الحفصى سنة ٧٣٨ وابو فارس عبد العزيز بن احمد سنة ٨٣٥ .

اما رحلة ابى زكرياء اللحيانى وجيشه اللجب فلم يكن القصد الحقيقى منها طرد العدو من جربة ، وانما كان القصد منها جمع اكثر ما يمكن من الاموال والضرائب من الوسط والجنوب التونسى ولذلك فقد كان ذلك الجيش الجرار ينتقل بين البلاد من توزر ونفطة وقابس والحامة وجربة وغمراسن وغيرها وكان يعمل سرا على تكوين مملكة مستقلة فى طرابلس فهو بعد هذه الرحلة التى ابدى فيها فى الظاهر اخلاصه للدولة كان ينوى الحج وهو ملوث اليد والجيب من اموال الناس ولم يكن قصده للحج الا وسيلة للخروج من تونس دون مضايقة او رقابة وهكذا تم له ما اراد فخرج الى الحج ورجع فأقام بطرابلس وحاول ان يقيم هنالك دولة ودعا لنفسه وبايعته بعض القبائل ثم ساعدته الظروف ورجع الى تونس .

هذه هى كل المساعدات والنجدات التى تقدمت بها الدول القائمة الى جربة فى خلال هذا العهد الذى يمتد ما يزيد عن اربعمائة وثلاثين سنة حسبما وصلت اليه فى ابحاثى واستنادا على المصادر التاريخية التى تمكنت من مراجعتها فى هذا الموضوع .

كان هذا الوضع الشاذ الذى وجدت فيه جربة سببا فى ان تجرى حياتها على عدة خطوط متوازية لا تلتقى، او على عدد من الاتجاهات التى لا يربط بينها تناسق او انسجام ونستطيع ان نلخص فى آخر هذا الفصل تلك الاتجاهات او الخطوط فيما يلى :

١ ـ استعداد لمحاربة العدو ورد عدوانه دون انتظار لمساعدة من احد .

٢ ـ اعتراف بالتبعية لاى حاكم مسلم والتزام لدفع مطاليبه دون الاشتراك فى مواقف العنف عندما يختلف حاكمان أو دولتان على الحكم .

٣ ـ اعتماد اهل الجزيرة فى الحياة الاقتصادية على مواردهم الخاصة داخل الجزيرة وسلوك سبيل يضمن لهم الحياة فى تلك الظروف الحرجة الضيقة . ولذلك ازدهرت فى الجزيرة بناء على ذلك بعض الصناعات المحلية وبعض انواع الزراعة .

٤ ـ ايجاد هيئة تتوفر فيه الثقة والدين والعلم لتتولى شئون الوطن من الوجهة الدينية والاجتماعية والمدنية وتشرف على احوال البلاد وتسيرها فى سبيل قويم يحفظ عليها كرامتها كأمة مسلمة .

وخلاصة الحديث فى هذا الفصل ان جربة فى طول هذا العهد كانت تابعة من حيث الحكم اما للموحدين او الحفصيين او بعض الولادة المستبدين ولم تحاول ان تنفصل عنهم او تستقل بنفسها او تغير نظام الحكم فيها . وواضح للقارىء الكريم ان ذلك الحكم انما كان حكما ظاهريا ليس له الا جمع الاموال اما الحكم الحقيقى الذى يشمل جميع شئون الناس والبلد فقد كان الى تلك الهيئة المختارة التى هى عبارة عن مجلس العزابة بنظامه المعروف .

خلاصة هذا العهد

هذا عهد تاريخى يمتد قرابة اربعة قرون ونصف اذ يبتدىء من سنة ٥٢٩ حين هجم الافرنج على جربة واستولوا عليها لمدة قصيرة وينتهى سنة ٩٦٠ حين التحقت جربة بحكم الدولة العثمانية باستيلاء درغوث بن على عليها . وقد قضت جربة هذا العهد وهى تابعة لدولة الموحدين اولا ثم للدولة الحفصية ثانيا ويتخلل ذلك فترات استبد بالحكم فيها بعض الولاة كابن مكى وابن ابى العيون ، كما انها تبعت الدولة المرينية لفترة قصيرة . لقد كان حكمها ينتقل من دولة الى دولة ، او من وال الى وال ، دون ان تهتم لذلك ، ويكون لها فيه شأن ، فهى فى وضعها الشاذ وتهديد الافرنج لها باستمرار ، كانت راضية بجميع ما يأتيها من الحكام المسلمين ، وكانت تدخر كل قواتها وامكانياتها لمحاربة الغزاة الافرنج اما شئونها الداخلية فقد كانت بايدى العزابة الذين كانوا يقومون بها ويشرفون عليها بكل ما فى النظم الاسلامية من خير وحب وعدل .

وفى هذا العهد من تاريخ جربة المجيد مع ما هى عليه من شذوذ الوضع ، وظلم الاخوة ، وتعسف الحكام ، استطاعت ان تضرب المثل الاعلى للامة المكافحة ، وتحرز البطولة وتستل النصر ، وتقهر

العدو ، وتقف شامخة معتزة بطريقة يندر ان تجد لها مثيلا فى تاريخ الكفاح بين القوى والضعيف . فاحتفظت بكرامتها بين تلك العوامل التى أشرنا اليها من قبل زيادة عن اربعة قرون حتى انتهى عهد القرصنة الغربية وبدأ عهد جديد هو عهد الجامعة الاسلامية تحت الخلافة العثمانية .

وفى الفصول الآتية سوف نعرض ـ ان شاء الله ـ صورا من حياة هذه الامة الكريمة فى عهدها الثالث .

عهد الدخول فى الجامعة الاسلامية

العهد الثالث من تاريخ جربة ، هو عهـد الدخول فى الجامعـة الاسلامية تحت الخلافة العثمانية . ويبتدىء هذا العهد من سنة ٩٦٠ حين استولى درغوث بن على التركى على جربة وينتهى سنة ١٢٩٨ حين احتلت فرنسا كامل البلاد التونسية ، واحتلت معها جزيرة جربة . وفى هذا العهد الذى يمتد قرابة ثلاثة قرون ونصف كانت جربة تعيش عيشة مريرة قاسية . فمنذ تولى درغوث بن على طرابلس خطر له ان يلحق جربة بحكمه فى طرابلس واصرت هى فى استماتة ان تبقى ضمن البلاد التونسية . وقد اصابها من جراء هذا كثير من الاذى ، والعدوان ، والاضطهاد ، وعوملت بكثير من الظلم والقسوة حسبما تقرؤه فى الفصول الآتية ان شاء الله .

اما شبح القرصنة الافرنجية فقد بدأ يخف ثم يتوارى عن جربة وغيرها وكان فى اختفائه ذلك يتجمع ويعيد النظر فى خططه واعماله واهدافه . ولم تعد تكفيه تلك الغارات الخاطفـة التى يقصد منها تأمين القرصنة فى البحر، وسرقة ما يمكن من الشواطىء الاسلامية . ان القرصنة والسرقة اصبحت لا تشبع نهمه ، ولا تشفى غليله . ولذلك فقد تجمعت اسباب الحقد الصليبى كلها

فى سحابة دكناء تشمل اوروبا جميعها واتجهت الى الشرق ترمى الى تغيير كل شىء فى العالم الاسلامى ، وذلك باحتلال البلاد احتلالا كاملا ، واستعمارها استعمارا شاملا ، والقضاء على الدين ، وتغير القيم الاخلاقية ، وتبديل اسم الجنس المحتل باسم الجنس الغالب . ووضعت اوربا خطتها على هذا النمط ، وبدأت فى التنفيذ ، وهجمت هجومها الصليبى العام على جميع الشرق الاسلامى . فزحفت فرنسا على الجزائر والمغرب وتونس ، تحتلها الاحتلال الكامل ، لتجعل منها بدل الامة المسلمة ، امة فرنسية مسيحية وراء البحار ، وتلحق ترابها بتراب الوطن الام . كما كانت تقول ، وكانت جربة بطبيعة الحال داخلة فى هذا المخطط الواسع الشامل ، وعندما القت فرنسا قنبلتها على البلاد التونسية اصابت شطية منها هذه الجزيرة الصغيرة . فاضطربت وتخبطت قليلا ثم خضعت للاستعمار الفرنسى كما خضع له كل الشمال الافريقى وبقيت تحت نفوذه خمسا وسبعين سنة . وهى مدة العهد الرابع من تاريخها الطويل كما بقيت تونس . حتى يسر الله للبلاد الاسلامية سبيل الخلاص من الاستعمار الغربى فتخلصت منه واحدة اثر اخرى . والعاقبة لكشمير وفلسطين وزنجبار واننا لنضرع اليه سبحانه وتعالى كما يسر لنا الخلاص من الاستعمار السياسى ان ييسر لنا الخلاص من آثار ذلك الاستعمار فيما تركه فى ديننا واخلاقنا واقتصادنا وطبيعة حياتنا انه على كل شىء قدير .

ظلم ذوى القربى

وقفت جربة الجزيرة ، الصغيرة ، المعزولة ، عن العالم ، موقفها المشرف ، كالصخرة الصماء ، تتحطم عليها اساطيل القراصنة ، وترتد عنها غارات المهاجمين من الافرنج ،وتذوب على سواحلها اعداد وعدد المعتدين من المستعمرين المتعصبين • وقفت تلك المواقف دون ان تعتمد على مساعدة ، أو تنتظر نجدة من احد ، اللهم الا مرات ثلاث، ذلك لان الدول القائمة حينئذ كانت من جهة عائمة فى فتن داخلية ، ومن جهة اخرى كان لا يهمها من الاقاليم التابعة لها الا مقادير الاموال التى تدفع اليها ، اما بقية الشؤون فليس يهمها من امرها شيء . هذا بالنسبة للدول اما السكان الذين كانوا يحيطون بالجزيرة من الخارج فقد غل التعصب المذهبى او العنصرى ايدى بعضهم عن مساعدتها ، وانشغل بعضهم بنفسه ، اذ كان هو الاخر فى ظروف ليست خيرا من ظروف جربة اما البعض الاخر فقد كان يحترف الغارة والنهب ، وكثيرا ما ينتزى على جربة او على غيرها فيختلس او يغتصب ما تقع عليه يده فى سرعة ويفر .

اما اخوان جربة فى المذهب ، فى الديار البعيدة عنها ، مثل ليبيا والجزائر وبعض بلاد الجريد ، فقد كان فساد الحكم ، وتعود

بعض سكان البادية عـلى الغارة والنهب ، وقطع الطـرق . قد اضطرهم الى البقاء فى بلدانهم للمحافظة على انفسهم واموالهم . وهكذا كانت الجزيرة تصارع الاستعمار والقرصنة منفردة ، وكانت ناجحة فى صراعها كله فلم يستطع الاستعمار ان يثبت بها قدمه الا فترات قصيرة فى اول الامر ثم صلب عودها فكانت تلقمه حجرا كلما حاول الاعتداء عليها ، وحتى حين يتاح له ان ينتصر عليها انتصارا مؤقتا كانت لا تلبث ان تنتقم منه ، وتأخذ بثأرها وترمى به وراء البحر . وكان على الدول الاسلامية القائمة فى ذلك الحين ـ اذا لم تتمكن من مساعدتها بالمال والرجال والعتاد او ببعض ذلك ـ كان عليها على الاقل ان تتركها وشأنها . لتقاوم تلك الاساطيل التى تعب فى مراسها سنان وخير الدين ودرغوث وغيرهم . فلم تترك حتى لهذا النضال الشريف .

فى سنة ٩٦٠ عينت الحكومة التركية القائد العنيد درغوث بن على واليا على طرابلس بعد مساع منه طويلة لعزل مراد آغا عنها وتوليته هو بدلا منه وكان درغوث يطمح الى ان يضم الى ولايته كل البلاد التونسية لتكون الموانىء الهامـــة فى البحر الابيض المتوسط تحت حكمه يستطيع تركيز قوته فيها ليضرب البحرية الغربية التى لا تنفك عن مهاجمة الثغور الاسلامية ، والتى كانت تكاد تتحكم فى البحر الابيض المتوسط وشاعت عنه هذه الرغبـة وتناقلتها عنه الالسن .

وكانت جربة فى ذلك الحين لا يهمها الوالى الذى يتولى حكمها ولكنها لا تريد ان تنفصل عن تونس . واقترح مقترحون عـلى درغوث ان يستولى على جربة ، وان يضمها الى طرابلس ، فانها مركز بحرى هام وهى مع ذلك جزيرة صغيرة يسهل اقتطاعها من تونس ، وبلغ الحديث الى سكان جربة ، فخافوا ان تقطع جزيرتهم

عن البلاد التونسية ، وتلحق بطرابلس ، وذلك ما يكرهون فقد اقنعتهم التجارب ان الحاق الجزيرة بطرابلس فى الحكم لا يعود عليهم بالخير ابدا ، ولما تحققوا من نية درغوث بعثوا الى مركز الدولة فى تونس وكان على رأسها فى ذلك الحين احمد بن حسن الحفصى ، يطلبون حمايتهم من درغوث ، وابقاء جزيرتهم فى مكانها الطبيعى من البلاد التونسية ، ولكن احمد الحفصى كان فى واد غير هذا الوادى فلم يستجب لهم، ولم يهتم بطلبهم . ووصل درغوث باسطوله وجيشه الى الجزيرة .

كان سكان جربة يتوقعون نزول درغوث على جزيرتهم ، ولكنهم لم يتفقوا على قتاله ، ولم يستعدوا له فقد وقع خلاف بين العلماء فى جواز قتال هذا الجند المسلم ، الذى يقوده قائد مسلم . وقال قائلون : ما دام القائد يتبع فى حكمه دولة الخلافة ، ويرجع اليها فان على جميع البلاد الاسلامية ان تسمع وتطيع ، اذا طالبها ولاة تلك الدولة بالطاعة ، وجربة بلد مسلم ، اراد والى دولة الخلافة ان تتبعه فى الحكم فعليها ان تطيع ، سواء كان مركز الولاية فى طرابلس او فى تونس او فى غيرهما ، فان الوالى لا شك يرجع فى شؤونه الى مركز الخلافة ، ورضاؤها عن عمله بمثابة رغبتها فى ذلك ، وبناء على هذا فلا يحل لنا ان نقاتل هذا الجيش الذى به تعتز الامة الاسلامية ، ولا يجوز ان نحمل السلاح لنقتل جندا مسلما ، جاء لتنفيذ ارادة الدولة السنية ، ولا يحق لنا ان نعرض انفسنا لنقتل ، والقتيل منا لا يكون شهيدا ، وانما يعتبر فى حكم البغاة .

وقال قائلون : ان بلدنا هذا تابع فى طبيعته وحكمه لتونس . وعلى تونس دولة مسلمة نحن مرتبطون بها ، فيجب ان نحافظ على هذا الارتباط ولا نخالف عنه ، سواء بقيت تونس مستقلة

عن دولة الخلافة ، او صارت ولاية من ولاياتها أو الحقت بطرابلس فلو دخلت تونس تحت حكم درغوث لدخلت جربة تبعا لذلك . اما وتونس لم تدخل تحت حكم ذلك الوالى ، فان على جربة ان تدافع من يريد اخضاعها بالقوة ، ويبتغى فصلها عن تونس ، وان ترد عنها يد من يحاربها ، لانه باغ معتد على بلد مسلم ، وتسليم اهلها يعتبر خيانة للعهد ، وتفريطا فى واجب مقدس عليهم صيانته .

وهكذا اشتد الخلاف بين السكان ، وتوقفت اكثر السواعد عن القتال تحرجا . ولما هم درغوث باحتلال الجزيرة قابلة شراذم من الناس تحمل فى وجهه السلاح ، وتبدى له المقاومة . فاشتد غضبه عليها ، ودعا الى مساعدته بعض القبائل خارج جربة من أولئك الطامعين الذين يتوقون الى مثل هذه الفرصة ، ليشبعوا نهمة الغنيمة والسبى فى انفسهم ، ووقعت بين الاخوة موقعة مؤلمة ، خسرت فيها جربة اشجع ابطالها وافضل شبابها ، وخيرة فتيانها واثمن اموالها . وذلك ان القائد ما وضع رجله فى الجزيرة حتى اباح للجند ان يرتكبوا ما شاؤوا ولم يفرق بين المحاربين والمسالمين ولا بين العزل والمسلحين فاضطر حتى اولئك الذين امسكوا عن القتال فى مبدأ امرهم ان يدخلوا المعركة، وان يخوضوها مع الخائضين . واستباح أولئك الجفاة الجزيرة فارتكبوا ما سولت لهم انفسهم وزينت شهواتهم. وقتل فيها من ابطال جربة الصناديد الف ومائتا قتيل ، وهى خسارة لم تخسرها جربة فى كامل حروبها مع الافرنج ما عدا موقعة سنة ٥٤٨ .

لقد طالما كبدت هذه الجزيرة المسلمة ، اساطيل الافرنج خسائر فادحة ، دون ان تتجاوز خسارتها فى الارواح فى اكبر المعارك يضع عشرات ، اما اليوم فقد ذهب على يد درغوث الف ومائتان

من المؤمنين الصادقين لقد قتل هذا العدد الهائل من المحاربين الاكفاء، وفر من امكنته الفرصة ولم يبق فى الجزيرة غير الضعاف الذين لا يجدون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا ، ومكث درغوث فى الجزيرة حتى رتب امورها ، وعين عليها واليا واسند اليه الحكم ، ثم رجع الى مركز ولاية طرابلس منتفخ الاوداج بالنصر العظيم ، وكان الوالى الذى تركه على جربة من الضعف بحيث استطاعت الحاشية ان تتسلط عليه وتسيره فى اغراضها وترتكب باسمه ما تشاء ، فكثر الظلم ، واهدرت الحقوق ، وانتهكت الحرم ، وتحقق الناس ما كان يخشاه فريق من العلماء من تبعيتهم لطرابلس ، فضجوا بالشكوى ، ولم يكن لهم ملاذ فى ذلك الحين غير تونس، لانهم كانوا يرون ان البلاء انما هو آت من طرابلس وعاصمة الخلافة فيما يبدو راضية بذلك .

وهكذا طالبوا بارجاع جربة الى حكم تونس لينقذوا انفسهم من جور عمال طرابلس • فان الدولة التونسية مع ضعفها فى ذلك الحين لا تكلف الناس شيئا غير مبالغ من المال تؤدى اليها سنويا برسم الضرائب ، وليس لها بعد الحصول على الاموال المطلوبة اى شأن بشؤون البلد الخاصة وكتب اتباع درغوث فى جربة اليه بالحركة الجديدة ، فجهز جيشا آخر وعاد الى جربة يغلى غضبا . ولم يتقدم احد لمقاومته هذه المرة فدخل الجزيرة وبدأ سيلا من الانتقامات، وارتكب فيها من الفواحش ما يبرأ منه الدين والعرض فسلب الاموال ، وقتل الانفس ، وسبى النساء والاطفال ، وهكذا قضى القائد المسلم على الجزيرة القضاء الكامل ، ولم يبق الا من لم تصل اليه يد القائد ، او ايدى جنده ، وكان فيمن قتله درغوث علامة زمانه الشيخ أبو سليمان داود التلاتى .

رجع درغوت وجنده يحملون الاموال والاسرى. وبقيت الجزيرة

شبه خالية يحكمها شيخها القديم مسعود بن صالح السمومنى واليا من قبل درغوث . ولما علم الافرنج ان السيوف التى كانت تصدهم فى جربة قد تحطمت ، وان السواعد القوية التى كانت تصفعهم قد تكسرت، وان العزائم الصامدة التى كانت تقف امامهم لا تعرف الهزيمة او التراجع قد استؤصلت . لما علم الافرنج بذلك جهزوا اسطولا وقصدوا جربة .

ومن الغريب ان درغوث لم يسارع الى لقاء هذه الاساطيل الافرنجية ليردها عن بعض ممتلكاته ويحمى منها هذا المركز الاستراتيجى الهام الذى كبد الاسلام خسائر لا تحصى للحصول عليه . وانما اخلى الطريق لتلك الاساطيل . (١)

فلما بلغ الاسطول الفرنجى ساحل جربة ، نشط واليها مسعود بن صالح السمومنى ، وجمع حوله بقايا العزائم القوية ، ممن افلته سيف درغوث ، وأغلب اولئك شيوخ يحنى هاماتهم الشريفة عجز الهرم ، ومراهقون أطرياء العود يدفعهم الحماس الى امتشاق الحسام قبل الاوان ، واستقبل بهم العدو ، ووقف فى وجهه فوقعت بين الطرفين مقاتلات عنيفة لم يستطيع فيها الافرنج ان يتقدموا خطوة ، وطال الحصار وخشى والى الجزيرة ان يدب الوهن الى رفاقه فصالح الافرنج على ان يدخلوا القشتيل فقط وليس لهم ان يتجاوزوه . وهكذا دخل الافرنج القشتيل فى جزيرة جربة ، حينما مهد لهم درغوث الطريق دون قصد ، حينما استولى على جربة فخضن شوكتها ، وفل سلاحها ، وقلم اظفارها ، ورغم ان

---

(١) يقول ابو الربيع الحيلاتى : « وفى السنة المذكورة نزلت عمارة النصارى على جربة ، وجعلها الله رحمة وفكاكا للمسلمين مما هم فيه من جور درغوث وكان قد القى عليهم « ابى على الوهيبة » خمسين الف دينار واخذ منها شيئا فلما نزلت عليه العمارة هرب (اى درغوث) الى طرابلس واقتتل المسلمون مع النصارى . »

الافرنج قد احترموا شروط الصلح، فلم يتجاوزوا حصن القشتيل ولم يتدخلوا فى اى امر من امور الجزيرة ، فان سكان جربة لم يرقهم ذلك ، وكرهوا ان يبقى الاجنبى فى بلادهم ، وان يتخذ منها مركزا للقرصنة والعدوان على بقية الثغور الاسلامية . ولما كانوا لا يستطيعون اخراجه فى ذلك الحين فقد بعثوا وفدا الى دار الخلافة يطلب منها ارسال قـوة ، تطهر بلادهم من العـدو الاجنبى . واستجابت دولة الخلافة لطلبهم وجهزت قوة بحرية ارسلتها الى جربة عـلى ان تمـر بطرابلس ويتـولى قيادتها درغـوث ، ولم يكن يعلم درغوث وهو يدير اعماله الواسعة فى طرابلس حتى وصلته الحملة وطلبت منه قيادتها لتطهير جربة من عدوها الجاثم فيها . فامتثل لامر الخليفة وقاد الحملة ثم اتجه الى جربة ، ووجه هذه المرة ضربته الى الافرنج القابعين فى القشتيل ، وثار من فى الداخل ممن يقوى على الحرب ، فخرجوا الى غير رجعه وطهرت الجزيرة من الاستعمار حتى تكونت السحابة الدكناء التى شملت شمال افريقيا كله واطبقت على تونس سنة ١٢٩٨ هـ.

آراء المؤرخين فى حروب درغوث

فى هذا الفصل انقل اراء بعض المؤرخين فى حروب درغوث بجربة خاصة ، وآثار تلك الحروب على الجزيرة ومن هؤلاء المؤرخين استخلصت للقارىء الكريم الفكرة التى بنيت عليها حديثى فى الفصل السابق وفى فصول اخرى آتية ، فارجو القارىء الكريم ، ان يتأمل هذه الاراء ويزنها بميزان الحق ميزان الاسلام الذى لا يبخس الناس اشياءهم غير متأثر بعاطفة عن جربة ولا شهرة غالبة لدرغوث .

١ ــ قال ابو زكرياء عبدالله محمد بن زكريـاء البارونى فى ترجمته لابى سليمان التلاتى : « وتوفى فى أوائل جمادى الاولى سنة سبع وستين وتسعمائة وقتله درغوث بن على التركى لما خالفت عليه اهل جربة (١) وادخلوا على قائده المسعود بن صالح السمومنى وحصروه فى القشتيل نحو اربعة اشهر أو خمسة، ثم تحرك عليهم درغوث بالعرب وزواوه ومستاوه ، فانهزمت الوهبية من برج الوادى الى المشيخة وقتل منهم نحو اربعمائة او خمسمائة رجل ، وثالث يوم من الهزيمة، أتى موسى بن عمرو بن أبى الجلود الى الشيخ أبى سليمان مع جماعة من الجند فقالوا له لو سرت

(١) يشير الى مطالبة اهل جربة بان تكون جزيرة جربة تابعة للبلاد التونسية .

معنا الى درغوث لنتكلم على الضعفاء ، فقال له الشيخ نعم . فسار معه راكبا على بغل له حتى اتى الى درغوث ، فكلمه درغوث فى مخالفة جربة ، وما كان من اهلها ، فقال له الشيخ ، نحن جماعة العزابة ليس بايدينا ولا الينا تولية الامراء ولا عزلهم فى هذا الزمان ، فقال له : بل انتم ادخلتم المسعود ، وافسدتم البلاد وفعلتم وفعلتم ، فقال له الشيخ : ما فعلنا شيئا الا الخير ، ولسنا ان شاء الله من اهل الشر فى شيء، بل الفساد من قبلك، لتقديمك الاسافل وغير ذلك ، فأخذ الشيخ وسجنه نحو شهر أو اقل ثم قتله . » السير صفحة ٥٨٢ طبعة البارونى .

٢ ـ قال ابو عبدالله ممحد ابو راس : « فى سنة ستين وتسعمائة قدم صاحب طرابلس درغوث باشا الىالجزيرة بعساكره من الترك وزوارة والسبعة واولاد شبل ولما سمع اهل الجزيرة بقدومه ارسلوا الى صاحب تونس احمد بن حسن الحفصى يستمدونه فلم يلتفت اليهم لعجزه ، واختلاف امره ، فهاجمهم درغوث باشا ودخل الجزيرة، ونزل على الساحل القبلى، واجتمعت اهل الجزيرة وقاتلوا قتالا شديدا ، وترادفت العربان مع درغوث باشا فانهزم اهل الجزيرة ، واستشهد منهم الف ومائتا شهيد ، وافترق الباقون واستولى درغوث باشا على الجزيرة ، ورتب قوانينها ، واستخلف عليها عاملة الشيخ مسعود السمومنى ، ورجع الى طرابلس سنة سبع وستين وتسعمائة ، وكان اهل المدينة فى كدر من جور عمال طرابلس . فارسلوا الى صاحب تونس وفى ذلك التاريخ دخلت الترك لمدينة تونس، والحكم بايدى البلبكاشية فى الديوان . فى السنة المذكورة قدم درغوث باشا الى الجزيرة لما سمع ان اهلها طلبوا رجوعها لتونس فقتل جماعة من اهلها منهم الشيخ داود التلاتى ، كما تقدم فى ترجمته ، ونهب

الاموال وفر غالب اهلها ، ولم يبق فيها الا العاجز ، وفى سنة سبع وستين المذكور لما سمع الافرنج بما وقع فى الجزيرة، وفرار اهلها اتوا اليها بمراكزهم ونزلوا على الساحل الجوفى عند مزار الشيخ سالم اذروم فتلقاهم الشيخ مسعود بن الشيخ صالح السمومنى وهو اخر السمومنيين بمن معه ممن بقى من اهل الجزيرة . وصالحوه بان يسلم لهم برج القشتيل ولا يلتفتوا الى غيره . »

وبعد كلام يقول : « لنرجع الى ما نحن فيه من صلح الافرنج والسمومنى فى تسليمهم برج القشتيل . بقى فى يد الافرنج فبعث أهل الجزيرة الى الدولة العلية العثمانية ، واخبروها بما صار لهم فجهزوا لهم مراكب وقصدوا حصار البرج المذكور ، فحاصروه ثلاثة اشهر ، وفتحوه عنوة .

٣ ـ وقال ابو الربيع سليمان بن احمد الحيلاتى : « ورحل الباشا درغوث من طرابلس مع اولاد شبل والسبعة وزواره وخلق كثير برا وبحرا ونزل قشتيل الوادى فالتقى مع الشيخ مسعود بن صالح السمومنى والوهبية فى سبخة القشتيل فوقعت الدائرة على الوهبية ، ومات منهم الف ومائتان ومات من مستاوة والاتراك ومن معهم خلق ، ووقع من الفىء والسبى وهتك الحريم ما لم يأذن به الله ثم قتل بعدها الشيخ الاجل الفاضل العالم العامل داود بن ابراهيم التلاتى رحمه الله . مكروا به وامر بالطلوع الى الباشا المذكور لينظر فى مصالح الرعية ، ويتكلم بما وقع فيها من الفواحش ليرتدع عن ذلك ، فاخذه دون جميع الفقهاء الذين طلعوا معه ، والذى مكر به موسى بن عمر البجلودى ، وفى السنة المذكورة ، نزلت عمارة النصارى على جربة وجعلها الله رحمة وفكاكا للمسلمين مما هم فيه من جور درغوث . »

٤ ــ قال الشيخ سعيد بن تعاريت فى ترجمته لابى سليمان التلاتى :

« وساد بجربة ، وتولى مجلسها اذ ذاك ، واليه يرجع الامر فى زمانه والشورى والامر للامراء والنهى لهم ، لا يخاف فى الله لومة لائم ، حتى جعل الله له الموت على الشهادة ، تمام السعادة ، توفى رحمه الله تعالى شهيدا ، قتله الملعون الطريد درغوث بن على التركى ، لما خالفت عليه اهل جربة فى أوائل جمادى الاولى سنة ٩٦٧ هـ. »

٥ ــ يقول ابو اسحاق اطفيش رحمه الله :

« وقد ذر قرن الطغيان والعسف من عمال الاتراك يومئذ على تونس ، ويبدو ان الثورة على درغوث بن على التركى فى جزيرة جربة كانت باشارته . حيث بلغ الشر من أولئك الولاة الطغاة أشده بما لا بد معه من الدفاع عن الكرامة والدين ، فكان أن اغار درغوث الطاغية على الجزيرة بجموع من العرب والنكار والجند ، فاخمد الثورة بضروب القسوة ، نهايتها قتل هذا العلامة الجليل . »

انتهى ما اردت نقله من اقوال وآراء بعض المؤرخين ، ومنها ومن غيرها مما كتب عن حروب درغوث فى جربة ، يستخلص القارىء الكريم ان جربة كانت تصر على ان تبقى ضمن البلاد التونسية ، وانها فى المدة التى الحق حكمها بطرابلس سواء فى زمن درغوث او عهد ابن مكى . قد اصيبت بالوان من الظلم والاضطهاد، ما نفرها من طرابلس والارتباط معها بعلاقة الحكم ، وان عدد القتلى فى جربة الذين استشهدوا على يد درغوث يزيد عن الف وستمائة وهذا العدد نصف الجيش الذى استطاعت ان تكونه

جربة يـوم جمعت كل من يقوى عـلى حمل السلاح لمحاربـة الافرنج .

لم تكن هذه الحروب التى شنها درغوث على جربة بكل قساوة آخر حروبه عليها ولا ثوراتهم اخر المحاولات للتخلص من حكمه وظلمه ، ومن ظلم ولاة طرابلس واستبدادهم والعمل على البقاء ضمن البلاد التونسية ، فان درغوث لما رجع الى جربة ، لاخراج النصارى من القشتيل ، بأمر الدولة العلية ، اعتبر ذلك احتلالا لها والحقها بحكمه من جديد ، وعين موسى البجلودى واليا عليها من قبله ، وسكنت جربة مدة حكم موسى هذا فلما ماتتولى الحكم مكانه ولده عمرو بن موسى ، فاساء السيرة ، وسافر مرة الى طرابلس ليستشير الوالى فى بعض الامور ، فاتفق اهل الجزيرة على عزله وولوا على انفسهم عبدالله البرجى ، وبعثوا الى صاحب تونس يطلبون منه المدد ويملكونه الجزيرة . وسمع درغوث بهذه الحركة فغضب لذلك وجهز جيشا وسار به الى الجزيرة ، وكان عمرو بن موسى البجلودى معه فاستعد عبدالله البرجى للقتال ووقعت بينه وبين درغوث معركة عنيفة ذهب ضحيتها عدد من الابطال وانتصر درغوث والقى القبض على البرجى فقتله وسلخ جلده وحشاه نخالة وارسله الى طرابلس وارجع الحكم الى عمرو بن أبى الجلود وبقيت جربة تحت حكم طرابلس الى السنة الرابعة عشر بعد الالف حيث بعث قاره عثمان داى جيشا الى الجزيـرة لطرد الحامية الطرابلسية ، فوقعت معركة بين الفريقين ذهب فيها عدد من الضحايا وانهزمت الحامية الطرابلسيـة واخرجت مـن الجزيرة وخسرت جربة فى هذه المعركة التى دارت بين الواليين اثنين واربعين رجلا من رجالها الكرام .

رجوع جربة الى تونس

دخلت تونس فى الجامعة الاسلامية ، واصبحت هـى الاخرى ولاية عثمانية، مثل طرابلس، وهنا بدأ نزاع الاخوة على الشركة، فقد عملت طرابلس من قبل على سلخ جزيرة جربة من تونس والحاقها بطرابلس ، واصبح هذا العمل لا يروق لوالى تونس ، وفى السنة الرابعة عشر بعد الالف جهز (قره عثمان داى) جيشا لمحاربة الحامية الطرابلسية فى جربة ، ووقع بين الفريقين قتال انتهـى بهزيمة الحامية الطرابلسية وخروجها ، ورجوع الجزيرة الى حكم تونس . وعزل عثمان داى والى الجزيرة حينئذ الشيخ عمرو بن موسى ابن ابى الجلود ولكن احدا من الناس لم يتقدم لطلب الحكم على جربة ولم يقبلها احد ممن عرضت عليه فاضطر الى ارجاع عمرو هذا الى منصبه السابق .

وبارجاع جربة الى تونس ، واسناد الحكم مرة ، اخرى الى اسرة أبى الجلود بدأت سلسلة من المتاعب المحلية والفتن الداخلية فقد تنازع ابناء هذه الاسرة على الحكم ، وتقاتلوا عليه ، وكاد بعضهم لبعض وتآمر عليه ، وانقسم السكان بطبيعة الحال مـع انقسام الحكام ، وكانت اصابع بعض الشخصيات التركية تحرك تلك الدمى المتقاتلة ، وتساعدهـا فى بعض الاحيان وتؤجرهـا

وتستأجرها ، وكان هؤلاء الحكام المتقاتلون لا ينفكون عن جمع الضرائب ، وفرض الغرامات ، ومصادرة الاموال ، وكلما احس الواحد منهم بحاجة الى مزيد من المال لنفسه او لسادته التمس أية وسيلة لفرض غرامة تتناسب مع الحاجة وقد تفرض تلك الغرامة على جهة او قبيلة او على الجزيرة كلها حسب اللزوم وترسل من تلك الاموال المقادير المقررة للدولة فى تونس اما الباقى فهو لاستهلاك الحاكم الشخصى .

وقد تحكم الخلاف بين اسرة ابى الجلود حتى ادى الى الاغتيال والقتل واستئجار رؤساء العصابات للانتقام . وبعد احدى هذه الحوادث المؤلمة ذهب احمد بن موسى ابن أبى الجلود الى طرابلس يطلب من واليها احمد القره مانلى ان يجهز له جيشا يحتل به الجزيرة ولكن القره مانلى لم يستجب لطلبه ولم يلتفت اليه فرجع وجمع جموعا من عكاره وورغمة ودخل بهم الى الجزيرة لقتال موسى بن صالح ووقعت معركة حامية بين جيشى ابنى العم انهزم فيها موسى فاحتمى بالبرج الكبير ثم فر الى صفاقس اما العربان الذين جاء بهم احمد فقد استباحوا السوق وانتهبوا ما فيه وذلك ما يطلبون ومن اجله يحاربون . واستولى احمد على الجزيرة .

لما وصل موسى ابن ابى الجلود الى صفاقس وجد هنالك يونس بن على معسكرا هناك ، فلما اخبره الخبر ، جهز له جيشا ، وامره بالرجوع الى جربة ، وطرد ابن عمه احمد ، فسار موسى بجيشه اللجب ، حتى دخل جربة فتلقاه احمد ولما رأى انصاره من عربان ورغمة وعكارة ، كثرة جيش موسى ، وحسن استعداده ، ولوا هاربين ، وكانوا عازمين على الخروج من طريق تاربلة خوضا فى البحر ، فلحق بهم جيش موسى فقتلهم عن آخرهم ، ولم يبق منهم الا شواذ ، تمكنوا من الخروج قبل وصول الجيش ، ورجع

جند موسى على حومة اجيم فاستباحها وانتهبها .

وهكذا انتصر احمد فنهب اموال انصار موسى وانتصر موسى بعد مدة قصيرة فنهب اموال انصار احمد والنتيجة ان امـوال الجزيرة قد اصبحت كلها فى ايدى ابناء ابى الجلود المتنازعين على الحكم . وعاشت جربة تحت حكم ابن ابى الجلود مدة قرن ونصف فى اسوأ حالة تعيشها امة تحت حكم لا يستند الى دين او قانون ويبدو أن هـذه الاسرة لا تخلو من شذوذ فمع هـذه المواقف المؤسفة التى يقفها بعضهم من بعض بلغ الهوس من احدهم الى ان حبس نفسه بتاجموت ثم انتحر اما آخر ولاتهم فبينما هو يتمتع بالحكم اذ اختل عقله وشكـاه اهل الجزيرة الى صاحـب القيروان فلم يصدق حتى دعاه اليه واختبره فوجده على اسوأ حال من الجنـون فعزله وولى مكانه اخـاه فاساء السيرة ولم يحسن التصرف فشكاه اهل الجزيرة الى على باشا صاحب تونس فعزله وسجنه ثم امر بمصادرة اموال هذه الاسرة وتخريب دورهم . وانتهت فترة من اسوأ ما مر على جربة من فترات ، وذلك ان المصائب كانت من قبل تأتيها من الخارج فتقف الجزيرة متحدة لمجابهتها اما فى هذه الفترة فقد كانت المصائب تنبع من الداخل وتجد من يؤيدها من الخارج فكان شرها قد تعدى الاموال والارواح الى تفريق كلمة الامة وتكوين عصبيات وحزازات ودماء بينهـا .

جربة تعود الى طرابلس

جاء فى « المنهل العذب » صفحة ٣١٨ ما يلى :

« ولما استولى على باشا برغل على طرابلس ودانت له القاصية، وجبى البلاد ، وصفا له جوها من اولاد قره مانلى ، تحدث مع رجاله فى الاستيلاء على مملكة تونس ، ووزع اعمالها بينهم ومنهم (قره محمد التركى) وعده بولاية جربة ، فقال له : ان هذه الجزيرة ذات خصب وثروة عظيمة ، وكانت من اعمال طرابلس ، واغتصبها والى تونس ، من سوء ادارة اسلافه ، فالبدار للفرصة ! .. هذه الجزيرة قريبة منا ، وعسكرنا حاضر مستعد للقتال .

فتوجه بالف مقاتل من الجند فى سبعة مراكب بلا استئذان الباب العالى . »

وصل جند على برغل بقيادة قره محمد التركى الى جزيرة جربة ، على حين غفلة من اهلها ، فاحتلها دون قتال ، سنة ١٢٠٩ وكان عاملها من قبل تونس الشيخ حميده بن قاسم بن عياد قد اذهلته المفاجأة ، فلم يقم بالدفاع ، وانما اودع حرمه فى زاوية ابى زيد ثم انفلت هاربا الى صفاقس فى مركب اوجدته الصدفة المناسبة ، وتلقاه محمود الجلولى فاكرم مثواه ، وطير الخبر الى حموده باشا صاحب تونس .

واهتم حموده باشا بالموضوع لا سيما وان على برغل قد طرد اسرة القره مانلى اصدقاءه من ولايتهم فى طرابلس فلجأوا اليه يطلبون منه المساعدة والنجدة .

درس حموده باشا الموضوع دراسة مستفيضة واكثر الاستشارة واستعرض حالة تونس الحاضرة ، وحالة برغل ، وعلاقة الجميع بالدولة العلية ، واخيرا قر رأيه على ان يقف مع ذلك المغامر الجرىء موقف الحزم ، فجهز جيشا عظيما تحت قيادة مصطفى خوجه وارسله الى طرابلس لطرد على برغل وارجاع ابناء القره مانلى الى مقر حكمهم .

واستطاع القائد التونسى الاعرج ان ينجح فى مهمته اعظم نجاح فقد استولى على طرابلس ، وطرد منها برغل ، وارجع اصدقاءه القره مانليين الى حكمهم وكف أيدى الجند عن الناس فلم يلحق طرابلس اى أذى من هذا الجيش الكبير ، فأحب اهل طرابلس هذا القائد واحترموه وجمع اغنياؤهم مبلغ مائة الف محبوب قدموه مكافأة لهذا الجيش العفيف ، وقبله منهم القائد واضاف اليه مبلغ اربعين الفا من عنده ووزعها على الجند ورجع الى تونس مشيعا بالاحترام والتقدير والاعجاب .

وفى نفس الحين الذى ذهب فيه مصطفى خوجه الى طرابلس لتأديب برغل جهز حموده باشا اسطولا آخر تحت قيادة الجزيرى وارسله الى جربة ، ووصل الاسطول التونسى الى جربة فتلقاه (قره محمد) ووقعت بين الجيشين معركة حامية انهزم فيها (قره محمد) وخرج من الجزيرة وكانت المدة التى بقيتها الجزيرة تحت حكم طرابلس فى هذه المرة ثمانية وخمسين يوما اى اقل من شهرين ، ومن المؤسف ان اعمال على الجزيرى فى جربة كانت عكس اعمال مصطفى خوجه فى طرابلس ، فما

فرت حامية طرابلس ودخل هو وجنده الجزيرة ، حتى اباح لهم البلاد ، فنهبوها وبلغ بهم الانحطاط والطمع الى انهم لم يحترموا حتى المساجد فنهبوا اوقاف كثير منها وبدأ على الجزيرة سلسلة من الانتقامات والعقوبات . وهكذا اصيبت هذه الجزيرة بمحنة اخرى لم تكن تتوقعها ، وبقى الجزيرى واليا على جربة لمدة شهرين ارتكب فيهما من الوان الظلم والقسوة ما حمل اهل الجزيرة الى ان يبعثوا وفدا الى تونس ، وذهب الوفد وعرض على حموده باشا ما تلقى الجزيرة على يد الوالى على الجزيرى فعاتبهم على تسليمهم جزيرتهم الى على برغل ، ثم قبل عذرهم ، واستمع الى شكواهم ، وعزل عنهم على الجزيرى ، وولى مكانه مصطفى بن حسن الكبير سنة ١٢٠٩

كان الجزيرى حين احتل جربة قد اسر من حامية طرابلس اربعمائة جندى فبعثهم الى تونس واستقبلهم حموده باشا كما يستقبل الامير الكريم طائفة من جنده المخلصين .

يقول النائب فى المنهل العذب صفحة ٣٢٥ : « وبعث له اربعمائة جندى طرابلسى من عسكر طرابلس اخذهم اسرى ، فقابلهم الباى بجزيل الانعام ، واثبتهم فى ديوان جنده ، وترقى بعضهم الى منصب الطاى وغيره من المناصب » .

بعد رجوع وفد جربة من تونس علم الجزيرى ان الباى غاضب عليه وانه لن يلقى خيرا اذا ذهب الى تونس فخرج فارا الى المشرق حتى وصل الحجاز وهنالك اصيب بمرض عقلى وتوفى وهومقيد بالاغلال بسبب المرض .

كانت محاولة برغل هى آخر محاولة لالحاق جربة بطرابلس وبعدها استقرت الجزيرة فى تبعية البلاد التونسية ولم يعد احد يطالب بارجاعها الى طرابلس . واصبح الباى يعين عليها

الولاة وسارت الحياة باهل جربة هادئة مستقرة نوعا ما من الجانب السياسى ، ولكن نشأت مشاكل جديدة من نواح اخرى قد نستعرض بعضها فى فصول آتية ان شاء الله .

خلاصة هذا العهد

هذا عهد تاريخى يمتد قرابة ثلاثة قرون نصف اذ يبتدىء باستيلاء درغوث بن على التركى على جزيرة جربة سنة ٩٦٠ وينتهى بالاحتلال الفرنسى لكامل القطر التونسى ومنه جربة سنة ١٢٩٨ هـ .

ينقسم هذا العهد من حياة جربة الى فترتين :

الفترة الاولى وتمتد نحو قرنين ونصف من سنة ٩٦٠ الى سنة ١٢٩٠ وهى فترة قضتها الجزيرة تحت الوان من الظلم والتعسف والاستبداد والفتنة من الداخل والخارج ، وقد تعاونت كل العوامل على جربة فى هذه الفترة ، حتى اصبح الناس لا يعرفون من اين تنزل عليهم المصائب .

وكان موقعها الهام وتربتها الخصبة وثروة اهلها من اهم الاسباب فى الكوارث التى نزلت عليها .

فقد تسلط عليها الولاة الاتراك على طرابلس مثل درغوث بن على وعلى برغل ووجهوا اليها من العنف اقسى ما يوجهه ظالم لا يرحم على ضعيف لا يملك قوة . ولكنه لا يذل ولا يستكين . ولم يقفوا عند حد فى الاضرار بها فقد وجهوا اليها حملات غازية متتابعة ، استنزفت منهم الدم والحياة . فقتلوا ابطالها ،وابتزوا

اموالها ، وحطموا قوتها ، وخربوا بلادها وعاثوا فسادا ، ولم يراعوا فيها لا حرمة الاسلام ، ولا حرمة الجوار ، ولا حرمة الضعيف المغلوب ، ولا حتى حرمة البشرية .

لقد وضعوا بين اعينهم صورة واحدة لهذا البلد المسلم هي الصورة التى عبر عنها على برغل بقوله : « ان هذه الجزيرة ذات خصب وثروة عظيمة » (١) ووضعوا لانفسهم صورة اخرى عبر عنها على برغل ايضا بقوله : « هذه الجزيرة قريبة منا ، وعسكرنا حاضر مستعد للقتال (٢) »

وما دامت الجزيرة ذات خصب وثروة ، وهى قريبة ، وعسكرهم مستعدا للقتال ، فماذا يمنعهم من ظلم الناس وقتل ارواحهم ، واستنزاف اموالهم ، وتخريب ديارهم ، ان من حقهم ـ فيما يحسبون ـ ان يستمتعوا بتلك الثروة ، وذلك الخصب ، فغزاها درغوت غزوات متلاحقات ، وكان فى كل مرة يقتل من اهلها من يصله سيفه ، ويأخذ من مالها ما تبلغه يداه ، وحاول برغل من بعده ان يقوم بنفس الدور ولكن حزم حموده باشا باى تونس ضربه على يده بعد المحاولة الاولى فخسر جربة وخسر طرابلس معهـــا .

ولم يقف الشر فى جربة فى هذه الفترة عند هذا الحد الذى يتمثل فى الغزوات الظالمة من ولاة طرابلس على الجزيرة ،وانما ابتليت بحكم اسرة ابناء ابى الجلود الذين اوصلهم درغوث الى منصب الحكم وكانت هذه الاسرة شر اسرة توارثت الحكم فى البلاد ، فكان حكمهم كارثة اخرى نزلت على البلد فيما نزل من الكوارث ، وقد امتدت هذه الفترة المؤلمة من سنة ٩٦٠ الى سنة

---

(١) المنهل العذب ص ٣١٨ (٢) نفس المصدر والصفحة

١٢٠٩ حين طرد على الجزيرى بأمر حموده باشا قائد الحامية الطرابلسية (قره محمد) الذى احتل جربة بأمر على برغل .

عاشت جربة فى هذه الفترة التى تمتد قرابة قرنين ونصف على اسوأ وضع عاشت عليه امة وقد اثر عليها من جميع النواحى أسوأ الآثار .

اما الفترة الثانية التى تمتد من سنة ١٢٠٩ الى سنة ١٢٨٩ وهى مدة تقارب قرنا من الزمن فقد عاشتها جربة تحت نظارة الحكومة التونسية . وكانت اكثر استقرارا وأمنا ، فقد كانت الحكومة التونسية تهتم بامر الولاة ، وتستمع الى شكايات الاهالى فيهم ، وتحاسبهم بعض المحاسبة على تصرفاتهم ، وقد تعزل البعض منهم استجابة لرغبة السكان كما فعلت بعلى الجزيرى ، فلم يستطيعوا ان يبالغوا فى الظلم ، ولا ان يثقلوا على الناس، وقد تخلصت جربة فى هذه الفترة من الغزوات الخارجية فلم يعد اليها الافرنج ولم يعد اليها ولاة طرابلس ، وبذلك استطاعت ان تأمن وتطمئن ، وان تنمى الناحية العددية فيها برجوع بعض المهاجرين من ابنائها وان تعود الى الكفاح لتحسين الناحية الاقتصادية التى استنزفتها الحروب والضرائب والغرامات .

لقد كانت الفترة الاولى من هذا العهد بما حملته معها من فساد وخراب وفتنة داخلية وخارجية ، قد قضت على الناحية الاقتصادية فى جربة . فبعدان كانت ارضا خصبة ، تنتج احسن الغلال واجود الفواكه ، وكان اهلها من ابرع المزارعين ، واحرصهم على العمل. عاث اولئك الجنود المتعاقبون فسادا فى تلك المزارع ، واحالوها الى ارض قاحلة ، ولم يتركوا لاصحابها فرصة لاحيائها والمحافظة عليها ، ولقيت الناحية الصناعية فى البلد نفس المصير ، فقد

كانت تقوم فى جربة معامل للصناعة المحلية تدر على اهلها ربحا لا بأس به ، فخربت تلك الجيوش ما جاء فى طريقها من تلك المعامل ، وشردت الصناع الذين يديرونها ، او يقومون عليها ، وبددت المواد الخام التى تقوم عليها تلك الصناعة ، واصبح الناس فى حالة يرثى لها ، يتوقعون كل يوم مزيدا من الشر ، ولكنهم لا يعرفون الصورة التى سوف يفد عليها . ومن المؤسف ان اولئك الحكام كانوا يطالبون بالمزيد من المال كانما كانت اصابع سكان جربة تسيل بالذهب .

ونتج عن هذه الاحوال ان كل من استطاع ان يهاجر هاجر الى اى بلد تيسر له ان ينتقل اليه فى امان ، وباشر الجربيون فى مهاجرهم اى عمل أتيح لهم ، وكانوا يتقدمون فى اعمالهم تلك فى مهاجرهم بفضل ما يتحلون به من صدق وأمانة واخلاص وجد ، وكانت اعمالهم تلك تنتهى غالبا الى افتتاح محال للتجارة . وهكذا كان هذا العهد الظالم سببا لهجرة اكثر سكان جربة الى الخارج للاحتراف ، وتعودوا ذلك فاستمروا عليه حين هدأت الاحوال واستقرت الامور . ولقد نتج عن هذه الهجرة ، ان تكونت ثروة فى ايدى التجار الجربيين ، واصبحوا من احسن سكان المملكة التونسية اقتصادا .

ولكن هل يغنى هذا المال الذى يجمعه سكان جربة فى مهاجرهم عن تلك الجنة الجميلة فى وسط البحر التى حرمت من سواعد ابنائها البررة .

ثم اين هى المجامع العلمية ؟ واين هى الوحدة التعاونية ، واين هى العزيمة الصامدة . والصبر الطويل الذى كافحت به جربة اساطيل اسبانيا مدة غير قصيرة ، واين هى تلك الاخلاق التى غرسها الاسلام فى نفوس ابنائها فحفظت عليهم عزتهم .

اننى وانا اكتب هذا الفصل تنثال على ذهنى عشرات الاسئلة عن جربة ووضعها فى الحاضر والمستقبل الذى نأمل ان يكون خيرا فى عهود الاستقلال الزاهرة ويطمئننى ان الشباب المسلم من ابنائها مع الشباب المسلم من البلاد التونسية العزيزة سوف يسهر على بناء مستقبل سعيد عزيز يسود فيه حكم الاسلام وينفذ فيه امر الله وتعم فيه العدالة جميع الناس ، اذ لا شك ان الامة التونسية ـ وجربة جزء منها ـ قد بلت كما بلت جميع الامم الاسلامية جميع الوان الحكم فى العهود الماضية وعلمت كما علمت جميع الامم الاسلامية الهوة السحيقة التى انحدرت اليها بسبب الانحراف فى الحكم عن المنهج الاسلامى وبسبب انغماس ولاة الحكم فى المتعة وعدم تحريهم للحق والعدل وسعادة الامة . وقد اوصلهم ذلك الانحراف الى ان تأخرت الامة الاسلامية عن مركز قيادة البشرية الى مرتبة التبعية فى الوان من العسف والقهر والهوان . واليوم وقد انزاح عن الامة الاسلامية فى مختلف دولها واوطانها كابوس الاستعمار ووضع عنها نير الاستعباد المقيت عسى ان تتركز منها الخطوات وتسير فى السبيل القويم وعسى الشباب المسلم فى الامة التونسية الكريمة ان يكون فى الرعيل الاول من الشباب المسلم الواعى اليقظ الذى يحرص على حفظ تراثه المجيد وبناء مستقبله المديد على اسس سليمة من حاضره السعيد .

كفاح الاباضية للانحراف

لا شك ان البلاد التونسية فى العهد الاسلامى ، قد تغيرت عليها انظمة الحكم ، بين عدد من الدول والامارات ، ولا شك انها كانت مقرا لعدد من الطوائف الاسلامية المختلفة المذاهب ، من صفرية ، ونكار ، ومعتزلة وشيعة ، وأشعرية ، واباضية وغيرها . وانه لعسير على مؤرخ ان يصور حياة هذه الامة المسلمة بكل طوائفها التى كانت تعيش على تراب هذه البلاد العزيزة باحثا لها من جميع الجهات ، ناظرا اليها من مختلف الزوايا .

وأنا فى هذا الكتاب انما اتحدث عن طائفة واحدة من تلك الطوائف الكثيرة التى عاشت فى هذا الوطن ، ولست فى حديثى هذا مؤرخا اتقصى الاحداث واتنطس الاخبار ، واتتبع سير الفرق لاسجل ما يقع فيه من حوادث ، وارافق الملوك والجيوش اصف معاركها ، وافصل انتصاراتها وانهزاماتها ، وانما كل ما أرمى اليه فى هذا الكتاب ان اجعل القارىء الكريم ، يعيش وسط الشعب ، ويحيى بين افراد الامة العاديين ، الذين لا علاقة لهم بالحكم والحاكمين الا حين يتفرجون على مواكبهم الفخمة وهى تسير فى الشوارع تياهة مختالة ، او حين تسوقهم الاقدار مرغمين فى بعض الاحداث . وان اضع بين يديه ، صورا لحياة

طائفة من المؤمنين عاشوا فى جزء من البلاد الاسلامية الفسيحة، قرونا من الزمن ، ولا يزالون يعيشون ، يدينون الله دين الحق، ويحملون رسالة الله فى ثبات وصبر ، ويجاهدون فى سبيل الله بقوة وعزيمة وجلد ، مثل ما اتاحت للاباضية فى البلاد التونسية .

وبما ان الاباضية قد تقلصوا تحت عوامل متعددة ، من كثير من الجهات ، التى كانوا يعمرونها ، وانحصروا فى جزيرة جربة، فان فى امكاننا ان نجعل هذه الجزيرة او هذه الطائفة من الاباضية فى هذه البقعة من البلاد التونسية العامرة ، موضوعا لحديثنا ومثلا نوضح به الصور التى نريد استجلاءها ، لنستخرج منها العظة والعبرة ، ولنرى ما تستطيع الامة الاسلامية ان تقدمه للبشرية ، اذا هى التجأت الى الاسلام ، واحتمت بدين الله .

اننا عندما نتحدث عن جزيرة جربة ، هذه الجزيرة الصغيرة، التى كانت تلين عندما يهاجمها المسلمون حتى تصاب بافدح الاضرار ، وتتصلب حين يهاجمها الافرنج حتى تصبح صخرة عاتية تتحطم عليها اقوى الاساطيل . فانما نقدم للامة الاسلامية فى مختلف ديارها وبمختلف مذاهبها مثالا واقعيا يثبت لها تاريخيا ان الامة المسلمة عندما تحتفظ بالاسلام لا تقهر بالقوة المادية وحدها ابدا ، وان الامة المسلمة حينما تتخلى عن الاسلام لا يمكن ان تنتصر لا فى ميدان المادة ولا فى ميدان الروح .

وجربة هذه الجزيرة الصغيرة المنزوية فى ركن خفى من خليج قابس ذات التاريخ المجيد لم تتوقف عن الكفاح فى سبيل الله فى يوم من الايام ، منذ دخلها الاسلام ، واستنارت ربوعها بنور الله ورنت فى بقاعها آيات الكتاب العزيز . وان كفاحها المجيد فى هذا التاريخ الطويل يتواصل فى عدة واجهات يمكن ان نعطى

عنه صورا مختصرة فيما يلى :

١ ـ كفاح الاباضية لاقامة دين الله

٢ ـ كفاح الرذيلة فى مختلف اشكالها والوانها.

٣ ـ كفاح الجهل بدين الله .

٤ ـ كفاح البدعة الزاحفة التى تتخذ الدين ذريعة لغايات خفية

٥ ـ كفاح السلطة الظالمة التى تتخذ الحكم وسيلة لظلم الناس وابتزاز اموالهم

٦ ـ كفاح التعصب المذهبى الذى يستغله الجمود تارة والسلطة تارة اخرى

٧ ـ كفاح الصليبية الحانقة ، التى ما فتئت تحارب الاسلام وتكيد له ولا تزال الى اليوم والى ما شاء الله **مهما اختلفت الاسماء والبلاد** .

الكفاح لاقامة دين الله

لما جاء الفاتحون الاولون يدعون الاسلام ، كانوا يحملون هذه الرسالة السماوية السامية ، التى جاءت بنظام شامل للحياة الانسانية ، كما يريدها خالق الانسان . نظام يشمل علاقة الانسان بالله الذى خلقه ، وعلاقة الانسان بالانسان فردا ومجتمعا . وعلاقة الانسان بالكون وما اودع الخالق فيه من قوى، واوضح اولئك الفاتحون للشعوب التى حملوا اليها الرسالة الاسلامية ، الطريقة التى يجب ان تتعامل بها البشرية ، وذلك بما فى كتاب الله عز وجل وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الخلفاء الراشدين ، وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم جميعا وسيرة من تبعهم باحسان ، وكان الفاتحون فى زمن الخلافة الرشيدة حراصا على ان ينفذوا احكام الله كما جاءت فى كتاب الله ، وعرفوه فى التطبيق الذى قام به من ولى الحكم من خيار هذه الامة .

فتقبل الناس هذا الدين فى شمال افريقيا كما تقبلوه فى البلدان الاخرى ، وقامت لمحاربته قلوب مظلمة بالكفر ، وايد مغلولة بالوثنية ، وعقول غرتها الحياة الدنيا ببهرج السلطة والنفوذ والتحكم ، وضمائر لوثتها المطامع فى الحياة فلم تعد تهتم للحق والخير والعدالة ، كما وقع ذلك فى جميع الربوع

عندما تشرق عليها لاول مرة، انوار الاسلام، ولكنها لا تلبث القلوب المتعفنة ان تفنى والعقول الخاطئة ان ترجع الى الحق وتستجيب لدعوة الله حتى ترفرف عليها راية الاسلام .

وتغير حملة الرسالة بعد ذلك فذهب اولئك الذين أوصلوا الرسالة وليس لهم هم الا ان ينتشر دين الله وتعلو كلمته ،وجاء من بعدهم قوم يبنون لملك عضوض ، ويؤطدون لدول متحكمة فى مال الله وعباد الله ، فأعتمت الصورة المشرقة التى جاء بها الاسلام ، لما انحرف الحكام عن اقامة دين الله . فطالب الناس باتباع امر الله والمحافظة على ما جاء فى كتاب الله ، واتباع ما وردت به الحنيفية السمحة ، ولكن الايدى الحاكمة ، التى كانت تمسك بمقاليد الامور كانت لا تستجيب لهذه الدعوة ، ولا يرضيها الرجوع الى حكم الاسلام العادل النظيف • لانه طريق لا يصلون منه الى غاياتهم من الترف والرفاهية وبلوغ الشهوات، والتحكم فى مقدرات الامة .

وتولد عن هذا الانحراف فى انظمة الحكم تطور فى الكفاح ضد الانحراف .

لقد سبق ان اشرت الى ان الاباضية كانوا منتشرين فى اغلب البلاد التونسية، ولقد كانت لهم مواقف فى الكفاح كما كانت لغيرهم من الطوائف والمذاهب مواقف .

ويجدر بى ان اقول هنا ان الكفاح ضد الانحراف قد اتخذ طرقا عدة ، ومظاهر مختلفة ، منها مواقف ايجابية صارمة ، ومنها مواقف سلبية لينة ، وبينها مواقف كثيرة تختلف قوة وضعفا ، ولينا وعنفا ، وشدة وهوادة . والكفاح ضد الظلم او الكفاح السياسى سوف نتحدث عنه فى فصل آت ان شاء الله. اما هذا الفصل فهو معقود للكفاح السلبى ، الذى يقصد منه اقامة

دين الله والمحافظة على احكامه بالنسبة للفرد والمجتمع دون اللجوء الى العنف او الثورة .

حرص الاباضية فى مختلف ادوار التاريخ على ان يقيموا دين الله فيما بينهم فان اتيح للامة الاسلامية دولة ترعى حدود الله، وتقيم احكامه ، تعاونوا معها وأعانوها ، اما اذا كانت الدولة القائمة جائرة غير سائرة على احكام الله . حرصوا على ان يكونوا اقل الناس شغبا ، واعطوها ما تطلب منهم من اموال او ضرائب مثل غيرهم من الناس وكفوا ايديهم عنها ولها، الا بمقدار الضرورة ثم رجعوا الى مجتمعهم فاتبعوا النظام الذى سموه بنظام العزابة وهو يكفل لهم رعاية المساجد واقامة الصلاة فيها ، وتيسير السبل لها والمحافظة على دروس الوعظ والارشاد وتثقيف العامة تثقيفا دينيا ودراسة كتاب الله والعلوم الشرعية واللغوية والاشراف على تعليم الصبيان وتربيتهم تربية اسلامية نظيفة ، والمحافظة على الاسواق ان تدخل اليها الاموال المحرمة او المستربة ، والتشديد على التجار ان تدخل بعض الصور الممنوعة ، فى معاملاتهم ، وقد كان كبار العزابة يتفقدون بانفسهم الاسواق والمتاجر ويشرحون للناس صور الربا وانواع المعاملات التى لا تجوز شرعا، حتى كان الناس يتندرون بذلك فيقول بعضهم: ان العلماء علموا التجار طرق الغش . لانهم يشرحون لهم الصور الممنوعة التى قد يكونون غير عارفين بها ، ولتشديد العلماء فى مراقبة الاسواق وما يدخل اليها اصبح الناس يتحرزون كثيرا ، ويترددون فى ان يشتروا شيئا من سكان البوادى الذين كانوا فى ذلك الحين لا يتورعون عن الاغارة واقتناء الماشية من طريق النهب، ولا سيما اولئك الاعراب الذين وفدوا مع بنى هلال وبنى سليم وكانت ادمغتهم لا تزال مشحونة بما كان يعتز به عرب الجاهلية

من الشجاعة والاقدام على الموت والاغارة على الاحياء المجاورة .

وكانت تثور بين العلماء فى هذا الصدد مناقشات حامية الوطيس وقد وقع نقاش من هذا النوع فى يوم من الايام فغلا احدهم حتى قال ان جميع الاموال التى بأيدى الاعراب ريبة لانها آلت اليهم عن طريق الغارة ، والسلب ، وحتى اذا لم يباشروا ذلك بايديهم فانها لا محالة وصلت اليهم عن هذا الطريق ، فقال له احد الحاضرين ان اصل الماشية منهم ، فقد جاءوا بها عندما دخلوا الى افريقية ، وكان المسجد غاصا بالحاضرين ، قسم الرجال غاص بالرجال ، وقسم النساء غاص بالنساء فقالت امرأة من قسم النساء بل هى اموال اهل البلاد اغتصبوها ثم هم يبيعونها .

ومفهوم بالبداهة ان النقاش كان يدور حول الاعراب من بنى هلال وبنى سليم الذين وردوا على افريقيا فى فترة من التاريخ ، وكل ما لديهم انما هى سيوف يقتلون بها وخيول يحاربون عليها وايد يأخذون بها ما تصل اليه من اموال الناس .

ان المناقشة السابقة تدل ان التحرج من الاموال المستراية امر شائع فى حياة جميع افراد الاسرة يتحرز منه الرجل وتتحرز منه المرأة وحتى عندما يتردد الرجل ويميل الى التساهل تقف المرأة المؤمنة دون ذلك التساهل ، لانها اقتنعت بوجهة نظر معينة ، والمرأة عندما تقتنع لا يمكن ان تتراجع .

ان الاباضية عندما انحرفت الدول عن اقامة احكام الله ، واصبح الناس يتهارشون على مناصب الحكم ، تخلى لهم الاباضية عن تلك المناصب ، واقاموا لانفسهم نظاما يكفل لهم القيام بجميع احكام الله ما عدا حكم الامامة ، ولقد حافظ الاباضية فى تونس على هذا النظام الى القرن العاشر ثم بدأوا يتحللون منه ، اما الاباضية فى الجزائر فلا يزالون يحافظون عليه الى اليوم ، ويستطيع الزائر

الذى يزور مواطن الاباضية فى الجزائر ان يجد صورة صحيحة للمجتمع الاسلامى فى الحى الذى يقرأ عنه فى السيرة ، المجتمع الذى يسير بحكم الله مستفيدا بما بلغت اليه الحضارة والعلم ، دون ان تؤثر عليه الحضارة بمفاسدها .

اما هؤلاء الاباضية الذين تحللوا من نظام العزابة فى ليبيا وتونس فقد جرفتهم الحياة ، كما جرفت غيرهم ، فى تيار الحضارة الفاسدة ، واصبحت اقامة دين الله عندهم كما عند غيرهم شكلية ظاهرية ، واثرت على شبابهم المتعلم كثير من الافكار والنزعات المستوردة التى يقصد منها اما محاربة الاسلام فى اسمى مبادئه ، واما تبرير الاخطاء التى وقعت فيها بلاد الغرب ، ولم تستطع التخلص منها . على انه لا تزال فى الشباب والشيوخ بقية تحمل روح التحفظ من الاثم ، الاثم الفردى ، او الجماعى ، ذلك التحفظ الذى كان معروفا عن اسلافهم وان املنا فى الله قوى فى ان يراجع المسلمون انفسهم وان يعودوا بها الى دينهم وان يبنو احاضرهم على القواعد الراسخة من ماضيهم .

لقد انقرض الاباضية من البلاد التونسية ما عدا جربة فيما اعلم فلم يبق منهم احد فى بلاد الجريد التى كانت عامرة بهم ، ولم يبق منهم احد فى جبال دمر التى كانت معقلا من معاقلهم ، ولعل من اهم الاسباب التى ادت الى انقراضهم هو تحللهم من نظام العزابة الذى لا يستطيع فيه الفرد ان يشذ عن الجماعة المسلمة بارتكاب المعصية ، فيحكم عليه بالبراءة فلما تحلل اولئك الناس من نظام العزابة أدى بهم ذلك الى عدم الاهتمام بالتعليم وأدى بالافراد الى عدم التحرج من ارتكاب المعصية الهينة فى نظرهم وغلب عليهم الجهل ، ثم توالى عليهم العدوان من الجموع التى

تحترف من الغارة والنهب والسلب وتتخذ الخلاف المذهبى أو الجنسى مبررا لاعمالها فكانت هذه العوامل مجتمعة سببا فى ان يهاجر بعض السكان الى جهات اخرى حيث يأمنون او ان يعتنقوا مذاهب الطوائف الغالبة .

وبقيت جربة محتفظة بمذهبها لانها بقيت محتفظة بنظام العزابة الى اواخر القرن العاشر ، ثم بآدابه وآثاره فيما بعد وقد تحللت هى الاخرى من هذا النظام ، واصبحت الرابطة بينها رابطة ضعيفة ، ولعل شبابها المتعلم الذى تخرج من معهد الزيتونه العامر او من غيره من دور العلم فى الشرق او الغرب يدرك انه لا حياة لامة مسلمة الا بالمحافظة على الاسلام ، المحافظة الحقيقية من اقامة دين الله فيما يتعلق بالفرد ، او بالمجتمع ، وانه يجدر به ان يعود الى الاسلام ليتحقق الروابط المتينة التى ربط الاسلام بها الامة المسلمة فى مجموعها والاسرة المسلمة فى نطاقها فيتمسك به ، فان التحلل من رباط الاسلام والانحلال من اخلاقه وتبعاته هو كل ما يطلبه منا اعداؤنا وفيما اسلفت من تاريخ جربة امثلة لقوة المسلم ، عندما يعمل بوحى الايمان وامثلة اخرى لضعفه عندما يتحلل من الاسلام وتصبح قضية الدين عنده شكلية تشبه ان تكون عادة لا عقيدة .

لقد حافظ علماء الاباضية فى البلاد التونسية وفى جربة بالذات على التمسك بدين الله فلم يسمحوا لاى فرد ان يتهاون بواجباته الدينية عملا وتركا . ومن خالف نفذ فيه حكم البراءة فرجع الى حظيرة الاسلام بالتوبة والاستغفار والتكفير ان كانت المسألة مما يتخلص منه بالتكفير اما الشؤون العامة فى قضايا الاحوال الشخصية والمنازعات الفردية والمشاكل التى تثور بين الناس فقد كان يتولى النظر فيها مجلس العزابة ويتولى شيخ

المجلس تنفيذ الحكم كما كان يتولى النظر فى الجرائم والمخالفات وتجرى الاحكام حسبما ورد فى دين الله، ولما انحل مجلس العزابة فى العهد التركى لاسباب عديدة ليس هذا موضع ذكرها بقيت المجامع العلمية تتولى ما كان تتولاه مجالس العزابة .. وكان شيخ تلك المجامع يقوم بما يقوم شيخ العزابة غير ان هذه المجامع العلمية قد فقدت قوتها التى كانت لمجالس العزابة وتجرأ الناس على مخالفتها اذ ليس فى يديها حكم البراءة ووجد اولئك المخالفون من يشجعهم ويحميهم من اصحاب السلطة والنفوذ .

ولعل الله سبحانه وتعالى يمن علينا فيلهمنا الرشد ويهدينا سواء السبيل .

كفاح الرذيلة

لقد ترددت كثيرا قبل ان اكتب كلمة الرذيلة فى هذا العنوان ، وناقشتها فى ذهنى طويلا ، ولكننى مع ذلك اثبتها هنا ، وجعلتها عنوانا لهذا الفصل ، وانا اعلم انها تدل على معان خاصة فى اذهان القارئين ، او على الاقل فان الناس لا يستعملونها الا على جوانب خاصة من الآثام . ومن سوء الاخلاق .

اذا قال قائل ان شرب الخمر رذيلة وان الكذب رذيلة ، وان الغش رذيلة ، وان الفجور رذيلة : فان سامعيه يوافقونه على ذلك ولا يعترضون ، غير ان وقع كلمة الرذيلة على سمع مرتكب احدى هذه الكبائر يكون اخف من وقع كلمة المعصية . فهل تكون كلمة الرذيلة مرادفة لكلمة المعصية ، وتدل على جميع ما يخالف الاسلام من عمل وترك . ويبدو لى ان كلمة الرذيلة تدل على جميع ما تدل عليه كلمة المعصية ، وقد تكون اكثر شمولا منها فتدل على الصغيرة التى لا تكون معصية الا بالاصرار ، وعلى المكروه ايضا . المكروه الذى لا يبلغ ان يكون حراما ولكن المداومة على اقترافه ، تدل على انحراف فى خلق المقترف ، ورغبة منه فى مخالفة الاسلام ولو فى بسائط الامور .

وبهذه الاعتبارات رأيت ان كلمة الرذيلة اصلح فى الدلالة على

معناها فى هذا الباب .

ثم ان هنالك بعض المعاصى ، يرتكبها اصحابها مستحلين لها وقد يوافقون على انها رذائل ولكنهم لا يوافقون البتة على تسميتها بالمعاصى ، والحكم عليها بالتحريم . وقد انتشرت انواع من المعاصى بين الناس ، حتى اصبحت عادات سائرة يرتكبها الافراد والجماعات ، دون تحرج ، لان كثرة انتشارها والف الناس لها خفف من شعور الاثم بارتكابها . فاذا ما قلت لاحدهم ان ما تفعله يا فلان رذيلة يجب الابتعاد عنها ، تجده موافقا على ان عمله ذلك رذيلة وقد يجيبك بانه سوف يحاول ترك تلك الرذيلة او يعتذر لك باى عذر يخطر على باله ، اما اذا وصفت عمله بانه حرام ومعصية فانه لن يوافقك على ذلك ويبرهن لك على خطئك بان اكثر الناس يفعلون ذلك ، او يصفك بانك جامد متخلف عن العصر . فتعاطى الدخان مثلا ، وتزوير الشهادات الطبية للتخلص من العمل ، او للخروج الى البلاد الاجنبية برسم العلاج على نفقة الدولة والنفاق الاجتماعى بالاطراء الكاذب للوصول الى غرض خاص ، او غير ذلك من الاشياء التى تعود الى سلوك الفرد الشخصى او سلوكه الجماعى بالنسبة للامة والدولة . اذا وصفت مرتكب ذلك بانه قد ارتكب رذيلة قد يوافقك على التسمية ويبتسم لك ابتسامة صفراء ، تدل اعجابه بدهائه وذكائه فى نفسه . ولكنك اذا قلت ان تلك الاعمال حرام ، ومعصية فانه لن يرضى لك بذلك ولن يوافقك عليه . وذلك لان امثال هذه الاشياء اصبح معتادا بين الناس وخف فيه الشعور بالاثم والاحساس بالمعصية. لان متعاطى ذلك قد تجاوز فى نفسه معنى مخالفة الحق الى الاستحلال ، واختفت من ذهنه احكام الشريعة فى تحريم الدخان ، كما اختفت من ذهنه نصوص تحريم غش الامة أو الدولة فى النفاق

الاجتماعى ، كما اختفت من ذهنه معانى تحريم السرقة ومحاسبة النفس عن موارد المال وطرق كسبها كما اختفت من ذهنه نصوص الشريعة من تحريم الاخلال بالواجب فى صور استصدار الشهادات للتخلى عن العمل . او لاخذ الاموال دون حق برسم العلاج لتصرف فى السياحة ومعانيها خارج الوطن او داخله .

ضربت للقارىء الكريم هذه الامثلة لبعض المحرمات التى شاع ارتكابها فى عصرنا الحاضر حتى اوضح له المعنى الذى اقصده بكلمة الرذيلة التى وضعتها فى عنوان هذا الفصل ، واحس ان ما ارمى اليه اصبح مفهوما . والرذائل التى حرص العلماء على محاربتها فى عصور متقدمة ليست هى بطبيعة الحال نفس الرذائل الموجودة اليوم والتى يجب على العلماء محاربتها وانما لكل عصر رذائله او بتعبير قد يكون ادق ان المجتمعات فى كل عصر عندما تنحرف عن احكام الشريعة قد يستسهل افراد منها نوعا ما من المعاصى او الرذائل حتى ينتشر وتصبح الاكثرية من الناس لا تتحرج منها ولا تشعر بالاثم فى ارتكابها وتصير رذيلة يعترف الناس بها ولكنهم يستحلونها ولا يعترفون بانها معصية ومحرم وتوجد فى المجتمعات الاسلامية اليوم امثلة كثيرة لهذا النوع انتشرت فى فترات طغيان الجهل وضعف بعض العلماء ثم اصبحت مما يعسر القضاء عليه . وفى ازمنة الانحلال الدينى لا سيما بعد القرن العاشر حين اقصى العلماء الاعلام عن قيادة الامة ، وحدت السلطة الحاكمة من نفوذهم الروحى على اعمال الناس ، وعملت على عزلهم عن المجتمع ، بدأ الناس يتعودون المعاصى ، ويتجرأون على مقارفتها ، ويبتعدون قليلا قليلا عن مكارم الاخلاق التى بعث سيد العلماء صلى الله عليه وسلم لاتمامها ، حتى مردوا على بعض المعاصى ، وزال من قلوبهم الشعور بالاثم فى ارتكابها ،

واصبحوا يقترفونها على انها عادات سيئة لكن لا ذنب فيها، فاذا جئت تنتقد احدهم على ارتكابه تلك المعصية على انها رذيلة وجدته ينتقد معك ويتحمس فى النقد ويسهب فى ذكر مضارها والمساوىء التى تنتج عن تعاطيها ولكن حين تأتيه من باب الدين وتذكر له ان ذلك منكر يجب الابتعاد عنه وان عمله ذلك معصية ومحرم بشرع الله حين يسمع منك هذا يزور ويلوى عنقه عنك، ويصفك بانك رجعى يغلب عليك الجمود .

ان الكفاح فى هذا الباب لا يخرج عن النهى عن المنكر والنهى عن المنكر يكون قاعدة اصيلة من قواعد المذهب الاباضى كما سبقت الاشارة الى ذلك فى الحلقاف الاولى من هذا الكتاب ، فما يجوز لمسلم يرى منكرا ثم يسكت عنه ، وقد حرص الاباضية على تطبيق هذه القاعدة والقيام بها قياما دقيقا لا سيما عندما توجد لديهم مجالس العزابة . وتجاوزوا كفاحها فى المحرم الى كفاحها حتى فى المكروه ، وكانوا يعطون لانفسهم حق الاشراف على الناس حتى يتعرفوا الخطأ والصواب فيه على اليقين فيأمرونهم بما يجب او يحسن ، وينهونهم عما يحرم او يكره .

ورغم ان الجنوب التونسى امثال فحص القيروان والحامة وبلاد الجريد وجزيرة جربة وجبال دمر ومطماطة وغمراسن وما بين ذلك ــ كان يعج بالعلماء الاعلام ، فان الواحد من اولئك العلماء كان يتكبد مشاق السفر وينتقل بين تلك البلاد المتباعدة ويرتحل الى الاحياء الضاربة فى الصحراء ، فيقيم مع كل حى اياما ليعرف سيرتهم عن كثب ، ويرى مقدار محافظتهم على دين الله ومدى فهمهم له وللعمل به ، وما ينتقل ذلك الشيخ الى حى اخر حتى يعقبه شيخ اخر من بلد اخر ، يقوم بنفس المهمة ، ويبالغ فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، او بالعبارة التى اخترناها

يقوم بمحاربة الرذيلة التى لا تجد فى مثل هذا المجتمع مكانا وقد حفظت لنا كتب التاريخ من هذا الكفاح المجيد احاديث تملأ المجلدات .

وقد يزور احدهم بلدا فيجد الناس قد خالفوا السيرة فى أمر لا يبلغ ان يكون محرما وخوفا من ان يتعود الناس التساهل فى آداب الاسلام وسيرة العدول من المسلمين ، ويتجرأ الناس على ارتكاب الصغيرة ثم يصرون عليها ، يأمرهم بملازمة السيرة وينهاهم عن الخروج عن اداب الاسلام الظاهرة فى سيرة المسلمين ، ويمتنع عن الدخول الى بلدهم والاكل من طعامهم ، حتى يقلعوا عن ذلك ويعودوا الى ما رضيه الاسلام والمسلمون الصاقون وبسبب ذلك الكفاح المجيد حافظ الاباضية على اخلاق الاسلام حتى تسلط الحاكمون على العلماء ، وكموا افواههم ، وقيدوا ايديهم وحالوا بينهم وبين الدعوة الى دين الله، فانطلق العامة دون هداية يوتكبون ما شاء لهم الهوى .

ان كفاح الرذيلة بمعناها الواسع ، ظاهرة واضحة فى تاريخ الاباضية ، فمع الحرص على صيانة المجتمع الاباضى من انتشار المعصية بين افراده بسبب تطبيق نظام العزابة الذى تحدثنا عنه باسهاب فى حلقات ماضية . حرص العلماء على محاربة ما اطلقت عليه اسم رذيلة حتى مما لا يبلغ ان يكون معصية . وحتى بعد ان انفرط عقد نظام العزابة فى الجنوب التونسى وليبيا كان العلماء ــ كأفراد ــ حريصين على القيام بهذه المهمة ويرون ان القيام بها واجب شخصى عليهم ، حتى تغلبت عليهم السلطة الحاكمة فى العصر التركى الاخير ، وكمت افواههم وربطت ايديهم كما قلت سابقا ، على ان اثر ذلك الكفاح لا يزال باقيا ، فلا زلت تجد البعد عن الشبهات ، والعفة عن اموال الناس ، والحرص على

اداء الواجب ، والامانة والاخلاص فيه ، من الخلال التى يتحلى بها الناس فى جربة مثلا ولا ازعم ان هذه الخلال تتناقض يوما عن يوم بسبب التيار الجارف فى هذا العصر فالامل فى اولئك الاخوان ان يحافظوا على ما بقى لهم من مستوى اخلاقى رفيع حتى يرجع اليهم الشارد ويفهم المخطىء اسباب اخطائه ونتائجها .

من الرذائل التى حاربها الاسلام رذيلة البطالة ورذيلة التسول ورذيلة الاعتماد على الغير فى مرافق الحياة وقد حرم الاسلام ذلك مع القدرة فما يجوز لمسلم يحرص على كرامة الاسلام فيه ان يعيش متبطلا يحترف التسول ويعتمد على ما يحسن به الناس اليه اللهم الا فى حالات الضرورة التى تبيح المخطورات والا فالمسلم لا يمد يديه للسوال وتلقى عطايا الناس . وكشاهد على كفاح الاباضية لهذه الرذائل اسوق اليك ما يقوله المؤرخ الكبير الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى مقدمته لكتاب مؤنس الاحبة : يقول الاستاذ حسن : « وهم ــ اى اهل جربة ــ معروفون بنشاطهم فى معترك الحياة ، وباقدامهم على مشاق واتعاب الغربة ، فى سبيل التكسب والكد المتتابع ، واقتحامهم الصعاب للحصول على كفاف من المال ، لا بنية التمتع به فى أماكن قرارهم البعيد . بل أمل كل واحد منهم العودة بذلك المكتسب الغالى الى وطنهم الصغير،وانفاقه فى اقامة منزل مناسب يحيط به جنان ذو ثمار من نخيل وزيتون وكرم وتفاح ، يكون العون المساعد لصاحبه عندما يدرك من العمر ما يمنعه من التمادى على نشاطه والاستمرار على العمل والاكتساب .

هكذا عرفنا سكان جربة وعرفهم من قبلنا آباؤنا واجدادنا واسلافنا ، وكذا وصفهم كل من سكن هذا القطر او زار الجزيرة فى القديم او الحديث . وهى لعمرى صفات جد وعمل دائبين

يحبذهما كل من يقدر قيمة العمل ويراه الوسيلة النافعة لاشادة البلاد فى وبناء عمرانها ، وتحرير قاطنيها من ربقة الحاجة ولقد حدا بهم هذ االسلوك الى ان صيرهم فى غنى عن السعى الى الوظيفة وعن التطلع الى الاستخدام فى مصالح الحكومة ، وهى غايــة لا تدركها الشعوب الا بالممارسة الطويلة للعمل والصبر على مضاضة العيش ، وعدم الاستنكاف من المهن مهما كانت قاسية ، وبالتالى هى نتيجة للتجربة والتجلد . » ويقول الاستاذ حسن حسنى بعد كلام : « وليس منا من لا يعرف افرادا من اهل جربــة ، ابتدأوا حياتهم بالشغل البسيط المتواضع فى ميدان الاقتصاد ، وتكبدوا مرارة الاتعاب ، ومضاضة العيش ، واقبلوا على المهن المرهقة حتى اصبحوا بعد حين من الدهر من اهل الثراء . فهذا نتيجة ذلك ، ثم انا لم نكن نسمع ان من بين اهل جربة من يمد يده للسؤال ولا من يعيش عالة على غيره ، بل ان افقرهم سواء أكان فى وطنه أو خارجه ، يكدح ليله نهاره لكسب قوته بيمينه ، ولا يرضى ان يمتهنه التسول ، وما من عمارة جديدة انشئت فى حضرة تونس أو خارجها وقبل انتهاء بنائها ، الا ويسبق اليها جربى فستأجر بها دكانا لتجارته ، او محلا لبقالة أو غيرها ، وليس هذا مــن الغريب ، بعد ان رأيت الفكرة التى يشب عليها وليد جربة من صغره ، وقد يرشده سابقوه من ابناء جلدته الى انجع طريــق يسلكها حسب استعداده وتأهله ، ويمدونه بالمعونــة المطلوبة ماديا وأدبيا ، فكان من اسباب هذا الانتهاج ان دبت فى افرادهم الامانة ، وسرى فى عروقهم حب الكد والصبر عليه ، كما كان من نتائجه الملموسة ان اقبل كبيرهم وصغيرهم على العمل ، واجتهد فى المثابرة على التكسب ، وترك الوناء والكسل ، وبفضل هــذا كله ظلت جزيرتهم ــ على فقر ترتبها ــ من اطيب المناخات، وابهى

البلاد فى المنازل التونسية .

ثم انظر يا رعاك الله الى ناحية اخرى من نشاط اهل جربة فى جزيرتهم ، فانى لا احسبك تجد فيهم من هو عاطل عن العمل ، ولا من يستلقى لاضواء الشمس لا يبدى حراكا ، فكلهم ــ صغار وكبار ــ مقبل على شغله اليومى منقطع لحرفته . »

وبعد كلام يقول الاستاذ حسن حسنى :

« فهذه التربية على العمل وهذا الانكباب المصحوب بالجد والمثابرة ربما لا يشاهد مثله على تلك الصفة فى المقاطعات التونسية الاخرى.» انتهى كلام الاستاذ حسن حسن عبد الوهاب.

هذه الاخلاق التى اعجب بها المؤرخ التونسى الكبير ، فى اهل جربة انما تكونت عندهم بسبب كفاح علماء الاباضية لعدة رذائل تجرى فى نسق واحد وهى رذيلة البطالة ، ورذيلة الاعتماد على الغير فى وسائل العيش ، ورذيلة محاولة التكسب من ايسر طريق ورذيلة الرغبة فى الحصول على المال دون اى حساب لشخصيته وكرامته ، ورذيلة الكسب الحرام او المشبوه . وقد طهر المجتمع الاباضى من هذه الرذائل ، وتكونت فيه الصفات المضادة لها فتجد فيهم النشاط والعمل والاعتماد على النفس والحرص على الاكتساب من الطرق الحلال والامانة فى المعاملة . وما الى ذلك .

لقد استطاع العزابة اولا والعلماء الذين ساروا بسيرتهم من بعد ان يكبحوا جماح الناس ، وان يجنبوهم ارتكاب الرذيلة فى مختلف صورها واشكالها ، ما بلغ منها درجة التحريم ، وما كان دون ذلك ، والباحث الذى يدرس المجتمعات ، يجد آثارا واضحة لكفاح العلماء فى هذا الجانب ولعل القارىء الكريم يرى امثلة فى الصور الاتية التى احاول ان اضعها بين يديه فى ايجاز واختصار.

١ ــ كان العلماء من الاباضية يحرصون ان لا تدخل اسواقهم،

البضائع المستربه ، والاموال المغصوبة ، خوفا من ان تستمرىء بطون الناس اكل الحرام ، فتلذ لهم المتعة ، وتغلب عليهم الشهوة ، وتهون عليهم المعصية ولذلك فقد كان العزابة والعلماء هم الذين يشرفون على هذا الجانب من حياة المجتمع ويحاولون ان يحافظوا على طهارته ونظافته .

٢ ـ عندما تقع بينهم وبين اى فرقة من المسلمين حرب وينتصرون فانهم يمسكون ايدهم عن الغنيمة والسلب والانتقام والتتبع . والتاريخ يثبت ان جميع الحروب التى اشترك فيها الاباضية فى تونس انما كان فيها الهجوم من غيرهم وانما كانت منهم دفاعا عن النفس او عن المال أو عن الوطن .

٣ ـ لم يحفظ التاريخ ان احدا من الاباضية فى تونس حاول ان يشن غارات على احد ، او حاول ان يتكسب بطريق الغزو والغنيمة واذا وقع عليهم هجوم من غيرهم ردوا عدوان المعتدين ، دون ان يتعرضوا لما حرم الله من دم او مال او عرض هذا مايجده من تتبع سيرتهم فى مصادر التاريخ اللهم الا اذا لم يفرق بين الاباضية وغيرهم من الفرق كالصفرية والنكار والمعتزلة وما شاء الله .

٤ ـ كان العلماء الاعلام مثل الامام فيلسوف الاسلام اسماعيل الجيطالى ، يتولون بانفسهم امور الحسبة فيتجولون فى المتاجر والاسواق يعلمون الناس الطرق الصحيحة للبيع والشراء ويبينون لهم الطرق المؤدية الى الربا او الى صورة من صور التعامل التى يمنعها الشرع .

٥ ـ كان العزابة والعلماء يهتمون بالسلوك الفردى للاشخاص كما يهتمون بالسلوك الجماعى فتراهم يعلنون حكم البراءة فى قوة

وعناية على من تسول له نفسه ان يخالف سيرة المسلمين او تغلبه نفسه فيميل مع الشيطان ، وترى العلماء يسارعون الى النهى عن كل بادرة تشعر بان المجتمع قد ينحرف عن سواء السبيل . فهم لا يقرون الفرد على ارتكاب الرذيلة لانهم يحكمون عليه بالبراءة فيضطر الى الرجوع الى الطريق القويم ولا يسكتون عما ينشأ فى المجتمع مما لم ينبع من سيرة المسلمين الصادقين . وبهذا الموقف حافظوا على سيرة كاملة للمجتمع الاباضى الذى يعتبر مجتمعا اسلاميا نظيفا حريصا على تطبيق الشريعة الاسلامية فى الكليات وفى الجزئيات .

٦ ــ يحرص العزابة والعلماء ان يكلفوا كل فرد داخل تحت نظامهم بالعمل والكفاح فى سبيل العيش الحلال ويحاولون ان يجدوا لكل شخص عملا يتناسب مع استعداده الفطرى وكفاءته الشخصية ولا يسمحون للمسلم الاباضى ان يحترف التسول الا فى الحالات الضرورية جدا تقدر بقدر دفع غائلة الجوع ريثما يجد الشخص العمل الذى يدر عليه كسبا يكفيه او تهيأ له حياة كريمة تحفظ ماء وجهه وكرامة شخصيته عن الابتذال والامتهان، وهم يجمعون بين النصوص الواردة فى الحث على مساعدة الفقراء وعلى الاكثار من الصدقة وعلى معاملة السائل باللطف والرحمة وبين النصوص التى تحرم التسول ، وتمنع الصدقة عن القوى الذى يستطيع ان يحترف بانه يحرم على المسلم ان يتخذ التسول مهنة يحترف منها ، وعلى المسلمين ان يمنعوه من ذلك اولا بالنهى عن ارتكاب هذه الرذيلة واقناعه بان هذا لا يتفق وعزة المسلم وثانيا باتاحة فرصة العمل او الحياة اذا لم تتح له بتوجيهه التوجيه السليم فى هذا الطريق . وقد نجح علماء الاباضية فى هذا الباب نجاحا منقطع النظير وفى الحين الذى ترى فيه افواجا من

المتسولين فى بعض الجهات وهم اقوياء الاجسام ، ذووا استعداد للعمل غير انهم يفضلون ان يكسبوا المال بمد الايدى وترد يد اللسان لبعض الدعوات ، فانك فى المجتمع الاباضى لا تجد متسولا واحدا يتككف الناس اعطوه او منعوه اللهم الا اذا دخل اليهم من جهة اخرى ، ولا تزال هذه الظاهرة واضحة الى اليوم .

هذه صور مقتضبة اضعها بين يدى القارىء الكريم فى ايجاز، ويستطيع ان يجد كثيرا من هذه الصور اذا هو تتبع التاريخ او اتيح له ان يعيش بين الاباضية فى مواطنهم التى لم يتغلب عليهم فيها الانحلال العصرى .

على ان هذه الصور الكريمة التى يعتز بها اى مسلم ، والتى حسب الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب بعضها مزايا ومراحل ، لا تصل اليها الشعوب الا بعد عناء وجهد، هذه المكارم التى حرص اسلافنا على الاتصاف بها ، بدأنا نحن نتخلى عنها . وانه لمما يحز فى نفسى وانا استعرض ذلك التاريخ المجيد ان الاباضية فى تونس وفى ليبيا قد بدأوا يخالفون سيرة اسلافهم الامجاد ، واصبحوا يرتكبون بعض تلك الرذائل التى حار بها علماؤهم الاعلام بدون توقف ولا هوادة . فأصبحت ترى فيهم من يتلهف على الحصول على الوظيف ، ومن يهمه ان يجمع المال ، غير ناظر الى وسائل ذلك الجمع بل قد ترى من يرتكب بعض تلك المؤبقات التى حرص ابوه على محاربتها بحكم الاسلام ، فتراه يحمل علبة السجائر أو علبة السعوط او غيرها مما حرمه الاسلام للاستعمال أو للتجارة .

والحقيقة المرة ان الشعب ـ اى شعب ـ اذا ابتلى بازدراء المقومات التى حفظت عليه شخصيته وكرامته ، واصبح يتحلل من مزاياه الدينية والخلقية ، ويقلد الاخرين فى رذائلهم فانه

سوف ينحدر الى هوة بعيدة القرار .

اننى حين اسوق هذا الكلام وانا اتحدث عن جربة او عن الاباضية فى تونس ، لا اقصد به جربة فقط ولا اهل جبل نفوسة فقط ولا المجتمع الاباضى فحسب ، وانما اقصد به الامة المسلمة جمعاء بمافيها من طوائف ومذاهب. فان هذه الامة الكريمة، ما اصيبت بما اصيبت به، الا حين تخلت عن مقوماتها كأمة تحمل رسالة الى البشرية . وتسابق افرادها الى المناصب فى الدولة ، والى الوظائف فى الحكومة ، يشغلونها ليبتزوا اكثر ما يمكن من مال ، بأقل ما يمكن من جهد ، وليشبعوا فى انفسهم شهوة السيطرة والتحكم والاستبداد ثم تخالفوا على ذلك وتطاحنوا عليه ، وتعادوا من اجله ، ثم استمرأوا البطالة وساغ فى حلوقهم المال الحرام فى المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمكسب ، ولم يقف بهم الشيطان فى هذا الحد ، فتنازلوا عن خصائصهم كامة قائدة هادية. وانحطوا الى ان يكونوا امة هزيلة ضعيفة تقلد الغير وتقتبس منه وتتبعه فى الاخطاء والرذائل . واعرضوا عن ذلك المنهج الذى كون من شتى الامم والاجناس خير امة اخرجت للناس واعظم دولة سارت بالبشرية فى الطريق القويم واصبحوا يستوردون مناهج للتجربة من امم ضالة عمياء .

اعمى يقود بصيرا لا ابا لكم قد ضل من كانت العميان تهديه

متناسين المنهج الآلهى الذى سار به اسلافهم وقادوا به البشرية الى الخير والحب والسلام .

ومن المؤسف ان العالم الاسلامى العظيم انقسم الى امم صغيرة يجثم على صدر كل امة منها اراجوز يطلق على نفسه اعظم الاسماء واضخم الالقاب ومن حوله طائفة من الاتباع وهم جميعا

لا يزيدون عن ان يكونوا اراجيز خشبية وضعت للعب ، او ابواقا تنتفخ للدعاية ، او قطعا مقلمة الاظفار تنتفخ وتنتفش ولقد صدق الشاعر القديم حين يقول :

مما يزهدني في أرض اندلس ... اسماء معتمد فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير سلطنة ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

وقد ساء الوضع على ما عرفه الشاعر القديم ولا يزال يسوء .

ومن المؤسف ان كل صاحب لقب من هذه الالقاب ينتفخ وينتفش ويتنمر على اخيه ، فاذا لاح له الاجنبي اصبح اذل من وتد ، وفي الحين الذي تجد فيه اصحاب هذه الالقاب ، الذين يضفون على انفسهم اكرم النعوت ويتسربلون ثياب القيادة والزعامة ، والدعوى العريضة على انهم حراص على مصلحة الامة ، تجدهم يتحرشون باخوانهم في الدين ، ويستأسدون عليهم . وينكلون بالعلماء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وينتقدون ما في حكمهم من فساد وانحراف . وهم مع هذا المظهر المتجبر مع الاخوة لا يستنكفون ان يتذللوا لاعدائهم في الدين او الوطن ، ويتملقون من لم يضع يوما سلاحه في حرب الاسلام والمسلمين ، وليت ملقهم هذا كان مقصورا على قوى يخشون سطوته ، او غنى يطمعون في ثروته ولكنهم لا يزالون يتملقون من هو دونهم ارضاء لمن هو اكبر منهم ، ومما يؤذي سمع المسلم ان تجد اولئك الرؤساء أو الزعماء يضفون النعوت الكاذبة على مكاريوس صاحب قبرص ويستقبلونه استقبال الصديق العزيز وهو الرجل الذي لا تزال يداه ملوثتين بدماء المسلمين من الترك ولا يزال يحمل سيف الصليبيين الحانقة على المسلمين ويؤلب من يستطيع من

الدول الغربية كاليونان على اعنات المسلمين فى جزيرة قبرص واستذلالهم واخراجهم من وطنهم ويحارب بكل ما يملك من حيلة القساوة ودهائهم الروح الاسلامية الباقية فى الشعب القبرصى وفى الشعب التركى .

وتجد امثال هذه المواقف مع زعماء الهند الذين استعمروا كشمير وقضوا على ما يزيد على عشرة ملايين من المسلمين، وشردوا منهم الافا من الناس لا يزالون بدون وطن او مأوى .

وتجد مثل هذه الاواصر المتينة تربط مع هيلاسلاسى او غيره من زعماء افريقيا الذين لا يزالون الى اليوم والى ما شاء الله يحاربون الاسلام ويعذبون المسلمين ، بل ان اولئك الرؤساء او الزعماء لم يستطيعوا ان ينبسوا ببنت شفة يوم قام الوثنيون فى زنجبار فقضوا على دولة عربية مسلمة مرت عليها هنالك قرون وهى تسير بنور الله . لم ينبس اولئك الزعماء أو الرؤساء ببنت شفة فى ذلك الحادث الاليم حياء او خوفا من انصار الصليبية والوثنية فى افريقيا .

ولعل اشد ضررا من هذا ان تجد قوما ينتسبون الى العلم بدين الله ويزعمون انهم يحرصون عليه ــ لا يخجلهم فى انفسهم ، ولا فيما بينهم وبين الناس ، ولا يخشون الله ان يبرروا باطل اولئك الرؤساء والزعماء ، وان يحللوا لهم تلك الجرائم التى يرتكبونها باسم من الاسماء وان يباركوا العلاقات الاثمة التى تربط بين امة مسلمة وامة مشركة لم تزل تضطهد المسلمين فى ديارها وتحاربهم فى غيرها بما ملكت من حيلة ومكر ودهاء متجاهلين القوانين السماوية التى جاء بها الاسلام ليبين للمسلمين طرق التعامل مع غيرهم من امم الشرك والوثنية فى حدود قوله تعالى : « **يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء تلقون**

اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق . »

« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، واخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون . »

ومما يحز فى النفس ان دولا تجعل قضية فلسطين والقومية العربية كمصحف عثمان وأصابع نائلة تملأ الدنيا ضجيجا وصراخا ويرتفع صوتها عاليا على ما يقع فى جنوب افريقيا من ظلم بين البيض والسود هذه الدو لالتى تملك الابواق ذات الاصداء الرنانة لم يحرك مشاعرها الاسلامية او الانسانية ان يقضى فى ليلة على دولة مسلمة فى زنجبار وتشرد الملايين من المسلمين من كشمير ويعذب الالاف منهم فى افريقيا السوداء وفى نفس الوقت الذى كانت فيه اصابع الدولة الهندية ملوثة بدماء الجريمة فى كشمير واصابع ملك الحبشة المتعصب تقطر من دماء المسلمين فى الحبشة فيفتح اولئك الرؤساء اوطانهم وصدورهم واذاعاتهم وجرائدهم لاولئك الذين حادوا الله ورسوله ، وقاتلوا المؤمنين فى دين الله واخرجوهم من ديارهم وظاهروا على اخراجهم وودوا لو يكفرون. ارانى خرجت عن الموضوع واجتذبنى التاريخ الحديث عن التاريخ فمعذرة الى القارىء الكريم فيما اضعت له من وقت فى اشياء يعرفها ويتصورها خيرا مما اعرفها انا واتصورها .

انكل ما اريد ان احدث به اخوانى هو اننى ادعوهم الى ان يحتفظوا بما عرف عن اسلافهم من كفاح للرذيلة فى شتى صورها والوانها فاذا احتفظ الشاب المسلم ، بكرامة المسلم ، فلم يسلم نفسه للشهوة ، ولم تتغلب عليه الدعة ، ولم يتملكه حب الكسب من اى طريق ، ولم تغلب عليه رغبة التسلط والقهر والتحكم فى الغير ، وانما حافظ على طهارة نفسه فى سلوكه وفى ماله وفى

مرافق حياته جميعا ، ثم رجع الى الحقيقة التى خلق من اجلها ، وهى انه صاحب رسالة مسؤول امام ربه ، وامام نفسه ، وامام البشرية على حمل تلك الرسالة ...

اذا **رجع الشاب المسلم الى هذه الحقيقة ، وعمل بها**، فانه سوف يجد نفسه فى المقدمة امام قافلة البشرية يقودها بحكمة ، ويهديها السبيل القويم على معرفة ، اما اذا اراد ان يسير فى ذلك الطريق الذى سلكه غيره فانه لن يصل ... لن يصل الى المجد الدنيوى لان امما اخرى سبقته بمراحل طويلة يستحيل عليه ان يطويها قبل نهاية السباق ، ولن يصل الى المجد الاخروى الذى كلفه الخالق الاعظم بتحقيقه ، لانه ضل سبيله وحاد عن الاتجاه السليم .

كفاح الجهل بدين الله

ان الجهل بدين الله هو اكبر اعداء الانسانية واخطرها ، وكان علماء الاسلام يعتبرون هذا الميدان اول ميادين الجهاد واهمها ، وكانت عنايتهم مصروفة اليه قبل اى شيء ، ولقد كانوا يقومون بالكفاح فى هذا الميدان كما يقوم اى حريص على اداء واجبه دون ان ينتظر أجرا او شكرا او امرا من احد . انه الواجب الشخصى لكل عالم ، ولذلك فهم يرون انهم مسؤولون أمام انفسهم بالدرجة الاولى عن التعليم ، مكلفون به ، فاذا كانوا يعيشون فى بلد مسلم فمهمتهم ان يبصروا الناس بدين الله أو ان يعلموهم أوامر ربهم ونواهيه ، وان يفتحوا لهم افاق المعرفة والاستنارة فى الحياة، واذا انطلقت الجيوش الاسلامية الى افتتاح بلاد الكفر لابلاغ الدعوة ، انطلق العلماء ضمن الجنود الذين يحملون راية الاسلام . وما ينتهى القتال ويدخل الفاتحون بلاد الكفر حتى يضع العلماء سيوفهم ثم ينطلقون الى اداء واجبهم الشخصى ، واجب التعليم ، وقد ادى علماء المسلمين هذا الدور الرائع ابان الفتح بكل حرص وامانة ، ولعل فضلهم فى نشر الاسلام وادخال عقائده الى القلوب المغلقة المملوءة بالخرافة والوثنية كان اكبر من فضل المحاربين الذين فتحوا البلاد، فان هؤلاء ما زادوا ان دكوا حصونا من حجارة،

وفتحوا ابوابا من خشب ، اما العلماء فقد دكوا حصون الكفر والوثنية والجهل ، وفتحوا قلوب الناس وبصائرهم لترى نور الله .

واذا رجعنا الى الحديث عن علماء الاباضية فى البلاد التونسية نجدهم من اكثر علماء الامة كفاحا فى هذا الميدان وحرصا عليه ، واذا كان بعض علماء الامةفى البلاد الاخرى تسندهم دول، وتقدم لهم المساعدات المادية أو المعنوية ، فان علماء الاباضية ، كانوا يحاربون الجهل بما لديهم من وسائل دون ان يعتمدوا فى ذلك على ذى سلطان. وكانت بلادهم من اكثر البلاد الاسلامية مدارس، وكانت نسبة المتعلمين اعلى نسبة ، وكانت الاقسام الداخلية تأوى كل من لا تتيسر له الدراسة على نفقته ، وكل ذلك انما يقوم به العلماء انفسهم ، فهم يتولون التعليم ، وهم يتولون انشاء المدارس ، وهم يتولون جمع الطلبة وجلبهم للدراسة ، وهم يتولون الانفاق عليها فاذا كانت مواردهم الاقتصادية لا تتسع لذلك ، استعانوا بغيرهم ، فكان الواحد منهم يبذل وقته وجهده وماله ، ليوفر للطلبة وسائل الراحة والاقبال على التعليم ، وقد يتفق مع أصحاب المال ان يقوموا بالجانب المادى فيتولون الانفاق على مشاريعه التعليمية ليواصل هو كفاحه فى سبيل نشر العلم وبث المعرفة ، ولعل هذه الظاهرة كانت اظهر فى جربة منها فى غيرها من بلدان الاباضية فى المملكة التونسية وقد اتضحت اكثر فى القرون المتأخرة عندما انحل رباط العزابة الذينكانوا يشرفون على التعليم واصبحت قضية التعليم احدى الواجبات الهامة التى صارت منوطة بالعلماء مباشرة واصبحوا يحسون بوجوبها احساسا بليغا فكانوا يضمون الى جهودهم العلمية جهود اصحاب المال المادية ليقوموا بهذه الرسالة المقدسة على احسن ما يمكن .

وفى القرن الحادى عشر وما بعده اصبح العلماء افرادا ومجموعات اكثر اهتماما بالموضوع وكانوا يدأبون على اراحة الطلبة من الجانب المادى ، فكانوا ييسرون لهم وسائل الحياة الكريمة فى مدارسهم الداخلية بما يتخذونه من التراتيب مع اصحاب المال ، فاذا ضاقت المدرسة عن بعض الطلاب او كان احد الطلاب يدرس فى جهة اخرى لا تتوافر فيها وسائل السكنى والاستقرار الجماعى للطلبة ، فسرعان ما يتصل العلماء بغنى من الاغنياء ليتكفل بالانفاق على الطالب الفقير ، ويستجيب الغنى ويحسب ذلك نفقة فى سبيل الله . وما اكثر ما كنت ترى طلابا يتفرغون لطلب العلم ويسكنون فى الخلايا التابعة لمسجد من المساجد ويأتيهم فى كل شهر ما يكفيهم لنفقتهم ويزيد ، من احد الاغنياء المحسنين ، وقد اعتاد اغنياء جربة ، هذه العادة واصبحت فكرة الانفاق على طلاب العلم ــ لا سيما الطلاب الذين يأتون اليهم من بعيد ــ من احب انواع البر الى انفسهم ، حتى كادت تكون عادة دائمة ، واستمرت هذه العادة الى الزمن الاخير ، وانتقل حب الانفاق على طلاب العلم مع اغنياء جربة حتى خارج الجزيرة ، فكان التجار فى تونس ينفقون على الطلاب الذين يدرسون فى المعهد الزيتونى العامر أو غيره من المعاهد ، وليس من النادر ان يؤم طالب علم مدينة تونس من جزيرة جربة او من جبل نفوسة ليدرس العلم فسمع به احد التجار هنالك فيدعوه اليه ويتولى الانفاق عليه حتى يتم دراسته .

هذا جانب من جوانب الكفاح فى سبيل العلم اما الجانب الثانى فيتضح مما يأتى : يشرف احدهم على مدرسة يتولى تنظيمها وادارتها والتدريس بها ، يساعده فى ذلك بعض العلماء وكبار الطلاب ، ولكن قبائل او احياء اخرى قد تكون بعيدة بعض الشىء

عن هذه المدرسة ، فيتقاعس ابناؤها عن الحضور ، ويتخلفون عن الدراسة ، فيهتم صاحب المدرسة لذلك وينظم اوقاته واوقات مدرسته بحيث يستطيع ان يزور هو او احد مساعديه تلك القبائل او الاحياء البعيدة ، زيارات منتظمة فى الاسبوع او اليوم يلقى فيها دروس العلم للطلاب ودروس الوعظ والارشاد للعامة فى المساجد ، ويقوم فى نفس الوقت بملاحظة سيرة الناس ومدى اتباعهم لاحكام الدين ومحافظتهم عليه ليقوم بواجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ان وجد داعيا الى ذلك .

وعلى هذه الوتيرة كان يعيش العلماء ، ورب حى او ناحية ليس بها مدرسة او ليس بها مشائخ علم فى فترة من فترات التاريخ ، يتعاقب عليها عدد من المشائخ من جهات مختلفة يلقون فيها دروس العلم ودروس الوعظ والارشاد مرات فى اليوم ، ويرتب جدولها الاسبوعى بحيث يخصص لكل شيخ وقت محدد يدرس فيه مواد معينة .

انهم كانوا لا يتركون الجهل يستبد بالناس . ومعركتهم مع الجهل هى المعركة الحقيقية الطويلة التى يرون انهم مطالبون بين يدى الله بالكفاح فيها . ولقد يسمع احدهم بان بلدا من البلدان او قبيلة من القبائل . حتى تلك القبائل البدوية الضاربة فى الصحراء خلت من العلماء او المتعلمين فيشد اليها رحاله تاركا وطنه وماله ـ واحيانا ـ اهله ويستقر فى البلد الجديد او الحى البعيد يعلم ابناء المسلمين ويحمل الناس على الاستمساك بدين الله والعمل بما جاء فيه . حتى اذا اطمأن الى انهم قد سلكوا الطريق القويم ، ورأى ان المدرسة بدأت تؤتى نتائجها واصبحت تسير بدونه اتجه حينئذ الى وطنه ورجع الى بلده ليستقر هنالك ولكنه يبقى على استعداد دائما لمواصلة الكفاح فلو علم ان مكانا

اخر يحتاج الى جهوده فانه سرعان ما يشمر للرحيل .

لقد اهتم اولئك العلماء بالامة اهتماما عظيما من جانبين جانب التعلم والتعليم وجانب السيرة والسلوك والمحافظة على دين الله ، فكانوا لا يكتفون بالسؤال ، ولا بما يبلغهم عن اخوانهم من طريق السماع ، وانما كانوا يفضلون المشاهدة ويعتمدون عليها ، ولذلك فهم لا ينفكون عن زيارات جميع النواحى والاطلاع على احوالها ، ومعرفة شؤونها عن كثب فكان العالم من القيروان مثلا، يزور جميع بلدان الجنوب حتى يصل الى وادى اريغ وقد يستمر الى وارجلان به او بادية بنى مصعب. وقد يسير مشرقا حتى يصل الى جبل نفوسة وهو فى جميع ذلك يتنقل بين بلد وبلد وقرية وقرية وحى وحى ، زائرا ومتفقدا ومعلما ، ومتعلما . وكلما حل مكانا نظر فاذا وجد اهله يحتاجون الى تعليم او تقويم اقام عندهم للتعليم او للتقويم ، واذا وجد عندهم علما ليس عنده مكث للتعلم واذا رضى حالهم من الناحيتين العلمية والدينية ولم يجد داعيا للبقاء بينهم انتقل الى غيرهم ، ولقد كانت هذه المسافات الممتدة التى نراها اليوم شاقة ومتعبة بوسائلنا الحاضرة ــ كانت عليهم يسيرة سهلة هينة بوسائلهم فى تلك العصور . ذلك اننا نركب القطار والسيارة والطائرة ، ونقيس المسافات والاعمال بالمقياس المادى الموغل فى المادية اما هم فقد كانوا يركبون عزائمهم واراداتهم ، ويقيسون المسافات والمشاق بمقاييس روحية ، فتضاءل امامهم العقبات ، وتطوى المسافات ، وانه ليندر ان تجد عالما من اولئك العلماء لم يزر اغلب البلدان التى بها اخوانه فى المذهب ، ويعطيها ويأخذ منها وقد يقيم فى البلد الاخير ويستقر كما فعل الكثيرون منهم .

ويستطيع المؤرخ ان يجد لهذه الظاهرة مئات الصور ، فانه ما

اخذ بلدا من بلدان الاباضية وتتبعه وتتبع سيرة علمائه ، الا وجد منهم عددا غير قليل يسير بهذه السيرة المباركة . خذ مثلا جبل وسلات هذا الجبل الشامخ المشرف على القيروان والذى كان فى ازمنة طويلة من اهم معاقل الاباضية انك اذا تتبعت سيرة علمائه فسوف تجد الى جانب المدارس الكثيرة التى كانوا يشرفون عليها هناك ويؤمها طلبة العلم من جميع الجهات للدراسة ، انهم كانوا ينتشرون فى بقية البلدان لاداء هذه الرسالة العظمى . بل انك تجد بعضا منهم قد انتقلوا من اجل قضية التعليم خارج البلاد التونسية كلها ، فهذا العلامة عبد الغنى الوسلاتى(١) الذى يضعه علماء عصره فى طبقة الامام ابى عبد الله محمد بن بكر ، ينتقل من جبل وسلات ولا يزال يمر بالبلدان يعلم ويتعلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحارب البدع المتكالبة ويؤسس المدارس حتى ينتهى به المطاف الى كباو فيثوى هنالك رحمه الله ورضى عنه .

وهذا العلامة ابو زكرياء يحيى الوسلاتى ينتقل بين بلاد أهل الدعوة يدعو الى التمسك بدين الله والاعتصام بحبله المتين ويفتتح المدارس حتى يبلغ به المطاف الى اجلو .

وفى اجلو ولد له ولده العلامة جعفر الورسلاتى (٢) .

كان ابو زكرياء الوسلاتى فى درجة من العلم والعمل قريبة من درجة ابى عبدالله بن بكر ، وكان ولده جعفر من انجب طلاب ابى عبدالله ومن احبهم اليه وهو فى مرتبة ابى العباس احمد بن محمد بن بكر .

هذا الكفاح المتواصل فى سبيل نشر العلم دون الاعتماد على

---

١ ـ ذكره ابو عبدالله الباروني فى الطبقة التاسعة .

٢ ـ ذكره ابو عبدالله الباروني مع ابيه فى الطبقة التاسعة .

مساعدة مادية من احد هى احدى الميزات او الخصائص التى كان يمتاز بها ذلك السلف الصالح ، وانك لو رجعت الى التاريخ الاسلامى عامة لوجدت ان اهل العلم فى تلك العصور كانوا يحسبون تعليم الجاهل فريضة واجبة عليهم لا يحلهم منها الا القيام بها ولذلك كانوا يحرصون على ادائها مهما بذلوا فى سبيلها من جهد أو مال .

ولم يكن العلم فى يوم من الايام وسيلة للحياة أو للمال ، فما يجدر بكرامة العالم ان ينحط بها حتى يأخذ تعويضا او بدلا عن علمه ، اللهم الا فى هذه العصور التى انقلبت فيها مقاييس الاخلاق وتنوسيت احكام الدين وبعد الناس عن رعاية جانب الله فى اعمالهم . واصبح الرجل يمد يديه فى وقاحة دون حياء ليقبض اجرا على درس فى الوعظ والارشاد ، او على تلاوة سورة من القرآن الكريم ، او حتى على اذانه فى مساجد المسلمين ، او صلاته بجماعة منهم . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم كانما العبادات اصبحت هى الاخرى وظائف تؤدى للدولة لا لله .

كفاح البدعة

عندما ابلغ الفاتحون الاولون الاسلام الى افريقيا على صفائه في زمن الصحابة رضوان الله عليهم اقبل الناس عليه وتقبلوه واعتنقوه لا سيما وانهم وجدوا فيه حلا لجميع المشاكل الانسانية التى عقدتها الحياة ، فلقد استنارت قلوبهم ، وانتشرت بينهم عقيدته الصافية الواضحة وتحطمت عليها العقد الوثنية بمختلف عقائدها التى كان يدجل بها الوثنيون واصحاب الديانات الباطلة والمحرفة ، كما تحطمت عليها خرافة الالوهية البشرية واستغلال الانسان الذكى للانسان الغبى والانسان القوى للانسان الضعيف وسار الفاتحون الاولون سيرة الدعاة المخلصين الى الاسلام ، فاطمأن المؤمن واقتنع الشاك ، ورجع المرتد ، وآب الشارد ، فلما تولى الحكم طلاب الدنيا والراغبون فى السلطان ، انحرفوا عن مبادىء الاسلام فى كثير من الاحكام . واصبحوا يتجنبون تطبيق ما لا يتفق مع رغباتهم ومطامعهم ، ثم لحق بهم فى الانحراف ناس اوتوا علما وذكاء وفهما ، وصاروا يدخلون على الاسلام آراء غريبة عنه بعيدةعن الحق . فاضطر علماء الامة الى الدفاع عن نصاعة الاسلام. فكانوا ينقدون سلوك الحكام المنحرف،وينهونهم وينهون اتباعهم عن البدع العملية ، التى كانوا يرتكبونها ، من جهة ، ومن جهة اخرى كانوا يردون الاراء الخاطئة والتأويلات

الباطلة ، وذهبوا فى هذا ثلاث مذاهب متعاونة متساندة .

الاول انكار البدع العملية ، وذلك لنقد سلوك الحكام الذين يقرون بجميع احكام الاسلام ولكنهم يخالفونها فى اعمالهم ، فيعترفون بوجوب العدل ولكنهم لا يعدلون ، ويعترفون ان اكل اموال الناس بالباطل حرام ولكنهم يبتزونها ويختلسونها ويغتصبونها ، ويعترفون ان دماء المسلمين حرام الا يحقها ولكنهم لا يتورعون عن سفكها لأتفه الاسباب ، فكان العلماء يردون هذه البدع العملية ، ويواجهون الحكام بالنهى الصارم واللوم الشديد، وقد يتجاوزون موقف النقد والنهى الى موقف الثورة كما فعل فقهاء كبار التابعين فى اوائل الدولة الاموية فى الحركة المعروفة التى ذهب ضحيتها التابعى الكبير سعيد بن جبير ، الثانى هو تتبع الآراء الخاطئة والافكار الدخيلة ، والبدع التى تمتد وتنتشر يوما بعد يوم سواء جاءت هذه البدع عن طريق ناس ينتمون الى العلم والفكر او جاءت عن طريق عادات الناس وسريانها فيما بينهم بحكم الجوار والتقليد. فكانوا يتتبعون هذه البدع، ويظهرون بطلانها ، ويوضحون مخالفتها لصريح الكتاب او السنة او السيرة البينة للعدول من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يقومون بهذه البيانات اما بالرد على اصحابها فى المجامع العلمية وفى كتب تؤلف لهذا الغرض اذا اصطبغت تلك البدع بصبغة علمية ، اما اذا كانت من باب الاعمال الفردية والعادات التى تنتقل بين الناس فقد كانوا يكتفون بمحاربتها بدروس متوالية فى المساجد وفى المجامع والمناسبات .

الثالث يكاد يكون وقائيا ، وذلك بانهم حرصوا على نشر العقيدة الصحيحة والدعوة السليمة ، والبرهنة على صحتها وسلامتها واستمدادها من الاصول الاسلامية ومحاولة افهام الناس ، قواعد

الايمان كما جاءت فى الكتاب والسنة دون تحريف او خطأ فى التأويل ، وملء قلوبهم بها ، وتشبع عقولهم بصحتها ، حتى لا تجد البدعة الى نفوسهم سبيلا وقد كان هذا المجهود منهم يتناول الدين والشريعة او بعبارة تفصيلية كان هذا المجهود يبذل للمحافظة على العقيدة وعلى العبادات وعلى المعاملات الفردية والجماعية .

وهذا هو الميدان الذى كان يجوبه اكثر العلماء المخلصين ، فهم يحاولون ان يحافظوا على سلامة العقيدة فى نفوس الناس وذلك بتلقينهم اياها ، وتعريفهم بها قبل ان تصل الشبه اليهم ، حتى اذا جاء من يريد ان يزحزحهم عن دينهم وجد عندهم الحصانة الكافية ، واليقين الذين لا يتزعزع ، ولا ينال صفة التشكيك .

ولقد كان معروفا ان عددا من الفرق الاسلامية كان منتشرا فى المملكة التونسية كما كان منتشرا فى بقية بلاد المغرب الاسلامى الفسيح . ومن بين تلك الفرق التى كانت تعمر هذه البلاد المعتزلة والصفرية وبعض فرق الاشاعرة والاباضية وغيرهم ، ولا شك انه كثيرا ما يندس فى بعض هذه الفرق اناس ذووا دعوات او مبادىء خاصة يكتمون عن الناس دوافعهم الحقيقية لاعتناقها والدعوة اليها ، ويظهرون انهم يعملون للاسلام ، وهم يرمون من وراء ذلك الى الوصول الى غايات خاصة يتوقون اليها ، او رغبات مكتومة يرجون الحصول عليها ، يمت بعضها الى النواحى المادية ، بينما يمت البعض الاخر الى النواحى الدينية والروحية ، ولعل منهم من يهمه ان يحارب الاسلام باسم الاسلام ، متنكرا وراء عقيدة او رأى او مبدأ وليس هذا بطبيعة الحال مقصورا على افريقيا او المغرب بل كان موجودا فى جميع البلاد التى تغلب عليها الاسلام وساد فيها ، ولعل وجوده فى المشرق الاسلامى كان اكبر من وجوده فى المغرب الاسلامى .

وفى هذا الميدان ميدان محاربة اولئك المتنطعين الذين يحاربون الاسلام وحقائق الاسلام بادخال بدع فى دين الله ، سواء كان الدافع لهم الى ذلك ماديا او دينيا ، وسواء فعلوا ذلك عن قصد او عن خطأ وسوء فهم ــ كان يقف العلماء المخلصون الموقف الصامد القوى يذودون عن دين الله خطر البدعة الجارفة .

ولقد كان علماء الاباضية من احرص الناس على مكافحة البدعة، فكانوا يجوبون المسافات الطويلة من هذا القطر ليبقوا دون ان تدخل البدع القولية او العملية الى الناس ، وكثيرا ما ينتقلون من مكان الى مكان بعيد ليردوا بدعة بدأت تتسرب الى عقائد الناس او الى أعمالهم حتى اذا صححوا الوضع وأقروا الحق ، رجعوا الى مواطنهم ، وكانوا يكثرون زيارة اخوانهم فى بلادهم ليروا اعمال الافراد ، ويطلعوا على سلوكهم واقوالهم ويتعرفوا على سيرتهم عن كثب ، ويحضروا مجالسهم العلمية فى المساجد والمجامع العلمية ، وتراهم فى جميع ذلك حريصين على ان يبينوا دين الله كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم اقوياء فى ذلك اشداء لا يسكتون عن منكر من القول او الفعل مهما كان صاحبه. وبمجرد ما يرون ذلك عنه احد من الناس سرعان ما يأمرونه بالرجوع الى الحق والتوبة من الخطأ فان استجاب فذلك المطلوب والا اخرجوه الى الخطة ووحشة الهجران ، ولقد تصدر الكلمة الخاطئة عمن يتحلى بالعلم ويتصدر المجالس دون ترو او عن سبق وهم الى النفس فلا يسكتون لها ويردونها على صاحبها ويطالبونه بالرجوع من الخطأ الى الصواب بل لقد بلغ بهم هذا التمسك بالصحيح الى ان الطلبة قد ينتقدون اساتذتهم اذا بدا لهم انهم اخطأوا فى قول او اعتمدوا والقول المرجوح دون دليل مقنع وقد يبدأ الطلبة فيضعون شيخهم فى الخطة اذا ظهر لهم انه اصر على الخطأ حتى

يعود الى القول الصحيح والعمل السليم . واذا كانت هذه مواقف الطلبة فى بعض الاحيان مع اساتذتهم فكيف تراه تكون مواقف العلماء الاعلام فى محاربة البدعة ورد الباطل . ومما يدخل فى محاربة البدعة رد بعض الاراء التى تروج فى بعض المذاهب الاسلامية الاخرى مما يرى علماء الاباضية انها مخالفة للاسلام فى روحه فى مفهومه اوفى منطوقه، فيعملون على ابعادها من مجتمعهم، ويحاربونها باعنف ما عندهم من وسائل كفاح البدعة والى القارىء الكريم امثلة من ذلك .

١ ــ يرى بعض العلماء من بعض الفرق الاسلامية انه يجب على المسلم العمل بالفرائض دون العلم بها وبكيفيتها ويرى علماء الاباضية ان هذا الرأى بدعة تجب محاربتها وابعاد مفهومها عن الناس وكانوا حراصا على رد هذا القول وافهام الناس ان ما يجب العمل به يجب العلم به وبكيفية ادائه ، وان على العمل به الثواب ، وعلى تركه العقاب ، لانهم يقولون كيف يتصور عاقل ان يصدر عمل صحيح من انسان لايعلم كيفية ادائه ، ولذلك فقد كانوا يعلمون الناس بعض الفرائض بالطريقة العملية فضلا عن الطريقة النظرية فيدربون الاطفال فى مبدأ البلوغ على الطريقة الصحيحة للتطهر والصلاة مثلا .

٢ ــ يقول بعض العلماء من بعض الفرق الاسلامية ان العمل ليس شرطا فى صحة الايمان، ويكفى لكى يكون الانسان مؤمنا ان يعتقد ويقر ، ويرى علماء الاباضية انه لا يتم ايمان الانسان حتى يقرن القول بالعمل ، ويحسبون ان القول بعدم اشتراط العمل لصحة الايمان بدعة يجب محاربتها وابعاد مفهومها عن الاسلام ، وكانوا يعملون فى حرص جاهدين ان لا يتقبل الناس هذا القول وان يعملوا به والا فان مبادىء الاسلام سوف تذوب

بسبب هذا الرأى الذى يجعل الاسلام دينا سلبيا مبنيا على كلمات تنطق بها الشفاه .

٣ – يحكم علماء بعض الفرق على مرتكب الكبيرة بانه كافر كفر شرك ويحكمون نتيجة لذلك باستحلال دمه وماله ، ويرى علماء الاباضية ان هذه بدعة ادخلت على الدين بسبب خطأ فى الفهم والتأويل . ولذلك فقد كانوا حراصا على ابعاد هذا المفهوم عن الناس ويتشددون فى تحريم دماء المسلمين واموالهم بما لا يزيد عليه .

هذه امثلة من الاراء التى كانت عند بعض طوائف المسلمين ويرى الاباضية انها بدعة يحرصون على مكافحتها ، وابعادها عن الناس ، لانها تضر ضررا بالغا بحقيقة الاسلام . فان الفكرة الاولى مثلا التى ترى وجوب العمل دون العلم بالفرضية والكيفية وترتب الجزاء تجعل اداء الفريضة عملية يقوم بها المسلم لا روح فيها ، اذ ينتفى من ادائها معنى الخشوع والتقوى ومعنى الخوف والرجاء من قلب المسلم .

اما الفكرة الثانية فهى تسلب الاسلام ميزته الحقيقية فان ميزة الاسلام على غيره من الاديان انه دين علم وعمل ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه رضى الله عنهم حراصا على العمل والاستمرار فيه والثبات عليه ، فلما انتشرت هذه القالة فيما بعد ، اخذها الناس على معناها السطحى ، ووجدوا فيها سندا للاهمال والتهاون ، وطمعوا ان يجازوا بالحسنى مع الاصرار على المعصية ما دامت السنتهم تلوك كلمة الشهادة ، ويقابل هذه البدعة من الجانب الثانى الفكرة الثالثة وهى الحكم على مرتكب الكبيرة بالشرك واستحلال دمه وماله ، وهى فكرة تخرج اغلبية الناس عن الاسلام ، وتحكم فيهم

الاهواء والنزعات ، وتبيح منهم ما حرم الله من حرم صانتها كلمة الشهادة .

هذه امثلة وضعتها امام القارىء الكريم كنماذج . وهنالك بدع كثيرة بلغ بعضها الى ان يكون رأيا لفرقة من فرق الاسلام ، وكان بعضها شطحة من شطحات العلماء عندما يستحكم فيهم التعصب واللجاج والجدل ، ومنها ما دسته الاسرائيلية الماكرة ، او الوثنية المتحجبة ، او الصليبية الحاقدة ، ومنها ما املته شهوة استرضاء الحكام والنفوذ ، ومنها البدع العملية التى تنتج عن الاهمال وعدم الحرص فى تنفيذ احكام الله . وتتبع هذه الانحرافات واظهار جهود العلماء المخلصين فى مكافحتها امر يطول ويحتاج الى مجلدات، ويستطيع القارىء الكريم ان يعود الى مظانها ليجد منها الشىء الكثير .

كفاح السلطة الظالمة

تعاقبت الوان من الحكم على البلاد التونسية منذ الفتح الاسلامى الى الاحتلال الفرنسى . كان منها ما يمثل الحكم الاسلامى فى عدله ونزاهته ومساواته بين الناس ، واتاحة فرص الحياة الكريمة للجميع ، وكان منهاما يهمه المجد العسكرى او انظمة السلطان ، فيعمل على التحكم والاستبداد ، وكان منه مالا يهمه من ذلك غير جمع المال ، واتاحة المتعة لاصحاب الحكم ، وكان منه ما يجمع بين فترات من الحكم الاسلامى المشرق الذى ينطبق على الاسس السليمة لنظام الحكم ، وفترات من الحكم الظالم الطاغى ، وكان العلماء المخلصون لدين الله طول هذه العصور يجاهدون ..

كانوا يجاهدون بكل ما يملكون من سطوع الحجة ، وقوة الحق، ونصاعة البرهان . ينتقدون الحكام فى انحرافهم عن سبيل الله ، ويحاولون ان يقوموا سلوكهم ، بالموعظة الحسنة، والبيان الواضح، والتهديد بعقاب الله للظالمين، واحيانا بالدعوة الى مطالبتهم بالتخلى عن الحكم ، فان لم يستطيعوا ذلك حاولوا بمختلف الوسائل ، ان يخففوا من اثر الظلم على الناس ، وقد كانت منهم مواقف مشرفة، فى رد كيد الظالمين ، والوقوف فى وجوههم ، وتذكيرهم بانهم انحرفوا بدين الله عن النهج الذى اراده الله للامة المؤمنة .

والمتتبع للاحداث التاريخية يجد ان بعض العلماء قد نجحوا فعلا

فى رد العدوان ويجد بعضا آخر منهم قد ادى بهم حرصهم وحفاظهم على دين الله وعلى كلمة الحق ، الى السجن والتعذيب حينا ، والى القتل احيانا . كما كان الحال مع ابى القاسم بن مخلد ، وابى عمرو النميلى وابى محمد كموس ، وأبى موسى الزواغى ،وابى سليمان بن ابراهيم وغيرهم كثير ، وقد يتوالى الظلم والاستبداد حتى يحمل بعض العلماء الى الدعوة الى الثورة وقلب نظام الحكم وابعاد الظالمين عنه كما وقع لاى خزر يغلا زلتاف .

وان المتتبع للتاريخ فى البلاد التونسية ، يجد ان هذا القطر الكريم قد تداولته ايد مختلفة من الحكم ، فقد استقلت به دول فى بعض الاحيان ، وكان تابعا لاحدى الدول فى الشرق او فى الغرب فى بعض الاحيان ، وتقاسمته دولتان او اكثر فى احيان اخرى ، وعاش مقسما بين حكام محليين فى اوقات كثيرة ، يتولى الامر فى كل قسم من امراء أشبه بالمشائخ ، وقد يكون القطر كله تابعا من حيث الاسم لحكومة مركزية ، لا يهمها الا مقادير من الضرائب تدفع لها سنويا اما بقية الشؤون فتتولاها كل جهة بنفسها تحت سيطرة ولاة او حكام شبه مستبدين بالدولة والشعب ولكنهم مع ذلك يباشرون جميع اعمالهم باسم الدولة .

وفى الفترات التى كان فيها الحكم من هذا النوع ، كان السكان يعانون اشد انواع الظلم والارهاق والجور، فكان الناس يكافحون جهدهم فى ايقاف او تخفيف ما ينزل عليهم بما يقدمونه لاولئك الحكام من هدايا او رشاوى .

وكان اولئك الحكام كثيرا ما يشترون مناصبهم باموال يقدمونها للحكومة المركزية ثم يعودون الى افراد الشعب المساكين فيجمعون منهم اضعاف مابذلوا مرتكبين فى ذلك اشد الوان العسف والجبروت.

ولما كان اولئك الولاة او الحكام لا يقيمون حكمهم على أسس

تشريعية من الاسلام ولا على اسس قانونية من وضع البشر ، وانما كانوا يسيرون وفق رغباتهم الخاصة ، وشهواتهم الحالة ، فقد كانوا يرتكبون جرائم القتل او السبى او مصادرة الاموال بناء على غضبة لسبب تافه كوشاية من حاقد ، او تحريض من عنصرى متعصب سواء كانت تلك العنصرية جنسية او مذهبية او حتى قبلية . او رغبة فى جمع مزيد من المال ، او حنق على اهل بلد لانه اهله يميلون الى حاكم اخر ، وانك تستطيع ان تجد عشرات الصور المؤلمة لاحداث غاب فيهـــا الايمان والخلـق والضمـير والانسانية ، وها انا امد يدى الى اقرب المصادر التاريخية على المكتب فانقل اليك امثلة مما كان يرتكبه اولئك الحكام بمختلف درجاتهم .

يقول التيجانى فى رحلته صفحة ١٤ وهو يرافق أبا زكرياء اللحيانى ليجمع مزيدا من الاموال يستمتع بها ذلك السلطان القابع فـى الحضرة واساطيل الافرنج تملأ عباب البحر : « وارتحلنا مـن الحمة يوم الاثنين الحادى والعشرين . متوجهين الى نفزاوة فنزلنا يومنا ذلك بمنزل يعرف (بمجزم) وهى قرية كبيرة وعليها غابة نخل ممتدة ، وبها قصور ومنازل ضخمة بالنسبة الى مبانى البادية ، ووجد الاجناد اهلها قد فروا عنها جلاء ، وتركوها خلاء ، فانطلقت ايديهم بالعيث فى ربوعها ، والرعى لزروعها وكثيرا ما كانـوا يحتفرون ارضا فيجدون اهلها قد اودعوا هنالك ما صعب عليهم نقله ، واثقلهم من الاثاث حمله ، فاذهبوا بالافساد رسمها ولم يبقوا منها فى الحقيقة الا اسمها . »

ويقول التيجانى فى صفحة ١٧٩ متحدثا عن (تبلبو) : « وكانت بها قبل هذا غابة نخل فقطعت ايام محاصرة مخدومنا لقابس كما تقدم . »

هذه صور ينقلها لنا شاهد عيان فى اوائل القرن السابع الهجرى .

والى القارىء الكريم صورتان اخريان من هذه الصور التى ينحرف فيها الحكام عن نظام الاسلام، يقوم باحداث احداها مغامر جرىء يجرى وراء المال ويقص علينا التيجانى احداث الصورة الاولى نقلا عن ابن انخيل فيقول فى رحلته صفحة ١٧٤ : « وفى خلال تنقله — اى الميورقى — الى تلك الجهات بلغه عن اهل طره من اقليم نفزاوه ما غيره عليهم ، فوصل اليها ، وقاتلها حتى افتتحها ، ثم اطلق الجند عليها ، فقتلوا الرجال، وانتهبوا الاموال، وافترعوا الابكار ، وخربوا المنازل والديار ، ووجد الميورقى بها رجلين من اجناد الموحدين كانا قاطنين منذ زمان فضرب رقابهما صبرا ، وترك طرة خاوية على عروشها ، وخرج من سلم من اهلها فتفرقوا فى بلاد نفزاوة . »

اما الصورة الاخرى فاستمع الى التيجانى يحدثنا عن ذلك فى رحلته صفحة ١٣٨ : « ثم توجه المنصور الى قفصة فحاصرها حصارا شديدا الى ان خرج اليه اهلها راغبين فى العفو فشارطهم على تأمين اهل البلد فى انفسهم خاصة وتبقى املاكهم بايديهم على حكم المساقاة ، وجميع من عندهم من الحشود والغرباء والاجناد ينزلون على الحكم . فوقع الاتفاق على ذلك ، وخرج جميع من فى البلاد من اهلها وغيرهم حتى لم يبق فيه الا النساء ، فميز اهل البلاد وامروا بالرجوع الى بلدهم . وبقى من كان بها من الغرباء والحشود والاجناد ومن جملتهم ابراهيم بن قراتكين المعروف بسلاح دار المتقدم الذكر ، فثقفوا ساعة ، ثم جلس المنصور اثر صلاة الظهر بموضع جلوسه ، واخذ الناس مراتبهم ، وامر

باولئك المثقفين فقيدوا اليه فامر بذبحهم ، فذبحوا بين يديه اجمعين ، لم يفلت احد منهم ، وكان الاعمى الفهمى حاضرا ، وهو نحوى فاضل كان الخليفة يعينه لقراءة اولاده القرآن ، فطلب ان يسمح له بشخص منهم ، يتولى ذبحه بيده ، فاجابه الخليفة الى ذلك ، ولما اضجع له طلب يسيرا من الملح والصعتر كما يفعله العامة بالضحايا . فاضحك بهذا الفعل المبكى جميع من حضر ، وامر المنصور بهدم سور قفصه وقسمه على جميع من بالمحلة فاعادوه فى مدة يومين اثرا بعد عين ، وفى هذه الخطرة هلك أكثر نخيل قفصه ، اذ كان المنصور قد آلى ايام حصاره لها ان يقطع كل يوم الف نخلة . »

هذه الصور التى نقلتها لك ايها القارىء الكريم هى امثلة لسيرة الحكام منذ انحرفوا عن التزام احكام دين الله وبعدوا عن فهم الروح الاسلامية فى كرامة النفس البشرية وعمران الارض بما يزيدها خصبا ونماء فى ظلال العدل . هذا الظلم الذى رأيت صورا منه ما كان يعانيه السكان طيلة قرون طويلة، ما ذهب ظالم الا ابتلوا بأظلم منه .

وقد كان الاباضية اكثر تعرضا لهذه الالوان جميعا من الظلم فقد كانت الحملات توجه اليهم، والدمائس تحاك حولهم، والدعاية المغرضة تصدق فيهم ، فكانت مواقف الحكام الظالمين منهم هى الاسباب الحقيقية المباشرة لانقراض الاباضية من كثير من الامكنة التى ازدهر فيها المذهب الاباضى وكون بها عمرانا ونشر علما . مثل بلاد الجريد عامة، وقابس والقيروان والحامة وجبال غمراسن والدويرات وجبال الحوايا وما الى ذلك جميعا . ولعل من اهم الاسباب التى اثرت عليهم اكثر مما اثرت على غيرهم انهم كانوا لا يستحلون لانفسهم ان يعينوا الظالمين ويرتكبوا معهم ما يرتكبون،

فلا يدخلون ضمن الجيوش الضاربة ، ولا ينضمون الى الشراذم المخربة ، ولا يطالبون بكراسى الحكم لانفسهم بل ان الاموال التى تصل اليهم عن هذه الطرق كانوا لا يقبلونها لانها اموال مغتصبة فهى حرام ، وهم يبتعدون عن ذلك ولا يجيزونه لا بالقول ولا بالعمل . وهذا ما عزلهم عن غيرهم ممن يستحل دماء المسلمين واموالهم عقيدة او عملا . ووجه اليهم النقد العنيف، ثم المحاربة العلنية والخفية ، وخصهم طلاب السطوة والمال بالكراهية والمطاردة .

وقد بدأ هذه الحملة المعز لدين الله الفاطمى وبالغ فيها المعز بن باديس وتابعه عليها كثير من الحكام الذين يريدون ان يوطدوا لملكهم بكل ما وجدوا من وسيلة واذا كان المعزان يرتكبان ما يرتكبان لتوطيد الملك فيما يزعمان ولاقامة دولة وتثبيت حكم ، فقد يكون لهما فى ذلك عذر فى منطق السياسة والساسة . ولكن الذين جاؤا من بعد . من حكام الامارات لم يكن القصد مما يرتكبونه فى الاغلب اقامة دولة ، او خدمة مبدأ ، او اقرار نظام عادل أو جائر ، وانما كانوا طلاب مال ، يستحلون من اجل الحصول عليه كل شىء ، وكثيرا ما يقوم الواحد منهم فيجمع شرذمة من المغامرين الذين لا يفرقون بين حلال وحرام ، فيهجمون على اى بلد او قبيلة او حى ، فيقتلون ويغنمون، ثم يذهبون وقد انتفخت اوداجهم بالنصر الذى احرزوه ، وجيوبهم بالمال الذى اغتصبوه ، وقد يرتكبون من الفواحش ما يتعدى المال والدم فينتهكون الاعراض، ويستبيحون الحرم . وقد وجدت قبائل اعدت نفسها لهذه الحياة المتوحشة ، يتدرب شبابها على القتال بطرق الغارة ، والسلب والنجاة ، ويتغنى شعراؤهم ببطولتهم فى ذلك . وما قام مغامر يريد حربا الا انضموا اليه ، لا حبا فى نصرة المغامر ، ولا انتقاما

من عدو متربص أو مراعاة لحق من حقوق الصداقة او الجوار . ولكنهم يفعلون ذلك لكى يجدوا فرصة لمزيد من جمع المال من اماكن لا يتيسر لهم الوصول اليهادون مساعدة من غيرهم،ويبررون ما يرتكبون من هذه المناكر اما بالخلاف الجنسى او الخلاف القبلى او الخلاف على الحاكم او النزاع على البطولة واكثر ما يبررون العدوان بالخلاف المذهبى. فى الوقت الذى لا يعنيهم من امر المذهب او الجنس او القبيلة شيء وانما يعنيهم الحصول على المزيد من المال .

ولقد قاسى الاباضية اشد الوان العذاب من هذه الالوان جميعا.

ومن المؤسف ان ينحدر الى هذه الوهـــدة ناس ينتسبون الى العلم والمعرفة . من بعض الرحالين الذين يرافقون اولئك الحكام، او بعض المتعصبين الذين يعملون فى وظائف حكومة من الحكومات. فكان لهؤلاء جهد كبير فى التفريق بين فرق الامة ، وحمل الحكام الجورة على ارتكاب الظلم ، وتيسيره لهم ، وتبرير اسبابه ، وذلك باشادتهم بذلك الظلم ، واسباغ لون الشرعية عليه ، وتبريره تبريرا دينيا يخفف وطأة العقيدة او الضمير على الظالم . وحمل السذج والبسطاء من الناس على اعتقاد ان ماينزلونه بغيرهم من الطوائف الاسلامية من عدوان فى ظل ذلك الحاكـم امر يتطلبـه النظام ، ويقره الاسلام ، ويلقون فى روعهم ان اولئك الحكام — مهما انحرفوا يمثلون شريعة الله وان اعمالهم — كيفما كانت — ومهما كانت مقاصدهم تتمشى مع امر الله .

وفى مسلك الاعمى الفهمى الذى عرضناه فى احدى الصور السابقة ايضاح للانحطاط الدينى والخلقى الذى يمكن ان ينحدر اليه الانسان ، حين تغلب عليه المطامع الشخصية فيصبح لا يفكر الا فى استرضاء مرؤسه ، فتجردا عن كرامته كرجل مسلم يخضع

لمقاييس الحق والعمل التى جاء بها الدين القويم، ويصير اراجوزا خشبيا هزيلا تدفعه المطامع الى اسخف الوان التزلف والملق . فهذا رجل اعمى العينين لا يطيق حمل السلام وهو نحوى فاضل كما يقول التيجانى يعنى انه ذو مبلغ من العلم ويحفظ كتاب الله فاختاره الخليفة ليربى له اولاده ويعلمهم كتاب الله واداب الاسلام، وكان يكفى هذا الاعمى فى التقرب والتزلف من الخليفة ان يظهر له الرضا عما ارتكب من ظلم وان يبدى له استبشاره بهذا النصر على طائفة من اخوانه المسلمين ولكن الاعمى السخيف كان يعتقد ان هذا لا يكفيه فى اظهار مبلغ مسرته ، فطلب ان يقدم اليه رجل يقتله بنفسه كانه يتقرب باراقة الدم البشرى الذى صانته كرامة الاسلام ، وكانت ظروفه الخاصة تحول دونه ودون ان يطلب منه ان يلوث يديه بالدماء ولكنه اصر ان ينحدر الى هذه الوهدة . فقرب اليه رجل موثق بالحبال . وهنا تبلغ السخافة بالاعمى الفقيه النحوى الفاضل ابلغ ما تبلغ السخافة برجل لا يحترم الدين الذى يسبغه على نفسه ولا الكتاب الذى يحمله فى صدره ولا حتى البشرية التى ينتسب اليها فيقف موقف المستهين بأمر الشرع فى النهى عن التمثيل بالقتلى ، ويصبغ هذه الجريمة النكراء بلون التمثيلية الهزلية فيطلب الملح والصعتر كما يفعل العوام بالضحايا فى الاعياد ليضحك الناس وليرضى سيده .

هكذا يصبح هذا المؤدب الذى اختاره الخليفة لتربية اولاده ، وتعليمهم كتاب الله ، اجرأ على مخالفة احكام الله وأبعد من آداب الاسلام ، فى عمل ما كان يطلب منه ، ولا تظن فيه القدرة عليه ، ليجرىء الخليفة على ما يرتكب فى عباد الله ، ويضفى على اخطائه ثوب الشرعية حتى يرتكب اولئك الناس ما يرتكبون من جرائم

ومناكر وكانما هم يتقدمون الى الله بانواع القربة والطاعة .

كان علماء الاباضية من اشد علماء الامة نقدا لهذا المسلك ، ووقوفا فى وجوه الظالمين واظهار السخط عن اعمالهم المنحرفة ، ولذلك فقد تسلط اولئك الظالمون عليهم وآذوهم فى الله وقتلوا منهم عددا غير قليل وكانت نقمتهم عليهم اكثر من نقمتهم على اى طائفة من طوائف المسلمين فلم يزالوا بهم يوالون عليهم النكبات . ويوجهون اليهم الضربات ، ويواصلون عليهم الغارات ، حتى استأصلوهم من جميع المواطن التى عمروها غير جزيرة جربة التى صمدت للكفاح . وثبتت للظالمين ، ولقنت المستعمرين الافرنج فى بعض ادوار التاريخ دروسا عرفتهم قيمة البطولة الاسلامية عندما يتولى قيادتها الايمان والحق .

كفاح التعصب المذهبى

منذ النصف الثانى للقرن الاول اختلفت اراء بعض علمـــاء المسلمين فى بعض اصول العقائد وفى كثير من الفروع ،وتكونت بناء على هذا الاختلاف فى فهم نصوص الكتاب والسنة فـــرق وطوائف تتمسك كل واحدة بما اقتنعت به وحسبته اصح ، لانه فيما ترى يستند على البراهين القطعية المعتمدة عـــلى اصول الشريعة ، وكان الخلاف فى مبدأ الامر علميا فلسفيا يدور بين طبقة مخصوصة من كبار التابعين ومنجاء من بعدهم ، ولكن سرعان ما استغلته السياسة من جهة ، والايدى المحاربة للاسلام فى خفاء من جهة اخرى كما استغلته المطامع الشخصية ، وعمل على تقويته واظهاره فى مظهر العنف والشدة ما يتحلى به بعض من ينتمى الى العلم من تعصب مبنى على ضيق الافق والفهـــم السطحى والتحجر الفكرى .

وتعاونت هذه العوامل جميعا بقصد او بدون قصد علىتوسيع الخلاف بين الامة واذكاء نار الفتنة بين طوائفها وفرقها ، وتمكنت بعض تلك العوامل ان تستغل هذا الخلاف لاغراضها الخاصة ، كالهيمنة على الدولة ، والتسلط على الحكم ، او الانتقام منبعض الطوائف والافراد ، او ادخال بدع فى الدين بقصد افساده الى

غير ذلك من الدواعى والاسباب . وكلما امتد الزمن ازداد الناس بعدا عن الدين وعن فهمه والعمل به، فازدادوا عمقا فى الخلاف ، وايغالا فيه ، حتى جاءت ازمنة كان يحسب فيها المتفقهـــون الجامدون انزال العقوبة بمن يخالفهم فى المذهب قربة يتقـــرب بها الى الله تعالى ، وان سبب الفرق المخالفة لهم ، وصب اللعنـــة عليهم من طاعة الله ، وتشبعت افكار الغوغاء بمثل هذه الاراء، وكان بعض المنتسبين الى العلم يتملقون اولئك الغوغاء ويتقربون الى الحكام بمبالغتهم فى اظهار الكراهية لمخالفيهم ، وقد يستحلون منهم ما حرم الله فكانت ترتكب بسبب ذلك جرائم مؤلمة ليس لها من سبب سوى التعصب المذهبى .

من المواضيع التى تناولها البحث والنقاش فى القرن الاول فى عصر الدولة الاموية موضوع الدول الظالمة الجائرة . هل يجب على الامة اذا تولى امرها امام جائر لا يتقيد باحكام الله ، ان تضرب على يده ، وتطالبه بالعدل او العزل واذا امتنع عليها هل يحق لها الخروج عليه وقتاله وقتله اذا اقتضى الامر ؟... وافترقت اراء العلماء فى هذا الموضوع فذهب بعضهم الى وجوب مطالبته بالعدل والقيام بامر الله والتزام احكامه فاذا امتنع جاز عزله او قتله . وذهب اخرون الى ان الصبر على ظلم الامام وعدم قيامه بامر الله اهون من الثورة عليه لان الثورة عليه قد تؤدى الى فتنة تذهـــب بالاموال والارواح .

واصبحت هذه الاراء فيما بعد اراء للمذاهب الاسلامية كل مذهب يرجح رأيا منها ويذهب فى تعليله والتدليل عليه بنفس الحرص والقوة التى يدلل بها على غير ذلك من اراء المذهب .

وطبيعى ان الحكام واصحاب السلطة يهمهم ان يعتنق الناس الاراء التى تدعو الى مسالمتهم وان تتغلب هذه النظرة الوديعـــة

على نظرة الثورة والتشدد ، ولذلك فقد ايدوا فى مبدأ الامر من يقول بالصبر للسلطان والرضا بالواقع وحاربوا بكل عنف وقوة من يحمل الفكرة الثورية ويدعو الى عدم قبول الظلم واعتبار الحاكم مكلفا بمهمة فان احسن القيام بها شكره الناس واجره على الله ، وان لم يحسن القيام بها طالبوه ان يعتزل امرهم ليتولاه من هو اجدر به وحسابه على الله . وهكذا فرض اصحاب الحكم حمايتهم لبعض المذاهب وحاولوا ان يغلبوها على غيرها وان يعمموها فى المواطن الخاصة بحكمهم وذلك ليس تفضيلا للمذهب نفسه ولا اعتقادا ان آراءه اصح من اراء غيره فان هذا الجانب لم يتوفروا على دراسته وفهمه ولكنهم يفرضون حمايتهم لبعض هذه المذاهب لان اكثر علمائها يدعون الى مهادنة الظلم والصبر عليه والاعتراف بشرعيته ، وهذا ما يهمهم من الموضوع. ومرت فترات من التاريخ على دول حاولت ان تفرض مذاهب خلفائها بالقوة وكانت تنزل اشد العقوبات بمن يخالف مذهب الدولة ، وتضييق الخناق على العلماء المخالفين لها فى المذهب وعلى اتباعهم ليتركوا الاراء التى اخذوا بها ، ويعود الى اراء الدولة .

والامثلة على ذلك فى التاريخ الاسلامى كثيرة ، اهتم المؤرخون منها اهتماما خاصا ببعض المواقف التى وقفها خلفاء الدولة العباسية لحمل الناس على بعض اراء المعتزلة ، وتحدثوا باسهاب عن المحن التى اصابت بعض ائمة المذاهب بسبب ارائهم المخالفة لآراء الدولة ، ولعل ما كان يقع فى جهات اخرى كان اشد واقسى ، فقد تسلط بعض الخلفاء العباسيين على بعض الائمة الذين يخالفونهم فى بعض الاراء العقيدية . فحبسوا منهم من حبسوا وضربوا من ضربوا وعذبوا من عذبوا وعقدوا لهم مجالس المناظرات ولكن غيرهم من السلاطين قد تجاوز هذه المواقف كلها

فى حمل الناس على مذاهبهم . ولقد سبق ان اشرت فى بعض الفصول السابقة الى احداث مما قام به المعز بن باديس حين اراد ان يحمل الناس جميعا على اعتناق المذهب المالكى الذى اعتنقه هو اخيرا بعد ان كان على مذهب الشيعة، ولكنه رجع الى الاشاعرة لان اغلبية السكان الذين كانوا تحت حكمه كانوا اشاعرة فاعتنق مذهبهم ليضمن ولاءهم ثم زاد على ذلك فاشتد فى عقاب مخالفيه وآذاهم فى اموالهم وانفسهم ، ولقد تتبع الاباضية فى كل مكان وانزل بهم ما يستطيع من الاذى ، وضيق عليهم مجال الحياة ، حتى هاجر كثير منهم ، ولم يقف عند هذا الحد بل تجاوز ذلك الى نوع من الطغيان لم يسبق اليه ، فقد جمع اليه علماء الاباضية وصلحاءهم ، ثم امر بقتلهم ، حتى ينشأ الناس غير عارفين بهذا المذهب فيعتنقون مذهب الملك ، وهى خطوة لم يخطها احد من ملوك المسلمين فى تاريخهم الطويل . وسار على منواله فى تتبع الاباضية والتضييق عليهم وقتل علمائهم لاتفه الاسباب كثير ممن جاء من بعده ، يحمل بعضهم على ذلك تعصبه المذهبى وحماسه له ، ويحمل البعض الاخر على ذلك أغراض دنيوية أخرى فيتخذ ذلك وسيلة للانتقام او لجمع المال ، او حتى للوصول الى منزلة او وظيفة ، ولم يمر قرن واحد على الاباضية فى البلاد التونسية لم توجه اليهم فيها اعنف الضربات ، ولم تسل دماء الشهداء من العلماء الاعلام بسبب ذلك التعصب الذى تستغله السياسة والمطامع والحقد ، وقد تجاوزت هذه المضايقة رجال الدولة والقائمين على الحكم الى افراد الشعب ، ثم تجاوزت افراد الشعب الى ناس ينتمون الى العلم مما اضطر علماء الاباضية الى الدفاع عن انفسهم فى هذا المجال . بل لقد كان موقف بعض المنتسبين الى العلم ، الضيقى الافق ، فى هذا المجال اشد سوء من مواقف غيرهم . وبسبب احاديثهم فى المجالس ، وفتاواهم

للناس ، ومراضاتهم للحكام ، كان يقع ما يقع بين فرق المسلمين من شحناء ونزاع يتعدى فى كثير من الاحيان مناحى القول الى مناحى العمل ، فينتج عنه استهانة بالحقوق واستخفاف بالحرم الانسانية التى حفظتها شريعة الله ، وصانتها كلمة التوحيد . ولعل مما يوضح هذا الجانب ان اضع بين يدى القارىء الكريم صورا من الاحداث التى كانت تقع من حين الى حين فتؤثر اسوأ الاثر فى نفوس الناس والى القارىء الكريم امثلة من ذلك .

تخاصم تاجران فى طرابلس على قضية من قضايا التجارة وترافعا الى القاضى ، فطلب القاضى البينة من المدعى فاحضر المدعى شاهدين من اهل جربة وقع التعامل امامهما وكان الشاهدان من الاباضية فدفع المدعى عليه هذه البينة بانه لا يقبل شهادة الاباضية ، دون مطعن فى الرجلين ، واستمع القاضى الى هذا الدفع وقبله ورد شهادة الشهادين لا لشىء الا لانهما على المذهب الاباضى ورفعت القضية الى المفتى فصدق على حكم القاضى ، وكان حينئذ جماعة من تجار جربة فى طرابلس فساءهم هذا الموقف من القاضى والمفتى فاحتجوا على ذلك احتجاجا شديدا ووقعت بسبب ذلك ضجة كبرى من الخصومات والمشاحنات حتى بلغت والى طرابلس وكان حينئذ على باشا عسكر فاهتم للموضوع وعقد اجتماعا دعا اليه جمعا من كبار العلماء ودرسوا موضوع الشهادة والاسباب التى ترد بها واتفق العلماء الحاضرون فى المجلس على ان فضيلة القاضى كان مخطئا فى حكمه وان سماحة المفتى سايره على اخطائه وابدى كل من القاضى والمفتى فى اول الامر استمساكهما برأيهما وحاولا ان يصرا على ذلك ، لكن موقف العلماء الصلب الى جانب الحق اجبرهما على الانصياع والرجوع .

ووقع موقف اخر شبيه بهذا الموقف فى تونس فى ولاية حسين

باى فقد طعن بعض الناس فى شهادة علماء جربة ، وردها بعض القضاة فى الحكم لا لشىء الا لان اصحابها على المذهب الاباضى، ووقعت بسبب ذلك ضجة عظيمة ورفع اهالى جربة شكاية الى والى تونس والى علمائها وقضاتها يطلبون منهم التحقيق والانصاف، ولقد اهتم الوالى والقضاة والعلماء بالموضوع ، وعقدوا لاجل ذلك مجمعا علميا اصدر فى ذلك قرارا والى القارىء الكريم نص القرار :

« الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على صفيه وصحبه ، وعلى آله وسلم تسليما ، سبب تحبير حروفها ، وتسطير صفوفها، هو انه بمجلس الشرع الشريف ، ومحفل الدين الحنيف بالجزيرة الخضراء بثغر تونس ، عمرها الله بالاسلام ، لدى سيدنا ومولانا اقضى قضاة الاسلام ، اولى ولاة الانام ، عين الموالى العظام ، محرر القضايا والاحكام ، بمزيد الاحكام ، مميز الحلال من الحرام ، مولى شريعة سيد الرسل الكرام ، محمد عليه افضل الصلاة والسلام ، بالادلة الواضحة والبراهين العظام ، راجى لطف الله المبدئى المعيد ، مولانا شيخ الاسلام خطيب منارة اوزاده وبلاده، ذا منزلة السعادة ، الناظر فى الاحكام والامور الدينية والدنيوية، والتعلقات الشريفة السلطانية الواضع خطه الكريم ، وطابعه العظيم اعلاه ، لطف الله به وقضاه وبعد فقد اتفق علماء تونس على تجويز شهادة العزابة فى العموم والخصوص ، لا سيما اهل الصلاح ، لان شهادة من اتى بالقول والعمل ابلغ ممن اتى بالقول وضيع العمل ، اذا المقصود ، من قدح فى شهادة العزابة لزمه الكفر على كل حال ، قال الله تعالى « **انما المؤمنون اخوة** » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا اله الا الله ايمانا واعتقادا دخل الجنة » فكيف ووجود ذلك قائما بذاتهم ويقدح فى اعراضهم،

هذا مما لايجوز فى الشريعة المحمدية ، والمعارض فى شهادتهم قد ارتكب معصية شديدة ، ويومر بالاستتابة بسرعة ، فان أبى قتل من ساعته ، لان ذلك ممايسوغ بالتهزىء والقدح فى الدين المحمدى ، كما يفهم من لحن خطابه وفلتات كلامه ، وليس ذلك من دأب المحصلين ، ومن حق المسلم على المسلم ان يستر عوراته، ويتجاوز من هفواته ، وانه من دين الله كما نص عليه سيد المحققين مولانا قاضى المسلمين حفظه الله ورعاه ومن كل نزغة وقاه بجاه النبى الامين والله اعلم . وقع الاجتماع بين يدى المعظم الامجد الانجد ، صاحب اللواء الموقر امير المؤمنين ، وسلطان المسلمين ، مولانا حسين باى ادام الله ايامه واجرى برياح النصر فلكه ، امين يا رب العالمين بتاريخ اشرف الربيعين عام ١١٢ .»

تصديق الفتوى

« الحمد لله وصلى الله على رسوله . ما افتى به الشيخان امامه حق ، وعليه العمل ، ولا يجدى القادح الاعتذار بل ينهى عن ذلك والا قتل شرعا ، حاصله يقضى بشهادتهم فى سائر الفروع والاعمال ولا تنعكس شهادتهم باختلاف الفروع ، لان الاجتماع عند ثبوت الاصل الحقيقى بورود القول المعتمد عليه المسلمون لا خلاف فيه والله اعلم حرره افقر الورى الى من بسط الثرى.
محمد بن احمد العبار (١)

---

(١) من المؤسف انني لم اتمكن من مراجعة النص على السجلات الرسمية وقد نقلت الفتوى والتصديق عليها كان التوقيع فى احداهما بلقب العبار وكان فى الاخرى بالعيارى .

اما الرسالة الاتية التى تقدم بها اهالى جربة فهى توضح لونا آخر من الوان المضايقات التى كان يلقاها الاباضية فالى القارىء الكريم صورة الرسالة بعد حذف الديباجة :

« امابعد فالمعروض على سمعكم الكريم ــ لا اوقر الله لكم سمعا ، ولا شتت لكم جمعا ــ ان الموجب لهذا الكتاب ، الشكوى لله ولذوى الالباب ، مما رمانا به النمام المغتاب ، مما لم تبحه السنة ولا الكتاب ، ونحن منه بريئون ، وعنه مبعدون ، وكم وكم كتبنا من كتاب ، للسيادة العلية ، متبرئين من هذه البلية ، فلما لم نر لاحدها جوابا ، جزمنا بعدم وصولها ، لا بعدم قبولها ، لان العذر لاهل العذر مقبول ، عند الله واولى العقول ، وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات . فلما عيينا من الكتابة والارسال وأيسنا من الوصال ، فوضنا الامور لذى العزة والجلال ... والمطلوب من السيادة العلية ، ان لا تقبلوا فى الرعية خصوصا فى هذه البلية ، الا قول من سلم من الاغراض الدنيوية ، قال الله تعالى : « **يا ايها الذين امنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين.** » وسبب نزول هذه الاية كذب الوليد بن عقبة على الرسول عليه السلام .

وكتبنا هذا مخبرين ومعتذرين ، لا ناهين ولا آمرين ، وللعفو طالبين فالعفو والامان ، يا أولى الفضل والحلم والاحسان عمن كان بريئا مرميا بالبهتان ، من غير حجة عليه ولا برهان ، وفارق الاوطان والاوكار فى اخر الاعمار ، من غير جرم ولا اوزار .

والمطلوب من فضلك المزيد ، ان تمن علينا بامرك السعيد ، اسعد الله لك الايام ، واتم عليك الانعام ، بحرمة النبى ، عليه الصلاة والسلام ، والسلام عليكم من الاهل والولدان والاخوان ،

والخدم والاخدان ، عم الله الجميع بالفضل والاحسان والحمد لله ذى الفضل والمنة اذ وقاكم وكفاكم شر هذه الفتنة .

اوائل ذى القعدة ١١٦٥

هذه الصور التى وضعتها بين يديك ايها القارىء الكريم صور هادئة ، وقد اتيح للفريق المظلوم فيها ان يدافع عن نفسه او ان يستعين بالعلماء المخلصين الذين يفهمون اصول الشريعة، ويحرصون على وحدة الامة فيرفعونها فوق خلاف المذاهب ، على اثبات حقه ، واليك ايها القارىء الكريم صورا اخرى تحمل طابع التعصب العنيف الذى يتجاوز حدود الشرع بل حدود العقل ايضا ، بعض الاحيان لترى مبلغ ما وصلت اليه العصبية عندما لم تجد علماء مثل علماء المجمع العلمى فى تونس او فى طرابلس .

هذا قاض يحضر عليه مجلس الدراسة بعض الطلبة وبعض المتفقهين فيقرر لهم بعض المعلومات فى مسائل التوحيد وبعضا فى مسائل العربية فيستأذنه احدهم ان يجعل من ذلك وسيلة لمجادلة الاباضية واقامة الحجة عليهم وقطع عذرهم فيأذن له القاضى غير ان طالب العلم يخشى صولة العلماء من الاباضية ويخاف ان يغلب فى النقاش وهو البادىء بالتحدى ، ولذلك يقرر ان يكتب تلك المعلومات فى رسالة ويتحداهم فيها ويضع الرسالة فى المسجد وعندما يعجزون عن الجواب سوف يكون له فيهم موقف واليك ايها القارىء نص الرسالة :

« السلام على من اتبع الهدى وتجنب طريق الردى ، الى المعتزلة ـ يقصد الاباضية ـ الذين اخذوا دينهم عن عبد حبشى، الذى ترك لهم الخلود فى النار ، قال صلى الله عليه وسلم « من الزم شيئا

لنفسه الزمناه له » والذين يحجبون عن روية البارى جل جلاله قال الله تعالى : « **وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسره** » اعاذنا الله منهم قال صل الله عليه وسلم انكم سترون ربكم وقال جل ذكره « **للذين احسنوا الحسنى وزيادة** » يعنى النظر الى الله تعالى : لكن طبع الله على قلوبكم وسمعكم وابصاركم حتى صرتم تسبون فى دين الملئكة ، المتبعين النبىء الامى ما أجراكم على النار ، وايضا الا بعد الله عليكم ما تقولون فى الانبياء قبل الاربعين سنة ؟ مشركون موحدون ؟ وما تقولون فيمن قال مثلك لا يبخل وغيرك لا يجود، وما تقولون فيمن قال : هو وهى زيد عالم ما كان الشان والقصة اجيبونا بكل ما سألناكم عنه ، والا فدماؤكم واموالكم حلال من الله ورسوله . »

وهذه نتف من رسالة اخرى كتبها موسى بن محمد بن الحاج الشريف من سكان الجريد : « وان وطء نساء الاباضية وغنم اموالهم اولى من الوليمة ، يقتلون قبل المشركين بلا بأس ولا ضرر على قاتلهم ، وانهم ملعونون من الله ، اولهم واخرهم ، وانهم يصلبون ، ومن لقيهم حلق لحاهم . »واذا كانت امثال هذه الرسائل والفتاوى تتداولها الالسنةوالايدى فى نطاق ضيق لاتبلغ ان تنتشر فى الافاق وان اسلوبها يدل على ان كاتبها من الطلبة المبتدئين او من الفقهاء الجاهلين الجامدين فاليك امثلة اخرى من ناس ينتمون الى العلم ويقدمون على تأليف الكتب ، ويتمتعون بسمعة علمية ذائعة ثم اضفى عليهم الزمن جلال القدم فاصبحوا فى العصر الحاضر من مراجع التاريخ. فهذا محمد العبدرى البلنسى مثلا يقول عن جربة ، وهو لم يزرها ولم يقم بها ولم يتصل باهلها. « واهلها اصحاب مذاهب رديئة واهواء مضلة ، مثل زوارةوزواغة « دمرهم الله جميعا » وقد سبق ان قال فى زواره وزواغه ما يلى: « ومنها الى قريتى زواره وزواغة ذوى الانفس الخبيثة والقلوب

الزواغة ، معتقدات شنيعة ، واعمال كسراب بقيعه ، ومذاهب سوء رديئة وضمائر شر عمرت منهم كل طوية ، قطع الله دابرهم ، وخضد اصاغرهم واكابرهم ، ولا اخلاهم من قارعة تحتاجهم قرعا ، وتسحتهم اصلا وفرعا . »

اما ابو عبد الله التيجانى وهو يقوم مقام الصحفى المأجور لابى زكرياء اللحيانى فقد اجاز لنفسه ان يأتى بسلسلة من المفتريات وهو يتحدث عن جربة فقال : « والمتصلحون منهم لا يماسحون بثيابهم ثياب احد ممن ليس على مذهبهم ، ولا يؤاكلونه فى آنيته ، وان استقى عابر سبيل ماء من بعض ابيارهم استخرجوا ماء البئر كله فما حوه ، وثياب الجنب عندهم لا يقربها طاهر ، وثياب طاهر لا يقربها جنب ، وقد شاهدت منهم من كان على طهر اذا اجنب غسل ثوبه الذى اجنب فيه يرفعه بعصا او بمحجن ثم يلقيه فى البحر فيخضخضه بعصاه ساعة ، ثم بعد ذلك يتناوله بيده ويوجبون على انفسهم الغسل صباح كل يوم رجالا ونساء ، اجنبوا او لم يجنبوا ، ويتوضئون ثم يتيممون ، وقد شاهدت هذا منهم كثيرا ويشترطون فى وضوئهم غسل الايدى من الاكتاف الى غير ذلك من آرائهم الواهية ، والافعال التى حكينا عنهم منها ما شاهدناه وهو ما قصصنا ومنها ما حكاه عنهم الشريف فى كتابه المؤلف للجار . » هذا ما يقوله التيجانى عن الاباضية ومن المؤسف انه لم يترك لنا وسيلة نلتمس له العذر فنحسب ان هذه المفتريات انما نقلها عن غيره او تسربت اليه عن بعض العوام الذين لا يحتاطون لدينهم ولا لاعراضهم وانما اكد لنا بصفة القطع ما قصه علينا انما شاهده هو بنفسه وان هنالك اشياء اخرى حكاها غيره وهذا ان دل على شىء فانما يدل على ان اباعبدالله التيجانى لا يوثق بكلامه عندما يتحدث عن الاباضية

وان سعيه لارضاء مخدومه وتسهيل ارتكاب الظلم عليه وعلى جنده حمل ابا عبدالله ان يرتكب جملة من الاكاذيب للتشنيع على الاباضية حتى يكرههم فى نظر الناس .

وضع بين عينيك هذه الاكاذيب التى احسب انها لم تخطر لغير خيال التيجانى الخصب (١) وجوب الغسل كل صباح سواء كان له سبب او لم يكن (٢) الحكم بنجاسة البئر اذا شرب منه مخالف واستخراج مائه (٣) الابتعاد عن الناس وعدم مماسته ثيابهم (٤) انعزال الجنب عن ان يمس احدا أو يمسه أحد (٥) القاء الثياب التى وقعت بها الجناية وعدم تناولها باليد (٦) الوضوء ثم التميم بعده ، (٧) غسل الايدى الى الاكتاف .

هذه الصور من الاحكام التى خطرت لابى عبدالله التيجانى فالصقها بالاباضية فى جربة وهى صور لا شك مستوحاة من الخيال .

انه لا حاجة بالقارىء الكريم الى ان نفند له هذه الاكاذيب الواضحة فاذا شاء الله ان يسترسل فى الخيال مع ابى عبدالله التيجانى فليتصور ان سكان جربة يقومون فى الصباح الباكر وكل واحد منهم قد حمل ثوبا على عصا او محجن تخفق به الرياح وهو منصرف الى البحر ليخضخضه وليتصور الازمة التى تحدث لاهل جربة عندما زارهم التيجانى ورفاقه فان اهل جربة يشربون من مياه الامطار التى يجمعونها فى صاريج فلما جاء هذا الجيش الكبير المخالف لهم فى المذهب وشرب افراده من تلك الصهاريج فان خيال ابى عبدالله او حكمه يقتضى ان يقوم اهل جربة الى تلك الصهاريج يستخرجون ماءها الذى شرب منه عابروا السبيل فيريقونه. ويشربون هم من بعد ذلك هواء البحر. والصورة اللطيفة هى هذا الرجل الذى وقف طاهرا بين يدى التيجانى وتحقق طهارته ثم

اجنب بين يديه حتى يتأكد التيجانى من الحقيقة ثم نزع ثوبه الذى اجنب فيه ورفعه بعصا او محجن فالقاه فى البحر وخضخضه. ان هذا الرجل او هذه المرأة انما قامت بهذه التجربة ليتأكد ابو عبدالله مما يروى للاجيال ويستطيع ان يقول : وقد شاهدت منهم من ...

هذه امثلة مما يوحى به التعصب المذهبى قد يكون التعصب نفسه دافعا اليها وقد تكون هنالك اغراض اخرى هى التى تدفع الى ذلك والحقيقة ان المتتبع لاحداث التاريخ يجد كثيرا من هذه المواقف المؤلمة ، والرجل العامى الساذج عندما يسمع فقيها او قاضيا او عالما مؤرخا يثق فيه وفى علمه ودينه يقول ان غنيمة اموال الاباضية حلال اولى من الوليمة او يسمع عالما اديبا محدثا مثل العبدرى يقول عن الاباضية « قطع الله دابرهم وخضد اصاغرهم واكابرهم ، او يسمع هذه السلسلة من المفتريات التى تفتق عنها خيال ابى عبدالله التيجانى وهو الاديب الفقيه المؤرخ.. ان اولئك العوام قد يعذرون فيما يرتكبون . اما الحكام الذين يهمهم ان يجدوا وسائل للعقوبة او لابتزاز الاموال فان امثال هذه الاحاديث تكون سندا لهم وحجة يعتمدون عليها وهم وان كانوا يعرفون انها مبنية على كذب او حنق او جهل او غير ذلك من الاسباب الا انهم يستغلونها فى بعض المواقف التى يحتاجون فيها الى مثل هذه الدعاية على الاقل حتى يطمئن بعض التابعين لهم انهم لم يرتكبوا محرما فيما ينزلونه بالناس من المصائب .

ولعل من الاشياء التى اضرت بالاباضية انهم كانوا يتنزهون كثيرا عن الشبهات ، ويحاولون جهدهم ان يبتعدوا عن الحرام واسبابه ولما كان اكثر ولاة الحكم لا يراعون احكام الاسلام فى نظام الحكم ، وجباية الاموال . فقد كان الاباضية يبتعدون

عنهم فلا يعينونهم ، ولا يستعينون بهم ، ولا يتطلعون الى الدخول في وظائف حكوماتهم ، ولا يسعون الى الحصول على المناصب فيها، وانما كانوا يحاولون ان يعيشوا في مجتمع نظيف ، بعيد عن مظاهر الحكم ، قائم بدين الله حريص على ان يتولى شئونه الدينية بنفسه لا يبالى ما يراه فيه الغير وكان الاباضية في البلاد التونسية بالذات قد يخضعون للدول المتعاقبة، او للحكام المختلفين على منصة الحكم ويدفعون لها او لهم ما يتقرر من ضرائب وتكاد تقف علاقاتهم بالحكومات والحكام في هذا الحد لو تركوا وشأنهم.

ولكن اولئك الذين يصطادون في الماء العكر اما لعصبية طاغية على نفوسهم او مطامع تمليها عليهم شهواتهم واما لتزلف وتقرب وملق الى الحكام التماسا للحصول على مرتبة او منصب ، واما اظهارا لحماية الدين والذود عنه استجلابا لمحبة العامة واحترامهم. هؤلاء الذين يصطادون في الماء العكر لا يلبثون ان يحرضوا ثائرا من الثوار او شيخا من شيوخ القبائل الضاربة على شواطىء الجزيرة تحترف الغارة والسلب ، او اميرا لا تزال خزائنه في حاجة الى مزيد من المال ، او حاكم يعتقد انه اعظم من ان يبقى احد دون ان يدخل تحت جناحه في رغبة وشوق ، فيوحى اليه اولئك المتملقون بان اولئك الاباضية مخالفون في المذهب، وانهم غير معترفين بالحكم ، وانهم يستكبرون في انفسهم فلا يعودون بمشاكلهم الى الدولة ولا يرجعون اليها في شئونهم الخاصة . وهكذا تتجرد غارة او حملة على موطن من مواطن الاباضية فتذهب ارواح وتستباح اموال. ولم تزل هذه المواقف متكررة في اغلب البلاد التونسية فكان الناس في بلاء متواصل مما اضطرهم اما الى الهجرة واما الى تغيير مذاهبهم حتى انقرض المذهب الاباضي من بلاد الجريد كلها ومن جبال دمر وما يتصل به ومن القيروان

وقابس والحامة وغيرها ولم يبق فى غير جزيرة جربة على ان سكان جربة قد عانوا من التعصب المذهبى اشد ماتعانيه امة ، وقتل فى سبيل ذلك من ابنائها علماء اعلام وعذبت طائفة ومثل باخرين ولم يكن يخفف عليها الا حينما ترتفع المشاكل الى تونس ويحضرها علماء الشريعة المحققون الذين يرتفعون بفهمهم لكتاب الله عن مستوى العصبيات والترضيات . وقد سبقت اثناء هذا الكتاب اشارات الى ذلك .

كان موقف الاباضية منذ تأسس نظام العزابة هو موقف الدفاع فى اضيق مجال مهما كان العدوان الذى يسلط عليهم وكانوا يبتعدون بعدا كاملا عن الاشتراك فى الحكم والنزاع عليه ، وكان العلماء منهم يكبحون جماح العوام ان يخطئوا فيرتكبوا فى غيرهم ما يرتكبه الغير فيهم ،

عندما يكون العدوان عليهم بالسلاح يقتصرون على دفع الاذى على انفسهم ورد العدوان عنهم ان استطاعوا دون ان ينتقموا أو يقوموا بالمثل حتى عندما تتحقق لهم الغلبة ، اما عندما يكون العدوان بالطعن فى العقيدة . او فى اراء المذهب ، فيقتصر علماؤهم غالبا على بيان براهينهم وحججهم التى اعتمدوا عليها والاصول التى استندوا اليها فى القول الذى اختاروه . الا اذا كان المنتقد لهم قد بلغ به التنطع واللجاج الى الحد الذى اصبح يتحدى القوم بذلك فانهم حينئذ ، يتجهون اليه بالرد ، على سبيل من سبل المناظرة المعروفة فى تلك العصور . ملتزمين ما امكن آداب المناظرة .

ويبدو من بعض الاحداث التى حفظها التاريخ ان علماء الاباضية قد بدأوا منذ القرن الحادى عشر يتخلون عن موقفهم فى الدفاع السلبى ، والبعد عن رجال الحكم . الى دفاع فيه بعض الايجابية .

فقد كان معروفا عنهم انهم لا يلتجئون الى دولة او حاكم فى رد العدوان او رفع الظلم عنهم ، وانما يدفعون ذلك عنهم بانفسهم ان استطاعوا او يصبرون لما لم يستطيعوا ولكنهم ابتداء من القرن الحادى عشر قد بدأوا يعرضون مشاكلهم على الدولة ، ويطلبون منها كف الاذى عنهم ، ويستعينون بقوتها على رد العدوان ويطلبون منها ان لا تستمع فيهم الى وشايات ذوى الاغراض دون تحقيق ، والى القارىء الكريم امثلة من ذلك .

يقول ابو الربيع الحيلاتى : « وفى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ـ اى ١٠١٠ ـ سعى بالشيخ العالم العلامة ابى القاسم بن سعيد اليونسى الصدغيانى وحبسه الاتراك بطرابلس ، وبقى فى السجن الى ان سارت الفقهاء وبعض وجوه الوهبية الى طرابلس واتوا باطلاقه من الباشا والديوان بعد ان مكث فى السجن اربعة وعشرين يوما . »

ويقول ابو الربيع الحيلاتى : « وفى سنة ١٠٢٠ سعى بالحاج يحى بن عمر القلالى عند ديوان تونس بانه مفسد فبعث اليه ، وسار اليها ، ودافع عن نفسه واحتج لها وتبعه الشيخ ابو سلامة المذكور قبل ، وبعض مقدمى جربة ووجوهها ، وكانت الحجة لهم . »

ويقول ابو الربيع الحيلاتى : « وفى سنة ١٠٢٤ سافر الشيخ ابو القاسم اليونسى الى تونس لما سعى به عند الباشا وبعث اليه طالبا منه ألفى دينار سلطانية ، وسافر مع جماعة من الفقهاء وغيرهم فايده الله ونصره على من عاداه وصار له الفخر العظيم عند امراء تونس وفقهائها ، وقد كان سبقه هناك من سبقه ، وفتح له ما كان مغلقا من ابواب الخير ، وانسد عنه ما كان مفتوحا من ابواب الشر ، فانتصر والحمد لله ، والتقى هناك مع

القاضى الذى طعن فيه ، وخصمه (١) وغلبه ، وكانت الدائرة عليه ، وعزل وطرد وسقط فى الحفرة التى حفر ، وصار مثالا يعتبر ورجع الشيخ الى وطنه سالما غانما . »

ويتجلى هذا الاتجاه فى المواقف الكثيرة التى وقفها العلامة ابو عبدالله محمد المصعبى وفى المواقف المتتابعة التى وقفها الامام العلامة ابو يعقوب يوسف المصعبى . فقد اوتى الرجل من غزارة العلم وصحة الادراك وقوة الارادة والشجاعة ما جعله لا يخشى حاكما ، ولا يتوقف عن رد عدوان عملى او قولى، فكان لا يفتأ ينتقل بين طرابلس وتونس والجزائر، ويناقش قضاتها وحكامها، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فما تصدر من احد طعنة او وشاية فى الاباضية . حتى يتحرك ابو يعقوب للتحقيق عنها وردها او الرد عليها ، وابطال مفعولها وفى امكان القارىء الكريم ان يراجع ترجمته المختصرة بقلم شيخ الصحافيين فى الجزائر الشيخ ابى اليقظان متعنا الله بحياته ومد فى عمره المبارك .

هذه الظاهرة ظاهرة الالتجاء الى الحكومة ، فى دفع العدوان بدأت بوادرها حسبما وصلت اليه فى ابحاثى التاريخية عن الاباضية فى تونس مع القرن الحادى عشر واستمر الالتجاء الى الحكومة كوسيلة من وسائل الدفاع ، يلتجىء اليها الناس ليردوا عنهم ما يلحقهم من الاذى . وبمعرفة الناس لوسائل الاتصال بالحكومة او الاستفادة منها وطرق مخاطبتها زادوا خطوة اخرى هى خطوة اعطاء الحقوق او اثبات الحقوق . فبدأ الناس أول الامر — على احتراس — يلتجئون الى الحكومة لاثبات حقوق لهم ، ثم تعودوا ذلك فاصبحت الامور تجرى عادية منهم كما تجرى من غيرهم ، واصبحت الدولة ودواوينها هى مرجع الناس فى دفع الظلم وفى

---

(١) غلبة في الخصومة

نيل الحقوق يفعلون ذلك كما يفعله غيرهم ، وقد كان لهذا الاتجاه الجديد آثار واضحة على الناحيتين الدينية والخلقية عندالاباضية ربما تحدثنا عنها فى فصل من فصول هذا الكتاب .

ويجدر بنا ونحن نستعرض التعصب المذهبى ان نشير الى ان التاريخ قد حفظ لنا صورا من ذلك النقاش الذى اثاره التعصب ، ومن الانصاف ان نقول ان اغلب ما وجه الىالاباضية من طعون ونقود يدل بمبناه او معناه على سطحية قائليه وعامية تفكيرهم او على سوء قصد من بعضهم كما انه مما يدل علىتغلب الروح الاسلامية المؤمنة ومحبة الانصاف والعدل والانتصار للحق ، ما قامت به بعض الجمعيات العلمية فى تونس فى بعض المواقف . فقد عقد علماء القيروان اجتماعا فى القرن الرابع الهجرى قرروا فيه وجوب مناصرة الاباضية ومؤازرتهم وجوبا شرعيا (١) وحكم المجلس العلمى الذى بحث قضية الطاعن فى شهادة الاباضية ! وحكم عليه بالتوبة او القتل . وهنالك مواقف كثيرة من العلماء فى تونس وفى غيرها شبيهة بهذه المواقف على ان هذا القدر كاف فى الدلالة على ان المحققين من علماء الاسلام فى تونس كانوا يعملون جاهدين على لم شعث الامة وعدم التفريق بين طوائفها وعناصرها،وان اولئك الذين كانت تحركهم العصبية فيسيئون الى غيرهم من المذاهب المخالفة لهم ، اما اصحاب اغراض مصلحية يتسترون وراء المذهبية ، واما جهلة بدين الله قصرت افهامهم عن استيعاب حقائق الاسلام فكانوا يندفعون اندفاعا هستيريا دونترو او فهم .

ولعله يكون من المناسب ان اختتم هذا الفصل باقوال لبعض فطاحل العلماء ، قال ابن السبكى فى جمع الجوامع : « ولا نكفر

---

(١) لم اتمكن عند كتابة هذا الفصل من الحصول على نص القرار .

احدا من اهل القبلة بذنب . » وقال ابو الحسن الاشعرى : « احفظوا عن انى لا اكفر احدا من اهل القبلة لانى رأيت الكل مشيرين الى معبود واحد . »

وقال زروق : « يجب الاحتراز عن التكفير فى أهل التأويل فان استباحة المصلين الموحدين خطأ قال صلى الله عليه وسلم : «فاذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم واموالهم • الخ » •

اقال ابو حامد الغزالى : « ان انصفت علمت ان من جعل الحق موقوفا على بعض بعنيه فهو الى الكفر اقرب . »

وقال قطب الائمة الشيخ محمد اطفيش : « ولا نحل مال الموحد بالكبيرة ولا بالصغيرة فى حرب ولا فى غيرها ، للغنى والفقير، وهذه تآليف الشيخ عامر وتآليف اصحابنا كلهم تصرح بتحريم أموال اهل التوحيد ، الا بحقها الحديث : « امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها حقنوا منى دماءهم واموالهم» وذلك مصرح به فى نحو مائة كتاب فى كتب اصحابنا ، وليس من اصحابنا احد يقول بحلها الا بحقها ، وليس الكبيرة ولا الصغيرة مبيحة لها • »

ويقول القطب بعد كلام • « ونحن بعد لا نقول بالخروج عن سلاطين الجور الموحدين ومن نسب الينا وجوب الخروج فقد جهل مذهبنا . » ويقول بعد كلام :

« واما ما ذكر من القول بان دار الاسلام غير دار سلطانهم فلا قائل به فانه اذا لم تكن دار سلطانهم دار اسلام فكيف تكون دار غيره دار اسلام ؟ الا ان اراد انه على غير حق • » هذا كلام للقطب رحمه الله رد به على رسالة فى الطعن على الاباضية للمفتى الطرابلسى ابن مصطفى .

وقد يكون مناسبا ان اقتطف جملا مما رد به ابو عبدالله محمد

المصعبى على احدى الرسائل التى عرضتها على القارىء الكريم فى اوائل هذا الفصل وقد تتبعها ابو عبدالله المصعبى فقرةفقرة. ولما كان كثير مماورد فيها اما مباحث معروفة فى علم الكـــلام وتناولها اكثر علماء الاسلام بالمناقشة والبحث ، او شواهد تتعلق ببعض احكام اللغةالعربية فاننى رأيت ان اقتصر فى هذه المقتطفات على مالا يتناول تلك المواضيع المعروفة ، ليعرف القارىء الكريم اسلوب الشيخ فى الرد على المتهجم رد العالم المحقق ، وان كانت تصدر منه من حين الى حين كلمات تشعر بالحنق والغضب. قال ابو عبدالله : « واما قولك اخذوا دينهم من عبد حبشى فان جعلت هذا عيبا فامامك مالك مولى من الموالى ، وكثير من ائمتكم، واما نحن فلا عيب لنا فى احد الا فيمن لم يتبع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى : « خلقت الجنة لمن اطاعنى ولو كان عبدا حبشيا ، وخلقت النار لمن عصانى ولو كان ملكا هاشميا . » واما قولك ان لم تجيبونى بما سألتكم عنه فدماؤكم واموالكم حلال من الله ورسوله فانا قد اجبناك وانت دمك حلال من الله ورسوله اجبت ام لم تجبلطعنك فـى الدين ، واما مالك فلا يحل عندنا الا بثلاثة اوجه ، هبة عـــن تراض او بيع عن تراض او ميراث من كتاب الله تعالى ــ ولكن مخاطبتى اياك كمثل من خاطب الذى ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء صم بكم عمى ، فهم لا يعقلون . »

كفاح الصليبية الحانقة

فى هذا الفصل احاول ان ألخص للقارىء الكريم ذلك الكفاح المجيد الذى قام به اهالى جربة الابطال فى دفاع الغزو الاجنبى، الذى كانت تقوم به الصليبية الحانقة على السواحل الاسلامية فى بلاد المغرب الاسلامى ، اما على سبيل القرصنة والسرقة واما لاحتلالها والانتقام منها فيما تزعم . وفى الفترات العصبية التى كانت الامة الاسلامية فى بلاد المغرب تحت حكم دويلات متقطعة متخالفة المقاصد وامارات مستبدة متغطرسة تعانى اقسى انواع الظلم من الحكام المحليين الذين لا يهمهم من مظهر الحكم غير ألقاب فخمة يطلقونها على انفسهم ، ومظاهر كاذبة للعظمة يزينون بها مجالسهم ومواكبهم ، وضرائب متتابعة يفرضونها ، واموال كثيرة يجمعونها، يزينون بها مجالسهم ومواكبهم ،وعقوبات مؤلمة ينزلونها على شعوبهم ، فى هذه الظروف العصيبة كانت الامة المؤمنة تنظم شتات قوتها لتدافع بما بقى لها من عزة المؤمنين اعداء الله واعداء الوطن فكان الناس يدافعون عن بلادهم فى الثغور الاسلامية مثل بجاية ووهران وقابس وطرابلس وغيرها دون ان يمدهم اولئك الذين يتمرغون فى النعيم ــ بما ابتزوه

من اموال ليس لهم الحق فى ابتزازها ـ فى كثير من الاحيان باى مساعدة ولقد كانت اكثر الثغور البعيدة عن مراكز الحكم تعانى الوانامن الظلم من الحكومات والولاة المحليين من جهة ، وتكون عرضة لضربات الغزاة من المعتدين الافرنج من جهة اخرى وعليها وحدها ان ترد عدوان الافرنج فهى تعيش بين نارين .

ولقد كانت جربة ، من هذه الثغور التى يحاول الغزاة الغربيون احتلالها والاستقرار بها ليتخذوا منها قاعـــدة فى حروبهـــم وغزواتهم . وكان الامراء فى تونس وطرابلس لا ينفكون عن النزاع عليها ومحاربتها واحتلالها او افتكاكها من بعضهم البعض، وفى كل معركة من هذه المعارك التى يتبادلها الاخوة طلبا للحكم يتعرض الناس لاشد انواع البلاء والمحنة والانتقام . فيقتـل شبابهم وتصادر اموالهم ، وتفرض عليهم غرامات وضرائب ، وقد يتعدى الامر كل ذلك فيؤدى الى استحلال ما حرم الله من اعراض الناس وهتك حرماتهم .

ومع هذه الصورة البشعة التى كان يتعرض لها اهل جربة ، احيانا من اخوانهم فى الدين ، واحيانا اخرى كثيرة من اعدائهم فى الدين والوطن . فانهم كانوا يرتضون ما يجره عليهم حكـــم اخوانهم ويسكتون له ، ولكنهم لم يطأطئوا رؤسهم بذلة امام اعداء الله ، ولم يسكتوا عن ضيم منهم ، ولم يرضوا عن عبودية تفرض عليهم ، ولم يقفوا مكتوفى الايدى عما ينزل بهم الظالمون. فلقد كتبوا امجد صفحة فى الدفاع عن الدين والوطن ، وسجلوا انتصارات تكاد تكون صورا حية للانتصـــارات التـــى سجلهـــا المؤمنون الصادقون فى صدر الاسلام . واقاموا الحجة عـــلى المسلمين فى كل عصر ، وفى كل مكان . فقد أثبتوا بمواقفهـــم الرائعة ان النصر لا يتوقف على العدد ولا على العدة ، وانما يتوقف على ما يزخر به قلب المؤمن من محبة للقاء الله ، واستعداد كامل

للحصول على الشهادة ، ورغبة اكيدة فى الموت فى سبيل الله ، وكما انتصرت القلة على الكثرة فى بدر وفى الاحزاب وفى موته وفى اليرموك وفى جربة يمكن ان تنتصر القلة على الكثرة فى كل مكان وفى كل زمان اذا توافرت لها الامكانيات الروحيةالتى كانت عند الجيوش المؤمنة وهى تقاتل فى سبيل الله اعداء الله ٠

ومن اوائل القرن السادس الى منتصف القرن العاشر والافرنج لا يكفون عن غزو جزيرة جربة وازعاجها باساطيلهم وقواتهم ، وقد يتغلبون عليها مؤقتا ولكنها سرعان ما تثور عليهم فتلقى بهم وراء البحر ٠ وقد تنتصر عليهم منأول الامر فتردهم خائبين، ولعل اعظم المعارك التى وقعت بين جربة وبين الغزاة الافرنج هى كما يلى :

١ ــ فى سنة ٥٢٩ هجم الافرنج على جربة على حين غفلة من اهلها ودون توقع فاحتلوها وقتلوا عددا كثيرا من اهلها .

٢ ــ فى سنة ٥٤٨ ثار أهل جربة على حامية الافرنج الموجودة فى الجزيرة واجلوها عن وطنهم .

٣ ــ فى نفس السنة ٥٤٨ ما علم الافرنج بثورة اهل جربةعلى حاميتهم واخراجهم لها حتى كونوا اسطولا ضخما جهزوه بكل المعدات وهجموا على جربة فاحتلوها بعد معركة طاحنة واخذوا كثيرامن سكانها المسالمين اسرى فباعوهم فى الاسواق الاوروبية عبيدا .

٤ ــ فى سنة ٥٥٥ ثار اهل جربة على الحاميـــة الافرنجيـة وساعدهم عبد المؤمن بن على ــ على اجلائها فطردوها من جربة وطهروا الجزيرة من العلوج .

٥ ــ فى سنة ٦٨٨ جهز الافرنج اسطولا ضخما وهجموا على

الجزيرة واحتلوها

٦ ــ فى سنة ٧٣٠ ثار اهل الجزيرة على الافرنج وساعدهم ابو بكر الثانى فطهروها منهم .

٧ ــ فى سنة ٨٣٥ جهز الافرنج اسطولا ضخما وهجموا على الجزيرة فتلقاهم اهلها ووقفوا فى وجوههم وساعدهم ابو فارس عزوز فقتلوا من العدو عدد ضخما ، وبنوا برؤسهم برجا سموه برج الجماجم

٨ ــ فى سنة ٩١٦ جهز الافرنج اسطولا ضخما واتجه الى الجزيرة لاحتلالها فاعترضهم شيخ الجزيرة ابو زكرياء السمومنى وانتصر عليهم فى وقعة مشهورة اهتم لها الناس فى الشرق وفى الغرب .

٩ ــ فى سنة ٩١٦ جهز الافرنج اسطولا فى عشرين سفينة وقام بمناورات حول جربة فلم يهتم به احد فرجع يجر اذيال الخيبة .

١٠ ــ فى سنة ٩٢٦ جهز الافرنج اسطولا ضخما يتكون من مائة سفينة واتجه الى جربة فتلقاه اهلها وردوه خائبا بعد ان ترك فى الميدان نحو ٦٠٠ ستمائة قتيل وعددا اكثر من الاسرى والمعدات الحربية .

هذه معارك مشهورة تناولتها كتب التاريخ بالتفصيل والتعليق، وبين هذه المعارك كثير من الوقائع التى حاول فيها الافرنج احتلال الجزيرة فردوا على اعقابهم . او احتلوها لمدة قصيرة ثم ثار بهم السكان فطردوهم . وقد عدد المؤرخ الجربى ابراهيم بن ثابت عددا من هذه الوقائع ، مقتصرا على ذكر تاريخ الوقعة دون تفصيل الاحداث فقد ذكر مثلا انه وقعت معارك بين النصارى

وسكان جربة من المسلمين حسب تعبيره فى السنوات التالية من القرن السادس :

٥٢٩ ـ ٥٣١ ـ ٥٤٨ ـ ٥٥١ ـ ٥٥٥ ـ ٥٨٣ ـ ٥٨٥

وفى السنوات الاتية من القرن السابع ـ ٦٣٣ ـ ٦٣٨ ـ ٦٣٩ ـ ٦٨٢ ـ ٦٨٨ ـ ٦٩١ ـ ٦٩٦ ـ

ومن هذه التواريخ يرى القارىء الكريم اصرار الافرنج على احتلال الجزيرة ، ومواقف الدفاع المشرفة من اهلها . وبالرجوع الى الوقائع السابقة التى ذكرناها بشىء من التفصيل يرى القارىء الكريم ان اهل جربة وحدهم هم الذين يقومون بهذا الكفاح الرائع اذا استثنينا ثلاث معارك ساعدهم فى اولاها عبد المؤمن بن على وساعدهم فى الثانية ابو بكر الحفصى . وساعدهم فى الثالثة ابو فارس عزوز

كان اهل جربة يقومون بهذا الدفاع المجيد دون ان يساعدهم احد فى الميدان غير من ذكرنا آنفا رغم ان الدول التى كانت تتعاقب على حكم تونس فى جميع تلك الحالات كانت تحسب جربة تابعة لها ، وكانت لا تنفك تطالبها بتسديد الضرائب وتقديم الاموال وكانت جربة تقدم لها ذلك عن رضا وتعترف بتبعيتها لها بل وتطالب بالبقاء تحتها او الانضمام اليها فى بعض الاحوال عندما يحاول ولاة طرابلس الاستيلاء عليها والحاقها بحكمهم .

لقد استطاعت جربة ان تصمد للدفاع خمسة قرون رغم حرص العدو واصراره على الاستيلاء عليها والتحكم فيها ، ورغم ازدياد معداته الحربية عاما بعد عام وقرنا بعد قرن ورغم اهمال الدول الاسلامية لها وتهاون اصدقائها عن نجدتها ماديا فى محنها ، واستطاعت ان تنتصر انتصارات مجيدة فى اكثر المعارك التى

خاضتها لرد العدو او طرده من البلاد . وعندما بدأت الدولة العثمانية تمد سلطانها على البلاد الاسلامية وجاء درغوث لاحتلال الجزيرة وجدها نظيفة من اعداء الدين واعداء الوطن ولكنه مع ذلك أصر ان يريق الدم بغزارة ، ولقد فعل ، ولكن تلك الدماء التى اراقها درغوث كانت دماء زكية لاولئك الابطال الذى حافظوا على الجزيرة ودافعوا عنها خمسة قرون وزيادة .

كانت جربة قوية عنيدة عنيفة فى دفاع الغزو الاجنبى الذى يأتى من خارج العالم الاسلامى ، ولكنها كانت لقمة سائغة سهلة الازدراء للامراء المسلمين ، مايحاول احد منهم ان يحتلها حتى تلين له ، سواء كان من الدول القائمة بتونس او كان من ولاة الجهات ، او كان من القائمين بالحكم فى طرابلس .

فما السر فى هذه القوة التى نجدها لجربة عندما يحاربها المشركون ؟ . وهذه الليونة التى نجدها لها عندما يحاربها المسلمون ؟ وما هو اثر الحربين من الناحية المعنوية .

ان الجواب على هذه الاسئلة يكون فى الفصل التالى ان شاءالله.

اثر الكفاح على أهل جربة

كلما اعتدى الافرنج على جربة او حاولوا الاعتداء عليها تلقت ذلك منهم بثبات وصبر ، وزادها العدوان عليها قوة وشجاعة وجرأة على المعتدين . وردت عدوانهم فى نفس الوقت ، فـــان غلبت ثارت عليهم بعد حين قريب ، واخذت بثارها ، وانتقمت منهم لنفسها ولم يخسر الجربيون ــ فى جميع تلك الحروب التى شنها عليهم انصار الصليبية ، وقادة القرصنة ــ لا من النواحى المادية ، ولا العددية ، ولا النفسية ، خسائر ذات قيمة . وحسبك ان تعلم انه فى المعركة الكبرى التى استعد لها الافرنج اكبـــر استعداد ، وجهزوا لها اضخم اسطول ، وجمعوا لها اكبر عدد من المحاربين حتى بلغ عددهم عشرين الفا من المقاتلين المدربين ، ولم تجمع جربة سوى ثلاثة آلاف فيهم شيوخ عجـــزة ومراهقون حملوا السلاح لاول مرة . فى هذه الموقعة التى استعد لها الافرنج هذا الاستعداد العظيم وخسروا فيها آلافا من القتلى ومالا يقدر من اموال ، لم تبلغ خسارة جربة مائة مقاتل على اكثر الروايات مبالغة ، وقد استطاعت جربة ان ترد هذا الهجوم العنيف ، وان تكبد العدو افدح الخسائر ، دون ان يقوم بمساعدتها احد . لا اصدقاؤها ولاجيرانها ولا الدولة التى تدفع لها الضرائب .

كانت جربة فى جميع تلك الحروب التى يشنها عليها الاستعمار الافرنجى تجد علماءها وصلحاءها ومشائخها فى مقدمة المجاهدين يحرضون الناس على القتال ويأمرونهم بالصبر ، ويعدونهم ـ ان هم اخلصوا ـ بالفوز ويقاتلون العدو كاشد ما يقاتل الابطال فيقتلون ويأسرون ويغنمون الاموال . ولكنهم حين يتغير الموقف فيشن الحرب عليهم قوم ينتسبون الى الاسلام سواء كانوا من تلك القبائل الثاوية فى الصحراء تحترف الغارة للسلب والنهب ، او اولئك الولاة الذين يبحثون عن الحكم والمال ، فيتعاقبون على محاربتها مرة من طرابلس ومرة من تونس واحيانا كثيرة من غيرهما .

ان اهل جربة فى هذه الاحوال لا يجدون علماءهم وصلحاءهم فى المقدمة كما كانوا يجدونهم فى حروب الافرنج ، ولا يسمعون منهم كلمة التحريض والتشجيع على الحرب واذا سمحوا لهم بالقتال دفاعا عن النفس والاهل والمال ، فهم لا يسمحون لهم ابدا بالاستيلاء على اموال الموحدين بطريق الغنيمة .

ان الاسباب التى جعلت اهل جربة اقوياء اشداء على محاربة الافرنج ، وجعلتهم لينين ضعافا فى مقاتلة المعتدين من المسلمين انما هى وقدة الايمان فى قلوبهم وحرارة التقوى التى تغل ايديهم ، والاستمساك المتين بالدين واحكامه فى معاملاتهم .

انهم وهم يحاربون الافرنج ، يشعرون بانهم يقومون باقدس واجب عند الله ، واجب الجهاد ، وهم يعلمون ان من يقتل منهم فى تلك المعارك فقد قتل فى سبيل الله وفاز بالشهادة ، وان ما يحصلونه من مال انما هو غنيمة قد احلها لهم الدين الكريم الذى امرهم بالجهاد فى سبيل الله « **فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ، واتقوا الله ان الله غفور رحيم** » .

هذه المعانى كانت تملأ قلوبهم فتجعل منهم ابطالا تفل عزائمهم الحديد ، وتطفىء ارادتهم النار ، وتقهر خناجرهم البسيطة ما اعد العدو من مدافع وبنادق ومحرقات .

اما عندما يهاجمهم قوم يعلنون الاسلام ، وينتسبون الى امة محمد عليه الصلاة والسلام ، فان تلك المعانى تنطفىء من انفسهم ، وتلك الحرارة تبرد من قلوبهم ، لانهم يحملون سيوفهم ضد اخوة لهم ولو كان اولئك الاخوة بغاة ، والمقتول من الفريقين خسارة للامة المسلمة التى يتكالب عليها المعد ـ وليس احد يقدر هذه الخسارة مثلما يقدرونها هم ـ ثم ان الدين الذى يدينون به ويتقيدون باحكامه ، لا يحل لهم حتى وهم فى حالة الدفاع ان يتجاوزوا حدود الدفاع الى الانتقام او العقوبة فلا يحل لهم ان يتبعوا مدبرا ، ولا ان يجهزوا على جريح ، ولا ان يغنموا مالا بل ان دفاعهم يجب ان يكون مقصورا فى أضيق نطاق لرد العدوان وكان كل واحد منهم يتمنى ان لا تسيل الدماء على يده ، وكان العلماء لا يفتأون يأمرون الناس بمراعاة احكام الاسلام فى محاربة البغاة من المسلمين . وهذه المعانى هى التى تجعل الناس لا يقبلون على الحرب فى هذه الاحوال ، واذا اضطروا للوقوف فى هذه المعارك فانما يقفون بفتور ووهن ، وكثير منهم يتمنى ان يكون عبدالله المقتول لا عبدالله القاتل ، لانهم يحسبون ان النصر والهزيمة سواء فى هذه الحروب التى تجرى بين الاخوة فهى كلها خسارة .

وفى اكثر المعارك التى وقعت بين اهالى جربة واخوان من المسلمين كان الجربيون يلاحظون هذه المعانى الاسلامية فى مواقفهم وكان المعتدون عليهم فى اغلب الاحيان لا يلاحظون شيئا منها ولذلك فقد كانت هذه الحروب بين الاخوة من المسلمين

ذات اثار سيئة جدا وكانت خسائرجربة فيها عظيمة ، وما شنت عليهم حرب من تلك الحروب ، الا ذهب ضحيتها عدد كبير من الانفس اكثرها من الاطفال الابرياء والنساء الضعيفات والشيوخ العجزة ، وبالرجوع الى احداث التاريخ التى سردنا بعضها فى فصول سابقة من هذا الكتاب ، او الرجوع الى المصادر العامة والخاصة للتاريخ فى هذه المملكة يتبين للقارىء الكريم هذه الحقيقة . وتكفى لايضاح هذه الصورة ان اشير الى احدى الوقائع مما سردنا تفاصيله فى هذا الكتاب ، فان حربا واحدة من تلك الحروب التى شنها درغوث على جربة ليجعلها تابعة لحكمه فى طرابلس ، كلفت الجزيرة الفا ومائتين من القتلى ، وقد تلقت فيه جربة فيما بعد ضربات متلاحقات حطمت قوة ابنائها ، وفلت سيوفهم ، وذهبت بخيرة شبابهم ، فلما رجع الافرنج من جديد ، وكان درغوث قد شغل بامور الحكم فى طرابلس ، لم تجد جربة القوة التى تضرب بها العدو ، ولكنها وجدت فى قلوبها عزة الاسلام التي لاتستسلم للكافرين فتحركت الهمم ووقفوا تجاه العدو فلم يمكنوه من احتلال جزيرتهم ولكنه لما اطال الحصار لم ينجدهم احد وخافوا ان تتغلب عليهم القوة صالحوا الافرنج على ان يسلموا لهم القشتيل دون ان يتجاوزوه الى شىء غيره وفى نفس الوقت، بعثوا الى دار الخلافة فى تركيا يطلبون النجدة لحماية الجزيرة من بقاء المشركين بها ، وجاءت النجدة من دار الخلافة وتعاونت القوتان قوة السكان وقوة الدولة على طرد العدو الطرد النهائى ، وبقيت العزة الاسلامية تملأ قلوب اهل الجزيرة فلما جاءت فرنسا من بعد لتنفيذ الفكرة الاستعمارية الصليبية ، كانت الجزيرة من اول المواطن التى قامت فى وجه

الاستعمار الجديد ودافعته دفاع الابطال .

ولعل مما يناسب المقام فى آخر هذا الفصل ان انقل كلمة للاستاذ محمد المرزوقى فى هذا الموضوع .

قال المرزوقى فى تعاليقه على كتاب مؤنس الاحبة ما يأتى :

« جربة تقاوم الحماية : لم يكد يعلن عن انتصاب الحماية الفرنسية على تونس فى ١٢ مايو ١٨٨١ حتى هبت جربة للمقاومة المسلحة معززة جانب المقاومين فى الجنوب والوسط والشمال ، واستسلمت السلطة المحلية للثورة ، واصبح المقاومون اسياد الجزيرة مما اضطر الاسطول الفرنسى بقيادة الامير غرنولت الى التحرك نحوها بعد ضربه مدينة صفاقس فى ١٥ ـ ١٦ جويليه ١٨٨١ فضرب مدينة قابس وجزيرة جربة بقنابله ولم تستسلم الجزيرة للقوات المحتلة الا بعد دفاع مجيد . »

العهد الثالث

العهد الثالث من تاريخ جزيرة جربة هو عهد الدخول تحت جناح الجامعة الاسلامية وذلك ان الدولة العثمانية حاولت ان تضم اليها جميع الدول الاسلامية الصغيرة الموزعة فى العالم ، لتتكون من ذلك دولة واحدة قوية لامة واحدة متماسكة ، ولكن المطامع الفردية وسوء تصرف الولاة وتكالب الغرب على احتلال الشرق حال دون الوصول الى النتائج الطيبة من هذه الفكرة . ولقد دخلت جربة تحت الجامعة الاسلامية فى بادىء الامر تابعة لوالى طرابلس ثم لوالى تونس .

وسيحس القارىء الكريم شيئا من المرارة ونحن نتحدث عن هذا العهد من تاريخ جربة، وقد يجد بعض النقد لهذا العهد. والذى اريد ان يعرفه القارىء الكريم قبل ان يستمر فى هذا الفصل اننى لا انقد ابدا محاولة الدولة العثمانية او غيرها من الدول الاسلامية الكبرى توحيد الامة المسلمة تحت حكم واحد يسير وفق منهج الاسلام فى انظمة الحكم . وحتى لو لم تتم الصورة المثالية لحكم الاسلام فان انضمام الاطراف الاسلامية الى القلب وتكتلها مع بعضها البعض ، هو ما يجب ان يدعو اليه المسلم ويرضاه . وانما الذى احس له بالمرارة فانما هو تصرف اولئك

الولاة الذين لم يقدروا الاعباء الثقال الملقاةعلى عواتقهم ، فكانوا عند الغضب او الطمع يعاملون شعوبهم التى هى عزهم وقوتهم، كما يعاملون اعداءهم ، وبذلك قتلوا فى نفوس الامة المسلمة روح المقاومة والثورة ، وفرضوا عليها طابع المذلة والاستكانة، فلما عجزوا هم عن رد العدوان لم تقف عناصر الامة المحطمة فى وجه ذلك العدوان ونتج عنذلك ان فقدتالامة خلافتها الاسلامية ووحدتها الدينية وحريتها الوطنية .

وحديثنا عن جربة فى هذا العهد قد يعطى صورة كاملة او ناقصة او حتى من بعض الجوانب لبقية البلاد الاسلامية سيما التى وهبتها عناية الله اسبابا للغناء والثروة .

فى هذا العهد الذى يمتد مابين سنة ٩٦٠ الى سنة ١٢٩٨ هـ خضعت جربة لولاة الدولة العثمانية خضوعا كاملا سواء كان اولئك الولاة فى طرابلس او فى تونس .

ولقد مر هذا العهد على جربة من اشد العهود التاريخية ،وذاق فيه السكان من انواع البلايا ما تعجز عن تحمله الجبال الرواسى وكثيرا مايجتمع عليهم ظلم الولاة والفتن القائمة بينهم علىالحكم وتوالى فرض الغرامات الباهظة والمطالبة بالضرائب المتواليـــة ووقوع الغلاء والقحط .

والى القارىء الكريم اسوق امثلة مما ذكره المؤرخون .

يقول ابو الربيع الحيلاتى : « فى سنة ١٨٩٥ اجتمع بالجزيرة قلة العافية والغلاء والكساد والجدب ، ومنع على بن مراد باى على اهل الجزيرة ميرة القمح والشعير، وانما اكلت الناس الفيتورة فتمادى الحال كذلك من اول السنة . وفى النصف من جمادى الاولى اتصل الخبر الى اهل الجزيرة ان ديوان تونس وامراءها تعصبوا علىعلى بن مراد فغلبوه وطردوه من الوطن وجيشه حينئذ على ما

قيل اربعة عشر الفا ووقفوا اخاه محمد ابن مراد اميرا على افريقيا بامر السلطان نصره الله، وتمادى على منع القمح والشعير على اهل الجزيرة ، وفى سنة ١٠٩٩ القى الشيخ عبد الرحمن على الوهبية ألفى مطرزيتا واعطاه للنصارى عما تداينه منهم، واعطاه بتونس حتى ولوه الامر ، ثم القى عليهم غرامة مع قلة الامطار وغلاء الاسعار وكثرة الكساد ثم القى عليهم ايضا غرامة اخرى.»

ان القارىء الكريم عندما يقرأ هذه الفقرة مما كتبه مؤرخ شهد الاحداث بنفسه يتصور ما يقاسيه الناس من تسلط الحاكمين ، فان المنطق يقضى بان الدولة الحاكمة اذا رأت فى بلد من بلدانها مجاعة بسبب القحط والجفاف فانها تعمل على مساعدة السكان على المعيشة وتجلب اليهم المواد الضرورية للحياة وتيسر لهم الحصول عليها ولكن الاميرين محمدا وعليا ابنى مراد المتعاقبين على الحكم وهما يريان ما تقاسيه الجزيرة المسكينة ، من قلة العافية والغلاء والكساد والجدب مع هذه المصائب يمنعان على الجزيرة ميرة القمح والشعير ، يعنى يحكمان عليها بالموت جوعا ، ويضطر الناس ان يعيشوا على الفيتورة وهى بقايا الزيتون بعد ان يعصر ويستخرج منه زيته ، ومع ذلك فان هؤلاء المسلمين يحملون للدولة العلية كل محبة واعزاز ، ويطلبون لها النصر والتأييد كما فعل هذا المؤرخ النبيل . انها صورة مؤلمة لحياة امة تحت جناح دولة يفرض فيها ان تحمى شعبها فى جميع مواطنه وترعاه وتيسر له وسائل الحياة السعيدة .

اما الشيخ عبد الرحمن هذا وهو من عائلة بنى جلود من سكان الجزيرة نفسها فيسافر الى تونس ويستدين من النصارى اموالا كثيرة يدفعها لوالى تونس ثمنا لكرسى المشيخة على الجزيرة . ويتولى فعلا مشيختها وبمجرد تسلم مهام منصبه يفرض على

السكان المساكين ألفى مطر من الزيت والمطر كما يقول الشيخ ابو الربيع واحد وستون رطلا يذهب بها الى النصارى فيدفعها لهم مقابل ديونهم عليه. الديون التى اشترى بها منصب المشيخة على جربة من الدولة العلية ، ثـم يعود الى الجزيرة فيلقى علـى السكان المساكين مزيدامن الغرامات غرامة تلو غرامة ليجمـع الثروة فى اقرب وقت ممكن وهذه الغرامات المتوالية يلتمس لها اتفه الاسباب ولا تكفى عن الضرائب السنوية التى تجمعللدولة، ومع هذا الظلم وهذا الحرص على المنصب والمال تضيق الحيـاة بالرجل فيموت منتحرا . يقول العلامة الشيخ سعيد بن تعاريت « وفى جمادى الاول من السنة المتممة للمائة القى الله الرعب على الشيخ المذكور ، ابدى له الشيطان ان قتل نفسه اهون عليه من الحياة ، وارتحل من داره لوادى الزبيب ، وسكن بتاجموت وفى الليلة السادسة من رجب ضاقت عليه الارض بما رحبت فعمر بندقيته تعميرا بليغا ، فلما جنعليه الليل اغلق الدار علىنفسه ومكنها من قلبه فمات . »والمتتبع لتاريخ جربة فى هذا العهد يجد كثيرا من هذه الصور المؤلمة التى تجتمع فيها ظروف الحيـاة القاسية ، مع مظاهر الحكم الظالمة ، فهى تمتاز بالنزاع المتواصل بين الحكام المحليين الذين كانوا يشترون مناصب الحكم بالاموال التى يدفعونها الى الدولة المركزية ، فى تونس ، ثم يفرضونتلك الاموال بصورة غرامات وعقوبات على الناس ، فيجمعونها منهم ويرتكبون فى ذلك اشد انواع الارهاق والظلم ، ولا يكفيهم هذا بل يضيفون الى ذلك فرضضرائب سنوية على كل شىء حتى على الرؤس من بنى ادم . وقد أدى هذا المسلك من الحكام الـى نتيجتين : الاولى . سخط الناس على من يتولى الحكم وتمنيهمزوال أيامه والعمل على تغييره واستبداله .

الثانية طمع الناس فى شراء المنصب وقيامهم بالمطالبة بالحكم للحصول على الثروة من هذه الطريق . واغلب ما يكون ذلك من بعض افراد العائلة الحاكمة نفسها ويؤدى ذلك الى انقسام الاسرة الحاكمة الى قسمين متحاربين ينضم الى كل قسم منها طائفة من الناس يناصرونه ويشدون ازره على أمل ان يكون من الفريق الغالب ، وأقل ما يستفيده اولئك المناصرون اذا انتصر اصحابهم ان يعفوا من الغرامات والضرائب التى يلقيها الغالب منهما على المغلوب واتباعه . وعندما تقع المعركة بين الفريقين وينهزم احدهما لا يقف الامر عند هذا الحد ، وانما يخرج المغلوب منتصرا ببعض الولاة فى طرابلس ، او تونس ، فيتعهد لهم بدفع مبالغ من المال اذا هم نصروه واوصلوه الى الحكم . فان لم يهتم به اولئك الولاة ولم يستمعوا الى مطالبه ووعوده ، فانه سرعان ما يكون جيشا من المرتزقة الذين هم على استعداد للمغامرات والحروب لقاء ما يحصلون عليه من الاسلاب والغنائم فى البلدان التى يدخلونها وهكذا يتكون جيش يقوده رجل ليس بين عينيه الا الحصول على المنصب وجمع المال ، اما افراده فلا يهمهم من موضوع الغارة الا ما يسلبونه من الناس ويدخل الجيش الجزيرة، ويرتكب ما يرتكب اذا اتيح له ان ينتصر ، اما اذا لم يتح له فانه يرجع ليعمل من جديد على حشد مزيد من المرتزقة الطامعين والى القارىء الكريم صورا مؤلمة مما ذكره المؤرخون لهذا العهد ، يقول الشيخ ابو عبدالله محمد ابو راس الجربى :

« وفى سنة اثنين وخمسين ومائة والف وقعت وحشة بين الشيخ سعيد بن موسى وبين على باشا بن محمد بن على اذ طلبه للقدوم فخاف وامتنع واولاه على قيادة الاعراض . فخلص مالها وارسله مع ولده خوفا على نفسه لكونه اولاه عمه حسين

بن على ، ولما قتل عمه واستولى مكانه ، قتل اصحاب عمه ثم انه بعث رجلا من الاتراك يسمى (قارة مصطفى) ليقتله غدرا فاتى لحارة اليهود على طريقة فوجد زيتونة على الطابية بسانية زككوت فاستخفى تحتها ونقب الطابية فضربه من النقب بالرصاص فسقط ميتا فبلغ الخبر الى على باشا فاولى مكانه الشيخ موسى بن صالح وهرب الشيخ احمد بن موسى اخو الشيخ سعيد المقتول الى باشا طرابلس احمد باشا القره مانلى ، وطلب منه محلة لاخذ جربة ، فلم يلتفت الى قوله فرجع الى العربان ، فاجتمعت عليه عكارة وورغمة ودخل الى الجزيرة من مرسى آجيم ، واجتمع عليه اصحابه من اهل الجزيرة ، وقصدوا قتال موسى بن الشيخ صالح ، وكان متأهبا لقتاله منذ سمع به فاجتمع الفريقان بحومة تاجموت ، فتحاربا ، فانهزم الشيخ موسى وفر هاربا للسوق فتبعه الشيخ احمد بمن معه الى ان دخل البرج الكبير فحماه البرج بالمدافع فرجعت العربان الى السوق فنهبوه عن آخره واستولى الشيخ احمد على الجزيرة . » وبعد كلام يقول : «ولما هزم الشيخ احمد وقتل غالب من معه رجعت العسكر على حومة آجيم ونهبوا ديار كل من كان من جانب الشيخ احمد.»

وهكذا تتم الصورة لهذه الحادثة ينتصر احمد فيستبيح عسكره جميع اموال موسى واموال اتباعه ، وينتصر موسى فيستبيح هو وعسكره جميع أموال احمد واموال اتباعه وهكذا ينتهب نصف الجزيرة فى المعركة الاولى وينتهب النصف الثانى فى المعركة الثانية .

هذه صورة حادثة واحدة من حوادث متتابعة متكررة ، واذا شاء القارىء الكريم ان يرى صورة اخرى من هذه الصور المؤلمة فانا اضع بين يديه هذه الصورة التى يعرضها علينا المؤرخ الكبير ابو الربيع الحيلاتى ، وهو شاهد عيان فان هذه الاحداث

كانت فى عصره ، يقول ابو الربيع : « قدم الشيخ عبد الرحمن ـ أى ابن أبى جلود ـ من ساحل طرابلس فى اربع مراكب مستعينا بجند طرابلس ، ولم يجد سبيلا الى الدخول الى الجزيرة بسبب عرب ورغمه الذين استعان بهم الشيخ سعيد ـ اى ابن جلود ـ ودار الشيخ عبد الرحمن فى سفنه الى مرسى آجيم ومنع من الدخول اليها، فذهب الى عرب الاعراض فى الجريد وجبل مطماطة من بلد الزارات وقابس والمطوية وما يقربهم ، وفزعهم ، قيل ان عدد ما فزع نحو ثلاثة الاف يريد الدخول بهم الى الجزيرة ليقاتل بهم ورغمة . فلما وصلوا الى مرسى الغنم خارج الجزيرة وبدأوا يدخلون الى القطعاية القبلية ، والشيخ قاعد معهم خارجا قالوا نحن تريحك من العرب ، فاذا قاتلناهم لا نجد عندهم كسبا ولا شيئا ننتفع به ونحن ما جئناك الا لطميعة ، نريد التسريح فى ان نأخذ بعض الجزيرة ونفيئها. فابى وقال انما اريد عمارة البلد ولا اريد خلاءها ، فلم تقع بينهم المطاوعة ، فقالوا له فان لم تطاوعنا على ذلك نرجع خائبين ابعث السفن وارددهم الينا لا نبيع رقابنا من غير طميعة . »

اعتقد ان هذه الصورة التى نقلتها عن مؤرخين معاصرين لتلك الاحداث كافية فى ايضاح الحالة المؤلمة التى كانت تعيش عليها الامة الجربية الكريمة فى ذلك العهد ولعل اسرة بنى جلود هى أشأم اسرة حكمت الجزيرة من اهل جربة ، فلقد عاشت الجزيرة فى عهد بنى سمومن عيشة الامة المستقلة داخليا ملتفة حول علمائها ، يفصلون مشاكلها وينظمون شؤونها حسب احكام الاسلام ، وكان الشيوخ من بنى سمومن متضامنين مع العلماء والعزابة يسيرون بتوجيهاتهم وارشاداتهم لا يطغون ولا يتجبرون ولا يختلفون ولا يتنازعون على الحكم فلما تولى بنو

جلود من بعدهم نزع الشيطان بينهم فتنازعوا على الحكم وتقاتلوا عليه وكاد بعضهم لبعض واغتال بعضهم بعضا وانقسم السكان بسبب انقسامهم ، واستنصر كل فريق منهم على الاخر بجميع الوسائل الشريفة والوضيعة ، واصبحت صرخات العلماء صيحة فى واد ، ونفخة فى رماد ، فلم يعد الناس يستمعون لهم ، ولم تعد الحكومات تمكنهم من أداء رسالتهم ، لان نظام العزابة قد حل واصبح صوت العلماء صوت افراد لا صوت هيئة ، وفل حد السيف القوى الذى كان يحول بين الناس وبين المعصية ومخالفة الجماعة ، ذلك السيف الذى فرطت فيه جربة ، وفرط فيه جبل نفوسة فانفرط عقد نظامهم ووحدتهم وتعاونهم وحافظت عليه ميزاب فحافظت على مزايا الاخلاق الاسلامية . ذلك السيف هو الحكم بالبراءة على من يخالف احكام الاسلام ويبتعد بارتكاب المعصية عن الامة المسلمة وسيرة المؤمنين الصالحين .

ولم يكن هذا فحسب بل ان السلطة الحاكمة سواء كانت منبعثة من الدولة المركزية او من المشيخة المحلية ـ على طريق اغلب واحكم ، او ادفع واحكم ـ قد استبدت بالعلماء وضغطت عليهم ، وتعقبتهم ، وحالت دونهم ودون القيام بمهام العلم والتعليم ، والزمتهم الانعزال والبعد عن قيادة الجماهير ، فصمتت السنة الارشاد والتوجيه ، وخفت من المجتمع صوت الانكار على الرذيلة بمختلف اشكالها ، حتى رذيلة الاختلاف بين عناصر الامة الواحدة التى اصبحت تعبث بها اهواء الحاكمين ، وضعف الاحساس الدينى فى مراقبة الحلال والحرام والهروب من الريبة والشبهة ، وخيل لبعض الناس ان الالتفاف بالدولة ، والارتزاق منها هو خير السبل واضمنها للمعيشة فناصر بعضهم بعض الحكام.

على ان اغلبية الناس كانوا يقفون موقف المتردد الشاك الذى لم يتضح له السبيل السوى .

ولم يطل هذا الموقف بالناس فقد تكشف لهم بعد زمن قصير ان ما كانوا يظنونه دولة ويسبغون عليه حرمة الامر الحكومى وانه يتولى الحكم عليهم بامانة الله . ان هى الا رغبات شخصيـة ، ومطامع فردية اوصل بعض الناس اليها مهارتهم فى نصب الحيل، وبراعتهم فى تدبير المكائد ، وخبرتهم بكيفية تقديم الرشاوى ، وحرصهم على الاستغلال . وان اولئك الناس الذين وصلوا الى الحكم واصبحوا يجلسون على كراسى الدولة ويتكلمون باسمها انما يعملون لانفسهم وان غيرهم ممن ينصرهم انما ينال منهم بمقدار ما يؤدى من خدمات لهم لا للدين ولا للامة ولا للوطن . فاصيب اولئك الذين التحقـوا بهم والذين ترددوا فى الالتحـاق بصدمة جديدة ، وعملت اليد الحاكمة على تفريق كلمة الناس ، وتوسيع شقة الخلاف ، وتسليط بعضهم على بعض ، فنتج عن ذلك زيادة فى الوان التعصب المذهبى والجنسى والقبلى، وغير ذلك من الوان العصبية ، ووجد اهل جربة انفسهم محاصرين من عدة جهات. فرجعوا الى الانعزالية التى عرفوا بها فى الماضى، واعتمدوا على انفسهم فى الكسب والحصول على الثروة والمال ، وبعدوا عن التعلق بأعمال الدولة ، الى الاشتغال الحر المتواصل، الذى لا يفتر ولا يمل، سواء كان ذلك فى الزراعة ومجال الزراعة عندهم ضيـق ومحدود، أو كان ذلك فى الصيد البحرى، صيد السمك والاسفنج أو كان فى الصناعة صناعة الفخار والصوف ، او كان فى التجارة .

وفى الميدان الاخير ميدان التجارة تنافس القوم واهتموا له حتى برعوا فيه وبزوا غيرهم ، وتغربوا من اجل التجارة الى اقصـى البلدان ، واطالوا فى الغربة الاقامة ، حتى سيطروا على التجارة

فى كثير من البلاد واصبح لهم ثقل فى ميزان الاقتصاد وضرب بهم المثل فى الحذق والمهارة والنشاط . وحتى تلك الايدى التى كانت تشتغل فى الزراعة او الصناعة او الصيد استهوتها المكاسب التجارية فى ديار الغربة .

ان هذا الاتجاه اعنى الاتجاه الى الاشتغال بالتجارة والتغرب بها واطالة الغربة من اجلها قد نتجت عنه نتائج خطيرة من الناحيتين الاجتماعية والدينية . فقد اصبح التاجر الجربى ينقطع عن وطنه تبعا لعمله ويبتعد عن الجو العلمى والدينى الذى كان يعيش فيه ، ويحيا فى جو مادى خالص قوامه العمل المتواصل من بيع وشراء وحساب للمكسب والخسارة وتعرف لاحوال التجارة وما يطرأ على الاسواق من تغيرات ، ويخفت فى سمعه صوت الوعظ والارشاد وتبعد عنه اصداء الدروس التى تتعالى فى مساجد جربة ، ويفقد تلك المجالس فى بيوت الله قبل الصلاة وبعدها ، ويصاب بنوع من المادية والجفاف وغلظ فى الحاسة الدينية ، ثم يبدأ فى ارتكاب اشياء هينة فى نظر المجتمع الجديد ، ما كان ليرتكبها لو بقى فى جربة ويستمر ذلك ويتعوده ، وهكذا يكتسب عادات واخلاقا جديدة فيها كثير او قليل عن العادات والاخلاق التى كان الناس يحرصون عليها فى وطنه .

وعندما يعود الى الجزيرة من غربته الطويلة ليقيم فيها اياما قليلة للراحة والاستجمام يعتبر نفسه ويعتبره الناس ضيفا ، فلا يلتزم السيرة المعروفة للاباضية ولا يحرص الحرص الاكيد على حضور مجالسهم فى مساجدهم ، ولا يهتم بمتابعة الدروس التى تلقى للعامة او للخاصة .

وتتابعت الهجرة ، واصبحت هى الوسيلة للحياة واعتاد الناس ان يأخذوا معهم اطفالهم وشبابهم الى ديار الغربة ليدربوهم على

احتراف التجارة فيقطعونهم بذلك عن التعليم الدينى الصحيح السليم ، ثم هم لا يحرصون على رعايتهم رعاية كاملة من ناحية السلوك الدينى ولهذه الاسباب مجتمعة التى هى :

١ ـ انحلال نظام العزابة وفقدان قيادته للمجتمع .

٢ ـ الضغط على العلماء والحيلولة دونهم ودون القيام بامر الله بين الناس .

٣ ـ توالى الهجرة وتتابعها والابتعاد عن المجتمع المتماسك المتقيد بسلوك خاص يرعاه اهل العلم والصلاح .

تأثرت جزيرة جربة .

هذه الاسباب الثلاثة مهدت لوجودها ما اطلقت عليه فى بعض الفصول من هذا الكتاب كلمة الرذيلة لا سيما فى العمل التجارى، وقد جد العلماء المخلصون من اهل الجزيرة الكرام فى محاربة ما بدأ يتسرب الى المجتمع الجربى مما يخالف سيرتهم النظيفة فى السابق ، من محرم ومكروه . فكانوا ينتقلون بين احياء الجزيرة للوعظ والارشاد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتجاوزوا ذلك الى السفر الى البلدان التى يكثر فيها التجار من اهل الجزيرة فيشرفون على اعمالهم ، ويطلعون على سيرتهم . وكثيرا ما يشتد اولئك العلماء فى النكير على من يجدونه لا يلتزم السير على النهج الاسلامى القويم ، لكن التيار الجارف كان اقوى من مجهود العلم المقيد من طرف السلطة الحاكمة .

وفى الامة الجربية اليوم من مزايا الخلق الاسلامى الشىء الكثير فهى لا تزال تعتمد فى الكفاح من اجل المعيشة على العمل الحر الشريف ، دون امتهان للكرامة او التصاق بالدولة او اعتماد عليها وهى لا تزال ترعى المجتمع رعاية كاملة تأخذ بايدى فقرائها وتساعدهم على الحصول على العمل الشريف ، وهى لا تزال

تحرص على الانفاق فى سبيل الخير ، لا سيما فى ميدان العلم والتعليم والتعليم الدينى بالذات . ويهتم اغنياؤها ويتنافسون عليه وهى لا تزال محبة للاجتماع والتعاون على الخير والاستماع الى الوعظ والارشاد والتأثر بكلمة الحق .

هذه المزايا كلها متوافرة فى اهالى جربة الكرام ولو انهم فكروا فى ارجاع نظام العزابة الذى يتولى جميع الشؤون الدينية والاجتماعية ، وحرص افرادهم فى مختلف ديارهم على السيرة النيرة المعروفة فى جربة عندما كان علماؤهم الاجلاء يشرفون على توجيه الناس فتمسكوا بها فى وطنهم وفى مهجرهم ، ثم وفروا لابنائهم فى جربة وخارجها التربية الدينيةالسليمة ـ لو فعلوا هذا لكسبوا خيرا كثيرا .

وانه ليسرنى وانا اكتب هذا الفصل عن اخوان أعزاء على ، ان ادعوهم الى ان يراجعوا تاريخهم المجيد ، ون ينظروا فى صفحاته المشرقة ، الصحفات التى كتبها الاسلام بايدى المؤمنين المخلصين. وانا حين اذكر التاريخ المجيد فانما اعنى تاريخ الامة الاسلامية فى مختلف العصور الطويلة ، الامة التى يكون سكان جربة جزءا صغيرا منها ، وتاريخ الامة الاسلامية الكبرى لا يتمثل فى اعمال الدول التى تعاقبت على الحكم او تقاتلت عليه ولا فى اعمال الرجال الذين بلغوا الى اعلى المناصب فى اى عصر من العصور . ان ما قام به بعض الحكام او بعض الدول وما يقوم به بعضهم اليوم من ظلم او انحراف لا يحسب على تاريخ الامة الاسلامية لانه خروج عن حكم الله وعنارادة الامة، ان تاريخالامةالاسلامية انما يتمثل فى الامة نفسها فى الجماعات وفى الافراد ، فلقد كان منها فى كل زمان وفى كل مكان من يقومون بامر الله ، ويبلغون رسالته ، ويحافظون عليها المحافظة الكريمة الكاملة ، دون

الاستناد الى قوة السلطة الظالمة ، والاستعانة بنفوذ الدولة الجائرة ، فاذا اتيح لهم دولة رشيدة عادلة استعانوا واعانوها . وفى تاريخ جربة المثل على ذلك فلولا القبس الحى الذى يملأقلوب المؤمنين ولولا الشحنة الروحية التى قدمها ابو النجاة فى صدورهم لما استطاع ثلاثة الاف من العزل ان ينتصروا على عشرين الفا من احلاس الحروب .

ولولا الوقفة الشريفة التى وقفها كل من عبد المؤمن وابى بكر وابى فارس فى محن جربة لتغير وجه التاريخ ، ولولا الاموال التى تبرع بها المنفقون فى سبيل الله لما بنيت تلك المساجد المنتشرة على كامل الجزيرة والتى يبلغ عددها نحو ٣٦٠ مسجدا . ولولا الاموال التى تبرع بها المؤمنون لما شيدت المدارس ولما قامت دور العلم فى مختلف الجهات ، ولو اتيح لمؤرخ ان يحصى ما بنى فى العالم الاسلامى من المساجد والمدارس ودور العلم على نفقة المحسنين من الجماعات والافراد لاخذه العجب . وفى جربة وحدها دليل كاف على ذلك فان جزيرة مساحتها ستمائة كيلومتر مربع يقوم فيها ثلاثمائة وستون مسجدا دليل واضح على ما ينفقه الناس فى سبيل الله .

ان الزائر الى جربة ما ينتقل من مكان الى مكان قريب حتى يجد بيتا من بيوت الله مشيد الاركان عالى البنيان تتصل به مرافق الطهارة وتحيط به‌دور عديدة خصصت لسكنى طلبة العلم‌الوافدين من الجهات البعيدة . وكل ذلك انما قام به المسلمون المتطوعون لا يريدون بذلك غير وجه الله تعالى . لم تشرف عليه دولة ، ولم تنفق عليه جمعية ذات ميزانية ودخل .

وانه ليسرنى فى ختام هذا الفصل ان ادعو اخوانى المؤمنين الى الاستمرار فى عمارة بيوت الله ، التى اسسها المؤمنون على تقوى

من الله من اول يوم . وان يحافظوا على الصلاة فيها، وان يعمروها بذكر الله ، وان يرفعوا صوت العلم فى جنباتها ، وان يلجأوا اليها فى الاتصال بخالقهم ، فان عزة المؤمنين فى كل عصر وفى كل مصر انما انبعثت من المسجد ، وما دامت القلوب عامرة بالايمان بالله ، والمساجد عامرة بعباد الله فان عناية الله لا تتخلى عنهم ، وما بعد ناس عن دين الله ، وهجروا مساجدهم الا ووكلهم الله الى انفسهم فهلكوا . اللهم لا تكلنا الى انفسنا فنهلك ولا تؤيسنا من رحمتك يا ارحم الراحمين .

المجامع العلمية

فى اطلاق هذا العنوان على الموضوع الذى اريد ان اتحدث عنه فى هذا الفصل شيء من التجوز فان كلمة المجامع العلمية ربما تعنى عند القارىء الكريم معنى خاصا يستوحيه من المجامع العلمية الرسمية التى تكونها الدول وتشرف عليها لبحث مواضيع خاصة او عامة . والذى اريد ان اتحدث عنه فى هذا الفصل انما هو ظاهرة تكاد تكون خاصة بعلماء جربة بعد انحلال مجلس العزابة فى أواخر القرن العاشر واوائل القرن الحادى عشر، وتكاد تكون تلك المجامع العلمية امتدادا معنويا لمجالس العزابة ، التى كانت تتولى كل شيء فى الجزيرة حتى تولية الامراء المحليين وعزلهم ، فقد اعتاد اولئك العلماء منذ ان انحل مجلس العزابة ـ بسبب تسلط الولاة عليه ، ومحاربة اعضائه محاربة لا هوادة فيها ـ ان تنعقد مجالس العلماء مرة او عددا من المرات فى الاسبوع فى مسجد من مساجد الجزيرة ، تحت رئاسة اعلم علمائهم ، وفى هذا المجلس الذى يجتمع فيه كبار العلماء لا يتخلف احد منهم الا لعذر ، ويحضره المتعلمون من مختلف الطبقات كانت تناقش اهم المسائل والاحداث ، وتعرض المشاكل المستجدة ، وتوضع بين يدى المجلس خصومات الناس ومنازعاتهم ، وينظر المجلس فى جميع ذلك ويستعرضها موضوعا موضوعا ، فيستنبط

الاحكام للمواضيع المستجدة ، استنادا الى اصول الشريعة ،ويفصل منازعات الناس بحكم دين الله ، ويعلن الشيخ ذلك ، وغالبا ما تدون محاضر تلك الجلسات ، فيقوم الطلبة وقد استفادوا علما وعرفوا طريقة استخراج الاحكام واستنباطها من القواعد الكلية، وانواع السلوك الذى يجب ان يتحلى به من يتهيأ للفصل بين الناس . ويقوم المتخاصمون وقد رضوا بحكم الله الذى اعلنه لهم شيخ المجلس العلمى مكتفين بذلك، مقتنعين بانه حق وصواب، لا يرتفعون الى حاكم آخر ولا يتجهون الى قاض من القضاة الذين قد تعينهم الدولة ، لان المجلس فى نظرهم وفى الواقع اكثر دقة وكفاءة فى معرفة الاحكام وحرصا على ايصال الحقوق ، واوفر امانة ونزاهة ، وابعد عن دواعى الجهل او الخطأ ، او التأثر بالمؤثرات الخارجية كالخوف او الطمع .

ولقد تعاقب على الرئاسة العلمية لهذه المجامع فى زمن العزابة وبعدهم عدد من فطاحل العلماء الاعلام . وكانوا يتعاقبون عليها بالكفاءة الشخصية فقط ، فلم يكن هنالك من يسند اليهم هذا المنصب الكبير لا من الدولة ولا من الامة ، ولكن بتسليم العلماء لا علمهم واعترافهم بتفوقه العلمى وتأهله لشغل ذلك المكان الكريم ، ومفهوم بالطبيعة ان هذا كان يحدث بعد انفراط نظام العزابة ، اما حين كان نظام العزابة سائرا ينعقد ويقوم بمهامه فهو الذى يسند الرئاسة العلمية الى من يستحقها ويسمى شيخ العزابة ويسند الرئاسة المدنية الى من يتوسمون فيه القدرة على رعاية شؤون الناس ، ويسمى شيخ الحكم ، ويكاد ينحصر عمل شيوخ الحكم هؤلاء او الحكام المدنيين على مفاوضة الدول التى تحكم الجزيرة او تريد حكمها وتسليم مقادير الضرائب التى تفرض عليها ، وعندما يحاول الافرنج احتلال الجزيرة فان هؤلاء

المشائخ بالتعاون مع مجالس العزابة ينظمون وسائل الدفاع ويشرفون عليها وقد يتولون قيادة المعارك الحربية كما فعل ابو زكرياء السمومنى .

ولقد دأب علماء الجزيرة على هذا الوضع منعقد المجامع العلمية الى عصر الشيخ سعيد بن تعاريت .

ولقد يجمع عصر من العصور عددا ضخما من العلماء ولكن سرعان ما يمتاز واحد منهم فيسلمون له رئاسة المجمع دون ان يحدث بينهم خلاف . فلقد كان فيهم من غزارة العلم ، ومتانة الخلق ، وصحة الدين ، وسلامة الصدر ، ومحبة الاخوان ، ورعاية المصلحة العامة، ما يحملهم على الاعتراف لذى الفضل بفضله ، ولم يحدث فيما وصلت اليه يدى من مصادر التاريخ ، ان تنافس اثنان من العلماء فى الجزيرة على رئاسة المجلس أو تنازعوا على الاعلمية ولم يحدث فيما اطلعت عليه ان وقع خلاف بينهم فى هذا الصدد ، ولم يحدث ان تكبر احدهم او انتفخ فاعتزل حضور المجلس . ويشهد لذلك الشيخ سعيد التعاريتى فيقول : « تجدهم مع غزارة علمهم وجلالة قدرهم ، لا يستغنون عن بعضهم وانه اذا نزل بهم امر مهم او غيره يجتمعون على اكبرهم ويوقرونه ويلتمسون منه الرأى والمخرج ، مما هم فيه ، وهذا دأبهم رحمهم الله تعالى ورضى عنهم . »

ومن المشائخ الذين ترأسوا المجامع العلمية من يلى :

ابو عثمان سعيد بن على يامون الجربى .

ابو النجاة يونس بن سعيد التعاريتى .

زكرياء بن افلح الصدغيانى .

ابو سليمان داود بن ابراهيم التلاتى .

قاسم بن سعيد اليونسى .

ابو الربيع سليمان بن عبدالله من اولاد ابى زيد .
ابو عثمان سعيد التغزويسنى .
ابو محمد عبدالله السدويكشى .
ابو عبدالله محمد بن ابى سته .
ابو الفلاح الياس بن داود الهوارى .
زائد بن عمر اللوغ .
ابو الربيع سليمان بن احمد الحيلاتى .
ابو الفضل قاسم بن ابى الربيع بن محمد الشماخى شيخ الشيخ سعيد بن تعاريت .

ذكرت لك ايها القارىء الكريم هذه الاسماء لا على سبيل الحصر ولا على طريقةالترتيب الزمنى ولكنهم كأمثلة للموضوع ومنهم من رأس مجلس العلم ومجلس العزابة معا ، ومنهم من رأس مجلس العلم دون مجلس العزابة لتحلل نظام العزابة فى عصره ومن هؤلاء ابو الفضل الشماخى .

ولعله من المناسب ان انقل للقارىء الكريم فى هذا الفصل شواهد مما كتبه المؤرخون فى هذا الموضوع .

قال سلامة الجناونى : « وقع لعزابة جربة اجتماع عند شيخنا الفاضل الهمام ابى النجاة عمنا يونس بن سعيد بن يحيى التعاريتى . »

وهذا النص يدل على ان مجلس العزابة كان ينعقد عند شيخهم وانه لم يزل الى ذلك الحين (سنة ٩١٦) يتولى جميع شؤونالبلد حتى الشؤون السياسية ويؤيد ذلك ما جاء فى الوثيقة التى رجحت سابقا انها من تقاييد الجناونى ما يلى :

« فاجتمع حينئذ من ينظر اليه من عزابة وهبيتها ـ يعنى وهبية جزيرة جربة ـ عند الشيخ الاجل الفقيه الاكمل العالم الافضل

ابى النجاة يونس بن سعيد اسعده الله واسعد به ، ووفقه ووفق به ، ليروا رأيهم بين يديه ، لما علموا من يمن الرأى الناجح الناتج على يديه . » ويقول الشيخ سعيد التعاريتى : « ويجتمع أى ابو النجاة يونس ــ هو وأكابر مشائخ عصره اذا نزلت بهم نازلة عند عمنا سعيد يامون المذكور من حومة غيزن من جانب صدغيان لقدم هجرته (١) وكثرة بركاته ، ويخرج الرأى من جميعهم . » ويقول الشيخ سعيد التعاريتى فى مكان اخر : « واذا وردت نازلة يجتمعون عند عمنا زكرياء الصدغيانى . » ثم يقول بعد اسطر : « ثم من بعدهم الجميع عند عمنا يونس التعاريتى » ومعنى هذا ان رئاسة المجلس انتقلت بعد ابى عثمان يامون الى ابن يحى زكرياء الصدغيانى ، ومنه انتقلت الى ابى النجاة يونس . ويقول الشيخ التعاريتى فى حديثه عن ابن سليمان التلاتى : « وساد بجربة ، وتولى مجلسها اذ ذاك ، واليه يرجع الامر فى زمانه والشورى . » ويقول الشيخ التعاريتى : « وكان الشيخ ابو الربيع سليمان بن عبد الله من اولاد ابن زيد رحمه الله احد الائمة، كان ترجع اليه الشورى فى مجالس العلم، لانه كان المجلس بجربة مجلس المسجد الكبير ، ثم تحول الى مسجد بنى لاكين ثم صار فى مسجد وادى الزبيب ، يجتمع كافة العلماء والمشائخ على الشيخ سعيد التغزويسنى وسيأتى التعريف به ، باذن الشيخ ابى زيد الصدغيانى والشيخ الياس الهوارى وذلك فى عشره الاربعين اظنها من القرن العاشر . » ويقول الشيخ التعاريتى :

---

(١) يطلق الاباضية هذه اللفظة على الدخول في سلك العزابة فيقولون فلان اقدم هجرة من فلان يعنون بذلك انه سبقه الى الدخول في مجلس العزابة ، والحديث هنا يدل ان ابا عثمان يامون دخل مجلس العزابة قبل ابى النجاة وهذا طبيعي لان ابا النجاة من تلاميذ ابى عثمان وابو عثمان من تلاميذ الشيخ يعيش الجربى .

« واليه ـ اى ابى النما رائد بن عمر أللوغ ـ المرجع فى الفتوى والشورى فى زمانه والمدرس حينئذ داودالتلاتى بمسجد القصيين والاجتماع عند ابى النما ولا يخرج الرأى الا من عنده وذلك فى زمن تولية شيخ الحكم بالجزيرة صالح السمومنى . »

ويقول التعاريتى عند الحديث عن ابى عبدالله بن ابى حفص بن ابى سته : « وله مكان يحكم فيه معلوم اليوم ، به مقصورة ببابها ، كان يجلس فيها الممتنع عن اداء الحق حتى يذعن ويخرجه منها على ما قيل وذلك مشهور . » واضاف بعد اسطر يقول : « وهذا المجلس تولاه بعد شيخه عبدالله السدويكشى . » والكلام هنا يدل على ان الحكم يتولاه باسم العزابة ، ولولا ذلكما استطاع ان يحكم على الممتنع عن اداء الحق بالحبس حسب كلام التعاريتى لان القوة التنفيذية او ما يعبر عنه التعاريتى بمشيخة الحكم انما كانت فى عصر ابى عبدالله فى اسرة بنى سمومن فابو سته شيخ عزابة وليس شيخ حكم وقوته هذه التى يستطيع ان يحبس بها من يمتنع عن اداء الحق انما يستمدها من قوة العزابة لا من قوة الدولة .

ويقول العلامة التعاريتى : «ان مشائخ الجزيرة كلهم يجتمعون بمجلس الاحكام والامور المهمات من صالح البلد لانهم رحمهم الله كانوا بوقتهم مهما يقع شىء فى البلد لا يمكن حاكمهم بفصله ولا يفعل شيئا دونه (١) كما يشهد لذلكما رأيناه مقيدا بعدة رسائل فى تقييد وقائع الجزيرة فى زمان بعضهم مثل ابى النجاة وابى سليمان وغيرهم . »

احسب ان الشواهد السابقة كافية للدلالة على ما اردت ان اعرضه على القارىء الكريم من ان اهل جربة قد اعتادوا على نظام

---

(١) اي لا يفعل الحاكم شيئا دون مجلس العلماء

ساروا عليه ، وذلك بعقد مجامع علمية يرأسها اعلم علمائهم وتعرض فيها جميع مشاكلهم الخاصة والعامة ، ويكون هذا الاجتماع غالبا فى بعض المساجد ولكنهم قد يعقدونه فى منزل الشيخ اذا دعت لذلك اسباب وذلك فيما يبدو لى عند نزول امور مهمة مستعجلة ، كالغزو الخارجى او عند ما يريدون ان يكون نقاشهم فى دائرة خاصة بعيدة عن العوام وصغار الطلبة .

وهذه المجالس انما كانت اجتماعات لمجلس العزابة فلما انحل اعتاد العلماء ان يقوموا بذلك ويحافظوا عليه وبقوا محافظين على هذه العادة لزمن طويل حتى تغيرت انظمة الحكم فى أواخر العهد العثمانى وتسلط الحكام على العلماء ودخلت بعض المذاهب الاسلامية الى الجزيرة فاستغل الحكام ذلك لزيادة التفريق بين الناس وتوسيع شقة الخلاف ، واصبحت تلك المجالس تتضاءل حتى انقرضت او كادت فى زمن الشيخ سعيد بن تعاريت على ما يفهم من حديثه يقول التعاريتى : « وتجد اشياخ وقتنا الواحد منهم لا يصلح ان يكون أقل تلميذ لاضعفهم علما ، وتجد أعلم اشياخ وقتنا مثله لا يكون مدرسا ولا يتأهل للتدريس ومع هذا كله تلقاهم وتجدهم لا يجتمعون على لفظة ، وكل مقتنع برأيه وعلمه ، واذا صاوبت احدا منهم يقول ما يقول ، والاخر كذلك ، حتى صار هذا دين لهم يفنى عليه كبيرهم ، وينشأ عليه صغيرهم ، فمن اجل ذلك سلط الله عليهم الظلمة الغشمة ، واستولى عليهم الاسافل حتى لا يعرفون قدرهم ولا قدر علمهم وحينئذ يقول الواحد منهم او كلهم هذا اخر زمان ، لم يعد العلم يوقر ، ولم يعد له قدر وشأن ، ولم يعلموا ان هذا كله بارادة الله ، وبسوء افعالهم ، تصديقا لقول هادى الامة كاشف الغمة « كما تكونون يولى عليكم » وقوله عز من قائل « **فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير** » لكونه فى محل ينبىء عن الباطل ، لان العلماء ورثة الانبياء

واما الظلمة والاسافل فهم فى باب الظلم والتعسف ،لا يعرفون الله ولا يراقبونه . جهلهم حملهم على ذلك . وزيادة غاية حال زماننا كما قال تعالى « **الم تر أنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم** ازا . » فلا تجد عالما يصاوب ظالما ، ولا ظالما يوقر عالما ، لا داعى ولا مجيب انا الله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحسبى الله ونعم الوكيل، وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب ، نسأل الله تعالى السلامة والعصمة والنجاة من فساد هذا الزمان ومن شياطينه الانسية والجنية آمين واستغفر الله من الزيادة فى الكلام ، واختم قولى بالصلاة على النبى ، عليه السلام . »

ورغم هذه الصورة القاتمة التى وضعها الشيخ سعيد بن تعاريت لعصره وعلماء عصره ، فاننى اعتقد ان ذلك العصر كان به افذاذ من العلماء ، يقومون بامر الله ، ويحافظون على دينه ، ويرعون الامة فى جميع شؤونها ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر، ويتولون تعليم شباب الامة، وتربيته على الاسس الاسلامية للتربية، وقد أدركت بعضا من علماء الجزيرة المعاصرين له وحضرت دروسا على بعضهم امثال الشيخ رمضان اللينى ، والشيخ عمر بن مرزوق، والشيخ محمد بن تعاريت، فكانوا امثالا للعلماء المسلمين، سعة اطلاع ، وغزارة مادة ، وصحة عقيدة ، وسلامة دين ، وشدة ورع، ونصيحة لعامة المسلمين وخاصتهم ،وجهادا فى سبيل الله، وكفاحا فى نشر العلم ، وقد كان غيرهم فى الجزيرة كثير مثل الشيخ عمر العوام ، والشيخ سليمان الجادوى وغيرهم .

وطبيعى ان هؤلاء العلماء فى عصر المؤرخ الكبير الشيخ سعيد بن تعاريت لم يستطيعوا ان يقوموا بمثل ما كان يقوم به اسلافهم، لانهم كانوا تحت حكم الاستعمار الفرنسى المتغطرس ، ومهما بلغ الظلم والانحراف بالحكم من الامراء المسلمين فى كل العصور،

فانه لا يبلغ عشر ما جاء فى الاستعمار الغربى للشرق الاسلامى. والفرق فى هذا واضح فان الامير المسلم الظالم انما يظلم لشهوة عارضة ، اما للحصول على المال او للانتقام او للتحكم واظهار السلطة . اما الاستعمار الغربى فقد جاء بخطة تحويل ما فى الشرق من خيرات الى الغرب والقضاء على الدين الاسلامى القضاء الكامل والحاق هذه الامة بالجنسيات الاوروبية ، وتحويل حضاراتهم وادابهم ولغاتهم وما الى ذلك مما يوحى به الشيطان عندما يخدع اعوانه لينطلقوا للتخريب والافساد والفرق بين هذا وذاك . لا نسبة بينهما ومن المستحيل بطبيعة الحال ان نطلب ممن يعيش فى مثل هذه الظروف ان يعمل مثل ما يعمل من يعيش فى مثل ظروف اولئك العلماء السابقين على مختلف عصورهم والفوارق بينها .

وقد اتيح لى ان ازور جزيرة جربة زيارة خاطفة سنة ١٩٦٥ فى عهد الاستقلال والحرية فوجدت بقايا تلك الظاهرة ظاهرة اجتماع العلماء والطلبة لدراسة العلم ومشاكل الجزيرة الدينية والاجتماعية ولقد سرنى والله وانا اتحدث الى جمع غير قليل من رجال الجزيرة الكرام ومن علمائهم العظام ومن المدرسين وطلبة العلم ما لمسته فيهم من حرارة النقاش ، ومحبة العلم والرغبة فيه والتماس الكمال والسعى له . وقد اخبرونى ان لهم مجالس علمية مرتين فى الاسبوع يتدارسون فيها مشاكلهم العلمية والدينية ويدرسون بعض الكتب المفيدة مما الفه السلف وانهم مواظبون على ذلك حريصون عليه .

ولعل الشباب المثقف المتعلم من أهل الجزيرة يعمل على احياء ذلك التاريخ المجيد الذى انتج عبقريات وترك تراثا اسلاميا رائعا فى عهد الاستقلال الزاهر الذى يعمل على ان يبوىء تونس بجميع اجزائها فى امكنة الصدارة من العالم الاسلامى .

كلمة الختام

اخى القارىء الكريم ارجو اننى قد وضعت بين يديك صورا من حياة أمة مسلمة كريمة ، فى وطن مسلم كريم ، ولقد أعملت ما فى وسعى من جهد لاخذ تلك الصور من حقائق التاريخ ، سواء كانت تلك الحقائق علما فى صدور الرجال ، أو أخبارا تتناقلها الاجيال . او معارف مدونة فى بطون الكتب والاوراق ، او شواهد بادية على الاطلال والاثار . فان كان فيها علم وحق فذلك ما اردت والحمد لله على التوفيق. وان كان فيها الخلط والخطأ فالله سبحانه وتعالى المسؤول ان يرفع عنى اثم الخطأ ، ويقينى الزلل .

واخيرا أشعر انه من واجبى ان اتقدم الى اصدقائى الذين أمدونى بمساعداتهم المادية والعلمية ، وتكبدوا من أجلى مشاق السفر ، بالشكر الخالص ، داعيا الله سبحانه وتعالى ، أن يتولى جزاءهم عنى ، فانه نعم المولى ونعم النصير .

مراجع الكتاب

السير	ابو العباس الشماخى
السير	ابو الربيع سليمان المزاقى
الطبقات	ابو العباس الدرجينى
الجواهر	ابو القاسم البرادى
ملحق السير	ابو اليقظان ابراهيم
الازهار الرياضية	سليمان باشا البارونى
تاريخ ابن خلدون	عبد الرحمن بن خلدون
اسد الغابة فى معرفة الصحابة	ابن الاثير
تاريخ الطبرى	ابو جعفر الطبرى
مختصر تاريخ الاباضية	ابو الربيع البارونى
تاريخ المغرب الكبير	محمد على دبوز
مؤنس الاحبة فى اخبار جربة	ابو عبدالله محمد ابو راس
قابس جنة الدنيا	محمد المرزوقى
سلم العامة والمبتدئين	ابو محمد عبدالله بن يحيى البارونى
شامل الاصل والفرع	قطب الائمة
الرد على الصقربة والازارقة	قطب الائمة
الرد على العقبى	قطب الائمة
الفتح العربى فى ليبيا	الطاهر الزاوى
القول المتين فى الرد على المخالفين	ابو الفضل قاسم بن سعيد الشماخى
ورقات عن الحضارة العربية بافريقية	حسن حسنى عبد الوهاب
الملل والنحل	الشهرستانى
رحلة التيجانى	ابو عبدالله التيجانى
الكلمة المرضية	ابو محمد عبدالله السالمى
الرحلة المغربية	محمد العيدرى البلنسى
ازهاق الباطل	قطب الائمة

الدعاية الى سبيل المؤمنين	ابو اسحاق اطفيش
النقد الجليل	ابو اسحاق اطفيش
الدين والعلم الحديث	ابراهيم محمد عبد الباقى
عقيدة التوحيد وشروحها	ابو حفص عمرو بن جميع
المعلقات	جمع وترتيب قطب الائمة
اللقط	ابو موسى
الاباضية فى شمال افريقيه	ابو اليقظان ابراهيم
ليبيا فى العهد العثمانى الثانى	انتونى كاكيا
المنهل العذب	احمد بك النائب
الامام المازرى	حسن حسنى عبد الوهاب
تاريخ علماء الجزيرة (مخطوط)	سعيد بن تعاريت
موجز التاريخ العام للجزائر	عثمان الكعاك
الاسبان وفرسان القديس يوحنا	عمر البارونى
كتاب الجزائر	احمد توفيق المدنى
شرح تحريض الطلبة	ابو عبد الله المصعبى
تقاييد «مخطوط»	ابو الحسن على بن بيان
اخبار وتعاليق «مخطوط»	سلامة بن يوسف الجناونى
مقتطفات من الاخبار والاحداث «مخطوط»	ابو الربيع الحيلاتى
حوادث الجزيرة	ابراهيم بن ثابت
معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى الاسلام	زامباور

الفهارس

فهرس الاعلام

- أ -

ابراهيم بن احمد ١٥٨ ، ١٦٣
ابراهيم بن ثابت ١٩٥ ، ٣٩٨
ابراهيم بن قراتكين ٣٦٨
ابن أبي الجلول ١٨٤ ، ١٨٥
ابن أبي العيون ٢٣٧ — ٢٨٤ ، ٢٨٩
ابن الأثير ١٧
ابن حسان ٣٣
ابن الرقيق ٣٣
ابن زرقون ٤٧ — ٩٣
ابن السبكي ٢٩٢
ابن السلام ٤٧
ابن مصطفى ٣٩٣
ابن مكي ٢٣٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٤
ابن النيل ٣٦٨
ابن ويمي ١٠٤ ، ١٠٥

ابو اسحاق طفيش ٥٣، ٦١، ١٤٧، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ٣٠٤
ابو بكر الثاني الحفصي ٢٣٧، ٢٨٦، ٣٩٨، ٣٩٩
ابو بكر الزواغي ١٠٦، ١٧٠، ١٨٠
ابو جعفر المنصور ٣٣، ٣٤
ابو حاتم الملزوزي ٤٥، ٤٦، ٤٨
ابو حامل الغزالي ٣٩٣
ابو الحسن الاشعري ٣٩٣
ابو الحسن بن علي بيان ١٩٢، ١٩٥
ابو الحسن علي بن يجي بن تميم ٢٢٤، ٢٣٣
ابو حفص عمرو بن جهيع ١٤٧، ١٤٩
ابو الخطاب عبد الأعلى ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٤٢، ٤٣، ٦٩، ٢١٠
ابو الخطاب عبد السلام ١١٣، ١١٩
ابو الخطاب وسيل ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩
ابو خزر يغلا بن ايوب ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٥، ٨٦، ٨٨، ٣٦٦
ابو داود سليمان ١٥٩
ابو داود القبلي ٢٣
ابو الربيع الفرسطائي ١٥٤
ابو الربيع الحيلاتي ١٧٨، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦١، ٣٠٣، ٣٩٠، ٤٠٨، ٤١٠، ٤١٢، ٤٢٤
ابو الربيع زرقون ٥١، ٦٠
ابو الربيع الصدغياني ١٩٧
ابو الربيع بن عبدالله ٤٢٥
ابو الربيع بن علي ١٣٠، ١٣١، ١٣٢
ابو الربيع بن اليونسي ١٩٦
ابو الربيع بن ماطوس ٩٣

ابو الربيع السمومني ١٧٥ ، ٢٥٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢
ابو الربيع بن يخلف ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤
ابو الربيع الوسياني ١٩٤
ابو زكريا الحفصي ٢٣٥
ابو زكرياء السمومني ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ ، ٣٦٨ ، ٤٢٣
ابو زكرياء الباروني ١٥٧
ابو زكرياء فصيل ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٨
ابو زكرياء اللحياني ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٦٦ ، ٣٢٥
ابو زكرياء بن صالح ١٩٩
ابو زكرياء الوسلاتي ٣٥٤
ابو زيد الصدغياني ٢٢٥
ابو ساكس الشماخي ١٥١ ، ١٩٢
ابو سليمان التلاتي ١٥٧ ، ١٦١ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٦٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢٦
ابو صالح جنون ٨٩ ، ٩٠
ابو صالح اليهراسني ٥٩ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٢٢
ابو طاهر الحيطالي ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٣٤١
ابو عبدالله ابو راس ٨٢ ، ٨٣ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٧٠ ، ٣٠٢ ، ٤١١
ابو عبدالله بن أبي سته ١٦٢ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦
ابو عبدالله البرادي ١٥٤
ابو عبدالله الصدغياني ١٥٢

ابو عبدالله المصعبي ٢٠٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤
ابو عبدالله بن بكر ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧
١٤٠ ، ٣٥٤
ابو عبدالله الباروني ١٠٣ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٩٤ ، ٣٠١
ابو عبدالله الشيعي ٦٨
ابو عبدالله النفطي ١٢٨
ابو عبيده مسلم ٢٣ ، ٢٩ ، ٤١
ابو العباس الدرجيني ٧٢، ٧٥ ، ٩٩، ١٠٣، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٢٤
١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١
١٤٣ ، ١٥٢ ، ١٩٤ ،
ابو العباس التلاتي ٢٠٠
ابو العباس الشماخي ٣٣ ، ٤٣ ، ٧١ ، ٨٢ ، ١١٧ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٤
١٩٢ ، ١٩٤
ابو العباس بن ابي عبدالله ١٩٢ ، ٣٥٤
ابو عثمان الثغرويسني ٤٢٤ ، ٤٢٥
ابو عفيف صالح بن نوح ١٩٣
ابو علي النفطي ١٢٨
ابو عمار عبد الكافي ١٩٤
ابو عمرو النميلي ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ٢٢٢ ، ٣٦٦
ابو فارس عزوز ١٥٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ٢٨٦
٢٩٨ ، ٣٩٩
ابو الفضل البرادي ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٩٤
ابو الفضل الصدغياني ١٩٧
ابو الفضل الشماخي ٤٢٤
ابو الفلاح الهواري ٤٢٤ ، ٤٢٥

ابو القاسم القمودي ١٢٩ ، ١٣٠
ابو القاسم السدويكشي ١٥٧ ، ٣٩٠
ابو القاسم بن مخلد ٥١ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٨ ٨٥ ، ٣٦٦
ابو محمد البرادي ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ١٦٣
ابو محمد جمال المزاتي ٧١ ، ٧٥ ، ٧٨
ابو محمد مانوج اللهائي ١٢١ ، ١٢٦
ابو محمد كموس ١٠٦ ، ٢٢٢ ، ٣٦٦
ابو محمد السدويكشي ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦
ابو محمد ويسلان ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢
ابو محمد يوجين ١١٣
ابو مسوريسي ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٩٧ ، ١٢٢ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٩٢
ابو مسوريصنيتن ٨٢ ، ٨٣
ابو معروف جواه ٨٠ ، ٨٣
ابو منصور الياس ١٥٨
ابو مهاصر بن جعفر ١٠٠
ابو موسى الزواغي ١٠٦ ، ١٢٢ ، ٣٦٦
ابو مهدي المليكى ١٥٧
ابو نوح بن زنغيل ٥٣ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٨٥ ٩١ ، ١١٣
ابو نصر فتح بن نوح ٢٠٠
ابو النجاة التعريتي ١٥٦ ، ١٦٣ ١٧١ ، ١٧٣ ١٩٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥
ابو يخلف النفوسي ٩٦
ابو يزيد بن كيدار ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٩
ابو يعقوب بن ابراهيم ١٥٢
ابو يعقوب بن يدر ١٢٠
ابو يعقوب المصعبي ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٣٩١

ابو اليقظان ابراهيم ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٩١
ابو يحي بن ابي بكر ١٤٠
ابو يحي بن ابراهيم ١٥٧
ابو يحي بن افلح ١٥٦ ، ١٦٣ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥
ابو يوسف بن ابي عبدالله ١٣٦ ، ١٣٧
ابو يوسف بن ابي صالح ١٥٨
احمد بن ابي سته ١٩٦
احمد بن حسين الحفصي ٢٩٥ ، ٣٠٢
احمد القره مائلي ٣٠٨ ، ٤١٢
احمد بن ابي الجلود ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٤١٢
الغاية ٥٦ ، ٥٧
افلح بن عبد الوهاب ١٥٨

- ب -

البجيرى ١٥٤
بدور نافورو ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
البغطوري ١٩٤
بلكين الصنهاجي ٦٣ ، ٨٩
بياضة بن عزون ١٣١

- ت -

تبغورين بن عيسى ١٩٢
التجاني ابو محمد ١٧٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥
٣٨٦

- ج -

جابر بن زيد ٣٠
جرير بن مسعود ٤٦
جعفر الوسلاتي ٣٥٤

- ح -

الحباب بن المنذر ٢٦٩
حبيب ٣٣
الحجاج ٣٩
حسن حسني عبد الوهاب ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣
حسن الصنهاجي ٢٣٤
حسنون بن ايوب ٥١
حسين الشيخ ١٥٤
حسين بن علي بابي ٣٨١ ، ٤١١
الحسن البصرى ٢٩
حمودة باشا ٣١١ ، ٢١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣١٧
حميدة بن قاسم ٣١١

- خ -

خلف النكاري ٧٨ ، ٧٩
خير الدين ٢٩٤

- د -

درغوث بن علي ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٤ ، ٢٨٩

٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦، ٢٩٧ ، ٢٩٨، ٢٩٩
٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٥، ٤٠٠

داود اللمائي ١٢٤
دوق هوجودي منكادا ٢٧٩ ، ٢٨١
دوق قراشيا ٢٦٤ ، ٢٨٠
دياقو دي فيرا ٢٨٠

— ر —

الربيع بن حبيب ١٩٢
رمضان الليني ٤٢٨
روجار ٢٣٢
رويفع الانصاري ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٣

— ز —

زائد بن عمر اللوغ ٤٢٤ ، ٤٢٦
زروق ٣٩٣
الزهري ٢٩
زيري بن كملين ٩٦ ، ١٠٠
زينب بنت ابي الحسن ١١٥ ، ١١٦

— س —

سالم أذروم ٣٠٣
سعيد التعاريتي ١٧٧ ، ١٨٠، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١
٣٠٤ ، ٤١٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨
سعيد الجادوى ١٩٩

سعيد البجلودي ٤١١ ، ٤١٣
سعيد بن جبير ٢٢٩
سعيد بن سليمان يخلف ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤
سعيد بن علي الخيري ١٥٧ ، ١٦٣
سعيد بن المسيب ٢٢٩
سعيد بن عبد السلام ١١٧
سعيد بن علي يامون ٤٢٣ ، ٤٢٥
سلمة بن سعد ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٧
سلامة الجناوني ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٩٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٤٢٤
سليمان البارروني ١٩٩
سليمان الجادوي ٤٢٨
سنان ٢٩٤

- ش -

شعبان الفنوشي ٢٠١

- ص -

صالح السمومني ٤٢٦

- ع -

عاصم ٤٣
عبد الرحمن بن أبي الجلود ٤٠٩ ، ٤١٣
عبد الرحمن بن رستم ٢٣ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٢١٠
عبد الغني الوسلاني ٣٥٤

عبدالله البرجي ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٤ ، ٣٠٥
عبد الملك الورفجومي ٣٤ ، ٣٥
عبد المؤمن بن علي ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٨٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩
عبد الوهاب بن رستم ٨٣
العزابة ٤٩ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
عقبة بن نافع ١٧
علي بن أبي طالب ١٢٩
علي باشا برغل ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧
علي الجزيري ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٧
علي باشا عسكر ٣٧٦
علي باشا صاحب تونس ٣٠٩
علي بن مراد باي ٤٠٨ ، ٤٠٩
علي باشا محمد ٤١١ ، ٤١٢
علي بن سليمان الداعي ١١٠ ، ٢١٧
علي بن يخلف ١٢٥ ، ١٢٨
عمر الباروني ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
عمر بن زرعة النفطي ١٢٩
عمرو بن العاص ١٧
عمر بن عبد العزيز ٣٤
عمر بن مرزوق ٤٢٨
عمر العوام ٤٢٨
عمرو بن موسى البجلودي ٣٠٥ ، ٣٠٧
عمر الويراني ١٩٩
عمروس الزواغي ١٢٦

عبود بن منار المزاتي ١٢٥

— غ —

غرنولت ٤٠٥

— ف —

الفهمي الاعمى ٣٦٩، ٣٧١

— ق —

قاسم بن سعيد اليونسي ٤٢٣
قره عثمان ٣٠٥، ٣٠٧
قره مانلي ٣١١، ٣١٢
قره مصطفى ٤١١
قره محمد ٣١١، ٣١٢، ٣١٧
قطب الأئمة ٣٩٣

— ل —

ليوفسكي ٤٧

— م —

مالك بن آنس ٣٩٤
مخلوف بن الكماد ٢٣٧
ماكسن بن الخير ١٢٥
مراد آغا ٢٩٤
معاوية بن ابي سفيان ١٧، ٢٠٧
معاوية بن خديج ١٧

المعزبن باديس ٦٣ ، ٩٤ ، ١١١ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧٨
المعز الفاطمي ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ٣٧٠
مسعود السمومني ١٧٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣
منصور بن بلكين ٩٠ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩
محمد بن احمد العبار ٣٨١
محمد المرزوقي ٣٦ ، ٤٧ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٤ ، ٤٠٥
محمد بن عبد العزيز ١٥٩
محمود الجلولي ٣١١
مصطفى بن حسن الكبير ٣١٣
مصطفى خواجه ٣١٢
موسى بن صالح البجلودي ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٤١٢
موسى بن عمر البجلودي ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥
مولاهم بن علي ١٤٣
ميمون بن احمد المزاتي ١٤٣
مكرم الورفجومي ٣٣
مكاريوس ٣٤٥
محمد بن مراد باي ٤٠٩
محمد العبدري ٣٨٤
محمد بن تعاريت ٤٢٨
موسى بن محمد الشريف ٣٨٤
محمد على دبوز ١٣

— ه —

هيلاسلاسي ٣٤٦

— و —

الوليد بن عقبة ٣٨٢

ويسلان اليهرانسي ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١

— ي —

يخلف بن يخلف التميجاري ١٢٧

يزيد بن حاتم ٤٦

يزيد الزواغي ١٤٠

اليقظان ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨

يونس بن فصيل ١٠٨

يونس بن علي ٣٠٨

فهرس البلدان والاماكن

- أ -

آجلو ١١٧ ، ١١٨ ، ٣٥٤
آجيم ٣٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣
أريغ ٦٠ ، ٧٨ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ٣٥٣
إزارن ٩٣
اسبانيا ٢٤٥ ، ٢٧٩ ، ٣١٨
افريقيا ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٦٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٤٩ ، ٢٠٨
الاندلس ٦٠
امسنان ١١٨
اوروبا ٢٤٥
ايطاليا ٢٣٤

- ب -

بدر ١٧٠ ، ٢٦٩ ، ٣٩٧
بجاية ١٦٦ ، ٣٩٥

برج الجماجم ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٣٩٨
البصرة ٢٣ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١
بغاي ٨٥ ، ٨٨

- ت -

تاهوت ٤٨ ، ٤٩
تاجموت ٣٠٦ ، ٤١٠ ، ٤١٢
تاربلة ٢٤٢ ، ٣٠٨
تالة ١٦٩
تبلبو ٣٦٧
ترشيش ١٣ ، ١٤
تميجار ١٢٧
توزر ٤٧ ، ٢٨٦
تونس في سائر الكتاب
تفروجين ١٤٩

- ج -

جامع أبي داود ١٥٩
جبل دمر ٦٠ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ٢٠٤ ، ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٨٨
جبل سوفجج ٤٩
جبل نفوسة ٤٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٤١٤

جبل وسلاق ٤٨ ، ٢٠٤ ، ٣٥٤
جرجيس ٢٠٧
جربة في سائر الكتاب
الجريد ٤٧ ، ٦٠ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ٢٠٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٩٣ ، ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٦٩ ، ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٤١٣
الجزائر ١٤ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٩١ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٩٢ ، ٣٩١
الجمهورية التونسية في سائر الكتاب
جناون ١٥٨

— ح —

الحامة ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٢٠٤ ، ٢٨٦ ، ٣٣٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٨٨
الحبشة ٣٤٦
الحوايا ٣٦٩
حومة بركوك ١٥٩

— خ —

خيبر ٢٠٧

— د —

الدويرات ٣٦٩
درجين ٤٧ ، ٥٠ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٤٣ ، ٢٠٤

ريصوا ٦٥ ، ٦٦

— ز —

الزاب ٦٠
الزارات ٤١٣
زككوت ٤١٢
زنجبار ٣٤٦ ، ٤٤٧
زوارة ٣٨٤
زواغة ٦٩ ، ٧٨ ، ٣٨٤
زويلة بن خطاب ٩١
زغوان ٤٨
الزيتونة ١٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩

— س —

سجلماسة ٥٢

— ش —

شمال افريقيا ٢٩٩

— ص —

صفاقين ٢٧٥ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٤٠٥
صقلية ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٧٩

— ط —

طرابلس في سائر الكتاب
طره ٣٦٨

- ع -

العراق ٢٣ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٦٣
عمان ٣٨

- غ -

غارا مجماج ١١١
غارداية ١٥٧
غمراسن ٢٨٦ ، ٣٣٦ ، ٣٦٩
غيزان ٤٢٥

- ف -

فارس ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١
فرنسا ٢٩١ ، ٢٩٢
فزان ٩١
فطناسة ٤٧

- ق -

قابس ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٨٩ ، ٢٠٤ ، ٢٨٦ ، ٣٢٢ ، ٣٦٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٥ ، ٤٠٥ ، ٤١٣
القادسية ١٧٠
القاهرة ٦٢ ، ٨٩
قبلي ٢٣
قربض ٥١

القرن ١٧
قرقنة ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩
قصطالية ٥٠ ، ٢٠٤
قشتيل ٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥
قصر مسعود ٢٥٩
قرطاجنة ١٣
قفصة ٣٦٩
القيروان ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ١٠٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٦٠ ، ٣٠٩ ، ٣٣٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٩ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢

ـ ك ـ

كباو ٣٥٤
كشمير ٣٤٦ ، ٣٤٧
كنومة ١١٣

ـ ل ـ

لمبدوشا ٢٧٤
لواتة ٢١٧
ليبيا ١٤ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ١١٦ ، ١٦٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٩٣ ، ٣٣٧

ـ م ـ

مانوا ٢١٥

مالطة ٢٤٦
مالي ١٢٨ ، ١٢٩
مجزم ٣٦٦
مدين ٧٢
مراكش ١٧٠
المرسى الكبير ١٦٦
مصر ١٧، ٢١، ٦٢، ٨٥، ٢٠٠
مطماطة ٤٧ ، ٣٣٦ ، ٤١٣
المطوية ٤١٣
المغرب الاقصى ٢٤٦ ، ٢٩٢
مكة المكرمة ٣٧ ، ٣٩
مليكة ١٩٩
المهديـــة ٤٩، ٢١٣، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤
مؤتـــه ١٧٠ ، ٣٩٧

– ن –

نفزاوة ٤٧ ، ٤٩
نفطـــة ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٨٦
نفوسة ٤٨ ، ٧٩ ، ١٥٧

– هـ –

الهند ٣٤٦
هوارة ٤٨

– و –

وادي الزبيب ٤٢٢

وادي ميزاب ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٩٩ ، ٣٥٣ ، ٤١٤
وارجلان ٦٠ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٣٥٣

- ي -

اليرموك ١٧٠ ، ٣٩٧
اليمامة ١٧٠

فهرس المواضيع

المقدمة	٧
تونس	١٣
القيروان	١٧
دخول المذهب الاباضي الى تونس	٢١
اسباب الثورات	٢٥
ابو الخطاب في القيروان	٣٣
عبد الرحمن بن رستم	٣٧
ابو حاتم الملزوزي	٤٥
فترة انتقالية	٤٧
ابو القاسم يزيد بن مخلد	٥١
ابو خزر يغلا بن أيوب	٥٩
ابو الخطاب وسيل بن سنتين	٦٥
ابو محمد جمال المزاتي	٧١
ابو مسور اليهراسني	٧٧
ابو نوح سعيد بن زنغيل	٨٥
ابو صالح اليهراسني	٩٣
ابو زكرياء فصيل بن ابي مسور	١٠٣

ابو عمرو النميلي	١٠٩
ابو الخطاب عبد السلام بن منظور	١١٣
ابو محمد عبدالله بن مانوج اللماثي	١٢١
اسرة يخلف بن يخلف	١٢٧
ابو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي	١٣٥
ميمون بن احمد المزاتي	١٤٣
ابو حفص عمر بن جميع	١٤٧
أسرة البرادي	١٥١
ابو سليمان الثلاثي	١٥٧
ابو النجاة يونس بن سعيد	١٦٣
ابو زكرياء السمومني	١٧٣
ابو يعقوب يوسف بن ابي مسور	١٧٧
ابو محمد عبدالله السيد ويكشي	١٨٣
ابو عبدالله بن ابي ستة	١٨٩
ابو الربيع بن احمد الحيلاتي	١٩٣
ابو يعقوب يوسف المصعبي	١٩٩
ايضاح وبيان	٢٠٢
جربة بعد الفتح الاسلامي (الفترة الاولى)	٢٠٧
جربة في العهد الاسلامي (الفترة الثانية)	٢١٥
جربة في العهد الاسلامي (الفترة الثالثة)	٢٢١
خلاصة هذا العهد	٢٢٩
عهد الجهاد في سبيل الله	٢٣١
كفاح الاستعمار الصليبي	٢٣٣
برج الجماجم	٢٣٩
يوم من ايام الاسلام على الصليبية	٢٤٥

اصداء هذه الحادثة	٢٥٧
حقيقة وخيال	٢٦٣
أثر معركة جربة	٢٧٣
تجربة اخرى	٢٧٩
التبعية الاسلامية	٢٨٣
خلاصة هذا العهد	٢٨٩
عهد الدخول في الجامعة الاسلامية	٢٩١
ظلم ذوي القربى	٢٩٣
اراء المؤرخين في جروب درغوث	٣٠١
رجوع جربة الى تونس	٣٠٧
جربة تعود الى طرابلس	٣١١
خلاصة هذا العهد	٣١٥
كفاح الاباضية للانحراف	٣٢١
الكفاح لاقامة دين الله	٣٢٥
كفاح الرذيلة	٣٣٣
كفاح الجهل بدين الله	٣٤٩
كفاح البدعة	٣٥٧
كفاح السلطة الظالمة	٣٦٥
كفاح التعصب المذهبي	٣٧٥
كفاح الصليبية الحانقة	٣٩٥
أثر الكفاح على اهل جربة	٤٠١
العهد الثالث	٤٠٧
المجامع العلمية	٤٢١
كلمة الختام	٤٣٠

مراجع الكتاب ٤٣١
فهرس الاعلام ٤٣٥
فهرس البلدان والاماكن ٤٤٩
فهرس المواضيع ٤٥٧
جدول الخطأ والصواب

الخطأ والصواب

فاتتنا اثناء التصحيح عدة اخطاء نترك اكثرها لفطنة القارىء الكريم ونرجو ان يصحح منها ما يلي :

١ = سلمة بن سعد في كل مكان ورد فيه سعد بن سلمة .

٢ = البلاد التونسية في كل مكان ورد فيه المملكة التونسية .

٣ = ابو زكريا فصيل بن ابي مسور في عنوان الصفحة ـ ١٠٣ ـ

٤ = المعز لدين الله الفاطمي بدلاً من المعز بن باديس في الصفحة ـ ٦١ ـ سطر ـ ١٨ ـ وفي الصفحة ـ ٦٢ ـ سطر ـ ٣ ـ .